

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة العلوم الإسلامية العالمية
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

تفسير الآيات الكونية عند ابن

عاشور

في

التحرير والتنوير

إعداد

أحمد إبراهيم عبد الله عابنه

إشراف

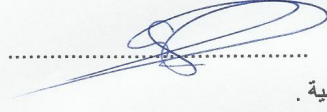
الدكتور أحمد سليمان البشايره

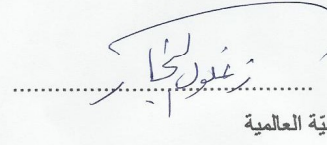
قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في تخصص التفسير

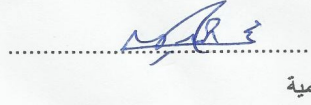
وعلوم القرآن الكريم في جامعة العلوم الإسلامية العالمية

نوقشت هذه الرسالة
" تفسير الآيات الكونية عند ابن عاشور في التحرير والتنوير "
وأجيزت في ٢٠١١/٦/٢م

إعداد
أحمد إبراهيم عابنه
دكتوراه التفسير وعلوم القرآن


.....
الدكتور أحمد سليمان البشاريه ، رئيساً
أستاذ في التفسير ، جامعة العلوم الإسلامية العالمية .


.....
الأستاذ الدكتور زغلول النجار، عضواً
أستاذ في التفسير العلمي ، جامعة العلوم الإسلامية العالمية


.....
الأستاذ الدكتور محمد الكردي ، عضواً
أستاذ في التفسير ، جامعة العلوم الإسلامية العالمية


.....
الأستاذ الدكتور أحمد شكري ، عضواً
أستاذ في التفسير ، الجامعة الأردنية .

الإهداء . . .

إلى روح أُمي الغالية التي طالما أوصتني بالقرآن والعلم ، وإلى الوالد العزيز . . .

إلى زوجتي المخلصة التي كانت عوناً لي في طلب العلم ، بل في أموري بأسرها
فأعانت وصبرت . . .

إلى ولدي الحبيب و بنتي الغالية . . .

إلى إخواني وأخواتي . . .

أهدي رسالتي هذه . . .

الشكر والتقدير . . .

بعد الشكر لله تعالى الذي له الحمد والمئة ؛ أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي
الفاضل الدكتور أحمد البشايره ، الذي ما جالسته إلا رأيت العلم والحلم وسمت
العلماء . . .

كما أتقدم بالشكر إلى السادة العلماء أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بقبول
مناقشة هذه الرسالة . . .

ولا أنسى بعد ذلك توجيه الشكر إلى الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم التي
كنت مبعوثاً على نفقتها في مرحلة الدكتوراه بالتعاون مع جمعية المحافظة على
القرآن الكريم . . .

ثمّ إنني أشكر كل من أسهم في إتمام هذا العمل ولو بفكرة . . .

قائمة المحتويات :

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء . . .
د	الشكر والتقدير . . .
هـ	قائمة المحتويات
ي	الملخص
ل	المقدمة . . .
١	التمهيد . . .
٢٦	الباب الأول : تفسير آيات خلق السماوات وما فيها
٢٧	الفصل الأول : تفسير آيات خلق السماوات
٢٨	المبحث الأول : معنى السماوات لغة واصطلاحاً
٢٨	المطلب الأول : معنى السماء لغة
٢٩	المطلب الثاني: استعمالات القرآن للفظ " السماء "
٣٢	المطلب الثالث : المراد بالسماوات السبع
٣٧	المبحث الثاني : كيفية الخلق والمراد بفتق الرتق
٤٥	المبحث الثالث : أيهما أسبق في الخلق ، السماء أم الأرض
٤٩	المبحث الرابع : مدة خلق السماء
٥٣	الفصل الثاني : أوصاف السماء في القرآن
٥٤	المبحث الأول : السماء بناء
٦٠	المبحث الثاني : السماء سقف محفوظ ومرفوع
٦٦	المبحث الثالث : السماوات السبع طباق وشداد
٦٨	المبحث الرابع : السماء ذات حبك وذات بروج وذات رجع
٦٨	المطلب الأول : حبك السماء
٧١	المطلب الثاني : بروج السماء
٧٤	المطلب الثالث : رجع السماء
٧٥	الفصل الثالث : تفسير آيات الشمس والقمر في القرآن
٧٦	المبحث الأول : آية الشمس

٧٦	المطلب الأول : حركة الشمس ومستقرها
٨٤	المطلب الثاني : الشمس ضياء وسراج
٨٦	المبحث الثاني : آية القمر
٨٦	المطلب الأول : تفسير منازل القمر وحركته
٨٩	المطلب الثاني : انشقاق القمر
٩٢	الفصل الرابع : تفسير آيات النجوم و الكواكب والشهب
٩٣	المبحث الأول : النجوم
٩٣	المطلب الأول : مواقع النجوم
٩٦	المطلب الثاني : الخنس الجواري الكنس
٩٩	المبحث الثاني : الكواكب
١٠٣	المبحث الثالث : الشهب
١٠٧	الباب الثاني : تفسير آيات الأرض وما فيها
١٠٨	الفصل الأول : خلق الأرض وأوصافها
١٠٩	المبحث الأول : خلق الأرض
١١٣	المبحث الثاني : من أوصاف الأرض
١١٣	المطلب الأول : وصف الأرض بالمهاد والفراش ونظائرها من الألفاظ
١١٧	المطلب الثاني : وصف الأرض بالقرار
١٢٠	المطلب الثالث : الأرضون السبع
١٢٤	المطلب الرابع : وصف الأرض بذات الصدع
١٢٦	المطلب الخامس : كروية الأرض
١٢٨	المبحث الثالث : من ظواهر الأرض
١٢٨	المطلب الأول : ظاهرة الليل والنهار
١٣٥	المطلب الثاني : ظاهرة المشارق والمغرب
١٣٨	المطلب الثالث : ظاهرة الظل
١٤٠	المطلب الرابع : ظاهرة الشفق
١٤١	الفصل الثاني : تفسير آيات الجبال
١٤٢	المبحث الأول : خلق الجبال وحكمته
١٤٢	المطلب الأول : خلق الجبال ودلالة الألفاظ التي وضعت له

١٤٥	المطلب الثاني : حكمة خلق الجبال
١٤٨	المبحث الثاني : مرور الجبال كمر السحاب ودلالته
١٥١	المبحث الثالث : ألوان الجبال
١٥٣	الفصل الثالث : تفسير آيات البحار
١٥٤	المبحث الأول : تسخير البحر ومظاهره
١٥٤	المطلب الأول : تكوين البحر وفوائده
١٥٨	المطلب الثاني : استخراج الحلية واللحم الطري
١٦٢	المبحث الثاني : أمواج البحر وظلماته
١٦٤	المبحث الثالث : البرازخ المائية
١٦٨	المبحث الرابع : البحر المسجور
١٧٠	الفصل الرابع : الظواهر الجوية والقضايا العلمية المتعلقة بالمياه
١٧١	المبحث الأول : تشكل المطر وكيفيته
١٧٧	المبحث الثاني : ظاهرة الصواعق والبرق والرعد
١٨٠	المبحث الثالث : الرياح وفوائدها
١٨٥	المبحث الرابع : السحب وأنواعها
١٩١	المبحث الخامس: مصير مياه الأمطار
١٩٤	الباب الثالث : تفسير الآيات العلمية المتعلقة بالكائنات الحيّة غير الإنسان (النباتات والحيوانات والطيور والحشرات)
١٩٤	الفصل الأوّل : تفسير آيات النباتات
١٩٥	المبحث الأول : بعض العوامل المؤثرة في النباتات
١٩٥	المطلب الأول : طبيعة الأرض
١٩٨	المطلب الثاني : العوامل الوراثية
١٩٩	المطلب الثالث : الرياح وأثرها في تلقيح النباتات
٢٠١	المبحث الثاني : بعض النباتات والأشجار المذكورة في القرآن الكريم
٢٠١	المطلب الأول : المن و الخردل
٢٠٣	المطلب الثاني : الزيتون
٢٠٩	المطلب الثالث : التين
٢١٠	المبحث الثالث : ذكر بعض القضايا المتناثرة في النبات

٢١٣	الفصل الثاني : خصائص بعض الحيوانات وعجائب خلقتها
٢١٤	المبحث الأول : ما يؤكل غالباً
٢١٤	المطلب الأول : الأنعام وإخراج اللبن السائغ من ضروعها
٢١٧	المطلب الثاني : الحوت
٢١٨	المطلب الثالث : الخيل
٢٢٠	المطلب الرابع : الإبل وعجائب خلقتها
٢٢٢	المبحث الثاني : ما لا يؤكل لحمه غالباً
٢٢٢	المطلب الأول : الكلاب وسر لهاثها
٢٢٤	المطلب الثاني : اللؤلؤ
٢٢٥	الفصل الثالث : تفسير آيات الطيور
٢٢٦	المبحث الأول : آية إمساك الطير في جو السماء
٢٢٩	المبحث الثاني : الغراب وطبائعه الخلقية
٢٣١	المبحث الثالث : طائر الهدد
٢٣٢	الفصل الرابع : تفسير آيات الحشرات
٢٣٣	المبحث الأول : البعوضة وما فيها من أسرار
٢٣٥	المبحث الثاني : النحل
٢٤٤	المبحث الثالث : النمل
٢٤٦	المبحث الرابع : العنكبوت
٢٤٧	المبحث الخامس : الجراد والفراش
٢٤٩	الباب الرابع : تفسير آيات خلق الأنفس عند ابن عاشور
٢٥٠	الفصل الأول : خلق الإنسان في القرآن
٢٥١	المبحث الأول : بيان أطوار خلق أصل الإنسان (آدم عليه السلام)
٢٥١	المطلب الأول : التراب
٢٥٤	المطلب الثاني : الطين والطين اللازب
٢٥٧	المطلب الثالث : الحمأ المسنون والصلصال
٢٥٩	المطلب الرابع : التسوية والتصوير ونفخ الروح
٢٦٤	المبحث الثاني : بيان أطوار خلق الذرية
٢٦٤	المطلب الأول : النطفة وبداية الحمل

٢٨٠	المطلب الثاني : العلقه
٢٨٣	المطلب الثالث : المضغه (مخلقة وغير مخلقة) وتقلباتها
٢٨٧	المطلب الرابع : الخلق الآخر وتيسير السبيل
٢٩٠	المطلب الخامس : الظلمات الثلاث
٢٩٢	الفصل الثاني : خصائص بعض أجزاء جسم الإنسان وبعض ما يطراً عليه من أحوال .
٢٩٣	المبحث الأول : خصائص بعض أجزاء جسم الإنسان
٣٠٦	المبحث الثاني : بعض ما يطراً على الإنسان من أحوال
٣١١	الفصل الثالث : بعض الحكم العلمية للتشريعات القرآنية
٣١٢	المبحث الأول : بعض الحكم العلمية للأطعمة والأشربة المحرمة
٣١٢	المطلب الأول : تحريم الميتة وأصنافها
٣١٨	المطلب الثاني : تحريم الدم ولحم الخنزير والخمر
٣٢٥	المطلب الثالث : النهي عن الإسراف في الطعام والشراب
٣٢٦	المبحث الثاني : الحكم العلمية لبعض السلوكيات المأمور بها أو المنهي عنها
٣٢٦	المطلب الأول : إتيان النساء في المحيض
٣٢٨	المطلب الثاني : الأمر بالرضاعة الطبيعية
٣٣١	المطلب الثالث : الوضوء والغسل
٣٣٣	المطلب الرابع : تحريم اللواط

المخلص . . .

عبابنه ، أحمد إبراهيم . تفسير الآيات الكونية عند ابن عاشور في " التحرير والتنوير " ، رسالة دكتوراه في جامعة العلوم الإسلامية العالمية ، ٢٠١١م (المشرف : د. أحمد سليمان البشايره).

تأتي هذه الدراسة لتبرز جهد الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في تفسير الآيات الكونية ؛ ذلك أنّ تفسيره لها احتوى بعض القضايا العلميّة التي استحققت الدراسة ، أسير معه كاشفاً ومبرزاً هذه القضايا والتفسيرات في ضوء العلوم الحديثة فضلاً عن موافقته للغة والأثر ، علماً بأنّ الطاهر ابن عاشور قد لفت الأنظار في المقدّمة العاشرة من مقدماته إلى الجانب العلمي في القرآن وعدهً وجهاً من وجوه الإعجاز مؤصلاً لذلك بأدلة ذاكراً منهجه في عرض هذا الجانب ، ثمّ سار بعد ذلك في تفسيره وكلمها وجد آية كونيّة فسّرها في ضوء ما عرف لديه من علوم ، والشيوخ من المعاصرين الذين أدركوا اكتشافات العلم الحديث ، فضلاً عن أنه من أهل الاختصاص بالعلوم الشرعية على رأسها التفسير ؛ ولهذا أو ذاك أهميّة في دراسة هذا الجانب عند هذا العالم الموسوعي .

تكمن أهمية الدراسة في أنها دراسة اعتمدت على الاستقراء ثمّ التحليل والنقد ؛ حيث تمّ استقراء تفسير ابن عاشور كاملاً ثمّ إفراد تفسير الآيات الكونيّة بالدراسة التحليلية النقدية في ضوء العلم واللغة والأثر، والوقوف عند دلالة المفردة القرآنية وأثرها في التفسير العلمي وبالتالي البعد عن الإفراط أو التفريط في منهج دراسة التفسير العلمي للقرآن الكريم ، تجيء الدراسة في زمن أصبحت الحاجة ملحة لإبراز إعجاز القرآن الكريم في جوانب يفهمها العالم بأسره ويأنس بها من ضَعَفَت لغته من العرب المسلمين . وفي زمن برزت فيه كثير من التفاسير العلمية التي حملت القرآن ما لا يحتمل وأقحمتها أفهاماً بعيدة فضلاً عن عدم صحتها أحياناً .

وقد جاءت هذه الرسالة في تمهيد عرفّ بالطاهر ابن عاشور وتفسيره ، ثمّ جعل الباب الأوّل للحديث عن السماوات وأوصافها وموجوداتها واحتوى على فصول الأوّل جرى الكلام فيه حول معنى السماوات وخلقها ومدته والثاني تناول أوصافها والثالث تناول الشمس والقمر وما فيهما من آيات والرابع جرى الكلام فيه حول الكواكب والشهب والنجوم .

والباب الثاني جعل للحديث عن الأرض وخلقها وما فيها ، وفصوله كان الأوّل قد تناول الحديث عن خلق الأرض و أوصافها واختلاف أحوالها ، والثاني تناول الحديث عن الجبال كخلقها وألوانها ومرورها كمر السحاب ودلالاته والثالث كان عن البحار والمياه وتناول قضايا

متعدده فيها، كوجوه تسخيرها للناس وأمواجها وبرازخها ، والرابع عن القضايا الجوية وبعض ما يتعلق بالمياه .

أما الباب الثالث فكان عن آيات علمية متعلقة بالنباتات والحيوانات والطيور والحشرات ، فالفصل الأول جرى الكلام فيه عن بعض القضايا العلمية المتعلقة بالنباتات كبعض العوامل المؤثرة فيها وبعض الأصناف من النبات وفوائدها وخصائصها وبعض القضايا المتناثرة في هذا الجانب . والفصل الثاني فيه قضايا متعلقة ببعض الحيوانات مما يؤكل لحمه غالباً وما لا يؤكل ، والثالث على بعض القضايا المتعلقة بالطيور كسبرٍ إمساكها في السماء و الحديث عن خصوصية بعض الطيور بمميزات حباها الله تعالى إياها، والرابع عن الحشرات كالنحل والنمل والفراش...

أما الباب الرابع كان عن خلق الإنسان و احتوى عدة فصول : كان الأوّل عن خلق الإنسان الأصل والفرع وأطوار كلّ منهما ، والثاني عن خصائص بعض أجزاء جسم الإنسان وبعض ما يطرأ عليه من أحوال وفيه قضايا متعددة متنوّعة ، والثالث جرى فيه الكلام على بعض الحكم العلميّة للتشريعات القرآنيّة في الأطعمة والأشربة وكذا السلوكيات .

وجاءت الخاتمة متضمّنة نتائج مهمّة تلتها توصيات توصّل إليها الباحث لعلها تكون مثار بحث قادم ، ودراسات مستقبليّة .

المقدمة . . .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [١] الأنعام ، سبحانه ؛ تكاد

الرواسي من كلامه تمور ، أنزل كتابا معجزا مقروءا بقدرته ، وخلق كونا باهرا منظورا يدل على عظمته ، وضمن آيات الكتاب حقائق الكون ؛ فكان الإعجاز أكثر من وجه ونوع ولون ، أعجز البلغاء والعلماء ولم يملوه ، حتى ولو لم يُظهروا فبلسان حالهم قالوه .
وأصلي وأسلم على من أرسل للعالمين بشيرا ونذيرا ، وأيد بالمعجزات الباهرات تأييدا ، خاتم الأنبياء ، ومورث العلم للعلماء ، من وكل إليه بيان آيات الكتاب ، وعلم أسرار الكون في ذلك الزمان ولم تعرف لها عنه احتجاب ، من إذا نطق أفهم ، وإذا حاجج أفحم ، صلى الله عليه وسلم ما هبت للصباء النسائم ؛ أو هدلت على أيكها الحمائم . وبعد ...

فإن القرآن الكريم هو كتاب هداية وإعجاز للبشرية جمعاء ، وقد أجمع العلماء على أن وجه الإعجاز الذي ينتظم القرآن جميعا هو الإعجاز البياني ، وقد أدرك معالم ذلك الإعجاز العرب الخالص وأبناؤهم ، لكن العصر قد تغير وحملات المشككين على القرآن تترا ، وقد أودع في القرآن من الأسرار والإعجاز ما يفحم متكبريهم ويهدي تائهيم ، فضلا عن تثبيت قلوب المؤمنين .

نعم ، قد أنزل الله تعالى في القرآن آيات في الأنفس والآفاق ، شاهدة على صدقه ، يجيء العلم الحديث ليبج إعجازها شيئا فشيئا ، حتى تتضح معالمها للناس وتكتمل صورتها الناصعة المعجزة .

كثيرة هي الآيات الكونية في القرآن الكريم الذي أمرنا الله بتدبره وفهمه ، ولكي يكتمل الفهم والتدبر لا بد من فهم مضمون تلك الآيات وما أشارت إليه من حقائق بحسب ما فتح الله على أهل كل زمان من فهم حقائق الكون ، ومعلوم " أننا في عصر التقدم العلمي فلماذا لا يجعل هذا التقدم وسيلة للكشف عن إحكام الآيات الكونية ؟ ولا أقصد أن تفسر تلك الآيات بمنأى عن معطيات الآية اللغوية ولا تفسرها المنقول بل أن يُسار بتلك الحقائق بما يوافق اللغة والأثر .

وتأتي هذه الدراسة لتبرز جهداً مميزاً لمفسر جليل عُرف بموسوعيته التي يدركها القارئ في تفسير " التحرير والتنوير " الذي كان بحق موسوعة تفسيرية قيمة ، وهو للشيخ الإمام ابن عاشور . رحمه الله - ، أسير معه كاشفا ومبرزا للتفسير العلمي للآيات الكونية . فالشيخ من

المعاصرين الذين أدركوا اكتشافات العلم الحديث ، فضلا عن أنه من أهل الاختصاص بالعلوم الشرعية فضلا عن التفسير ؛ ولهذا أو ذاك أثره في إخراج تفسير علمي مقبول للناس .

الدراسات السابقة :

في البداية هذه إشارة إلى الدراسات السابقة في هذا الموضوع التي اتخذت شكلين

رئيسيين :

الأول : ما تعلق بصاحب الدراسة وتفسيره التحرير والتنوير ومنها :

- " تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير " : دراسة منهجية ونقدية " قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير من كلية الشريعة في الجامعة الأردنية في تخصص التفسير ، للطالب : جمال محمود أحمد أبو حسان بإشراف الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس - رحمه الله - عام ١٩٩١ م .
- رسالة جامعية بعنوان " ابن عاشور ومنهجه في التفسير " للباحث سعيد هذب . وقد نوقشت في العراق عام ١٩٨٦ م .
- رسالة جامعية بعنوان " ابن عاشور ومنهجه في التفسير " للباحث عبد الله الوهبي ، وقد نوقشت في الرياض عام ١٤٠٨ .
- " التناسب القرآني عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير " قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في تخصص اللغويات العربية التطبيقية في جامعة اليرموك ، للطالب : خالد محمود محمد العزّام بإشراف الأستاذ الدكتور سلمان محمد القضاة عام ٢٠٠٧ م .
- " المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور " وهو كتاب ألفه الدكتور حواس بري .
- والرسائل الثلاث الأولى جاءت لتبيّن معالم منهجية ابن عاشور بشكل عام في تفسيره ، والرسالة الرابعة والخامسة اختصّت كل واحدة منهنّ بجانب من جوانب تفسير ابن عاشور ، بينما جاءت هذه الرسائل مختلفة تماماً فقد أفردت تفسيره للآيات الكونية بالدراسة التحليلية النقدية .

الثاني : ما يتعلق بتفسير الآيات الكونية والتفسير العلمي وقد ألف فيه :

- " تفسير الآيات الكونية " للأستاذ الدكتور زغلول النجار - حفظه الله - وهو كتاب من أربعة أجزاء فسّر فيه الدكتور الآيات الكونية بحسب تسلسلها في المصحف الشريف بتفسير علمي معاصر لم يسبق إليه .

- " التفسير العلمي للآيات الكونية " للأستاذ حنفي أحمد وقد قدم له صاحبه بمقدمة احتوت على فصلين الأول في رسالة القرآن والآيات الكونية والثاني موجز لوسائل البحوث الفلكية ونتائجها . ثم قسمه إلى بابين رئيسيين : الأول في خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر فيهما وقسمه إلى خمسة فصول تتضمن العديد من القضايا العلمية التي تضمنتها آيات القرآن الكريم في هذا الموضوع . أما الباب الثاني فهو فصلين الأول في خلق الأرض والقمر ، والثاني في تدبير الأمر في الأرض بعد خلقها لإعدادها للحياة وقد قسمه إلى أربعة مباحث شملت الليل والنهار وما يتعلق بالرياح والسحاب ... ، ومد الأرض ، وماء المطر والبحار ...

- " التفسير العلمي للقرآن في الميزان " وهي رسالة دكتوراه للباحث أحمد أبو حجر ، نوقشت في مصر ، وقد قدم لها بمقدمة تضمنت أربعة مباحث متعلقة بالتفسير ونشأته والفرق بينه وبين التأويل والتفسير بالرأي وموقف العلماء منه ، ومفهوم التفسير العلمي . ثم قسم الرسالة إلى ستة أبواب يحتوي كل باب منها على فصول . الباب الأول في نشأة التفسير العلمي وموقف العلماء منه ، واحتوى على أربعة فصول عرض فيها لأدلة القائلين بالمنع والقائلين بالجواز ، وجاء الباب الثاني والثالث يعرضان لأشهر المعارضين والمؤيدين للتفسير العلمي قديما وحديثا وقد أشبع الكلام في ذلك ضمن ثلاثة فصول في الباب الثاني وفصلين في الثالث ، أما الباب الرابع فهو في التفسير العلمي بين حاضره وماضيه قسمه إلى فصلين ، أما الباب الخامس فهو في القضايا التي يتركز حولها التفسير العلمي وقد قسمه إلى فصلين بين فيهما تلك القضايا ، والباب السادس قد أخذ فيه الباحث صورا مقبولة وأخرى مردودة من التفسير العلمي وانتهى إلى الطريقة المثلى - بنظره - في ذلك وسمى هذا الباب التفسير العلمي بين المنهج والتطبيق وقسمه إلى ثلاثة فصول ، وكانت هذه الدراسة بحق دراسة قيمة بينت قيمة التفسير العلمي عند علماء المسلمين والمنهج السوي في هذا اللون من ألوان التفسير .

- رسالة جامعية بعنوان : " التفسير العلمي للقرآن " للباحث عبد الله الأهدل ، نوقشت عام ١٤٠٣م .

- رسالة جامعية بعنوان : " التفسير العلمي للقرآن " للباحث جمال محمود ، نوقشت في لبنان عام ١٩٩١م

أهمية الدراسة :

لقد جاء العلم الحديث باكتشافات باهرة في شتى المجالات ؛ لاقت من الناس قبولا وإعجابا وتصديقا ، حتى باتت من المسلمات علميا ؛ إلا أنّ القرآن الكريم قد ذكرها في زمن بعيد لم تعرف تلك العلوم إلى أهل ذلك الزمن سبيل ؛ ذكرها على سبيل الإعجاز على لسان النبي الأُمي صلى الله عليه وسلم . واسترعت أنظار الباحثين اليوم .

تجيء تلك الاكتشافات في زمن بات أعداء المسلمين للقرآن بالمرصاد ، بكل ما يمكن من خلاله تشويه صورة القرآن ، وباتت أعداد من البشرية لا تعرف عن القرآن ولا تفهم من إعجازه شيئا ؛ ذلك أن الاهتمام الأكبر من علمائنا بالجانب اللغوي البياني للقرآن الكريم . فأرى أنه بات من الضروري أن نبرز للعالم وللشريعة جمعاء إعجاز القرآن الكريم بوجه يمكن أن يفهموه ، وأرى أن أنسب طريق لذلك إبراز التفسير العلمي الذي يقود إلى إثبات الإعجاز العلمي للقرآن ، فضلا عن هؤلاء أو أولئك فإن أبناء المسلمين بين فئتين فئة قد ضاعت اللغة من بينها أو على أقل تقدير لم يعد لهم ثقافة لغوية تمكنهم من فهم البيان القرآني ؛ على أنهم يأنسون بالاستماع للتفسير العلمي ، وفئة أخرى من أهل الاختصاصات في العلوم المختلفة فهم أشد الناس دهشة عند سماعهم لدقائق التفسير العلمي التي توافق علمهم بما تشتمل عليه تلك الآيات من الحقائق العلمية . فبان من كل ذلك احتياج الناس جميعا إلى إبراز الجانب العلمي للقرآن الكريم .

وإذا نظرنا إلى مناهج التفسير العلمي وجدناها تسير في طريقتين : طريق فيه إفراط بحيث لا يترك قضية علمية لم تثبت بعد إلا ويقم آيات القرآن الكريم فيها ، فيُحمَل القرآن ما لا يحتمل ، وأغلب ذلك يقع من أصحاب العلوم المختلفة ممن لم تتوافر فيهم شروط المفسر ، وطريق ضيق يأبى أن يفسر آيات القرآن الكريم بمعطيات العلم الحديث حتى ولو كانت حقائق أجمع عليها أهل الاختصاص . وبين هذا وذاك رأي وسط لم يقبل أي تفسير علمي إلا بضوابط . ومحمد الطاهر ابن عاشور هو من المفسرين الموسوعيين المعاصرين الذين تضلعوا من علوم شتى وبن ذلك من خلال تفسيره ؛ باحتوائه على جوانب متعددة لم تعط حقها من الدراسة وكان من تلك الجوانب الجانب العلمي من خلال تفسير الآيات الكونية ، لذا رغبت أن أجمع تفسيرات الآيات الكونية في هذا التفسير و أجري عليها دراسة نقدية . وجاءت هذه الدراسة مفارقة لغيرها من الدراسات السابقة في جملة من القضايا أبرزها :

- ١ . تتميز هذه الدراسة بأن فيها استقراء لما جاء في التحرير والتنوير الذي تتبعته من أوله إلى آخره . فانتظمت جميع الآيات الكونية التي فسّر لها ابن عاشور أو بعض الكلام العلمي له ضمن تفسيره بشكل عام .
- ٢ . جمع الآيات ذات الموضوع الواحد تحت مبحث واحد بحيث ترشد هذه الدراسة إلى ما يسمى اليوم بالتفسير الموضوعي .
- ٣ . الوقوف عند دلالة المفردة القرآنية ومعناها لدى أهل الاختصاص (اللغويون) وأثرها في التفسير العلمي مما يميز هذه الدراسة عن غيرها .

أسباب اختيار الموضوع

لقد دعاني إلى اختيار هذا الموضوع أمور منها :

- الرغبة في نيل شرف خدمة القرآن الكريم في جانب من الجوانب التي تمس الحاجة إليها .
- إرجاع الناس للقرآن وزيادة اهتمامهم به ذلك أنّ التفسير العلمي وجه من وجوه التفسير المقبولة والتي يأنس بها الكثيرون ، وهذا أيضا يقود لثراء الجانب الدعوي لديّ .
- الحاجة إلى تفسير علمي منهجي ينضبط بقواعد التفسير العلمي المقبول ويصدر من أهل التفسير لا من غيرهم .
- الكشف عن جانب من الجوانب التي تميز بها ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير فهذا التفسير بحاجة لدراسات متعددة .
- التصدي لهجمات أهل الكفر والإلحاد على القرآن الكريم وإظهار إعجاز القرآن الكريم للبشرية جميعا بما يمكنهم من فهمه والسبيل لذلك هو التفسير العلمي .
- تعد هذه الدراسة الأولى من نوعها من حيث أنها قامت على أساس من التفسير الموضوعي للآيات العلمية واستقراء جميع الآيات في القرآن أولا ، ثم من حيث أن فارسها مفسر وموسوعي ومعاصر .
- الموسوعية التي اتسمت بها هذه الدراسة التي شملت جميع الآيات العلمية التي تناولها ابن عاشور بتفسيره العلمي وهي في جوانب متعددة في السماوات والأرض والإنسان والنبات والحيوانات .

الصعوبات التي واجهت الباحث ...

- كأي باحث وطالب للعلم واجهتني صعوبات متعددة كان منها :
- الموسوعية التي اتسمت بها الرسالة فمن علوم الفلك إلى الجبال ، إلى البحار إلى دقائق خلق الإنسان وقضايا الطب ، وهكذا كانت الدراسة تدفعني لفهم كثير من القضايا المتعلقة بتلك العلوم والاطلاع على كتب متخصصة فيها . فضلا عن الرجوع إلى اللغة ومعاجمها للخروج بتفسير وتحقيقات صحيحة .
 - صعوبة الحصول على المراجع العلمية أحيانا فمن أكثر المكتبات التي رجعت إليها مكتبة جامعة اليرموك في إربد والتي لا أملك حق استعارة الكتب منها إلا من خلال بعض الأصدقاء من طلابها أو الجلوس فيها لساعات طويلة .
 - حاولت أن أتم هذا الجهد بمفردي من حيث جمع المراجع والكتابة والطباعة والتنسيق والتدقيق اللغوي وبالتالي ازداد الجهد ، وأصبحت الساعات لا تكفي . . . حتى أتممت العمل ، ولكني أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا الجهد ويجعل له القبول .

منهجية البحث ...

أما عن منهج البحث فقد تكاملت فيه مناهج مختلفة ؛ حيث يعتمد على الاستقراء الدقيق ثم الاختيار ؛ حيث قمت باستقراء كتاب التحرير والتنوير أولا ثم اختيار التفسير العلمي وترتيبه ترتيبا موضوعيا حسب وروده ضمن موضوعات الآيات ، ثم جاء المنهج التحليلي ، فالمنهج الاستنباطي ، وذلك من خلال تحليل كلام ابن عاشور واستنباط ما فيه وبيان مكانه من كلام غيره من المفسرين في ضوء معطيات الآية اللغوية وتفسيرها المنقول .

وسرت في عرض كلام ابن عاشور في الآيات في الموضوع الواحد بحسب ترتيبها في المصحف ، وبما أن هذه الدراسة تتعلق بالجانب العلمي فإني اقتصرته على ما كان تفسيراً علمياً أو خادماً للتفسير العلمي كذكر بعض قضايا اللغة أو الأثر مما له علاقة مباشرة في تحديد التفسير العلمي .

وكنت في الأعم الأغلب أذكر اسم المسألة ثم نصّ كلام ابن عاشور ثم تحليله إلا إذا كان واضحا بيّنا ، ثم كلام المعاصرين من أصحاب التخصص ثم بعض الشواهد الأخرى في المسألة من لغة أو أثر أو قرائن تؤيد وترجح معنى على آخر ، إلا إذا لم توجد ، وفي النهاية أذكر التعقيب والحكم على كلام ابن عاشور من خلال كل ما سبق . وبيان قيمته ووجه الاتفاق والاختلاف بينه وبين المعاصرين ؛ فكان منهجاً مقارناً .

التمهيد :

لما كانت هذه الدراسة في تفسير الآيات الكونية عند الطاهر ابن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير"، وأراني مسبقا بالدراسة المتعلقة بالتعريف بالطاهر ابن عاشور ؛ فإني سأسلك الاختصار في الكلام ضمن مبحثين :

المبحث الأول : التعريف بابن عاشور .

المبحث الثاني : التعريف بتفسير ابن عاشور .

المبحث الأول : التعريف بالطاهر ابن عاشور

- نسبه ونشأته :

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، وأصل العائلة من الأندلس بعد أن فر جدهم منها بدينه فاستقر بتونس . (١)

نشأ الشيخ ابن عاشور في بيت علم وشرف مما كان له أكبر الأثر في صقل شخصيته ، هذه الأسرة التي خرج منها رجال كان لهم من العلم والأخلاق والإصلاح ما لهم كان على رأسهم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الجد والشيخ أحمد ابن عاشور ، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الثاني وابنه محمد الفاضل ابن عاشور .

كان من تلاميذ ابن عاشور الجد شيخٌ جليلٌ هو الشيخ محمد العزيز بوعتور ، ونتج عن هذه العلاقة أن تزوج ابن الشيخ ابن عاشور ببنت الشيخ بوعتور ، فتمّ للشيخ الحفيد النسب الطيب من جهة الأب والأم . وبشرت هذه العائلة بولادة محمد الطاهر بالمرسي (٢) .

(١) د. بري ، حواس ، ٢٠٠٢م ، المقاييس البلاغية في التحرير والتنوير ، ط١ ، ص ١٩ المؤسسة العربية ، بيروت .

(٢) (هي ضاحية جميلة من ضواحي العاصمة التونسية تقع على شاطئ البحر المتوسط تغنى بها المغنون تبعد ٢٠كم عن مدينة تونس) انظر : الغالي ، بلقاسم شيخ الجامع الأعظم ٣٧

كانت ولادة الشيخ في سنة ١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م في قصر جده لأمه الشيخ بوعتور ، وقد كان للجدّين أكبر الأثر على الشيخ محمد الطاهر الحفيد ؛ وخاصة جده لأب من جهة المؤلفات القيمة التي تركها ومن جهة تلاميذه الذين أخذ عنهم الحفيد فيما بعد .^(١)

شخصيته العلمية :

أقبل الشيخ على العلم منذ الصغر ، إذ حفظ القرآن الكريم وعمره لا يتجاوز الست سنوات ، وكان قد قرأه على الشيخ محمد الخياري في مسجد سيدي أبي حديد بمدينة تونس ، ثم حفظ مجموعة من المتون ،^(٢) ولما بلغ من العمر أربعة عشر عاما التحق بجامعة الزيتونة أي سنة ١٣١٠ هـ ودرس في تلك الفترة علوما عدة كالنحو والبلاغة وفقه اللغة وعلم الكلام والفقهاء وأصوله والحديث والسيرة والتاريخ ، وابتداءً من سنة (١٩٠٠م) إلى سنة (١٩٣٢م) أقبل على التدريس بجامعة الزيتونة والمدرسة الصادقية كمدرس من الدرجة الثانية ، ثم مدرّساً من الدرجة الأولى سنة (١٩٠٥م) ، ثم عضواً مؤسساً للجنة إصلاح التعليم بجامعة الزيتونة سنة (١٩١٠م) . وكان قد اشتهر بتدريس التفسير لطلبة جامعة الزيتونة ، ومن الكتب التي درّسها لطلابه : دلائل الإعجاز ، وشرح المحلى بجمع الجوامع ، ومقدمة ابن خلدون ، والموطأ وغيرها .^(٣)

أما عن دوره في القضاء فقد عين عضواً بمجلس القضاء الأعلى وحاكماً بالمجلس المختلط العقاري سنة ١٩١١م وولي القضاء سنة ١٩١٣م واستمر بها إلى ١٩٣٣م وفي هذا التاريخ عين مفتياً ثم ترقى بعد سنة إلى مفتي ثاني ثم أصبح كبير أهل الشورى في ١٩٢٧م ثم شيخ الإسلام المالكي في ١٩٣٢م^(٤) ثم سمي من جديد شيخاً لجامع الزيتونة في سنة (١٩٤٥م) ، وفي سنة (١٩٥٦م) شيخاً عميداً للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين حتى سنة (١٩٦٠م)^(٥)

(١) الغالي ، شيخ الجامع الأعظم ، مصدر سابق ، ص ٣٧

(٢) د . بري ، المقاييس البلاغية ، مصدر سابق ، ص ٢٠

(٣) الشامي ، خالد بن أحمد ، ٢٠٠٥ ، بيان موقف شيخ الإسلام محمد الطاهر ابن عاشور التونسي من الشيعة من خلال تفسيره التحرير والتنوير ط ١ ، ص ٥

(٤) الغالي ، شيخ الجامع ، مصدر سابق ص ٦٢

(٥) الشامي ، موقف ابن عاشور من الشيعة ، مصدر سابق ص ٦

تعدى عطاء الشيخ الى خارج بلاده ليصل دمشق والقاهرة حيث كان عضوا فاعلا في
المجمعين العربيين فيهما ، واستمر نشاطه لآخر حياته . (١)

كان مقبلا على الكتابة والتحقيق والتأليف ، فقد شارك في إنشاء مجلة السعادة العظمى سنة
(١٩٥٢م) ، وهي أول مجلة تونسية مع صديقه العلامة الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله ،
ونشر بحوثا عديدة خصوصا في المجلة الزيتونية ومجلات شرقية مثل هدى الإسلام ، والمنار ،
والهداية الإسلامية ، ونور الإسلام ، ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، كما نشرت له مجلة
المجمع العلمي بدمشق ، وشارك في الموسوعة الفقهية التي تشرف عليها وزارة الأوقاف
والشئون الإسلامية بالكويت . (٢)

أما عن شيوخه فأشهرهم : جده الشيخ بوعتور ، والشيخ عمر بن الشيخ ، والشيخ سالم
بوحاجب والشيخ محمد النجار ، والشيخ محمد النخلي ، والشيخ محمد بن يوسف ، والشيخ عمر
ابن عاشور والشيخ صالح الشريف رحمهم الله تعالى جميعا . (٣) وكان هؤلاء العلماء ملتمين
بعلوم شتى لذا كانت ثقافة الشيخ واسعة في مختلف الميادين وهذا الأمر يهمننا في هذه الدراسة
العلمية ومن هذه العلوم التفسير ، والحديث ، والقراءات ، ومصطلح الحديث ، والبيان ، واللغة ،
والتاريخ ، والمنطق ، وعلم العروض .

وكان الشيخ بالإضافة إلى غزارة علمه وسعة اطلاعه وعقله السديد صاحب ذوق رفيع وسمت
صالح ، يقول الدكتور بلقاسم نقلا عن بعض من وصفه : " رأيت فيه شيئا مهيبا يمثل امتدادا
للسلف الصالح في سمته ، ودخل في عقده العاشر ولم تنل منه السنون شيئا . . . قامة سمهرية
خفيفة اللحم ، وعقلية شابة ثرية بحصيلتها ، وقلب حافظ أصاب من علوم القدماء والمحدثين ،
ولسان لافظ يقدر على الخوض في كل شيء من المعارف ، وذهن متفتح يشقق الحديث روافد
مع وقار يُزيّنه وفضل يبينه ، وأخلاق وشمائل حسن تهش للأضياف ، وترحب بالوارد ،
وتعطي في عمق لمن يريد الاعتراف من بحر كثرت مياهه وقد ازدحمت العلوم فيه " (٤)

(١) القصاب ، ساطي ، حمادي (١٩٨٦) تاريخ تونس المعاصر ، ط ١ ص ٥٣٥ الشركة التونسية

(٢) الشامي ، موقف ابن عاشور من الشيعة ، مصدر سابق . ص ٦

(٣) الغالي شيخ الجامع ، مصدر سابق . ص ٤٠-٤٥

(٤) المرجع نفسه ٦٣

محنته :

معلوم أن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قد تقلد مناصب الإفتاء ، بل ارتقى لمنصب شيخ الإسلام المالكي ، وربما كان وصوله لهذه المناصب سببا لمحنة شديدة ألمت به ؛ كانت نتاج حقد ملاً قلوب قوم سُذج ، وافق فتاوى صدرت أو نُقلت أو أُلصقت بالشيخ رحمه الله تعالى إذ أنه كان قد أصدر أكثر من فتوى كانت مرتعا خصبا للواشين الحاسدين . وبعض هذه الفتاوى كانت سببا رئيسا للمحنة التي تعرض إليها الشيخ ، والأخرى ترك أثراً لكنها ليست في تأثيرها كالأولى وهذه الفتاوى كالاتي :

١ : سئل فضيلة الشيخ عن حكم قراءة القرآن عند تشييع الجنازة ، وحول الميت ، وحول قبره عند دفنه ، فأجاب بقوله : إن السنة في المحتضر ، وفي تشييع الجنازة ، وفي الدفن ، هو الصمت للتفكر والاعتبار ، فإذا نطق الحاضر فليكن نطقه بالدعاء للميت وبالمغفرة والرحمة ، فإن دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مرجوة الإجابة ، وأما قراءة القرآن عن الميت حول قبره وحين تشييع جنازته وحين دفنه فلم يكن معمولاً بها في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم و زمان الصحابة، إذ لم ينقل ذلك في صحيح السنة والأثر مع توفر الدواعي على نقله لو كان موجودا ، إلا الأثر المروي في قراءة سورة يس عند رأس الميت ، على خلاف فيه ولهذا كان ترك القراءة هو السنة و أفضل من القراءة في المواطن الثلاثة المذكورة .^(١) إلى هنا كانت هذه الفتوى محل اتفاق بينه وبين معارضة فيما بعد الشيخ ابن باديس ، ثم استنتج استنتاجا آخر بناه على هذه الفتوى كان مفاده : وحينئذ تكون قراءة القرآن في تلك المواطن مكروهة وإما مباحة غير سنة فتكون مندوبة في جميعها وإما مندوبة في بعض دون بعض^(٢) . الاتهام من ابن باديس كان منصبا على أن هذا الاستنتاج لا دليل عليه بل هو تأييد للبدعة ورد للسنة . والجزء الذي أثار ابن باديس أيضا هو قول الطاهر : " وعليه ؛ فكل من يتصدى لمنع أقارب الأموات من تشييع جنازتهم بالقراءة ، فقد أنكر عليهم بغير علم ، واجترأ عليهم دون سبب يحق له، فإن هم تجوزوا ذلك ، فحقّ على ولاية الأمور في البلدان أن يدفعوا عن أهل المآتم عادية

(١) الغالي ، شيخ الجامع ، مصدر سابق ص ١٣٦

(٢) المرجع نفسه .

من يتصدى بزعمه لتغيير المنكر دون أن يعلم من كل من تزبب قبل أن يتحصم " (١) وهذه الكلمة الأخيرة جعلت الشيخ ابن باديس يزيد تهمة أخرى ، وهي أن الطاهر يغري السلطة بالمسلمين .

وهذه الفتوى من أولها لم تخرج عن أقوال الفقهاء أصلاً (٢) وتحميلها ما لم تحمل لا يليق أن يخرج من أفواه العامة تجاه عالم فاضل ، كان له الفضل الكبير في الإصلاح فضلاً عن أن يخرج من أفواه علماء تجاه أستاذهم .

ولعلّ الناقدین لهذه الفتوى قد تجاوزوا الحد في اتهام الشيخ ، ولم يقفوا موقف المناقش المنصف الهادئ على أن الودّ بين الشيخ وبين أعضاء جمعية العلماء بقي موجوداً .

٢: الفتوى الترانسفالية وذلك نسبة إلى المستفتي الذي كان من بلاد الترانسفال من جنوب أفريقيا وتنقسم إلى قسمين :

أ : وهي حول لبس البرانيط (القبعات) التي هي للنصارى من قبل المسلمين الذين يعيشون في وسط نصراني ، حيث تنص الفتوى على جواز لبس القلنسوة أو عدم جوازه حيث يختص بلبسها النصارى حتى يقضي المسلمون بعض مصالحهم التي عند النصارى ، وقد جاءت فتوى الشيخ كالاتي : " أما مسألة القلنسوة فحسبهم من حيث التقليد ؛ أن الفقهاء ما قالوا : أن لبس أي شيء من ثياب الكفار موجبا للردّة إلا لباس الدين حيث ينضم إليه قرائن تفيد كثرتها قطعاً بأن صاحبه انسلخ عن الدين ... " (٣) وقد أثارت الفتاوى ضجة كبيرة على الشيخ ؛ خصوصاً أنّ من أخفوا كرههم للشيخ أظهره بمظهر المناوئ للدين، والمتنكر للعروبة وقيمها ولتعاليم الإسلام الحنيف (٤)

ب : حول جواز أكل ذبيحة النصارى التي تضرب بالبلطة ثم تدبح بعد ذلك بالسكين دون تسمية ، فأفتى الشيخ بجواز الأكل ؛ لعموم جواز أكل ذبائح النصارى ، والله تعالى يعلم كيف يذبحون ، وبناء على أنّ الخاص بعد العام يعتبر ناسخاً له ، فعموم طعام أهل الكتاب الوارد بعد المحرمات السابقة في الآية : " حرمت عليكم الميتة والدم " الآية [المائدة ٣] يعتبر نسخاً بعد النصّ (وهي قاعدة عند الأحناف) . (٥)

(١) الغالي . شيخ الجامع ، مرجع سابق ١٣٦-١٣٧

(٢) وزارة الأوقاف الكويتية ، (١٤٠٤-١٤٢٧) الموسوعة الفقهية الكويتية . ط ٢ ج ١٦ / ص ٨-٩

دار السلاسل ، الكويت . (٣) الغالي . شيخ الجامع . مصدر سابق ١٣٤

(٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه الفتوى ينظر الغالي . شيخ الجامع . مصدر سابق ١٣٤

(٥) المرجع نفسه .

٣: التجنس: في وسط الضغوطات الفرنسيّة على الشّعب التونسي بسلخه من هويته ، وصمود ذلك الشعب ورفضه وعدم ارتضائه لكل من غير جنسيّته ؛ رفضه له حال حياته بمنعه الميراث واعتباره مرتدا ، وبعد مماته بالحكم بكفره ورفض قبره في مقابر المسلمين ، قامت الحكومة الفرنسية بمحاولة استصدار فتوى مصطنعة تؤيد الأمر ، وفي نفس الوقت تشفي غليل الشّعب المعارض للفكرة ، والاستفتاء المصطنع كان كالآتي : " إذا اعتنق شخص جنسية يختلف تشريعها عن أحكام الشريعة الإسلامية ثم حضر لدى القاضي الشرعي ونطق بالشهادتين وأعلن أنه مسلم ، وأنه لا يرتضي غير الإسلام دينا ، هل يحق له طوال حياته أن يتمتع بالحقوق والواجبات التي يتمتع بها المسلمون ، وهل يحق له بعد وفاته أن يصلّى عليه الجنّازة وأن يقبر في مقبرة المسلمين ؟ " (١)

لقد كانت هناك إجابتان للسؤال :

الأولى : لمجلس الفقه المالكي حيث قيدت توبة المتجنّس بقيود كثيرة يصعب إعلانها ، وأضافوا فضلا عن إعلان الشّهادتين ؛ إعلان التخلي عن الجنسية المعترقة ولا بأس إذا بقيت معه وبقي خاضعا لقوانينها إذا تعدّر التخلّص منها ، وزاد الشيخ جعيط : ولا بد من التخلي عن الامتيازات الاجنبية . (٢)

الثانية : لمجلس الفقه الحنفي - على قلة أتباعه هناك - حيث أجابوا : " إذا اعتنق شخص جنسيّة يختلف تشريعها عن أحكام الشريعة الإسلامية ؛ ثم حضر لدى القاضي الشرعي وأعلن أنه مسلم ، وأنه لا يرتضي غير الإسلام دينا يحق له طوال حياته أن يتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها المسلمون ، وبعد وفاته يحق له أن يصلّى عليه الجنّازة وأن يدفن في مقبرة المسلمين " .

والشيخ ابن عاشور هو من أكابر المالكيّة آنذاك فأثير الكلام ، وحملوه ما لا يحتمل ، واتهموا الشيخ لكن ما هي إلا سنوات على وفاته حتى تبين أن الشيخ لم يقل بها أصلا . (٣)

(١) الغالي . شيخ الجامع . مصدر سابق ١٤٠

(٢) المرجع نفسه . ١٤١

(٣) المرجع نفسه . ١٤٢

مؤلفاته : (١)

لقد جمع كثير من الباحثين مؤلفات الطاهر ابن عاشور التي تبلغ قرابة الخمسين مؤلفاً ، وأكتفي هنا بذكر أشهرها :

- مؤلفات شرعية في علومها المختلفة : كأصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، و تفسير التحرير والتنوير ، و حاشية التوضيح والتصحيح على تنقيح القرافي ، و رسالة طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسالة في حكم لبس المسلم القبعة وأكل ذبائح النصارى ، مقاصد الشريعة الإسلامية. و أليس الصبح بقريب ؟

- علوم اللغة : كتحقيق وتعليق على كتاب : مقدمة في النحو المنسوب إلى خلف الأحمر ، و ديوان بشّار بن برد " جمعه وشرحه وأتمه وعلق عليه " ، و سرقات المتنبيّ ومُشكل معانيه لابن بسّام النحوي ، وشرح قصيدة الأعشى في مدح المخلق ، وشرح مقدمة المرزوقي لشرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، وشفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح ، وموجز البلاغة ، والواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصفهاني .

- مجلات علمية قد شارك بها : كمجلة مَجَمَع اللغة العربية بالقاهرة ، ومجلة المَجَمَع العلمي بدمشق ، ونور الإسلام ، ومجلة المنار .

وفاته . . .

توفي الشيخ في يوم الاحد ٣- رجب ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م عن عمر يناهز الرابعة والتسعين (٢)

(١) انظر بعض هذه المؤلفات الزركلي ، خير الدين بن محمود ، ٢٠٠٢م ، الأعلام ، ط٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ج ٦ ، ص ١٧٤ ، و انظر : د خالد عزام ، التناسب القرآني عند ابن عاشور ص ٢٧-٣٠ ، وانظر : الشامي موقف الشيخ ابن عاشور من الشيعة الإمامية ١٤-١٦ .
(٢) الغالي . شيخ الجامع . مصدر سابق ٥٦

المطلب الثاني : التعريف بتفسير ابن عاشور وقيّمته العلميّة :

تفسير ابن عاشور الذي اشتهر باسم " التحرير والتنوير " له اسم آخر كان التحرير والتنوير اختصاراً له ، وهذا ما أشار إليه الشيخ في مقدّمته فقال : " وسمّيته - أي التفسير - تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد . واختصرت هذا الاسم باسم التحرير والتنوير " . (١)

وقد قدّم الشيخ لهذا التفسير بمقدّماتٍ عشر وذلك بعدما قدّم بمقدمة بين فيها هدفه من هذا التفسير والسبب الحامل له على هذا الصنيع ، حيث يقول في ذلك : " ... طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع ، وتفاصيل من مكارم الأخلاق ، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره " (٢) ولكنه أحجم عن ذلك " اتقاء ما عسى أن يعرض له المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوة ، أو فلتات سهام الفهم ، وإن بلغ ساعد الذهن كمال الفتوة " . (٣) وبعد التّسويّف جاء الحزمُ وذلك بعدما تقلّد منصب الافتاء تطلبا لأن يعطيه الله الحكمة ؛ فهو يقضي بها بين الناس ويعلمها إيّاهم .

وأخذ القرار ببدء التاليف في التفسير واضعا هدفا جليلا أمامه ، وواقفا ممّن قبله من المفسرين موقفا معتدلا ، يقول - رحمه الله - : " فجعلتُ حقاً عليّ أن أبادي في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها ، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها ، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاذ. ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين : رجل معتكف فيما شاده الأقدمون ، وآخر أخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون ، وفي كلتا الحالتين ضر كثير، وهنالك حالةٌ أخرى ينجبرُ بها الجناح الكسير، وهي أن نعدم إلى ما أشاده الأقدمون فنهبه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده ، عالماً بأن غمض فضلهم كفرانٌ للنعمة ، وجدد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة ، فالحمد لله الذي صدق الأمل، ويسر إلى هذا الخير ودل. " (٤)

(١) ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد ، (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م) ، التحرير والتنوير ط ١ ، ١ / ٨ ، مؤسسة

التاريخ العربي، بيروت - لبنان

(٢) المرجع نفسه ٥/١ .

(٣) المرجع نفسه ٦/١ . (٤) المرجع نفسه ٧/١ .

وهو هنا أشار إلى موقفه الوسط من التفاسير القديمة ، التي سيعمد إلى تهذيب مسائلها والزيادة عليها بفهم يفتح الله به عليه ، بالرغم من أنه ليس حكرا عليه كما قال ، فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلم ، وكم من فهم تستظهره وقد تقدمك إليه متفهم ، والتفاسير التي يعترف الشيخ بقيمتها العلمية والتي سيأخذ منها ويرجع إليها يذكرها بقوله : " تفسير الكشاف ، والمحرر الوجيز لابن عطية ، ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي ، وتفسير البيضاوي الملخص من الكشاف ، و مفاتيح الغيب بتحقيق بديع ، وتفسير الشهاب الألوسي ، وما كتبه الطيبي ، والقرويني ، والقطب ، والتفتزاني على الكشاف ، وما كتبه الخفاجي على تفسير البيضاوي ، وتفسير أبي السعود ، وتفسير القرطبي ، والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي من تقييد تلميذه الأبي ، وهو بكونه تعليقا على تفسير ابن عطية أشبه منه بالتفسير ، لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن وتفسير الأحكام ، وتفسير الإمام محمد ابن جرير الطبري ، وكتاب درة التنزيل . . . " (١)

ثم يبين الشيخ الفنون التي سيدخلها التفسير ، والتي يرى أنّ القرآن قد عني بها ، مثل الأحكام ، والآداب ، والقصص في مواقعها ، وربما اشتملت الآية الواحدة على فئين من ذلك أو أكثر. ولكنه يرى أنّ فنا من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن ، وهو فن دقائق البلاغة وهو الاعجاز البياني الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب كما خصوا الأفانين الأخرى ، من أجل ذلك التزم بإظهار نكاته ، وهناك فن من الفنون التي عني بها وبرع في تفسيره ويتحدث عنه قائلا : " واهتمت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض ، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي ، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى نظم الدرر في تناسب الآي والسور ، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع ، أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض ، فلا أراه حقا على المفسر. " (٢) أضف إلى هذا وذاك عنايته ببيان أغراض السور وفقه اللغة وبيان مفرداتها بدقة وتجديد .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٧/١

(٢) المرجع نفسه ٨/١

مقدمات ابن عاشور :

لقد افتتح ابن عاشور كتابه بمقدماتٍ عشر، وهذه المقدمات قد حوت كلاماً مفيداً وتحقيقات جمة ، لا يتسع المقام للحديث عنها وعمّا حوته ، واكتفي بذكرها حيث جاءت على النحو الآتي :

المقدمة الأولى : في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً . (١)

المقدمة الثانية : في استمداد علم التفسير . (٢)

المقدمة الثالثة: في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه . (٣)

المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر . (٤)

المقدمة الخامسة: في أسباب النزول . (٥)

المقدمة السادسة: في القراءات . (٦)

المقدمة السابعة: قصص القرآن . (٧)

المقدمة الثامنة: في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها . (٨)

-
- (١) حيث يعرف التفسير والتأويل لغة واصطلاحاً ويبين وجه اعتباره علماً انظر ابن عاشور ١/٩-١٦
- (٢) ويعرف فيه بالعلوم التي يستمد منها التفسير ولا بد منها للمفسر كعلم اللغة والتاريخ والآثار انظر ابن عاشور ١/١٦-٢٦
- (٣) ويبرهن فيها على جواز ضرورة التفسير بالرأي ويوجه فهم النصوص الناهية عن التفسير بالرأي ، ويناقش المانعين بنقاش منهجي مقنع ، ثم يذكر صور التفسير المذموم كالتفسير الباطني ويحقق القول في مسألة التفسير الإشاري مثبتاً لجوازه بضوابط . انظر ابن عاشور التحرير والتنوير ، ١/٢٦-٣٦
- (٤) ويبين فيها مقاصد القرآن ويجعلها ثمانية مقاصد ويوجب على المفسر أن تكون هذه المقاصد وإظهارها هي غرضه انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير ١/٣٦-٤٤
- (٥) حيث يعرف بها ويبين أنها على خمسة أقسام ، انظر التحرير والتنوير ١/٤٤-٥٠
- (٦) حيث يذكر شرط القراءة الصحيحة ثم ينتقل لبيان المراد بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن الكريم ، انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١/٥٠-٦٣
- (٧) حيث يعرف بالقصة ثم يبين سماتها وميزاتها ثم يبين عشر فوائد تفرعت عن هذه الميزات ثم بين فائدة تكرار القصة في عدد من السور ١/٦٣-٦٩
- (٨) حيث يعرف القرآن ثم يذكر أسماءه ثم ينتقل للآية وما يتعلق بها من مباحث وكذلك السور ومباحثها ، انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير ١/٦٩-٩١

المقدمة التاسعة: في أنّ المعاني التي تتحملها جمل القرآن، تعتبر مرادة بها . (١)

المقدمة العاشرة: في إعجاز القرآن . (٢)

٢) عناية ابن عاشور بالتفسير بالمأثور :

لقد اعتنى الشيخ ابن عاشور عناية بالغة بالتفسير بالمأثور ومن صور ذلك :

أ - عنايته بتفسير القرآن بالقرآن .

ذلك أنّ أوّل ما يطلب التفسير لأي كلام هو من قائله نفسه ؛ لأنه أدرى بالمراد منه ،

فكيف بالله تعالى وله المثل الأعلى ؟ وقد قال سبحانه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] وقد اهتم الطاهر ابن عاشور بتفسير القرآن بالقرآن إذ

عدّه من صميم التفسير لا من استمداده فقد قال : تنبيه : اعلم أنّه لا يعد من استمداد علم التفسير،

الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير آيات، ولا ما يروى عن الصحابة في

ذلك لأن ذلك من التفسير لا من مدده، ولا يعد أيضا من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن

من معنى يفسر بعضا آخر منها، لأن ذلك من قبيل حمل بعض الكلام على بعض، كتخصيص

العموم وتقييد المطلق وبيان المجمل وتأويل الظاهر ودلالة الاقتضاء وفحوى الخطاب ولحن

الخطاب، ومفهوم المخالفة. (٣)

وقيل أن أمثل لتفسيره القرآن بالقرآن أريد أن أنبه على أنني سأكتفي بمثال واحد على كل معلم

من معالم منهجية الشيخ وذلك لسبق الدراسات في هذا الجانب ثم لأن المقام هنا لا يتسع لذلك

فالأمر يتطلب الاختصار فمن الأمثلة على تفسير الشيخ ابن عاشور للقرآن بالقرآن في تفسيره

التحرير والتنوير تفسيره للشجرة الملعونة بالقرآن في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا

(١) حيث بين عددا من المحسنات البديعية التي عرفها العرب وأن القرآن قد نزل بلغتهم وأن المعاني التي

تتحملها تراكييب القرآن الكريم تعتبر مراده حتى وإن كان المعنى مكنى عنه أو مصرح به أو حقيقة أو مجاز أو

كان اللفظ مشتركا فيحمل على كل معانيه ما دام محتملا له ، انظر ابن عاشور التحرير والتنوير ١ / ٩٩-٩٩

(٢) حيث عرض لآيات التحدي ودلالاتها ورد القول بالصرفة كسبب للإعجاز وبين أن إعجازه في أربع: الأولى

بلوغه الغاية في النظم والثانية إبداعه أساليب جديدة في النظم والثالث : ما أودع فيه من المعاني الحكيمة

والعلمية والعقلية والرابع : إخباره بالغيبات وفصل القول في كل منها ، انظر ابن عاشور التحرير والتنوير ١ /

جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴿٦٠﴾ [الإسراء: ٦٠] حيث يقول : {وَالشَّجَرَةَ} عطف على الرؤيا، أي ما جعلنا ذكر الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. وهذا إشارة إلى

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ [الصفافات: ٦٤] وقوله: ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ

شَجَرَةُ الرَّقْمِ ﴿٦٢﴾ [الصفافات: ٦٢]... وقوله: ﴿ لَا كُفْرَانَ لِسَجْرٍ مِنْ رَقْمٍ ﴿٥٢﴾ في سورة

الواقعة [٥٢-٥١]. " (١)

٢ - عنايته بتفسير القرآن بالسنة :

لقد وكلت إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم مهمة بيان القرآن الكريم فقد قال تعالى : ﴿

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤] فكان النبي صلى الله

عليه وسلم يبين للصحابة عليهم الرضوان معاني آيات القرآن الكريم ؛ وهذا مصدر لتفسير القرآن الكريم لا يمكن تخطيه حتى يكون التفسير صحيحا وهكذا فعل الإمام الطاهر ابن عاشور عندما كان يتعرّض للآيات التي فسرها النبي صلى الله عليه وسلم ، بل كان الشيخ على دراية بالحديث وعلومه وقد مر عند التعريف بالشيخ ذكر بعض المؤلفات في الحديث للشيخ ، وهذا الأمر أو ذاك يظهر اهتمام الشيخ الطاهر بالتفسير بحديث النبي صلى الله عليه وسلم . بل يجعل توظيفه للحديث في التفسير سليما وهذا الأمر واضح في تفسيره حيث لا يكاد يستشهد بحديث إلا صحيح ، فضلا عن أنه يفسر أحيانا بعض الأحاديث بحسب ما يتطلبه الداعي لذكر الحديث وهو يحكم على الأحاديث إن اقتضت الضرورة ، كأن يفسر بعض المفسرين بحديث غير صحيح وأذكر مثالا واحدا على كل ما سبق وهو يبين تمكن ابن عاشور من الصحيح والضعيف من الحديث يقول - رحمه الله - : وقيل الكرسي غير العرش، فقال ابن زيد: هو دون العرش و روى في ذلك عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري الفلاة من الأرض" (٢) وهو حديث لم يصح. (٣)

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١١٧/١٤ ،

(٢) الحديث ذكره الطبري ٣٩٩/٥ ، وابن كثير ٦٨٠/١ ، وقد أخرجه ابن حبان في الصحيح باب :

استحباب أن يكون للمرء من كل خير حظ . رقم (٣٦١) ٧٧/٢ وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط في

التعليق عليه : الحديث إسناده ضعيف جدًا فيه إبراهيم بن هشام وهو متروك الحديث . انظر صحيح

ابن حبان ٧٨/٢

(٣) ابن عاشور ، التحرير ٤٩٧/٢

٣- تفسيره للقرآن بأقوال الصحابة :

إن للصحابة رضي الله تعالى عنهم فضل كبير في تفسير القرآن الكريم وهم من أهم مصادر نبغ بعضهم واختص بالتفسير من مثل ترجمان القرآن ابن عباس ، وعبدالله ابن مسعود ، وغيرهم رضي الله عنهم مما ينبغي للمفسرين العناية بهذا المصدر وعدم إغفاله ، وكان ممن اهتم بهذا الباب الشيخ ابن عاشور بالرغم من تصنيف تفسيره تحت باب التفسير بالرأي ، ومن أمثلة رجوع ابن عاشور لأقوال الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وتفسيره بتفسيرهم قوله في تفسير قوله تعالى: {والناشرات نشرًا} المرسلات ، ٣: " قال ابن عباس : والضحاك وأبو صالح: الملائكة. وقال ابن مسعود ومجاهد الرياح وهو عن أبي صالح أيضا. " (١)

٤- تفسيره القرآن بأقوال التابعين :

لقد نقل الشيخ الطاهر ابن عاشور كثيرا من أقوال التابعين في تفسيره كمصدر من مصادر التفسير بالمأثور؛ فهم أقرب إلى عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم من خير القرون وقد تلقوا علومهم من الصحابة عليهم الرضوان ، ومن الشواهد على اهتمامه بهذا المصدر ؛ قوله في تفسير المكان العلى الذي رفع إليه إدريس عليه السلام : " وقوله: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} قال جماعة من المفسرين هو رفع مجازي . والمراد : رفع المنزلة، لما أوتيته من العلم الذي فاق به على من سلفه. ونقل هذا عن الحسن. " (٢) ، وإن احتاج الأمر في بعض الأحيان للنقاش نجد ابن عاشور يناقش أقوال التابعين. (٣)

٣) ابن عاشور والتفاسير الأخرى :

لقد ذكرت في بداية التعريف بالتفسير أنّ ابن عاشور قد أشاد بالمفسرين القدامى ، ووقف موقفا وسطا بين المفسرين ؛ فهو لا يريد أن يكون أحد رجلين : رجل معتكف فيما شاده الأقدمون ، وآخر أخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضررٌ كثير، بل يريد أن يعمد إلى ما أشاده الأقدمون فيهدبه ويزيده ، وقد ذكرت أيضا التفاسير التي اعتمدها والتي كان

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٣٨٨/٢٩ .

(٢) المرجع نفسه ٥٧/١٦ .

(٣) المرجع نفسه ٣٩٠٣٨/٣ .

منها : الكشف للزمخشري ؛ حيث عول عليه الطاهر واستشهد في بعض القضايا وتتبعه بالنقد والردّ في قضايا أخرى فمن استشهاده بكلام الزمخشري بل جعله له في بعض مسائل اللغة ؛ مما يحتكم إليه أنه يقول في تعريفه للتفسير وبحثه في فقه الكلمة : " والتحقيق : أن المتكلم قد يعدل عن تعدية الفعل بالهمزة إلى تعديته بالتضعيف ؛ لقصد الدلالة على التكثرير ؛ لأن المضاعف قد عرف بتلك الدلالة في حالة كونه فعلا لازما ففقرئته تلك الدلالة عند استعماله للتعدية مقارنة تبعية. ولذلك قال العلامة الزمخشري في خطبة الكشف : الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما، ونزله على حسب المصالح منجّما فقال المحققون من شراحه : جمع بين أنزل ونزل لما في نزل من الدلالة على التكثرير، الذي يناسب ما أراده العلامة من التدرّج والتنجيم .

وأنا أرى أن استفادة معنى التكثرير في حال استعمال التضعيف للتعدية أمرٌ من مستنبعات الكلام حاصل من قرينة عدول المتكلم البليغ عن المهموز ؛ الذي هو خفيف إلى المضعّف الذي هو ثقيل، فذلك العدول قرينة على المراد وكذلك الجمع بينهما في مثل كلام الكشف قرينة على إرادة التكثرير. " (١)

وكذلك كان صنيعة في غير الكشف ؛ ومن التفاسير التي يذكرها ابن عاشور ويأخذ منها تفسير مفاتيح الغيب للرازي ، (٢) وكذا روح المعاني للألوسي ، (٣) وتفسير ابن عطية (٤) ، وتفسير الطبري ، (٥) والقرطبي ، (٦) والبيضاوي ، (٧) وحواشيه ؛ كحاشية الشهاب ، (٨) وحواشي الكشف ؛ كحاشية القطب ، والتفتازاني . (٩)

أضف لهذا أو ذاك عنايته ببعض التفاسير الأخرى المعاصرة كتفسير الشيخ محمد عبده ، (١٠) والمقام لا يتسع هنا لذكر الشواهد على رجوعه وإيراده لأقوال هؤلاء المفسرين واكتفي بالتمثيل على صاحب الكشف .

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٩/١ (٢) المرجع نفسه ١٢٢/١

(٣) المرجع نفسه ١١٨/٢

(٤) المرجع نفسه ٢٨٠/١

(٥) المرجع نفسه ٢٦٠/٢

(٦) المرجع نفسه ٣٧٦/١

(٧) المرجع نفسه ١٤٩/١

(٨) المرجع نفسه ٢٥٨/١

(٩) المرجع نفسه ٣٠٨/٢

(١٠) المرجع نفسه ١٤٩/١

٤) التفسير اللغوي في التحرير والتنوير . . .

لقد تعددت الجوانب اللغوية عند الطاهر وكان منها:

البلاغة :

تحدّث ابن عاشور في المقدّمة العاشرة عن إعجاز القرآن الكريم وذكر ثلاثة وجوه لهذا الإعجاز وكان منها : الجانب البلاغي الذي قال فيه : " الجهة الأولى - أي من جهات إعجازه - : بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ ؛ من حصول كفاءات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيد أصل وضع اللغة ، بحيث يكثرُ فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم . " ثم أخذ يتحدث عن أنواع من فنون البلاغة التي لا يدانيها كلام مما بث في القرآن الكريم ومن ذلك : التشبيه ، والاستعارة ، والإيجاز ، والإطناب ، والحذف ، والذكر . (١)

لكني هنا أذكر شاهدا واحدا على فن من فنون البلاغة ؛ على سبيل التمثيل لا الحصر ؛ يدلّ على اهتمام الطاهر وإبداعه في جانب البلاغة ، وذلك عندما تحدث عن التشبيه في قوله

تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

﴿البقرة ١٧﴾ [حيث قال : وإنني تتبعت كلامهم فوجدت التشبيه التمثيلي يعتريه ما يعترني

التشبيه المفرد فيجيء في أربعة أقسام :

الأول: ما صرح فيه بأداة التشبيه أو حذفته منه على طريقة التشبيه البليغ كما في هذه الآية...
الثاني" ما كان على طريقة الاستعارة التمثيلية المصرحة بأن يذكروا اللفظ الدال بالمطابقة على الهيئة المشبه بها ، ويحذف ما يدلُّ على الهيئة المشبَّهة نحو المثال المشهور وهو قولهم : إني أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى .

الثالث" تمثيلية مكنية وهي أن تشبه هيئة بهيئة ولا يذكر اللفظ الدال على الهيئة المشبه بها ، بل يرمز إليه بما هو لازم مشتهر من لوازمه، وقد كنت أعدّ مثالا لهذا النوع خصوص الأمثال المعروفة بهذا اللقب نحو : الصيف ضيعت اللبن ، وببيدي لا بيد عمرو ، ونحوها من الأمثال فإنها ألفاظ قيلت عند أحوال واشتهرت وسارت حتى صار ذكرها ينبئ بتلك الأحوال التي قيلت

(١) ابن عاشور التحرير ٩٩-١٢٠

عندها وإن لم يذكر اللفظ الدال على الحالة، وموجب شهرتها سيأتي ثم لم يحضرني مثال للمكنية التمثيلية من غير باب الأمثال ؛ حتى كان يوم حضرت فيه جنازة، فلما دفنوا الميت وفرغوا من مواراته التراب ضج أناس بقولهم: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ؛ فاغفر للأنصار والمهاجرة فقلت : إن الذين سنّوا هذه المقالة في مثل هذه الحالة ما أرادوا إلا تنظير هيئة حفرهم للميت بهيئة الذين كانوا يحفرون الخندق مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ؛ إذ كانوا يكرّرون هذه المقالة ؛ كما ورد في كتب السنة قصدا من هذا التنظير أن يكون حفرهم ذلك شبيها بحفر الخندق في غزوة الأحزاب ، بجامع رجاء القبول عند الله تعالى فلم يذكروا ما يدلّ على المشبه به ولكنهم طووه ورمزوا إليه بما هو من لوازمه التي عرف بها ، وهو قول النبي تلك المقالة... رابعها: تمثيلية تبعية... (١)

فقه اللغة في تفسير ابن عاشور

للظاهر كلام نفيس في اللغة وفي فقه كلماتها ؛ حتى عدّه بعض الباحثين صاحب معجم خاص (٢) كان نتاج حصيلة الشيخ اللغوية والعلمية .

وأذكر مثالا على ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر إذ يقول في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢] حيث قال : " ومعنى {مَا يَبْغِي} ما يتأتى، أو ما يجوز. وأصل الانبغاء: أنه مطاوع فعل بغي الذي بمعنى طلب. ومعنى مطاوعته: التأثر بما طلب منه، أي استجابة الطلب، نقل الطيبي عن الزمخشري أنه قال في كتاب سيبويه: كل فعل فيه علاج

(١) ابن عاشور ٣٠٠/١-٣٠١

(٢) المرجع نفسه ٢٣١/١٢

(٣) انظر د عزام خالد ، علم المناسبة عند الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير ص ١٠٩

يأتي مطاوعه على الانفعال كصرف وطلب وعلم، وما ليس فيه علاج كعدم وفقد لا يتأتى في مطاوعه الانفعال البتة ا.هـ . فبان أن أصل معنى {يَبْغِي} يستجيب الطلب. ولما كان الطلب مختلف المعاني باختلاف المطلوب لزم أن يكون معنى {يَبْغِي} مختلفا بحسب المقام فيستعمل بمعنى: يتأتى ، ويمكن، ويستقيم، ويليق. وأكثر تلك الإطلاقات أصله من قبيل الكناية واشتهرت فقامت مقام التصريح .

والمعنى في هذه الآية : وما يجوز أن يتخذ الرحمان ولدا. بناء على أن المستحيل لو طلب حصوله لما تأتى لأنه مستحيل لا تتعلق به القدرة، لا لأن الله عاجز عنه. ونحو قوله: {قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ} [الفرقان: ١٨] يفيد معنى: لا يستقيم لنا، أو لا يخول لنا أن نتخذ أولياء غيرك، ونحو قوله {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ} [يس: من الآية ٤٠] يفيد معنى لا تستطيع. ونحو {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس: من الآية ٦٩] يفيد معنى: أنه لا يليق به. ونحو {وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} يفيد معنى: لا يستجاب طلبه لطالبه إن طلبه، وفرق بين قولك: ينبغي لك أن لا تفعل هذا، وبين لا ينبغي لك أن تفعل كذا، أي ما يجوز لجلال الله أن يتخذ ولدا لأن جميع الموجودات غير ذاته تعالى يجب أن تكون مستوية في المخلوقية له والعبودية له. وذلك ينافي البنوة لأن بنوة الإله جزء من الإلهية، وهو أحد الوجهين في تفسير قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]، أي لو كان له ولد لعبده قبلكم . " (١)

علم المناسبة عند ابن عاشور :

علم المناسبة علمٌ جليلٌ كان البقاعي قد ألف فيه مؤلفه المشهور : نظم الدرر ، الذي ضمّنه كثيراً من المناسبات ، وكذا الرازي في مفاتيح الغيب . ولكن ابن عاشور تطلع إلى جديد لم يبينوه أو ثمين تركوه فلم ينتبهوا إليه فكان مما قاله في ذلك عنهم : " . . . إلا أنهما لم يأتيا في

كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع، " (١) ولم يكن هذا الكلام ادعاء من ابن عاشور، فقد بيّن كثيرا من المناسبات التي لم يذكرها غيره، أذكر وأكتفي بمثال واحد يكفي ليدل على اهتمام ابن عاشور بهذا الفن بل وبإتيانه بوجوه لم تقع بأذهان أسلافه ممن عنوا ببيان هذا الفن .

يقول ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّكُم مِّن قِبَلِهِمُ اتِّبَاعًا كَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ قَدِ اتَّبَعُوا مَا يَتَّبِعُونَ الْأَنْبِيَاءَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَمَّا جَاءَ الْوَعْدَ لَنَلْبَسُنَّ أَزْوَاجَهُمْ حَيْثُ اتَّبَعُوا الْأَنْبِيَاءَ وَلَنَبْسُوَنَّ بِأُفْسُسِ الْفِتْرِاتِ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٢] : " قد خفي موقع هذه

الآية من الآي التي بعدها لأن الظاهر منها أنها إخبار عن أمر يقع في المستقبل وأن القبلة المذكورة فيها هي القبلة التي كانت في أول الهجرة بالمدينة وهي استقبال بيت المقدس وأن التولي عنها هو نسخها باستقبال الكعبة فكان الشأن أن يترقب طعن الطاعنين في هذا التحويل بعد وقوع النسخ أي بعد الآيات الناسخة لاستقبال بيت المقدس لما هو معلوم من دأبهم من التردد للطعن في تصرفات المسلمين فإن السورة نزلت متتابعة، والأصل موافقة التلاوة للنزول في السورة الواحدة إلا ما ثبت أنه نزل متأخرا ويتلى متقدما.

والظاهر أن المراد بالقبلة المذكورة القبلة المنسوخة وهي استقبال بيت المقدس أعني الشرق وهي قبلة اليهود ولم يكشف أحد من المفسرين وأصحاب أسباب النزول الغليل في هذا على أن المناسبة بينها وبين الآي الذي قبلها غير واضحة فاحتاج بعض المفسرين إلى تكلف إبدائها. والذي استقر عليه فهمي أن مناسبة وقوع هذه الآية هنا مناسبة بدیعة، وهي أن الآيات التي قبلها تكرر فيها التنويه بإبراهيم وملته والكعبة، وأن من يرغب عنها قد سفه نفسه؛ فكانت مثارا لأن يقول المشركون: ما ولي محمدا وأتباعه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكة أي استقبال الكعبة مع أنه يقول أنه على ملة إبراهيم ويأبى عن اتباع اليهودية والنصرانية، فكيف ترك قبلة إبراهيم واستقبل بيت المقدس، ولأنه قد تكررت الإشارة في الآيات السابقة إلى هذا الغرض بقوله:

{وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [البقرة: ١١٥]. وقوله: {وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة: ١٢٠] كما ذكرنا هنالك، وقد علم الله ذلك منهم فأنبأ رسوله بقولهم، وأتى فيه بهذا الموقع العجيب وهو أن جعله بعد الآيات المشيرة له، وقبل الآيات التي أنزلت إليه في نسخ استقبال بيت المقدس، والأمر بالتوجه في الصلاة إلى جهة الكعبة، لئلا يكون القرآن الذي فيه الأمر باستقبال الكعبة نازلا بعد مقالة المشركين ويشمخ بأنوفهم يقولون غير محمد قبلته من أجل اعتراضنا عليه؛ فكان لموضع هذه الآية هنا أفضل تمكن وأوثق ربط، وبهذا يظهر وجه نزولها

قبل آية النسخ وهي قوله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [البقرة: ١٤٤] الآيات لأن مقالة المشركين أو توقعها حاصل قبل نسخ استقبال بيت المقدس وناشئ عن التنويه بملة إبراهيم والكعبة^(١). فانظر كيف جاء ابن عاشور بمناسبة بديعة قد استقل فيها بفهم خالف فيه من سبقه من المفسرين.

القراءات . . .

لو رجعنا للمقدمة السادسة من مقدمات ابن عاشور لوجدنا أنها تتحدث عن القراءات وكل كلامه هناك يدل على تمكنه من هذا الجانب من علوم القرآن الكريم ، والمتتبع لتفسير ابن عاشور يرى ذلك بوضوح فهو يبين القراءات في الآية ويوجِّهها ، وكانت قراءة ابن عاشور هي قراءة نافع يدل لذلك قوله : " وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي بعد الراء من رأيت ألفا . وروى المصريون عن ورش عن نافع إبدالها ألفا وهو الذي قرأنا به في تونس ، وهكذا في فعل "رأى" كلما وقع بعد الهمزة استنفهام وذلك فرار من تحقيق الهمزتين، قرأ الجمهور بتحقيقها." ^(٢)

ولم أجد أن من منهج ابن عاشور أن يرجح قراءة متواترة على أخرى ؛ بل إنه كان يدافع عن كل قراءة متواترة ومن ذلك قوله مثلاً: " وقراءة الجمهور {تَحْسَبَنَّ} بناء الخطاب. وقرأ ابن عامر وحمزة وحده بياء الغيبة فصار {الَّذِينَ كَفَرُوا} فاعل يحسبن فيبقى ليحسبن مفعول واحد هو {مُعْجِزِينَ} . فقال أبو حاتم والنحاس والفرء: هي خطأ أو ضعيفة لأن فعل الحسبان يقتضي مفعولين. وهذا القول جراءة على قراءة متواترة. وقال الزجاج: المفعول الأول محذوف تقديره : أنفسهم، وقد وفق لأن الحذف ليس بعزيز في الكلام. وفي الكشاف أن {في الأرض} هو المفعول الثاني، أي لا يحسبوا ناسا معجزين في الأرض يعني ما من كائن في الأرض إلا وهو في متناول قدرة الله إن شاء أخذه، أي فلا ملجأ لهم في الأرض كلها قال: وهذا معنى قوي جيد." ^(٣)

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٥٠٧/٢ - ٥٠٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ٤٩٦/٣٠ ،

(٣) المرجع نفسه ، ٢٣٢/١٨ ،

الفقه عند ابن عاشور :

لقد مر فيما سبق ملامح من شخصية ابن عاشور الفقهية كالمناصب الإفتائية والقضائية التي تولاها في تونس ، وتظهر أيضا هذه الشخصية الفقهية من خلال فتواه كفتوى التجنس وغيرها ، وتفسير التحرير والتنوير كان مودعا بذلك الفقه من ذلك الفقيه المفسر .

وابن عاشور كان ممن تزلع من أصول الفقه فضلا عن الفقه وكان مالكي المذهب ولكنه يخالف إن رأى الحق مع غيره (1) ، وأنقل هنا مثلا جامعا يدل على إبداعه للمسائل الفقهية في تفسيره وعرضه لأقوال الفقهاء وتعقيباتهم لبعضهم البعض ، وموقفه من تلك الأقوال وترجيحه بينها ، فضلا عن رجوعه في ذلك لعلم أصول الفقه ، ومراعاته لمصالح العامة مع مراعاة مقاصد الشريعة ، يقول رحمه الله تعالى في تفسير قوله جل وتبارك : {فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} [النساء ٦]: " تفرغ عن قوله {فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} وهو أمر الإشهاد عند الدفع، ليظهر جليا ما يسلمه الأوصياء لمحاجيرهم ، حتى يمكن الرجوع عليهم يوما ما بما يطلع عليه مما تخلف عند الأوصياء، وفيه براءة للأوصياء أيضا من دعاوي المحاجير من بعد. وحسبك بهذا التشريع قطعاً للخصومات .

والأمر هنا يحتمل الوجوب ويحتمل الندب، وبكل قالت طائفة من العلماء لم يسم أصحابها : فإن لوحظ ما فيه من الاحتياط لحق الوصي كان الإشهاد مندوبا لأنه حقه فله أن لا يفعله، وإن لوحظ ما فيه من تحقيق مقصد الشريعة من رفع التهاجر وقطع الخصومات، كان الإشهاد واجبا نظير ما تقدم في قوله تعالى {إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} [البقرة: ٢٨٢] ، وللشريعة اهتمام

بتوثيق الحقوق لأن ذلك أقوم لنظام المعاملات. وأياً ما كان فقد جعل الوصي غير مصدق في الدفع إلا ببينة عند مالك . . . ، ونقل الفخر عن الشافعي موافقة قول مالك، إلا أن الفخر أحتج بأن ظاهر الأمر للوجوب وهو احتجاج واه لأنه لا أثر لكون الأمر للوجوب أو للندب في ترتب حكم الضمان، إذ الضمان من آثار خطاب الوضع، وسببه هو انتفاء الإشهاد، وأما الوجوب والندب فمن خطاب التكليف وأثرهما العقاب والثواب. وقال أبو حنيفة: هو مصدق بيمينه لأنه عده آمينا، وقيل: لأنه رأى الأمر للندب. وقد علمت أن محمل الأمر بالإشهاد لا يؤثر في حكم الضمان. " (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٢٣٩/٤-٢٤٠.

(٢) المرجع نفسه ، ٣٦/٤.

مباحث العقيدة عند ابن عاشور :

لا شك أن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر هذا الدين وهو أول ما يرجع إليه في العقائد ، ولقد حوى القرآن الكريم آيات متعددة في العقائد ؛ كصفات الله سبحانه ، وما يتعلق بأنبيائه عليهم السلام ، أو أمور اليوم الآخر ...

ولقد كان لكل من أصحاب الأهواء والنحل في العقائد فهما خاصا لهذه الآيات ، وكان ابن عاشور يبين تلك الأقوال ويعرض لها ويردها على قائلها بفهم يجعل كل من اللغة والنقل والعقل السيد أساسا له ، حيث رد على بعض الفرق الإسلامية على رأسهم المعتزلة ؛ بل كان يحكم بين أقوال المعتزلة والمتكلمين من أشاعرة وماتريدية ، فهو يعرض للأقوال وأدلتها ويحللها بمنهج سوي وبكل موضوعية ، فعلى سبيل المثال الأشاعرة يرجح قولهم أحيانا ، وأحيانا يجعله مرجوحا .^(١) وهكذا يناقش بموضوعية كل فرقة من الفرق .

ومن ذكره للمسائل العقيدية أنه قال في تفسير قوله تعالى ﴿... وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٦٤﴾

﴿ [النساء] في فائدة ذكر المصدر {تكليما} : " فمعنى قوله تكليما هنا: أن موسى سمع كلاما من عند الله، بحيث لا يحتمل أن الله أرسل إليه جبريل بكلام، أو أوحى إليه في نفسه. وأما كيفية صدور هذا الكلام عن جانب الله فغرض آخر هو مجال للنظر بين الفرق، ولذلك فاحتجاج كثير من الأشاعرة بهذه الآية على كون الكلام الذي سمعه موسى الصفة الذاتية القائمة بالله تعالى احتجاج ضعيف . وقد حكى ابن عرفة أن المازري قال في شرح التلفين : إن هذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله كلم موسى مباشرة بل بواسطة خلق الكلام لأنه أكد بالمصدر، وأن ابن عبد السلام التونسي، شيخ ابن عرفة، رده بأن التأكيد بالمصدر لإزالة الشك عن الحديث لا عن المحدث عنه. وتعقبه ابن عرفة بما يؤول إلى تأييد رد ابن عبد السلام. " ^(٢)

وابن عاشور يشبع المسألة العقيدية شرحا حتى يبلغ إن اقتضت الضرورة عدة صفحات ككلامه في صفة الكلام لله تعالى واختلاف الفرق في فهمها ^(٣) وكلامه في فهم استواء الله تعالى على العرش ^(٤) وابن عاشور يعرف أيضا بالديانات الفاسدة وأصلها ومبادئها ويرد كيدها في نحرها^(٥)

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١٨٥/١-١٨٦

(٢) المرجع نفسه ٣٢٠/٤-٣٢١

(٣) المرجع نفسه ، ٣١٨/٤-٣٢١

(٤) المرجع نفسه ١٢٤/٨-١٢٧ وغيرها من المسائل (٥) المرجع نفسه ، ١٦٢/١٧-١٦٣

الاتجاه العلمي عند ابن عاشور:

لقد أودع الله تعالى في كتابه المقروء كثيرا من آياته الكونية التي تلفت الأنظار إلى تدبر آيات كتابه المنظور سبحانه ، وتأتي هذه الدراسة لتقف على تفسيرات ابن عاشور لهذه الآيات ، تعرضها وتحللها فابن عاشور قد أودع تفسيره التحرير والتنوير كثيرا من الإشارات والتفسيرات العلمية التي عرضت إليها الآيات الكريمة ، فحوى القضايا المتعددة في علوم الفلك ، وعلوم الأرض ، وعلوم الأحياء في الحيوان والنبات ، وقبل كل ذلك في آيات الله تعالى في الإنسان نفسه. وكان كلام ابن عاشور العلمي في تفسيره منطلقا من فهم خاص به للإعجاز العلمي على النحو الآتي :

ابن عاشور يرى أن الإعجاز العلمي هو من أوجه إعجاز القرآن الكريم ، ومما يميز فهمه للإعجاز العلمي أنه يدخل فيه :

- بعض الحقائق التاريخية التي لا يعلمها إلا علماء أهل الكتاب ، مثل تسمية القرآن الكريم لمَلِك مصرَ في سورة يوسف ملكاً فقال مثلاً : " وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان ... " الآية (٥) يقول ابن عاشور : " . . . فسمّاه ملكاً ولم يسمّه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكاً لمصر أيام حكمها "الهكسوس" ، وهم العمالقة ، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي البدو. وقد ملكوا بمصر من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٥٢٥ قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - . وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقي لها حكم في مصر العليا في مدينة طيبة . . . وكان ملكهم في تلك المدة ضعيفا لأن السيادة كانت لملوك مصر السفلى .

ويقدر المؤرخون أن ملك مصر السفلى في زمن يوسف - عليه السلام - كان في مدة العائلة السابعة عشرة. فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر في زمن موسى - عليه السلام - بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي^(١) .
- والقسم الآخر من الإعجاز العلمي ما يقول فيه ابن عاشور : " ومن طرق إعجازه العلمية أنه دعا للنظر والاستدلال، قال في الشفاء ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد للعرب، ولا يحيط بها أحدهم علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه

(١) ابن عاشور التحرير والتنوير ، ١٢/٦٨-٦٩

على طرق الحجة العقلية، والرد على فرق الأمم ببراہین قوية وأدلة كقوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} (١)

- والقسم الأخير هو ذكره للحقائق العلمية التي تنبج للناس شيئا فشيئا حسب تطور العلوم وقد جاء بها القرآن على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن له علم بتلك العلوم التي ترد إليها تلك المسائل . (٢) ،

يرى ابن عاشور أيضا أن هذا الوجه لا ينتظم القرآن جميعه بل يحصل من مجموعته لأنه غير متأت من كل آية وهذا صحيح لأن الآيات التي حوت الإعجاز العلمي معدودة (٣)، وأن هذا الإعجاز لم يقع التحدي به إلا إشارة ، وذكر قول الله تعالى : "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" [النساء ٨٢] وذكر استدلاله بحديث "ما من الأنبياء نبي إلا أوتي أو أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي وإني أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" (٤) ، فقال الشيخ في استدلاله بهذا الحديث : " ففيه نكتتان غفل عنهما شارحوه: الأولى أن قوله "ما مثله آمن عليه البشر" اقتضى أن كل نبي جاء بمعجزة هي إعجاز في أمر خاص كان قومه أعجب به وأعجز عنه فيؤمنون على مثل تلك المعجزة. ومعنى آمن عليه أي لأجله وعلى شرطه، كما تقول على هذا يكون عملنا أو اجتماعنا، الثانية أن قوله وإنما كان الذي أوتيت وحيا اقتضى أن ليست معجزته من قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسل الأولين أفعالا لا أقوالا، كقلب العصا وانفجار الماء من الحجر، وإبراء الأكمه والأبرص، بل كانت معجزته ما في القرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعاني، وبذلك يمكن أن يؤمن به كل من يبتغي إدراك ذلك من البشر ويتدبره ويفصح عن ذلك تعقيبه بقوله: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا إذ قد عطف بالفاء المؤذنة بالترتب، فالمناسبة بين

(١) المرجع نفسه ، ١٢٤/١

(٢) المرجع نفسه ١٢٤/١-١٢٥

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١٢٥/١

(٤) البخاري ، محمد بن إسماعيل (١٤٢٢) ، الجامع الصحيح ، (تحقيق : محمد بن زهير الناصر ، وبهامشه تعليق د. البغا) ط١ ، حديث رقم (٤٩٨١) ١٨٢/٦ ، دار طوق النجاة ، عمان . ومسلم ، أبو الحسن القشيري ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ حديث رقم (٢٣٩) ص ١٤٤/١ دار إحياء التراث العربي ، بيروت

كونه أوتي وحيا وبين كونه يرجو أن يكون أكثرهم تابعا لا تنجلي إلا إذا كانت المعجزة سالحة لجميع الأزمان حتى يكون الذين يهتدون لدينه لأجل معجزته أمما كثيرين على اختلاف قرائحهم فيكون هو أكثر الأنبياء تابعا لا محالة، وقد تحقق ذلك لأن المعني بالتابع التابع له في حقائق الدين الحق لا اتباع الادعاء والانتساب بالقول. ولعل الرجاء متوجه إلى كونه أكثر من جميعهم تابعا أي أكثر أتباعا من أتباع جميع الأنبياء كلهم، وقد أغفل بيان وجه التفرع في هذا اللفظ النبوي البليغ" (١)

وتأتي هذه الدراسة لتقف على تفسير ابن عاشور للآيات الكونية علماً بأن التفسير العلمي يحتاج إلى عدد من الضوابط :

أولها: هو أن لا يفسر القرآن الكريم إلا بالحقائق الثابتة (٢) التي أجمع عليها أهل الإختصاص لا بالفروض (٣) والنظريات (٤).

وهنا يقال أنه لا تنافي بين الحقائق العلمية وبين القرآن الكريم فالقرآن الكريم هو كتاب الله المقروء والكون وحقائقه هو كتاب الله المنظور وكلاهما يشهدان بقدرة الله فمحال أن يتعارضوا.

يقول الدكتور الغمراوي : " إن الحقائق هي سبيل الحق ، هي كلمات الله الكونية ينبغي أن نفسر بها كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيا والظنيات فهي عرضة للتصحيح والتعديل إن لم يكن للإبطال في أي وقت فسبيلها أن تعرض على القرآن ليتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون مقدار حظها من الصواب " (٥)

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ١٨/١

(٢) الحقائق العلمية هي النظرية العلمية التي توافرت للنتائج المساندة لها إلى أن أصبحت مقطوعا بها غير

قابلة للشك أو التعديل انظر ابو حجر التفسير العلمي في الميزان مصدر سابق ٨٤

(٣) الفرض العلمي هو رأي يحاول به الباحث تفسير ظاهره شاهدها / ابو حجر التفسير العلمي في الميزان

٨٤

(٤) هو الفرض الذي يؤيد بنتائج التجارب التي تختبر صحته / ابو حجر التفسير العلمي في الميزان ٨٤

(٥) الغمراوي ، محمد أحمد (١٩٧٣م) ، الإسلام في عصر العلم ص ٢٢٤ ، دار السعادة القاهرة

ويشير استاذنا الفاضل الاستاذ الدكتور فضل عباس - رحمه الله - إلى اشتراط عدم مخالفة صحيح المأثور من كلامه صلى الله عليه وسلم أو ما له حكم المرفوع ، وإلى "موافقة اللغة موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي . وإلى " موافقة سياق الآيات بحيث لا يكون التفسير نافراً عن السياق (١)

واشترط بعض أهل الاختصاص أن يسير هذا التفسير مع السنن والقوانين التي أودعها الله تعالى في هذا الكون دون أن يتعرض لما جرى أو سيجري على خلاف هذه السنن المعتادة كمعجزات الأنبياء عليهم السلام فهي ليست مما يخضع للتفسير العلمي (٢) وكذلك سنن وقوانين الآخرة لأنها مختلفة عن سنن الحياة الدنيا وكذلك عدم الخوض في الأمور الغيبية غيبة مطلقة كالذات الإلهية والروح والملائكة والجن . (٣)

رابعا : اقول أنه لا بد لصحة التفسير العلمي من أن يصدر عن أهلٍ للتفسير أقصد أن يتوفر فيه شروط المفسر أولاً كالعلم بعلم القرآن من ناسخ ومنسوخ و أسباب نزول و عام وخاص ومطلق ومقيد ... وكذلك علوم اللغة وغيرها من شروط المفسر ، وإن قيل أن المفسر لا يكون عالماً بالعلوم المختصة ببيان الحقيقة العلمية المراد تفسير الآية بها مثلاً ، يقال أن المفسر يأخذ الحقائق

من أصحابها وهو الذي ينزل تلك الحقائق على آيات القرآن الكريم ، والناظر في كتب التفسير العلمي يرى كثيراً من الأخطاء التي وقعت بسبب إغفال هذا الأمر .

خامساً : أن لا يغفل المفسر للقرآن تفسيراً علمياً عن أن القرآن هو كتاب إعجاز وهداية لا كتاب طب أو كيمياء أو هندسة فالقرآن لم يقصد تعليمنا تلك العلوم بذكره لهذه الحقائق وإنما التنبيه على قدرة الله تعالى والتفكير في تلك الآيات المعجزة لتقود إلى الإيمان بالله تعالى . (٤)

(١) اد . فضل عباس ، اعجاز القرآن الكريم ، مصدر سابق ٢٥٨ . ٢٦٠

(٢) المرجع نفسه .

(٣) د. النجار ، الأرض في القرآن ، مصدر سابق ٧٢-٧٣

(٤) انظر ابو حجر ، التفسير العلمي في الميزان مصدر سابق ص ١١٩

**الباب الأول : تفسير آيات خلق السماوات وأوصافها وما فيها عند ابن
عاشور .**

وفيه فصول . . .

الفصل الأول : تفسير آيات خلق السماوات .

الفصل الثاني : أوصاف السماء في القرآن .

الفصل الثالث : تفسير آيات الشمس والقمر في القرآن

الفصل الرابع : تفسير آيات الكواكب والشهب والنجوم

الفصل الأول : تفسير آيات خلق السماوات .

المبحث الأول : معنى السماوات . وفيه :

المطلب الأول : معنى السماء لغة .

المطلب الثاني : استعمالات القرآن الكريم للفظ السماء .

المطلب الثالث : المراد بالسماوات السبع .

المبحث الثاني : كيفية الخلق والمراد بفتق الرتق .

المبحث الثالث : أيهما أسبق في الخلق السماء أم الأرض .

المبحث الرابع : مدة خلق السماوات .

المبحث الأول : معنى السماوات (١)

المطلب الأول : معنى السماء لغة .

إنّ لبيان المعنى اللغوي للفظ "السماء" أهمية كبيرة في تحديد المراد بالسماوات السبع، وقد تعرض الإمام ابن عاشور لمعنى كلمة " سماء " في اللغة حيث حدّد المعنى اللغوي للسماء عند تفسيره لقوله تعالى : **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ**

سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ [البقرة ٢٩] ؛ فيقول : " والسماء مشتقة من السمو وهو العلو

واسم السماء يطلق على الواحد وعلى الجنس من العوالم العليا التي هي فوق العالم الأرضي...^(٢) ويقول أيضا مناقشا للزمخشري : " . . . إن الأرض لم تطلق على غير الكرة الأرضية إلا مجازا...بخلاف السماء أطلقت على كل ما علا فأطل . . . " ^(٣) ، وكلام ابن عاشور في تعريف مفردة السماء لا يخرج عما قرره أهل اللغة . حيث يقول صاحب لسان العرب مشيرا إلى أصل الكلمة : " السَّمُوُّ الارتفاعُ والعلوُّ... وسماءُ كلِّ شيءٍ أعلاه... والسماءُ كلُّ ما علاك فأظلكَ ومنه قيل لسقفِ البيتِ سماءً وإذا دُكِّرتِ السماءُ عَنَوًا به السقفُ " ^(٤)

وأنبه على قضية مهمّة في هذا التعريف قبل الانتقال لقضية أخرى ، وهي أن هناك قيّدان في هذا التعريف ، أولاهما الارتفاع ، وثانيهما الإطلال ، وهما في تعريف ابن عاشور وأهل اللغة .

(١) لقد رأيت أن أقدم الباب المتعلق بالسماوات على الباب المتعلق بالأرض لأن ذلك هو أسلوب القرآن الكريم

من مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿١٠﴾ [آل عمران

١٩٠] ونظائرها من الآيات

(٢) ابن عاشور التحرير مصدر سابق ٣٧٩/١

(٣) المرجع نفسه ٣٧٩/١

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ، ٣٩٧/١٤

المطلب الثاني : استعمالات القرآن الكريم للفظ السماء ...

لقد تتبعت ابن عاشور في تفسيره لآيات السماوات فوجدته يرى أن السماء تطلق في القرآن الكريم على أكثر من معنى على النحو الآتي :

المعنى الأول : الجو المحيط بالكرة الأرضية الذي ألقه الناس والذي نعرف فيه لون الزرقة وعليه يحمل معنى السماء في أغلب الآيات التي ذكرت فيها السماء فهو يقول مثلاً في تفسير قوله

تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿١٦٤﴾ [البقرة] : " والسماء إذا

أطلقت مفردة فالمراد بها الجو المرتفع فوقنا الذي يبدو كأنه قبة زرقاء وهو الفضاء العظيم الذي

تسبح فيه الكواكب وذلك المراد في نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا

لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ [الملك] وقوله ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ [

الصفافات] ... " ٥١ (١)

المعنى الثاني : أن يراد بالسماء الجنس (العوالم المتباعدة عن الأرض) وتشمل الآيات التي

تتحدث عن إحاطة علم الله تعالى بما في السماوات كقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْفِي عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ [آل عمران] ، يقول الشيخ : " والمراد بالسماء جنس السموات : وهي

العوالم المتباعدة عن الأرض . (٢)

المعنى الثالث : عالم القدس يقول في تفسيره لقوله تعالى ﴿ لَا نُفْخِحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴿٤٠﴾ [الأعراف] :

" والسماء أطلقت في القرآن على الروحية والجنسانية على العالم الأرضي ، ومصدر المقادير

المقدرة قال تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ [الذاريات] ، فالسماء هنا مراد بها عالم

القدس . " (٣)

(١) ابن عاشور _ التحرير والتنوير _ مصدر سابق ٧٦/٢

(٢) المرجع نفسه ، ١٢/٣

(٣) المرجع نفسه ٩٧/٨

المعنى الرابع : الارتفاع ومنه قوله تعالى ﴿ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم] فيقول : " والسماء مستعمل في الارتفاع ، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر . " (١) و يحملها أيضا هنا على الهواء المرتفع (٢)

المعنى الخامس : المطر وهي في قوله تعالى : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ [نوح] يرسل فيقول : " والسماء من أسماء المطر تسمية للشيء باسم مصدره . وفي الحديث : « حَظَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ . » (٣) . " (٤)

المعنى السادس : السحاب ، حيث يقول ابن عاشور : " والسماء تطلق على الجو المرتفع ... وتطلق على السحاب . " (٥) وهذه الإطلاقات للسماء عند ابن عاشور جميعها لا تخرج عن أقوال المفسرين . (٦)

مصطلح " السماء الدنيا" والمراد به عند ابن عاشور :

كل ما سبق يكون إذا أطلقت السماء في القرآن أما إذا قيدت - وتقييدها كان بوصف (الدنيا) - فالأمر مختلف ، ففي مصطلح : " السماء الدنيا " يقول ابن عاشور : و {الدنيا} : " أصله وصف هو مؤنث الأدنى ، أي القريبى . والمراد : قربها من الأرض ، أي السماء الأولى من السماوات السبع . ووصفها بالدنيا : إما لأنها أدنى إلى الأرض من بقية السماوات ، والسماء الدنيا على هذا هي الكرة التي تحيط بكرة الهواء الأرضية وهي ذات أبعاد عظيمة . ومعنى تزيينها بالكواكب والشهب على هذا أن الله جعل الكواكب والشهب سابحة في مقعر تلك الكرة على أبعاد مختلفة ووراء تلك الكرة بقية السماوات السبع محيط بعضها ببعض في أبعاد لا يعلم مقدار سعتها إلا الله تعالى. ونظام الكواكب . . . على هذا من أحوال السماء الدنيا، ولا مانع من هذا لأن هذه

(١) ابن عاشور التحرير ٢٥٠/١٢ (٢) المرجع نفسه ٣١٣/١

(٣) الحديث أخرجه البخاري ، الجامع الصحيح ، مصدر سابق ، حديث رقم (٨١٠) (ج/١ ص ٢٩٠) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدِ الْجُهَنِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ . . .

(٤) ابن عاشور التحرير ، ١٨٤/٢٩

(٥) المرجع نفسه ٣١٣/١

(٦) انظر البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٤٤/٣ ، و الرازي ، مفاتيح الغيب ٦٣/١٤

اصطلاحات، والقرآن صالح لها، ولم يأت لتدقيقها ولكنه لا ينافيها. والسماء الدنيا على هذا هي التي وصفت في حديث الإسراء بالأولى. وإما لأن المراد بالسماء الدنيا الكرة الهوائية المحيطة بالأرض وليس فيها شيء من الكواكب ولا من الشهب وأن الكواكب والشهب في أفلاكها وهي السماوات الست والعرش، فعلى هذا يكون النظام الشمسي كله ليس من أحوال السماء الدنيا. ومعنى تزيين السماء الدنيا بالكواكب والشهب على هذا الاحتمال أن الله تعالى جعل أديم السماء الدنيا قابلاً لاختراق أنوار الكواكب في نصف الكرة السماوية الذي يغشاه الظلام من تباعد نور الشمس عنه فتلوح أنوار الكواكب متألئة في الليل فتكون تلك الأضواء زينة للسماء الدنيا تزدان بها. (١)

والآية صالحة للاحتمالين لأنها لم يثبت فيها إلا أن السماء الدنيا تزدان بزينة الكواكب ، وذلك لا يقتضي كون الكواكب سابحة في السماء الدنيا فالزينة متعلقة بالناس، والأشياء التي يزدان بها الناس مغايرة لهم منفصلة عنهم ومثله قولنا: ازدان البحر بأضواء القمر. (٢)

وأقول : إنّ المعنى الأول هو الأولى بالقبول والكواكب تقع ضمن جزء من السماء الدنيا التي لم ندرك أبعادها إلى الآن ، وسيُضح الأمر في المبحث القادم بإذن الله تعالى .

(١) يجيب الشيخ هنا عن إشكال هذا الفهم الأخير وتعارضه مع ما يبدو من قوله تعالى " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وهذا المعنى الذي ذهب إليه ابن عاشور مع حل الاشكال قد أشار إليه الرازي بقوله : " اعلم أن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن هذه الكواكب مركوزة في السماء الدنيا وذلك لأن السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو كانت في سموات أخرى فوقها فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح " الرازي ، مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ٥٣/٣٠

(٢) ابن عاشور ، التحرير ، ١/٢٣

المطلب الثالث : المراد السماوات السبع :

كلام ابن عاشور :

تحتل السماوات السبع عند ابن عاشور معاني متعددة ذكرها في مواضع متفرقة من كتابه على النحو الآتي :

المعنى الأول : هو أن السماوات السبع هي كواكب المجموعة الشمسية ، إذ يبين في تفسير قوله

تعالى : ﴿ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة] أن السماوات السبع يراد بها

الأجرام العلوية أو الكواكب السيارة المنتظمة مع الأرض وأخذ يدلل على ذلك بأمر منبهاً بداية على أن الله أعلم بها وهذه الأدلة :

" أحدها: أن السَّمَاوَاتِ دُكِرَتْ فِي غَالِبِ مَوَاضِعِ الْقُرْآنِ مَعَ ذِكْرِ الْأَرْضِ ، وَذَكَرَ خَلْقَهَا هُنَا مَعَ ذِكْرِ خَلْقِ الْأَرْضِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا عَوَالِمُ كَالْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ وَهَذَا ثَابِتٌ لِلسَّيَّارَاتِ .

ثانيها: أَنَّهَا دُكِرَتْ مَعَ الْأَرْضِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا أُدْلِلَتْ عَلَى بَدِيعِ صَنْعِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَنَاسِبٌ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُهَا تِلْكَ الْأَجْرَامِ الْمَشَاهِدَةَ لِلنَّاسِ الْمَعْرُوفَةَ لِلأُمَّمِ الدَّالَّةَ نِظَامَ سَيْرِهَا وَبَاهِرَ نَوْرِهَا عَلَى عِظَمَةِ خَالِقِهَا.

ثالثها: أَنَّهَا وَصِفَتْ بِالسَّبْعِ وَقَدْ كَانَ عُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ يَعْرِفُونَ السَّيَّارَاتِ السَّبْعَ مِنْ عَهْدِ الْكِلْدَانِ وَتَعَاقَبِ عُلَمَاءِ الْهَيْئَةِ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ إِلَى الْعَهْدِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ فَمَا اخْتَلَفُوا فِي أَنَّهَا سَبْعٌ .

رابعها: أَنَّ هَاتِهِ السَّيَّارَاتِ هِيَ الْكَوَاكِبُ الْمُنضَبِطُ سَيْرُهَا بِنِظَامٍ مُرْتَبِطٍ مَعَ نِظَامِ سَيْرِ الشَّمْسِ وَالْأَرْضِ ، وَلِذَلِكَ يَعْبُرُ عَنْهَا عُلَمَاءُ الْهَيْئَةِ الْمُتَأَخَّرُونَ بِالنِّظَامِ الشَّمْسِيِّ فَنَاسِبٌ أَنْ تَكُونَ هِيَ الَّتِي قَرْنَ خَلْقَهَا بِخَلْقِ الْأَرْضِ . وَبَعْضُهُمْ يَفْسِرُ السَّمَاوَاتِ بِالْأَفْلَاقِ وَهُوَ تَفْسِيرٌ لَا يَصِحُّ لِأَنَّ الْأَفْلَاقَ هِيَ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسْلُكُهَا الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ فِي الْفِضَاءِ ، وَهِيَ خَطُوطٌ فَرْضِيَّةٌ لَا ذَوَاتَ لَهَا فِي الْخَارِجِ . (٢) " (١)

(١) ابن عاشور التحرير ، ٣٧٩-٣٨٠

(٢) يقيم ابن عاشور هنا الأدلة على رأيه ولكن هذا الرأي باطل مردود والردّ عليه في الصفحة التالية .

ثم أخذ بعد ذلك يفصل في تعدادها فقال : " هذا وقد ذكر الله تعالى السماوات سبعا هنا وفي غير آية وقد ذكر العرش والكرسي بما يدل على أنهما محيطان بالسماوات وجعل السماوات كلها في مقابلة الأرض ، وذلك يؤيد ما ذهب إليه علماء الهيئة من عد الكواكب السيارة تسعة (١) وهذه أسماؤها على الترتيب في بعدها من الأرض : نبتون. أورانوس. زحل. المشتري. المريخ. الشمس. الزهرة. عطارد. بلكان (٢) . " (٣)

أما الأرض فبين أنها في اصطلاح الفلك كوكب سيار وفي اصطلاح القرآن لم تعد مع السماوات لأنها التي منها تنظر الكواكب ، وعُدَّ عوضاً عنها القمر وهو من توابع الأرض فعُدَّ منها عوض عن عد الأرض تقريبا لأفهام السامعين . وأما الثوابت فهي عند علماء الهيئة شمس سابعة في شاسع الأبعاد عن الأرض وفي ذلك شكوك. ولعل الله لم يجعلها سماوات ذات نظام كنظام السيارات السبع فلم يعدها في السماوات أو أن الله إنما عد لنا السماوات التي هي مرتبطة بنظام أرضنا. (٤)

ولعل هذا المعنى للسماوات هو الأرجح عنده وإن لم يصرح بذلك ، لكن رجحانه يظهر من تدليله عليه بالأدلة السابقة ، ثم بقطعه به دون ذكر أو إشارة إلى المعاني الأخرى التي ذكرها في تفسيره لبعض الآيات . (٥) وهو باطل لا يمكن قبوله كما سيتبين بعد قليل .

المعنى الثاني : طبقات من الأجواء مختلفة الخصائص :

حيث يقول في تفسير آية الكرسي : " أثبت القرآن سبع سماوات ولم يبين مسمّاها في قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح]

فيجوز أن تكون السماوات طبقات من الأجواء مختلفة الخصائص متميزة بما يملأها من العناصر ، وهي مسبح الكواكب ، . . . وإذا كانت السماوات أفلاكاً سبعة لشموس غير هذه الشمس ولكل فلك نظامه كما لهذه الشمس نظامها فذلك جائز وسبحان من لا تحيط بعظمة قدرته الأفهام فيكون المعنى على هذا أن الله تعالى نبهنا إلى عظيم قدرته وسعة ملكوته بما يدل على ذلك مع موافقته

(١) الإمام ابن عاشور هنا يعد الشمس من ضمن الكواكب التسعة وهذا خطأ والصحيح اعتبار الأرض أحد

الكواكب . انظر د. الطائي ، مدخل إلى علم الفلك ، ص ١٩٩

(٢) لعل الإمام يقصد باسم (بلكان) كوكب (بلوتو) لأنه لم يذكره مع الكواكب وكان مكتشفاً في عصره حيث تم

اكتشاف هذا الكوكب عام ١٩٣٠ م . انظر د. الطائي . مدخل إلى علم الفلك ص ٢٢٤

(٣) ابن عاشور التحرير ، ١ / ٣٨٠-٣٨١

(٤) المرجع نفسه ٢ / ٤٩٨

(٥) المرجع نفسه ، ١ / ٣٨١

لما في نفس الأمر ، ولكنّه لم يفصّل لنا ذلك لأنّ تفصيله ليس من غرض لاستدلال على عظّمته ، ولأنّ العقول لا تصل إلى فهمه لتوقفه على علوم واستكمالات فيها لم تتمّ إلى الآن ، ولتعلّم نباه بعد حين . " (١)

التحليل :

يرى ابن عاشور من خلال ما سبق أنّ المراد بالسموات يدور بين أمرين : الأول : أن السموات السبع هي كواكب المجموعة الشمسية وقيم الأدلّة على ذلك بكلام مردود من أوله إلى آخره - كما سألناه - ، أو أنها طبقات من الأجواء مختلفة الخصائص ، متميزة بما يملأها من العناصر .

كلام المعاصرين :

إذا ما انتقلنا إلى ما جاء به العلم الحديث من شأن السموات فإننا نجد خلافاً في ذلك فهناك من يقول بأنّ : الغلاف الجوي يحتوي سبع طبقات وهذه الطبقات هي السموات السبع (٢) وهذا القول غير مستساغ لأنه يجعلنا نتساءل : أين السماء الدنيا؟ أين موقع الأجرام السماوية وأعدادها ومساحاتها الهائلة؟ أين جوّ السماء على هذا الرأي ؟ الأمر الذي يُبعد هذا القول . ولعلّ أرجح ما قيل حديثاً ما قاله الأستاذ الدكتور زغلول النجار - حفظه الله- وهو أنّ كل ما هو مدرك الآن من الكون هو من ضمن السماء الدنيا التي لم تتجاوز أبعادها إلى الآن . (٣)

لأن علماء الفلك اكتشفوا أموراً عظيماً مما هو مدرك في هذا الكون وأكتفي هنا بالإشارة إلى اكتشاف نحو التريليون نجم كشمسنا (٤) ؛ فأين مكان هذه الأجرام العظيمة إن كانت السموات هي كواكب المجموعة الشمسية كما قال ابن عاشور ؟ الأمر الذي يُبعد قول ابن عاشور .

شواهد أخرى :

أقول : لتحديد المراد بالسموات السبع لا بد من الوقوف على معطيات الآيات القرآنية من جهة مع عدم إغفال ما توصل إليه العلم الحديث ، فالله تعالى أخبر أنه خلق سبع سموات من

(١) ابن عاشور ، التحرير ٤٩٨/٢

(٢) أ.د. النابلسي ، محمد راتب ، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، سوريا ، دار المكتبي ط٢-

٢٠٠٥ م- ١٤٢٦ هـ ، ص ٦٨

(٣) أ.د. النجار ، زغلول ، السماء في القرآن ، (ط ٢٠٠٥-١٤٢٦) ، السماء في القرآن ، لبنان ، بيروت ، دار المعرفة ط٣ ، ص ١٤٩ .

(٤) د. النجار ، زغلول ، السماء في القرآن ، لبنان ، بيروت ، دار المعرفة ط٣ ، ٢٠٠٥ م- ١٤٢٦ هـ ، ص ١٤٩

مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ

سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ [البقرة] ونظائرهما ، ووصفها الله تعالى بالطباق بقوله : ﴿ الَّذِي

خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣٠﴾ [المك] ،

وتعطينا هذه الآيات بعض ما يعين على تحديد المراد بالسموات :

أولها : إن الله تعالى سماها سماوات وسماء من حيث اللغة ما علاك فأظلك كما تبين قبل قليل ، ومن هنا لا نقول للكواكب المعروفة سماوات وإن علت لأنها لم تظل الأرض ، أو قل هي ليست فوقنا أصلاً . فضلاً عن ذلك فالأرض كوكب فهل هي سماء ؟

ثانيها : وجود الظرف " فوقكم " في بعض الآيات له دلالة ، فحتى تكون السماوات فوقنا - ومعلوم أن الأرض كرة - لا بد أن تغلف السماوات الأرض وتحيط بها من كل الجهات فتكون الأرض كالمركز للسماوات السبع .

ثالثها : وصفها بـ "طباقاً" أيضاً له دلالة من حيث أن كل سماء منها كالطبق يقول صاحب لسان العرب : والسمواتُ الطَّبَاقُ سميت بذلك لمُطَابَقَةِ بعضها بعضاً أي بعضها فوق بعض وقيل لأن بعضها مُطَبَّقٌ على بعض (١) فالسماوات على هذا طبقات على أبعاد متفاوتة .

رابعها : إن القرآن الكريم قد ذكر جوَّ السَّماء في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي

جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾ [النحل] : وجوَّ السَّماء هو

الالصيق بالأرض بدلالة أن الطيور تعيش في القسم السفلي من الغلاف الهوائي حيث لا تتجاوز معظمها واحد ونصف كيلومتر ارتفاعاً ؛ فالسما هو غلاف الأرض الهوائي وجو السماء هو الطبقة السفلية منه (٢)

خامسها : إن حديث المعراج يشير إلى أن السماوات السبع متباعدة وبينها مسافات تفتضي لمن يعبرها الصعود و العروج .

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ٢٠٩/١٠

(٢) السعدي ، داود ، أسرار الكون في القرآن ، دار الحرف العربي ط١٩٩٧م - ٥١٤١٧ ، ص ١١١

أما عن الاحتمالات التي ذكرها ابن عاشور في المراد بالسموات ؛ فالاحتمال الأول وهو أنها كواكب المجموعة الشمسية غير دقيق لتعارضه مع الحقائق السالفة ولأنه يوقعنا في إشكاليات منها : تحديد السماء الدنيا ، والإشكالية الأخرى : ما ذكر أنفا من وجود نحو التريليون نجم كشمسنا .

أما عن الاحتمال الثاني لما يراد بالسماء عند ابن عاشور وهو أنها طبقات من الأجواء مختلفة العناصر فإنه ينكر عليه أن السماء ما أظلم وهذه الطبقات السبع إذا وصفت أنها شفافة فهي لا تظلم!

فنخرج من كل ذلك بأن كواكب المجموعة الشمسية لا يمكن أن تكون السماوات السبع ، والقول بأنها طبقات مختلفة العناصر مقبول ولكن بإضافة قيود أخرى بأنها يغلف الخارج منها الداخل وهي على أبعاد متفاوتة وتحتوي على ما هو مدرك وغير مدرك من أجرام علوية ولكن إلى الآن لا نعرف تلك السماوات وحدودها على التعيين .

ورحم الله ابن عاشور إذ قد أجمل وأحسن حينما قال : قد أثبت القرآن سبع سماوات ولم يبين مسمّاها... إنّ الله تعالى نبهنا إلى عظيم قدرته وسعة ملكوته بما يدل على ذلك مع موافقته لما في نفس الأمر ، ولكنه لم يفصل لنا ذلك لأنّ تفصيله ليس من غرض الاستدلال على عظّمته ، ولأنّ العقول لا تصل إلى فهمه لتوقفه على علوم واستكمالات فيها لم تتمّ إلى الآن ، ولتعلّم نبأه بعد حين . " (١)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور في المراد بالسموات كلام مرجوح ومخالف للغة الآية وما اكتشفه العلم الحديث ، ولو اكتفى بوصفه للسماء بأنها طبقات أو اكتفى بعبارة الأخيرة لكان أقرب إلى الصواب، والله تعالى أعلم .

المبحث الثاني : كيفية الخلق والمراد بفتق الرتق :

من أشهر الآيات التي بينت أصل الكون وكيفية الخلق هي قول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا

أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ [الأنبياء] لكن

ما معنى هذا الإخبار من الله تعالى ؟ وما المراد بالرتق والفتق ؟

بداية أقول : هذه الآية من أوائل الآيات التي عدّها الشيخ ابن عاشور من قبيل الآيات التي حوت إعجازاً علمياً ؛ حيث أشار لذلك في المقدمة العاشرة من مقدّماته كمثل على المعجزات العلمية في القرآن .^(١) وبالتالي كان كلامه فيها متضمناً تفسيراً علمياً .

كلام ابن عاشور :

لقد بيّن ابن عاشور بداية ما يتعلق بمعنى الرؤية ومعنى الفتق والرتق فقال :
" ... والرؤية تحتل أن تكون بصرية وأن تكون علمية . . . والرتق : الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء . والفتق : ضده وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء .

والإخبار عن السماوات والأرض بأتهما رتق إخبار بالمصدر للمبالغة في حصول الصفة .
ثم إنّ قوله تعالى : { كَانَا } يحتمل أن تكونا معاً رتقاً واحداً بأن تكون السماوات والأرض جسماً ملتئماً متصلًا ، ويحتمل أن تكون كل سماء رتقا على حدتها ، والأرض رتقا على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله تعالى : { فَفَتَقْنَاهُمَا } .

وإنما لم يقل نحو : (فصارتا فتقا) لأنّ الرتق متمكن منهما أشد تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما ، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق إيماء إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي . " ^(٢)

(١) المقدمة العاشرة من مقدمات التحرير والتنوير ، ١/١٢٥

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٣٩/١٧-٤٠

ثم أخذ يبين المعاني المترتبة على احتمال أن تكون الرؤية بصرية أو علمية فقال :
" والرَّتقُ يحتمل أن يراد به معانٍ تنشأ على محتملاتها معانٍ في الفتنق، فإن اعتبرنا الرؤية
بصرية فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين
أجزاء الأرض ، والفتنق هو ما يشاهده الرائي من ضد ذلك حين يرى المطر نازلا من السماء
، ويرى البريق يلعجُ منها والصواعق تسقط منها ففتقها، وحين يرى انشقاق الأرض بماء
المطر وانبثاق النبات والشجر منها بعد جفافها، وكل ذلك مشاهد مرئي دال على تصرف الخالق،
وفي هذا المعنى جمع بين العبرة والمنة . . .

وإن اعتبرنا الرؤية علمية احتمل أن يراد بالرتق مثل ما أريد به على اعتبار كون الرؤية
بصرية، وكان الاستفهام أيضا إنكاريا متوجها إلى إهمالهم التدبر في المشاهدات. واحتمل أن يراد
بالرتق معانٍ غير مشاهدة ولكنها مما ينبغي طلب العلم به لما فيه من الدلائل على عظم القدرة
وعلى الوجدانية، فيحتمل أن يراد بالرتق والفتنق حقيقتاهما، أي الاتصال والانفصال. ثم هذا
الاحتمال يجوز أن يكون على معنى الجملة، أي كانت السماوات والأرض رتقا واحدا، أي كانتا
كتلة واحدة ثم انفصلت السماوات عن الأرض كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ۗ ﴿٧﴾ [هود] ويجوز على هذا الاحتمال أن
يكون الرتق والفتنق على التوزيع ، أي كانت السماوات رتقا في حد ذاتها وكانت الأرض رتقا في
حد ذاتها ، ثم فتنق الله السماوات وفتنق الأرض ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ
الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِّنْ فَوْقِهَا ... ﴾ في سورة فصلت . . .

ويحتمل أن يراد بالرتق العدم وبالفتنق الإيجاد. وإطلاق الرؤية على العلم على هذا الاحتمال ظاهر
لأن الرتق بهذا المعنى محقق أمرهما عندهم قال تعالى: { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } . ويحتمل أن يراد بالرتق الظلمة وبالفتنق النور، فالموجودات وجدت في
ظلمة ثم أفاض الله عليها النور بأن أوجد في بعض الأجسام نورا أضاء الموجودات. (١)

واختتم ابن عاشور هذه الاحتمالات باحتمال " أن يراد بالرتق اتحاد الموجودات حين كانت مادة واحدة أو كانت أثيرا أو عماء ، كما جاء في الحديث كان في عماء^(١) ، فكانت جنسا عاليا متحداً ينبغي أن يطلق عليه اسم مخلوق، وهو حينئذ كلي انحصر في فرد. ثم خلق الله من ذلك الجنس أبعاضا وجعل لكلّ بعض مميزات ذاتية ، فصار كل متميز بحقيقة جنسا فصارت أجناسا. ثم خلق في الأجناس مميزات بالعوارض لحقائقها فصارت أنواعا. وهذا الاحتمال أسعد بطريقة الحكماء وقد اصطالحوا على تسمية هذا التمييز بالرتق والفتق . . . " .^(٢)

ثم ختم ابن عاشور كلامه بأن " الآية تشمل جميع ما يتحقق فيه معاني الرتق والفتق إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعها جميعا، فتكون الآية قد اشتملت على عبرة تعم كل الناس وعلى عبرة خاصة بأهل النظر والعلم فتكون من معجزات القرآن العلمية التي أشرنا إليها في مقدمات هذا التفسير. " .^(٣)

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣١٠٩) ٢٨٨/٥ ، وابن ماجه في سننه برقم (١٨٢) ٦٤/١ ، وأحمد في مسنده (١٦١٨٨) ١٠٨/٢٦ كلهم يرووه عن أبي رزين العقيلي قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَ كَانَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: " كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ "

(٢) ابن عاشور ، التحرير ، ٤٢/١٧ ،

(٣) المصدر نفسه ٤٢/١٧

التحليل :

يظهر مما سبق أن ابن عاشور يرى أكثر من احتمال للمراد بالفتق والرتق وهذه الاحتمالات :

(١) أن يراد بالرتق والفتق حقيقتهما من الاتصال والانفصال ، ويجوز عنده أن يكون ذلك على الجملة أي كانت السماوات والأرض جميعا كتلة واحدة ثم انفصلت . أو أن يكونا على التوزيع ، أي كانت السماوات رتقا في حد ذاتها وكانت الأرض رتقا في حد ذاتها ثم فتق الله السماوات وفتق الله الأرض .

(٢) أن يراد بالرتق التنام السماء وعدم وجود خلل فيها ، وفتقها بنزول المطر وحدوث الصواعق، وفتق الأرض بشق النبات لها .

(٣) أن يراد بالرتق العدم وبالفتق الإيجاد .^(١)

٤ (أن الرتق هو اتحاد الموجودات حين كانت مادة واحدة والفتق خلق الأبعاض منها .

ثم إن ابن عاشور بعد ذلك لم يرجح احتمالا على آخر ؛ لكنني أرى أن في ذكره للآية في معرض الحديث عن الإعجاز العلمي في المقدمة العاشرة كدليل على الآيات التي حوت إعجازا علميا^(٢) ؛ أرى أن هذه قرينة على ترجيحه للقول الأول ، ثم ذكره له في بعض الآيات التي تذكر خلق السماوات والأرض قرينة أخرى ، وكذلك ابتداءه به هنا^(٣) .

(١) يشير لهذا المعنى أيضا في سورة النور في تفسير قوله تعالى : { الله نور السماوات والأرض } حيث يقول : " فيتعين أن يراد بالنور إفاضة الوجود المعبر عنه بالفتق في قوله تعالى: " كانتا رتقا ففتقناهما " . ا.هـ ، انظر

ابن عاشور ، التحرير ١٨٦/١٨

(٢) ابن عاشور ، التحرير ١٢٥/١

(٣) المرجع نفسه ٣٢٧/١ .

كلام المعاصرين :

لقد دلتُ قبل قليل على أن ابن عاشور يفهم من كلامه ترجيح المعنى الأوّل وهو أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت وقد بيّن العلم الحديث ذلك وجلاه بما سمي "الانفجار الكوني الكبير" ، إذ قد اكتشف حديثاً أن الكون يتسع ويتمدد وأصبح هذا الأمر حقيقة وقانوننا يعرف بقانون (هبل) وهو كما وصفه الأستاذ الدكتور زغلول النجار: بالونٌ رُسمَ على سطحه علامات نراها تتباعد مع زيادة حجم البالون وهو ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات] فالكون يتسع ويتمدد والمجرات تتباعد نتيجة

هذا التوسع ، ويدلُّ هذا التباعد بين المجرات على أنها جميعها كانت في حيز واحد ثم اعترأها انفجار عظيم حيث كانت المادة فيه منضغطة في حيز صغير ذي كثافة عالية وقد تأكد العلماء بعد ذلك من هذا الأمر من خلال أمور أهمها اكتشاف إشعاع الخلفية السّماوية ، والنظريّة الساندة الآن في تفسير نشأة الكون هي نظرية الانفجار الكوني وهي مدعّمة بحقائق ثابتة وهذه الحقائق والقرائن هي :

أولاً : مبدأ توسع الكون المشار إليه بقوله تعالى : : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

[الذاريات] .

الثاني : اكتشاف الخلفية الإشعاعية للكون المدرك : وهي على هيئة إشارات راديوية منتظمة وسوية الخواص، قادمة من كافة الاتجاهات في السماء، وفي كل الأوقات دون أدنى توقف أو تغير، ولم يتمكنوا من تفسير تلك الإشارات الراديوية، المنتظمة، السوية الخواص إلا بأنها بقية للإشعاع الذي نتج عن عملية الانفجار الكوني العظيم^(١)

الثالث : تصوير الدخان الكوني على أطراف الجزء المدرك من الكون : وتصوير بقايا الدخان الكوني الناتج عن عملية الانفجار العظيم على أطراف الجزء المدرك من الكون (على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية)، وأثبتت أنها حالة دخانية معتمة سادت الكون بعد خلق السماوات

(١) انظر : أ.د. النجار ، السماء في القرآن ، مصدر سابق ١٠١-١٠٢

والأرض^(١) ، ومن العجيب أن ابن عاشور قد أشار إلى دُخَانِيَةِ السماء وهي حالة كانت عليها السماء بعد فتقها وهي ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ [فصلت] حيث قال : " . . . والدخان : ما يتصاعد من

الوقود عند التهاب النار فيه ، وقوله { وَهِيَ دُخَانٌ } تشبيهه بليغ، أي وهي مثل الدخان، وقد ورد في الحديث "أنها كانت عماء".^(٢) وقيل: أراد بالدخان هنا شيئاً مظلماً ، وهو الموافق لما في

سفر التكوين من قولها "وعلى وجه الغمر ظلمة" ^(٣) وهو بعيد عن قول النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن في الوجود من الحوادث إلا العماء ، والعماء: سحاب رقيق^(٤) ، أي رطوبة دقيقة وهو تقريب للعنصر الأصلي الذي خلق الله منه الموجودات . " ^(٥)

الشواهد الأخرى :

وتدُلّ بعض الشواهد أيضا على ترجيح أن السَّمَاوَاتِ والأرض كانتا كتلةً واحدةً ملتزقةً ففصلهما الله تعالى ، وهذه الشواهد هي :

أولا : إنَّ لُغَةَ الآية تقتضي ذلك فإن المعنى المباشر للرَّتْقِ والفَتْقِ هو الاتصال والانفصال ، كما ورد في نص كلام ابن عاشور وهو المشهور لغة يقول صاحب لسان العرب : " الرَّتْقُ ضِدُّ الفَتْقِ قال ابن سيده الرَّتْقُ إلحام الفَتْقِ وإصلاحه رَتَّقَهُ يَرَتِّقُهُ وَيَرْتِقُهُ رَتَّقًا فَارْتَقَتْ أَي التَّامُ . . . وفي التنزيل { أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا }...وروى عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الليل هل كان قبل النهار ؟ فتلا أن السماوات والأرض كانتا رَتْقًا قال

(١)أ.د. النجار ، السماء في القرآن،مصدر سابق ١٠٢

(٢)الحديث تقدّم تخريجه انظر ص

(٣) العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الأول ص ٣ ، وأنا أنكر هنا احتكام ابن عاشور ورجوعه للتوراة فإنّ في شرعنا غنى عن كل ذلك .

(٤) انظر المباركفوري ، تحفة الأحوذى ٤٢٠/٨ دار الكتب العلمية بيروت

(٥) ابن عاشور ، التحرير ٢٥/٢٠

والرَّتْقُ الظُّلْمَةُ . . . والراتقُ المُلتئمُ من السحاب... الرَّتْقَاءُ المرأةُ المُنضَمَّةُ الفرج التي لا يكاد الذكر يجوز فرجها لشدة انضمامه " (١)

أما أن يُراد بالرتق الظلام والفتق النور فلم يذكره أهل اللغة إلا من قول ابن عباس رضي الله (٢) ولم أجد في غير قوله فتنشأ احتمالية أن المعنى الأول حقيقة والثاني مجاز .

ثانياً: إنَّ هذا الرأي أقوى الأقوال نقلاً وأثراً فقد أورد الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه :

" كانتا ملتصقتين، فرفع السماء ووضع الأرض " وروى عن قتادة ما يشبهه . (٣)

وأورد ابن كثير مثل ذلك وزاد على رواية ابن عباس الأولى مثلها عن سعيد بن جبير الذي قال : بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن : " كانتا جميعاً، ففصل بينهما بهذا الهواء . " (٤)

ثالثاً : إنني أرجح أن يراد بالرؤية المذكورة في بداية الآية بصيغة : " أولم ير " هو الرؤية العلمية القلبية لا البصرية المشاهدة ، وقد رجح هذا غير واحد من المفسرين على رأسهم الإمام الرازي - رحمه الله - (٥) على أن ابن عاشور يجعلها تبعا للمراد بالفتق والرتق - كما تبين - ، وأستدلُّ بما قرَّره أهل اللغة من أن " الرُّؤْيَةَ بِالْعَيْنِ تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَبِمَعْنَى الْعِلْمِ تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ يُقَالُ رَأَى زَيْدًا عَالِمًا " (٦) و بأن الرؤية بالعين تتعدى أحيانا بالي كقوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ } وهذا يقودنا إلى حمل فتق الرتق على بداية الخلق .

تعقيب :

وبعد ... ، فنخرج من كل ذلك بأن كلام ابن عاشور في قضية المراد بالفتق والرتق كان فيه استيعاب لمعاني الفتق والرتق ، وأن كلامه العلمي المجمل في حمل الآية على بداية الخلق كلام

(١) ابن منظور ، لسان العرب مصدر سابق ، ١١٤/١٠ ،

(٢) قول ابن عباس هو أنه سئل عن الليل هل كان قيل النهار؟ فتلا الآية "أولم ير الذين كفروا أن السماوات . "

الآية قال : والرتق الظلمة . انظر . الطبري ٤٣٣/١٨ ولسان العرب ١١٤/١٠

(٣) الطبري ، محمد بن جرير (٢٠٠٠) ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق محمود شاكر ، ط ١٨ / ٤٣٠ / دار الرسالة

(٤) ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (١٩٩٩) ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي سلامة ، ط ٢٣٥/٨ ٤٣٥ / دار طيبة للتوزيع والنشر

(٥) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ١٣٦-١٣٧ / ٢٢ (٦) ابن منظور ، لسان العرب ، ١١٤/١٠

موافق لما انتهى إليه أهل الاختصاص في علم الفلك الذي فصل في تفسير نشأة الكون وهو الأولى بأن تحمل عليه الآية .

وانطلاقاً ممّا سبق أرى ترجيح المعنى الأوّل على غيره . ومع هذا أقول : إن من تمام إعجاز القرآن الكريم أن تصدق الآية على الأقوال الثلاثة الأخرى وهي لا تخرج عن لغة الآية ، والمأثور فيها ، ومسلك الجمع متيسر وهو صنيع الإمام ابن كثير إذ يقول : " كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعةً، والأرض سبعةً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: {...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ } [الأنبياء] أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء: ففي كل شيء له آية ... تدلّ على أنه واحد ... " (١)

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ٤٣٥/٨

المبحث الثالث : أيهما أسبق في الخلق السماء أم الأرض .

كلام ابن عاشور :

من القضايا التي بينها ابن عاشور في تفسيره قضية سبق السماوات للأرض في الخلق ،
ويبينها في أكثر من موضع في تفسيره إذ يعرض - رحمه الله تعالى - في تفسير قول الله جل
ثناؤه : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ [البقرة] يعرض أقوال المفسرين في الآية فيقول : " ... فأما هذه الآية فإنه إذا

كانت السماوات متأخراً خلقها عن خلق الأرض فثم للتراخي الرتبي لا محالة مع التراخي
الزمني ، وإن كان خلق السماوات سابقاً فثم للترتيب الرتبي لا غير ، والظاهر هو الثاني . وقد
جرى اختلاف بين علماء السلف في مقتضى الأخبار الواردة في خلق السماوات والأرض ؛ فقال
الجمهور منهم مجاهد والحسن ونسب إلى ابن عباس : إن خلق الأرض متقدّم على خلق السماء
لقوله تعالى هنا : { ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ } ، وقوله في سورة فصلت : { قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ

الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [فصلت] إلى أن قال { ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ } [فصلت] . وقال قتادة والسدى

ومقاتل إن خلق السماء متقدم واحتجوا بقوله تعالى: { ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا } [النازعات] إلى

قوله: { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا } [النازعات] . وقد أجيب بأن الأرض خلقت أولاً ثم خلقت السماء

ثم دحيت الأرض فالمتأخر عن خلق السماء هو دحو الأرض ، على ما ذهب إليه علماء طبقات
الأرض من أن الأرض كانت في غاية الحرارة ثم أخذت تبرد حتى جمدت وتكونت منها قشرة
جامدة ، ثم تشققت وتفجرت وهبطت منها أقسام وعلت أقسام بالضغط ؛ إلا أن علماء الأرض
يقدرّون لحصول ذلك أزمنة متناهية الطول ، وقدرة الله صالحة لإحداث ما يحصل به ذلك التقلب
في أمد قليل بمقارنة حوادث تعجل انقلاب المخلوقات عما هي عليه . " (١)

ويثير الشيخ أيضاً قضية سبق السماوات للأرض في الخلق في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ءَأَنْتُمْ

أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾

[النازعات] ويبين أن المعنى أنه بعدما خَلَقَ السَّمَاءَ خلق الأرض مدحوة . وأشار إلى الخلاف (٢)

التحليل :

يبين ابن عاشور فيما سبق قضية سبق السماء للأرض في الخلق ويدلل لذلك بأن :

- ١- لفظ {بَعْدَ ذَلِكَ} أظهر في إفادة التأخر من قوله : {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}
- ٢- لأن أنظار علماء الهيئة ترى أن الأرض كرة انفصلت عن الشمس كبقية الكواكب السيارة من النظام الشمسي .

٣- يذكر ابن عاشور أن ظاهر سفر التكوين يقتضي أن خلق السماوات هو المتقدم ^(١) . واستدلال

ابن عاشور بالتوراة أمر لا يستساغ ، لا يوافق عليه طرفة عين ، بل في شرعنا ما يكفي

ويغني يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدَايِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا

عَلَيْهِ ۝٤٨﴾ المائدة .

- ٤- يذكر أيضاً أن السماء أسبق في الخلق إن أريد بها الكواكب العلوية ^(٢) وذلك هو المناسب لقوله : {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} ، لأن خلقها أعظم من الأرض . و إن أريد بها الجو المحيط بالكرة الأرضية فهو تابع لها متأخر عن خلقها ^(٣) .

كلام المعاصرين :

يستدل ابن عاشور على سبق السماوات للأرض في الخلق بأن الأرض انفصلت من الشمس

وبالرغم من صحة هذا إلا أن هناك تخريج علمي لسبق خلق الأرض على السماوات حيث

يقول الدكتور الفاضل زغلول النجار : يرى أهل العلوم المكتسبة أن مراحل خلق الكون الست

حسب الترتيب التالي والله تعالى أعلم بخلقه :

(١) مرحلة الرتق: وهي مرحلة الجرم الأولي الذي بدا منه خلق السماوات والأرض .

(٢) مرحلة الفتق: وهي مرحلة انفجار هذا الجرم الأولي .

(٣) مرحلة الدخان .

(٤) مرحلة الإتيان .

(٥) مرحلة دحو الأرض وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية .

(٦) مرحلة خلق الحياة من أبسط صورها الى خلق الإنسان

(١) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، ص ٣

(٢) كلام مردود باطل تمت مناقشته سابقاً .

(٣) انظر الأدلة ابن عاشور ، التحرير ١ / ٣٧٧-٣٧٨

... وتشير الآيات القرآنية : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ... ﴾ (١٩) من سورة البقرة، و ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ... ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (٩-١٠) من سورة فصلت إلى سبق خلق الأرض لعملية تسوية السماء الدخانية الأولية إلى سبع سماوات، ويبدو أنّ المقصود هنا بالسبق هو خلق عناصر الأرض، والذي تلاه تجميع تلك العناصر على هيئة الأرض الابتدائية والتي تم رجمها بوابل من النيازك الحديدية ، وتمامها إلي سبع أرضين، ثم دحوها وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية وتشكيلها إلى صورتها الحالية وذلك لأنّ خلق السماوات والأرض عمليتان متلازمتان ولا يمكن لإحدهما أن تتفصل عن الأخرى .^(١)

وابن عاشور يجعل احتمالاً لترجيح سبق الأرض على السماوات وذلك في حالة أن يراد بالسماء هنا الغلاف الجوي لكني أرى أن الآية لا تقصده بل تقصد جنس السماء لتشمل خلق جميع السماوات مقابل خلق الأرض . وما قاله الشيخ من أن حجم الكواكب وزيادته على حجم الأرض يقتضي السبق بالخلق فهذا غير ملزم فربما كانت أكبر وتأخرت عنها .

الشواهد الأخرى :

يستدل ابن عاشور على رأيه السابق بأدلة أخرى غير العلمية وهي أنّ لفظ {بَعْدَ ذَلِكَ} أظهر في إفادة التأخر من قوله : {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ} ، ويستدل بأنّ ظاهر التوراة كذلك وهذا استدلالٌ غير موقف إذ في شرعنا ما يغنينا عن الاستدلال بالتوراة .

وأقول : إنّ الآيات التي يبحث بها هذا البحث قد جاءت في ثلاثة مواضع ، موضعان

ظاهرهما أن خلق الأرض سابق على خلق السماء وذلك في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ هُوَ

الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ... ﴾ (١٩) [البقره] ، وفي سورة فصلت

﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ... ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت] ، وآية

(١) د . النجار . الأرض في القرآن مصدر سابق ص ٣٧٣-٣٧٤

ظاهاها العكس أي أن خلق الأرض بعد السماء وهي في قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

[النازعات] ﴿٣٠﴾ . وبالنسبة لآية سورة النازعات فإنها واضحة وصريحة بأن المتأخر عن

خلق الأرض ليس الخلق ولا الإبداع ولا الفطر بل المتأخر هو الدحو فبهذا لو أجرينا الآيات على ظواهرها لاقتضى ذلك أن خلق الأرض سابق على خلق السماوات .

ومن حيث الأثر فهو يشهد بذلك فهناك ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس بسند صحيح في التوفيق بين الآيتين يفيد أن خلق الأرض سابق على خلق السماء ^(١) وقد رجح ذلك غير واحد من

المفسرين وقال الإمام ابن كثير " وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء . . . " ^(٢)

التعقيب :

لقد تبين مما سبق أن ابن عاشور يرجح أن السماوات خلقت قبل الأرض ويستدل بأدلة علمية ولغوية ، وأقول : إن خلق السماوات والأرض أمرٌ متلازم ، فهما يسيران وفق نظام واحد مقدر لو اختلف شيء منه لانعدمت الحياة على الأرض ، وقد ذكر خلقهما معا في القرآن الكريم ، وذكر أنهما كانتا رتقا معا ، وبالرغم من هذا التلازم فإن أمر الخلق وبدئه ليس كأمر ما بعده ومن هنا أرى أن أحدهما سابق على الآخر وذلك مفهوم من آيات سورة فصلت التي بينت أن لكل من السماء والأرض وقت منفصل عن الآخر فخلق السماء كان في يومين وخلق الأرض في أربع وإذا كان كذلك كان لا بد من سبق أحدهما على الآخر ، ومن خلال العرض السابق فإنني أميل إلى سبق خلق الأرض على خلق السماء ولكن لا يفهم منه سبق جميع الأرض بل العناصر الأولى التي خلقت منها . وهو ما تؤيده العلوم المعاصرة هو مما يبدو من الآيات كما تبين ومما هو مشهور نقلا والله تعالى أعلم . فما استدلل به ابن عاشور من أدلة علمية فبالرغم من صحتها علمياً إلا أنها غير ملزمة في سبق خلق السماوات للأرض .

(١) وهو حديث طويل فيه " وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ ، " ، وقد ذكره البخاري في الصحيح معلقاً قبل حديث ٤٨١٦ في كتاب التفسير سورة فصلت ، والحاكم ، محمد بن عبد الله ، (١٩٩٠) المستدرک علی الصحیحین ، تحقیق : مصطفی عبد القادر ، ط ١ / ٢ / ٤٢٨ دار الکتب العلمیة بیروت وقال حسن صحیح .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم مرجع سابق ٢١٥/١

المبحث الرابع : مدة خلق السماوات .

كلام ابن عاشور :

لقد بين الله تعالى أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام وذلك في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم من ذلك قوله في سورة الأعراف : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْشِيِّ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤] ولكن ما المقصود بهذه الأيام ؛ أهي الأيام

المعروفة والمشهودة في عالمنا هذا أم لا ؟ يبين ابن عاشور ذلك في تفسيره للآية السابقة ويذكر الاحتمالات في ذلك ؛ والاحتمال الأول قال فيه : " وَظَاهِرُ الْآيَاتِ أَنَّ الْيَّامَ هِيَ الْمَعْرُوفَةُ لِلنَّاسِ، الَّتِي هِيَ جَمْعُ الْيَوْمِ الَّذِي هُوَ مُدَّةٌ تُقَدَّرُ مِنْ مَبْدَأِ ظُهُورِ الشَّمْسِ فِي الْمَشْرِقِ إِلَى ظُهُورِهَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ثَانِيَةً، وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ فَالتَّقْدِيرُ فِي مَا يُمَاتِلُ تِلْكَ الْمُدَّةَ سِتَّ مَرَّاتٍ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْيَوْمِ بِهَذَا الْمَعْنَى لَمْ تَتَّحَقَّقْ إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ خَلْقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لِيُمْكِنَ ظُهُورُ نُورِ الشَّمْسِ عَلَى نِصْفِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ وَظُهُورِ الظُّلْمَةِ عَلَى ذَلِكَ النِّصْفِ إِلَى ظُهُورِ الشَّمْسِ مَرَّةً ثَانِيَةً " (١)

ثم انتقل إلى الاحتمال الثاني فقال : " وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْيَّامَ هُنَا جَمْعُ الْيَوْمِ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ مُدَّةٌ أَلْفِ سَنَةٍ، فَسِتَّةُ أَيَّامٍ عِبَارَةٌ عَنْ سِتَّةِ أَلْفِ مِنَ السِّنِينَ نَظْرًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [الحج: ٤٧] وَقَوْلِهِ: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [السَّجْدَةُ: ٥] . . . " (٢)

ثم انتقل أيضا إلى قول ثالث قال فيه : " وَقِيلَ الْمُرَادُ: فِي سِتَّةِ أَوْقَاتٍ، فَإِنَّ الْيَوْمَ يُطْلَقُ عَلَى الْوَقْتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ [النُّعْلَانِ: ١٦] أَي حِينَ إِذْ يَلْقَاهُمْ زَحْفًا " (٣)

ثم قال معقباً على هذه الأقوال : " وَمَقْصُودُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خُلِقَتْ عَالَمًا بَعْدَ عَالَمٍ وَلَمْ يَشْتَرِكْ جَمِيعُهَا فِي أَوْقَاتِ تَكْوِينِهَا، وَأَيًّا مَا كَانَ فَالْيَّامُ مُرَادٌ بِهَا مَقَادِيرٌ لَأَيَّامِ النَّبِيِّ وَاحِدُهَا يَوْمٌ الَّذِي هُوَ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا إِذْ لَمْ تَكُنْ شَمْسٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمُدَّةِ، وَالتَّعَمُّقُ فِي الْبَحْثِ فِي هَذَا خُرُوجٌ عَنْ غَرَضِ الْقُرْآنِ. " (٤)

(١) ابن عاشور التحرير ١٦٢/٨ ط التونسية

(٢) المرجع نفسه

(٣) المرجع نفسه

(٤) المرجع نفسه

التحليل :

يظهر من العرض السابق أنّ ابن عاشور يرى أنّ المراد بالأيام التي خلق الله تعالى فيها الكون لها احتمالات هي :

أولاً : أنها الأيام الأرضية المعروفة ، وقد رفضه لأنّ هذه الأيام ترتبت على الخلق .

ثانياً : التأيام هنا جمعُ اليوم من أيام الله تعالى الذي هو مدّة ألف سنّة .

الثالث : أنها سنّة أوقاتٍ . ولم يرجح ابن عاشور بعد ذلك معنىً على آخر غير استبعاده للمعنى الأوّل .

كلام المعاصرين :

يرى المعاصرون من أهل الاختصاص أنّ الأيام هي أوقات تمّ فيها خلق الكون وكل وقت نمّت فيه مرحلة فكل مرحلة تشكل يوم وبالتالي فإنّ الأيام السنّة هي ستّ مراحل بينها الدكتور زغلول النجار بأنّها :

(١) مرحلة الرتق: وهي مرحلة الجرم الأولي الذي بدأ منه خلق السماوات والأرض .

(٢) مرحلة الفتق: وهي مرحلة انفجار هذا الجرم الأولي .

(٣) مرحلة الدخان .

(٤) مرحلة الإتيان .

(٥) مرحلة دحو الأرض وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية .

(٦) مرحلة خلق الحياة من أبسط صورها الى خلق الإنسان .

والأيام على هذا الرأي المعاصر تعود للرأي الثالث مما ذكره ابن عاشور ، وهو لم يرجح أي رأي لأنه يرى أنّ ذلك ليس من أغراض القرآن الكريم وهي قضية غيبية .

شواهد أخرى :

ابن عاشور رفض القول الأول لأنّ أيام الأرض لم تعرف إلا بعد الخلق ، وذلك صنيع غيره من المفسرين يقول صاحب تفسير المنار : " . . . وكلا يُعقلُ أن تكونَ هذه الأيامُ السنّة من أيام

أَرْضِنَا، الَّتِي يُحَدُّ لَيْلُ الْيَوْمِ وَنَهَارُهُ مِنْهَا بِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً مِنَ السَّاعَاتِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَنَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ إِنَّمَا وُجِدَتْ بَعْدَ خَلْقِ هَذِهِ الْأَرْضِ فَكَيْفَ يَكُونُ أَوَّلُ خَلْقِهَا فِي أَيَّامٍ مِنْهَا. " (١)

وابن عاشور لم يستبعد القول الثاني وذكر أنه مروى عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ وَأَنَّهُ قَدْ اخْتَارَهُ النَّفَّاسُ ، وذكر ابن كثير أن هذا القول قد نص عليه مُجَاهِدٌ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَيُرْوَى ذَلِكَ مِنْ رِوَايَةِ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (٢) وهذا القول يحتمل أن يكون المراد لا سيما أنه قد نقل عن هذه الثلاثة المباركة لكن لا يقطع بذلك وكما ختم ابن عاشور كلامه فإن الأيام هي أزمان الله أعلم بها لكنها ليست كأيامنا المشهودة والذي جعلني أميلُ إليه هو أن القول الأول بعيد لما مر، والثاني لا قطع به لأن القرآن لم يصرح به فدلالة آية الحج عليه ظنية ، ولا أحاديث صحيحة في مدة خلق السماوات والأرض فبقي إثبات الأيام بدون تفصيل ماهيتها والله تعالى أعلم .

أما عن تفصيل الخلق فقد ورد في سورة فصلت في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيَّتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا

أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ اللَّسَالِيِّينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا

طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾] فصلت [ويرى ابن عاشور في تفسيره لهذه الآيات أن خلق الأرض

كان في أربعة أيام والسماء في يومين وبين علة ذلك فقال : " و كان خلق السماوات في يومين قبل الأربعة الأيام التي خلقت فيها الأرض وما فيها. . . وإنما كانت مدة خلق السماوات السبع أقصر من مدة خلق الأرض مع أن عوالم السماوات أعظم وأكثر ؛ لأن الله خلق السماوات بكيفية أسرع فلعل خلق السماوات كان بانفصال بعضها عن بعض وتفرقع أحجامها بعضها عن خروج بعض آخر منه...وأما خلق الأرض فالأشبه أنه بطريقة التولد المبطن لأنها تكونت من

(١) رضا محمد رشيد ، ١٩٩٠م ، تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٣٩٦/٨

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، مصدر سابق ٤٢٦/٣

العناصر الطبيعية فكان تولد بعضها عن بعض أيضا . . . " (١)

التعقيب :

لقد بيّن ابن عاشور المعاني المحتملة للمراد باليوم الذي خلق الله تعالى فيه السماوات والأرض ولم يرجح معنىً على آخر ، لكنّه استبعد أن يراد اليوم الأرضي وهذا صحيح ، بينما بيّن المختصون أنّ المراد ستّ أوقات أو مراحل ، وهذا يرجع للقول الثاني مما ذكره ابن عاشور . ابن عاشور يرى أن خلق السماوات كان في يومين ، والأرض في أربعة وهذا هو نص الآية.

الفصل الثاني : أوصاف السماء في القرآن .

المبحث الأول : السماء بناءً .

المبحث الثاني : السماء سقفاً محفوظاً ومرفوعاً .

المبحث الثالث : السماوات السبع طرائق وطباق وشداد .

المبحث الرابع : السماء ذات حبك ، وذات بروج ، وذات رجع .

المطلب الأول : حبك السماء .

المطلب الثاني : بروج السماء .

المطلب الثالث : رجع السماء .

المبحث الأول : السماء بناء

كلام ابن عاشور :

بيّن القرآن الكريم أن الله تعالى جعل السماء بناء في أكثر من آية يقول جل ثناؤه قال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [البقرة : ٢٢] ، وكان للطاهر ابن عاشور دور في تفسير هذه الآية تفسيراً علمياً حيث يبين أولاً أن كون السماء بناءً منة عظيمة يقول رحمه الله :

" . . . إنه - الله تعالى - لمّا أوجب عبادته لأنه خالق الناس كلهم أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضي عبادتهم إياه وحده، وهي نعمه المستمرة عليهم مع ما فيها من دلائل عظيم قدرته فإنه مكن لهم سبل العيش وأولها المكان الصالح للاستقرار عليه بدون لغوب فجعله كالفرش لهم ، ومن إحاطة هذا القرار بالهواء النافع لحياتهم والذي هو غذاء الرّوح الحيواني (١) ، وذلك ما أشير إليه بقوله: {وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} ، ويكون تلك الكرة الهوائية واقية الناس من إضرار طبقات فوقها متناهية في العلو، من زمهرير أو عناصر غريبة قاتلة خانقة ، فالكرة الهوائية جعلت فوق هذا العالم فهي كالبناء له ونفعها كنفع البناء فشبهت به على طريقة التشبيه البليغ ، وبأن أخرج للناس ما فيه إقامة حياتهم باجتماع ماء السماء مع قوة الأرض وهو الثمار .

والمراد بالسماء هنا إطلاقها العرفي عند العرب وهو ما يبدو للناظر كالقبة الزرقاء وهو كرة الهواء المحيط بالأرض (٢) كما هو المراد في قوله {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة :] وهذا هو المراد الغالب إذا أطلق السماء بالإفراد دون الجمع . . . " (٣)

ثم بين وجه تشبيه السماء بالبناء فقال :

" وأما وجه شبه السماء بالبناء فهو أن الكرة الهوائية جعلها الله حاجزة بين الكرة الأرضية وبين الكرة الأثيرية. فهي كالبناء فيما يراد له البناء وهو الوقاية من الأضرار النازلة ، فإنّ للكرة الهوائية دفعا لأضرار أظهرها دفع ضرر طغيان مياه البحار على الأرض ، ودفع

(١) هذا التعبير فيه خلل لأنّ الروح لا تتغذى بالهواء .

(٢) تبين سابقاً أنّ الغلاف الجوي لا يمكن اعتباره السماء .

(٣) ابن عاشور ، التحرير ، ١/٣٢٥-٣٢٦

أضرار بلوغ أهوية تندفع عن بعض الكواكب إلينا وتلطيفها حتى تختلط بالهواء أو صدّ الهواء إياها عنا مع ما في مشابهة الكرة الهوائية لهيئة القبة ، والقبة بيت من آدم مقبب وتسمى بناء ، والبناء في كلام العرب ما يرفع سمكه على الأرض للوقاية سواء كان من حجر أو من آدم أو من شعر ، ومنه قولهم: بنى على امرأته إذا تزوج ، لأن المتزوج يجعل بيتا يسكن فيه مع امرأته وقد اشتهر إطلاق البناء من آدم ولذلك سموا الأدم الذي تبنى منه القباب مبنأة بفتح الميم وكسرها ، وهذا كقوله في سورة الأنبياء { وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا } [٣٢] . " (١)

ثم أخذ يبين كيف فهم السابقون الآية وما حظهم منها بعد القطع بأنها من معجزات القرآن العلمية فقال :

" فإن قلت يقتضي كلامك هذا أن الامتتان بجعل السماء كالبناء لوقاية الناس من قبيل المعجزات العلمية التي أشرت إليها في المقدمة العاشرة وذلك لا يدركه إلا الأجيال التي حدثت بعد زمان النزول فماذا يكون حظ المسلمين وغيرهم الذين نزلت بينهم الآية {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} [الحشر: من الآية ١٠] في عدة أجيال فإنّ أهل الجاهلية لم يكونوا يشعرون بأن للسماء خاصية البناء في الوقاية وغاية ما كانوا يتخيلونه أن السماء تشبه سقف القبة ، كما قالت الأعرابية حين سئلت عن معرفة النجوم : أجهل أحد خرزات معلقة في سقفه . فتتمخض الآية لإفادة العبرة بذلك الخلق البديع إلا أنه ليس فيه حظ من الامتتان الذي أفاده قوله {لَكُمْ} فهل نخص تعلقه بفعل {جَعَلَ} المصرّح به دون تعلقه بالفعل المطوي تحت واو العطف ، أو بجعله متعلقا بقوله : {فِرَاشًا} فيكون قوله: {وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} معطوفاً على معمول فعل الجعل المجرد عن التقييد بالمتعلق .

. ويكفي في الامتتان بخلق السماء إشعار السامعين لهذه الآية بأن في خلق السماء على تلك الصفة ما في إقامة البناء من الفوائد على الإجمال ليفرضه السامعون على مقدار قرائحهم وأفهامهم ثم يأتي تأويله في قابل الأجيال . " (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٣٢٦/١

(٢) المرجع نفسه ٣٢٦/١ - ٣٢٧

وأحال على تفسيره لهذه الآية نظائرها من الآيات وحمل السماء على نفس المعنى (١) وذلك عند قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ غافر [٦٤] أما عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ: ١٢] فإن ابن عاشور يبين ما هي تلك السبع ومعنى بنائها فيقول : " واستعير فعل {بَنَيْنَا} في هذه الآية لمعنى: خلقنا ما هو عال فوق الناس، لأن تكوينه عاليا يشبه البناء . . . والمراد بالسبع الشداد: السماوات، فهو من ذكر الصفة وحذف الموصوف للعلم به . . . فيجوز أن يراد بالسبع الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ . . . (٢)

ويجوز أن يراد بالسماوات السبع طبقات علوية يعلمها الله تعالى وقد اقتنع الناس منذ القدم بأنها سبع سماوات.

وشداد: جمع شديدة، وهي الموصوفة بالشدة، والشدة: القوة.

والمعنى: أنها متينة الخلق قوية الأجرام لا يختل أمرها ولا تنقص على مر الأزمان. (٣)

التحليل:

لقد بين ابن عاشور فيما سبق ما يتعلق بلفظ البناء فأشار إلى أنه في كلام العرب ما يرفع سمكه على الأرض للوقاية ، فقيده بالوقاية و بنى الكلام العلمي المعاصر على هذا ؛ فذهب يعدد فوائد الغلاف الجوّي ويذكر أوجه حمايته للكرة الأرضية ووقايتها لها من أضرار، وبينها بأنها متمثلة في دفع طغيان الماء على الأرض ، و دفع ضرر غازات وأهوية ضارة خانقة مندفعة من كواكب أو طبقات أخرى .ثم الانتفاع بهوائه . ثم أخذ يبين كيف فهم السابقون الآية وما حظهم منها .

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٢٣٤/٢٤ ،

(٢) هذا الرأي خطأ وقد تمت مناقشته سابقاً .

(٣) ابن عاشور ، التحرير ، ٢١-٢٠/٣٠

كلام المعاصرين :

لقد بنى ابن عاشور كلامه العلمي على أنّ البناء يستلزم الحفظ لمن تحته فأخذ يتحدث عن فوائد الغلاف الجوي للأرض التي تتمثل في :

- دفع أضرار عن الأرض متمثلة في دفع طغيان الماء على الأرض ، و دفع ضرر غازات وأهوية ضارة خانقة مندفعة من كواكب أو طبقات أخرى .
- الانتفاع بالهواء.

أما عن دفع ضرر طغيان المياه على الأرض فإني وجدت بيانه لها عند تفسيره لقوله

تعالى: ﴿ وَإِذَا أَلْمَأَزُّ فَجِرَتْ ﴾ (٣) [الانفطار] حيث قال : " وتفجير البحار انطلاق مائها من

مستواه وفيضانه على ما حولها من الأرضين ؛ كما يتفجر ماء العين حين حفرها لفساد كرة الهواء التي هي ضاغطة على مياه البحار ، وبذلك التفجير يعمّ الماء على الأرض فيهلك ما عليها ويختل سطحها . " (١) ، فهو يريد أن هذا الغلاف الجوي يضغط على المياه فيحفظها من السيلان والتدفق والتطاير ولو لم يكن هذا الغلاف لتناثر الماء ولما استقامت الحياة على الأرض ، ولكن السؤال الآن هل هذا الأمر واقع فعلا ؟

لا بد من القول بأنّ هناك علاقة وطيدة بين الغلاف الغازي والبحار منذ المنشأ حيث أدت البراكين التي كانت نشطة إلى تزويد الأرض بغلاف جوي جديد غني ببخار الماء وثنائي أكسيد الكربون وثنائي أكسيد الكبريت والنيتروجين بعدما ذهبت الغازات الخفيفة كالهيليوم والميثان بفعل ارتفاع درجات الحرارة ، وحينما انخفضت درجة حرارة الأرض تحولت تلك الغازات وتكاثفت لتشكل بحار ومحيطات عظيمة .. (٢) وبالرغم من أنّ هذا الغلاف له كتلة تقدّر بحوالي خمسة آلاف مليون مليون طن، ويقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلو مترات فوق مستوي سطح البحر حيث يصل ضغطه إلى حوالي الكيلو جرام علي السنتمتر المربع، ويتناقص مع الارتفاع

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٥٢/٣٠

(٢) انظر د. الطائي . محمد باسل . مدخل إلى علم الفلك ، لبنان ، دار النفائس ط١-٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ ، ص

إلى واحد من مليون من ذلك الضغط في أجزاءه العليا . (١) بالرغم من ذلك كله لا يمكن اعتبار صحة كلام ابن عاشور فلا علاقة لكتلة هذا الغلاف بالضغط على البحار .

وبشكل عام فإن للغلاف الجوّي فوائد عظيمة اكتشفها العلم الحديث منها ما أشار إليه ابن عاشور ومنها ما زاده العلم الحديث عليه ، يقول الدكتور محمد الطائي وهو من المتخصصين في هذا الجانب تحت عنوان " فضائل الغلاف الغازي للأرض " : " إن الغلاف الجوي يحفظ الأرض من المخاطر التالية :

١- حماية الأرض ومن عليها من النيازك الحارقة وذلك بتبخير معظم كتلتها في الغلاف الجوي بسبب الاحتكاك مع جزيئات الهواء .

٢- حفظ الأرض من أخطار الأشعة فوق البنفسجية وأشعة X المسببة للسرطان وذلك بامتصاصها في طبقة الأوزون ، لذا أصيب الكثيرون تحت ثقب الأوزون بذلك .

٣- حفظ الأرض من خطر الرياح الشمسية التي هي أيونات سريعة قاتلة ، وذلك بواسطة المجال المغناطيسي للأرض .

٤- حفظ حرارة الأرض من التبدد ليلا بحبس الإشعاعات تحت الحمراء وإلا لكان الفرق بين حرارة الليل والنهار كبيرا جدا ولا يطاق .

٥- نشر ضوء الشمس لتمكين الكائنات من إبصار الأشياء بيسر " (٢) وكل ما اكتشف العلم شيئا جديدا وفوائد لهذا الغلاف فإنه يعتبر من باب أن السماء بناءً .

ويقول الاستاذ الدكتور حيدر عنان محدثا عن بعض الكويكبات : " وهذه الكويكبات لها تأثير كبير على سطوح كواكب المجموعة الشمسية خاصة الكواكب الداخلية فعند اصطدامها بأسطحها الصخرية تكون ما يعرف بفوهات الارتطام التي توشي أسطحها ، أما ما يتعلق بالأرض فهي عند دخولها الغلاف الهوائي فإنها تحترق مكونة ما يعرف بالشهب التي نراها في سماء الليل . " (٣)

(١) د. النجار . زغلول ، السماء في القرآن ، ص ٢٩٩

(٢) د. الطائي - مدخل إلى علم الفلك - (ص ٥٦)

(٣) أ.د عنان ، حيدر ، آيات الله في أرضه وسمائه ، من أبحاث المؤتمر العلمي لإعجاز القرآن الكريم

لكني أشير بعد ذلك إلى قضية أخرى وهي أن ابن عاشور قد قيد الحديث العلمي عن بناء السماء بالغلّاف الجوي و الله تعالى قد بيّن أنه بنى السماوات السبع جميعاً بقوله : ﴿ وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعًا سِدَادًا ﴾ [النّبأ] وبالتالي فهذا الوصف ينطبق على السماوات جميعاً لا على جزء منها هو الغلاف الجوي ، وذلك مع التسليم بأن كل ما ذكره ابن عاشور وأيده العلم الحديث هو صحيح ، ولكن بقي أمر مخفي ووجوه لحفظ السّموات السّبع لمن تحتها وهذا يتوقف على معرفة وتحديد السماوات السبع التي لم ندرك أبعادها إلى الآن .

ويبين الدكتور الفاضل زغلول النجار أن الله تعالى جعل فوقنا بناءً محكماً بعدد من القوى التي أودعها سبحانه في كل جزئية من جزئياتها ومن هذه القوى : القوى النووية الشديدة والقوى النووية الضعيفة ، والقوى الكهرومغناطيسية وقوى الجاذبية . (١)

شواهد أخرى :

بالنسبة لمعنى البناء اللغوي الذي بنى ابن عاشور كلامه العلمي عليه وهو أن البناء في كلام العرب ما يرفع سمكه على الأرض للوقاية ، فقد بحثت بعد ذلك عن ما تفيد كلمة البناء من معاني وسر وجودها في الآية دون غيرها فوجدت أبا حيان من قبل قد أشار إلى ذلك فقال : " لكنّ البناء أبلغ في الإحكام وأتقن في الصنعة وأمنع لوصل الأذى إلى من تحته ، فوصف السماء بالأبلغ والأتقن والأمنع ، ونبه بذلك على إظهار قدرته وعظيم حكمته ، " (٢)

لفظة البناء هي الأبلغ من حيث ما تشير إليه من الإتقان في الصنع والامتنان بمنع وصول الأذى لمن تحت هذا البناء ، فالأمر هنا يقتضي البحث في وجه الإتقان في الصنع وكذا الوقاية لمن تحتها .

تعقيب :

كلام ابن عاشور بناه بشكل عام على أنّ البناء يستلزم الحفظ لمن تحته فأخذ يتحدث عن فوائد الغلاف الجوي للأرض ، وبالرغم من صحّة كلامه في هذا الجانب إلا أنّه لا داعي للكلام على الغلاف الجوّي لأنه لا يساوي شيء من السماء الدنيا فضلا عن السماوات السبع .

(١) أ.د النجار ، تفسير الآيات الكونية . ١ / ٧٣-٧٤

(٢) أبو حيان ، محمد بن يوسف ، (١٤٢٠) ، البحر المحيط ، تحقيق لطفى محمد ، ط دار الفكر لبنان ١ / ١٥٩

المبحث الثاني : السماء سقف (محفوظ ومرفوع) :

أولاً : السقف المحفوظ :

كلام ابن عاشور :

لقد بين القرآن الكريم أن السماء قد جُعلت سقفاً فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ

عَنَّا إِلَهِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ [الأنبياء] ، وقال : ﴿ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ ﴿٥٥﴾ [الطور]

وقد وصف هذا السقف بالمشفوظ في الآية الأولى وبالرفوع في الثانية وبين ابن عاشور في الآية الأولى أنّ في كون السماء سقفاً منة عظيمة وهي " حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطل منافعها" (١)

أما السقف فقد فسره بقوله : " والسقف ، حقيقة: غطاء فضاء البيت الموضوع على جدرانه، ولا يقال السقف على غطاء الخباء والخيمة، وأطلق السقف على السماء على طريقة التشبيه البليغ ، أي جعلناها كالسقف لأن السماء ليست موضوعة على عمد من الأرض، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} وقد تقدم في أول سورة الرعد . " (٢)

كلام المعاصرين :

يشير ابن عاشور إلى أنّ الله تعالى قد حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض ولكنه لم يبين سرّ ذلك بينما بين العلم الحديث ذلك فقد أشار الأستاذ الدكتور النجار إلى أنّ الله تعالى قد أودع في الكون عدداً من القوى تعمل على ترابط أجزائه ومن هذه القوى : القوى النووية الشديدة والقوى النووية الضعيفة ، والقوى الكهرومغناطيسية وقوى الجاذبية . (٣)

(١) ابن عاشور - التحرير ٤٣/١٧

(٢) المرجع نفسه ٤٣/١٧

(٣) أ.د. النجار ، تفسير الآيات الكونية . ١ / ٧٣-٧٤

شواهد أخرى :

لقد وصف الله تعالى السماء بالسقف ، ووصفها بالبناء والطاهر بن عاشور يفرق بين الكلمتين فقد مرّ أنه قال في البناء : " أنه ما يرفع سمكه على الأرض للوقاية سواء كان من حجر أو من آدم أو من شعر " (١) ، وعن السقف " غطاء فضاء البيت الموضوع على جدرانه ، ولا يقال السقف على غطاء الخباء والخيمة " (٢) .

ويزيد الرازي في التفريق بين الكلمتين بأن " لفظ البناء يستعمل في أسافل البيت والسقف في أعلاه " (٣) ، فالجدران والأعمدة في أي بناء يصدق عليها لفظ بناء ولا يصدق عليها لفظ سقف ، وما يوضع على تلك الجدران ليظل ما تحته يسمى السقف ، فالله تعالى وصف السماء بالبناء وما تحمله هذه الكلمة من اللحمة والشدة والمتانة والحفظ لمن تحتها ووصفها بالسقف وما تحمله الكلمة من علوّ يناسبه الوصف بالمرفوع ، ومن حاجة للحفظ من السقوط ناسبها الوصف بالمحفوظ .

أما عن هذا الوصف فقد أتبع بالمحفوظ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ

عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ [الأنبياء] ، وأتبع بالمرفوع في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ ﴿٥﴾ ﴾ [

الطور] ، وبالنسبة للتفسير العلمي لوصف السماء بالسقف المحفوظ فقد تبين من كلام ابن عاشور أن المعنى : حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطل منافعها .

والمفسرون جاؤوا بوجه أخرى لتفسير الآية تضاف إلى ما ذكره ابن عاشور ، والصحيح أن تُفسر القرآن بالقرآن أولاً ، وذلك هو المنهج السوي ، حيث فسرت هذه الآية بآيات أخرى وقد أحسن الشنقيطي حينما جمع تلك الآيات وفسر بها وصف السماء بالسقف المحفوظ فالأمر إلى أكثر من وجه للحفظ على النحو الآتي :

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣٢٦/١

(٢) المرجع نفسه ٤٣/١٧

(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب مصدر سابق ٨/٣١

الحفظ الأول : محفوظ من السقوط وذلك في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾

[الحج] ، ونظائرها .

الحفظ الثاني : وبين أنه محفوظ من التشقق والتفطر ، لا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح كسائر

السقوف إذا طال زمنها . كقوله تعالى : { . . . هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ } [الملك] وقوله تعالى : { أَفَلَمْ

يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ } [ق] أي ليس فيها من شقوق .

الحفظ الثالث : أنه محفوظ من كل شيطان رجيم . كقوله : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾

[الحجر] ^(١)

وابن عاشور قد اقتصر في تفسير السقف المحفوظ في سورة الأنبياء على الحفظ الأول ،

أما من حيث الحفظ الثاني والثالث وتفصيل الأول فبالرجوع للتحريير والتنوير نجد أن ابن

عاشور يبين كيف أمسك الله تعالى السماء أن تقع على الأرض بأن لفظ السماء قد أطلق على

جميع الموجودات العلوية التي يشملها لفظ { السماء } الذي هو ما علا الأرض ، فالله يمسك ما

في السماوات . . . إلا بإذن الله فيما اعتاد الناس إذنه به من وقوع المطر والثلج والصواعق

والشهب وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب بتقدير نظام خاص لسيرها . ^(٢)

أما الوجه الثاني وهو الحفظ من التشقق والانفطار فيقول ابن عاشور فيه : " والفظور :

جمع فطر بفتح الفاء وسكون الطاء ، وهو الشق والصدع ، أي لا يسعك إلا أن تعترف بانتفاء

الفظور في نظام السماوات فتراها ملتئمة محبوكة لا ترى في خلالها انشقاقاً ، ولذلك كان انفطار

السماء وانشقاقها علامة على انقراض هذا العالم ونظامه الشمسي " ^(٣)

(١) الشنقيطي ، أضواء البيان ، مصدر سابق ١٤٤/٤

(٢) ابن عاشور التحرير ٢٣٣/١٧

(٣) المرجع نفسه ، ١٨/٢٩

أما عن وجه حفظ الله تعالى للسماء من كل شيطان رجيم في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي

السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرِيَّتَهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ [الحجر] . ويبين الشيخ

ابن عاشور رحمه الله تعالى كيف يحدث الحفظ ، بكلام طويل يبين فيه أن الشهب تعمل على خرق تموجات الأصوات التي مما وراء كرة الهواء السماوية في الطبقات العليا (١) . وسأبين الكلام بالتفصيل في هذا الحفظ عند الكلام على بروج السماء وما يتعلق بالشهب .

تعقيب :

لقد فسّر ابن عاشور وصف السماء بالسقف المحفوظ بأنه المحفوظ من أن تقع بعض أجرامه على الأرض ، ومن ثمّ لم يبيّن ابن عاشور كيفية ذلك علمياً كما بينه العلم الحديث . ثمّ رأينا أيضاً أنّ هذا الوصف للسماء لا يمكن أن يُقتصرَ فيه على ما ذكره ابن عاشور فقط بل الأصل أن يُفسّر القرآن بالقرآن كما رأيناه من وجود صور أخرى لحفظ السماء في القرآن جمعها بعض المفسرين عند تفسيرهم للآية ، وعند تتبّع تفسير ابن عاشور لتلك الصور التي تذكرها الآيات التي أشاروا إليها وجدته يفسر بعضها تفسيراً علمياً كما في حفظ السماء من مسترقي السمع وهذا سأناقشه في مبحث الشهب بإذن الله تعالى .

ثانياً : السقف المرفوع

كلام ابن عاشور :

أما عن وصف السماء بالسقف المرفوع الذي أقسم الله تعالى به بقوله ﴿ وَالسَّفِّ الْمَرْفُوعِ ﴾ [الطور: ٥] فابن عاشور اكتفى بالإشارة إلى أن المقصود بالسقف هو السماء وأن الرفع حقيقي. (١) ولكني أرى أن يُبحث هنا في كيفية الرفع ، وهل هي بعمد أو بغير عمد ؟ فإن الطاهر ابن عاشور يذكر أنها بلا عمد في تفسيره لقوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الرعد ٢] فهو يرى أن جملة " ترونها " في موضع الحال من {السموات}، أي لا شبهة في كونها بغير عمد. (٢)

كلام المعاصرين :

ابن عاشور يرجح أن السماء رُفعت بلا عمد ، والعلم الحديث قد اكتشف بعض الأسرار في ترابط مكونات هذا الكون فهناك أكثر من قوة ذكرها الدكتور زغلول النجار – حفظه الله - كالجاذبية وغيرها تعمل على تماسك أجزاء السماوات وحمل الأجرام العلوية وأن هذه القوى كأنها عمد في حمل تلك الأجرام (٣)

شواهد أخرى :

ابن عاشور يرى أن جملة " ترونها " في موضع الحال من {السموات}، أي لا شبهة في كونها بغير عمد . ورجح هذا أيضا ابن كثير ، (٤) وغيره من المفسرين . ولكني أرى هنا – والله تعالى أعلم – أن العمدة موجودة ولكننا لا نراها ، والمراد بها ما فسره العلم الحديث في الفقرة السابقة لشواهد أخرى هي :

أولا : أن إحكام القرآن الكريم يقتضي ذلك فالله تعالى ذكر بعد قوله " بغير عمد " قيد وهو ترونها ولو سلمنا عدم وجود العمدة لكفى أن يقول " خلق السماوات بغير عمد ولكانت دلالتها ظاهرة ، يقول الدكتور الغمراوي : " فلو قيل : بغير عمد فحسب لكان ذلك نفيا مطلقا للعمد

(١) ابن عاشور التحرير ٥٥ / ٢٧

(٢) المرجع نفسه ، ١٣٧/١٢

(٤) د. النجار ، السماء في القرآن ، مصدر سابق ٣٤٩

(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم مصدر سابق ٢٣٤/٢

مرئية وغير مرئية والنفي المطلق يخالف الواقع الذي علم الله انه سيهدي اليه عباده " (١)
ثانيا : أن من مقتضيات أن السماء بناء والسموات بناء أن تكون لها أعمدة .
ثالثا : إن القول بوجود العمدة لا ينفي أنها مرفوعة بقدره الله تعالى فوجود تلك العمدة لرفع تلك
السموات العلا بتلك الهيئة غير المألوفة ولا المقذور عليها من أحد أبدا ، أمر دال على قدرة الله
تعالى .

تعقيب :

فكلام ابن عاشور في هذه القضية أراه مرجوحا خاصة في ضوء العلوم المعاصرة – والله
تعالى أعلم -

(١) د. الغمراوي ، الإسلام في عصر العلم ، مصدر سابق ١٢٣

المبحث الثالث : السماوات السبع طباق وشداد .

كلام ابن عاشور :

لقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى خلق فوقنا سبع سماوات طباقا في قوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَل تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٢﴾ [الملك] وقوله : ﴿الَّذِي

تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ [نوح] وسبعا شداد في قوله : ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا

﴿١٢﴾ [النبأ] . أما عن وصف السماوات بالطباق فيقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَل تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٢﴾ [الملك] :

" . . . والسماوات تكرر ذكرها في القرآن. والظاهر أن المراد بها الكواكب التي هي مجموع النظام الشمسي ما عدا الأرض ^(١). كما تقدم عند قوله تعالى: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} في [البقرة: ٢٩] فإنها هي المشاهدة بأعين المخاطبين، فالاستدلال بها استدلال بالمحسوس.

والطباق يجوز أن يكون مصدر طابق وصفت به السماوات للمبالغة، أي شديدة المطابقة، أي مناسبة بعضها لبعض في النظام . ويجوز أن تكون {طِبَاقًا} جمع طبق ، والطبق المساوي في حالة ماء، ومنه قولهم في المثل وافق شن طبقة. والمعنى : أنها مرتفع بعضها فوق بعض في الفضاء السحيق، أو المعنى : أنها متماثلة في بعض الصفات مثل التكوير والتحرك المنتظم في أنفسها وفي تحرك كل واحدة منها بالنسبة إلى تحرك بقيتها بحيث لا ترتطم ولا يتداخل سيرها" ^(٢)

ويقول في تفسير نفس الصفة في قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾

[نوح: ١٥] : " . . . و {طباقا} : بعضها أعلى من بعض، وذلك يقتضي أنها منفصل بعضها

عن بعض وأن بعضها أعلى من بعض سواء كانت متماسة أو كان بينها ما يسمى بالخلاء . ^(٣)

(١) هذا الكلام خطأ لا يمكن اعتباره وقد نوقش سابقا . وبالتالي يكون المترتب عليه في معنى " طباقا" غير مقبول كما في الصفحة التالية .

(٢) ابن عاشور التحرير . ١٦-١٥/٢٩

(٣) المرجع نفسه ، ١٨٨/٢٩

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى أنّ السماوات كواكب وهذا مردود ثم يبيّن أنّ وصف الطباق يراد به المبالغة أي أنّ السماوات تطابق بعضها وتتشابه في النظام وهذا يعود لمعنى أنها كواكب .
أو أنّ معنى هذا الوصف أنها مرتفع بعضها فوق بعض في الفضاء السحيق، أو المعنى : أنها متماثلة في بعض الصفات مثل التكوير والتحرك المنتظم . . .

كلام المعاصرين :

التفسير الأول للسماوات عند ابن عاشور وهو أنها الكواكب باطل علمياً وبالتالي يبطل ما ترتب عليه من نتائج في تفسير وصف " طباقاً " ، غير أنّ تفسيره للآية الثانية يفهم منه حمل السماوات على المعنى الثاني للسماء عنده - وقد مر سابقاً - وهو طبقات مختلفة الخصائص ، ويحمل معنى وصفها بالطباق على أن بعضها أعلى من بعض، وذلك يقتضي أنها منفصل بعضها عن بعض وأن بعضها أعلى من بعض سواء كانت متماسة أو كان بينها ما يسمى بالخلاء ، ولكن يُنكر عليه هنا أنّ السماء طبقات من الأجواء فالسماوات لا يمكن اعتبارها أجواء ألبتة . وقد تبين الكلام العلمي فيه في الفصل الأول . وفيما يتعلق بالسبع الشداد فهو كذلك يشير إلى المقصود بها السماوات السبع التي هي -بنظره- الكواكب المشهورة ، ويذكر معنى آخر وهو أن يراد بها طبقات علوية يعلمها الله تعالى .^(١)

شواهد أخرى :

يبيّن ابن عاشور أنّ الشداد جمع شديدة، وهي الموصوفة بالشدة، والشدة: القوة . والمعنى: أنها متينة الخلق قوية الأجرام لا يختل أمرها ولا تنقص على مر الأزمان. وهذا كلام لغوي قد وافق فيه غيره من المفسرين كالإمام الرازي رحمه الله .^(٢)

تعقيب :

لقد بين ابن عاشور معنى الطباق والشداد منطلقاً من أن المراد بها كواكب وقد تبين في الفصل الأول أن هذا باطل وتم ترجيح أن السماوات طبقات مختلفة الخصائص ويحمل معنى وصفها بالطباق على أن بعضها أعلى من بعض، وذلك يقتضي أنها منفصل بعضها عن بعض وأن بعضها أعلى من بعض سواء كانت متماسة أو كان بينها ما يسمى بالخلاء ، وهو أيضاً من احتمالات معنى السماء عند ابن عاشور، ولكن يُنكر عليه هنا أنّ السماء طبقات من الأجواء فالسماوات ليست أجواء .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٢٠/٣ (٢) انظر الرازي مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ٨/٣١ . والقاسمي ،

محمد جمال الدين بن محمد ، ١٤١٨ ، محاسن التأويل ، ط١ ، ٣٩٠/٩ دار الكتب العلمية ، بيروت ،

المبحث الخامس: السماء ذات حبك ، و ذات بروج ، وذات رجع .

المطلب الأوّل : حُبك السماء .

كلام ابن عاشور :

من الصّفات التي وُصفت بها السماء في القرآن الكريم هي وصفها بذات الحبك وذلك في قول الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ [الذاريات] ، التي يبين ابن عاشور فيها معنى الحبك

ويربطه بسياقه فيقول في تفسير الآية :

" . . . ومناسبة هذا القسم للمقسم عليه في وصف السماء بأنها ذات حبك، أي طرائق لأن المقسم عليه: إن قولهم مختلف طرائق قديداً ولذلك وصف المقسم به ليكون إيماء إلى نوع جواب القسم . والحبك: بضمّتين جمع حباك ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من الحبك بفتح فسكون وهو إجادة النسج وإتقان الصنع^(١) ، فيجوز أن يكون المراد بحُبك السماء نجومها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن ، وروي عن الحسن وسعيد بن جبير . وقيل الحبك : طرائق المجرة التي تبدو ليلاً في قبة الجو ، وقيل: طرائق السحاب ، وفسر الحبك بإتقان الخلق ، روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة ، وهذا يقتضي أنهم جعلوا الحبك مصدراً أو اسم مصدر، ولعله من النادر: وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أدمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى . " ^(٢)

التحليل :

كلام ابن عاشور في هذه الصفة ينتهي إلى أكثر من احتمال أوردها مدعمة باللغة والأثر وهذه الاحتمالات هي :

(١) وبالرجوع للغة وجدت أن أصل معنى الحبك هو الشد لكنه يخرج إلى معان يبينها ابن منظور بقوله " الحبك الشدّ واحتبك بإزاره احتبى به وشده إلى يديه والحبيكة كل طريقة من خُصل الشعر أو البيضة والجمع حبيك وحبانك وحُبك ... وكذلك طرائق الرمل فيما تحبكه الرياح إذا جرت عليه وفي الحديث في صفة الدجال رأسه حُبك أي شعر رأسه متكسر من الجعودة مثل الماء الساكن أو الرمل إذا هبت عليها الرياح فيتجعّدان ويصيران طرائق وفي رواية أخرى مُحَبَّك الشعر بمعناه ... وقال الفراء في قوله والسماء ذات الحُبك قال الحُبك تكسر كل شيء كالرملة إذا مرت عليها الرياح الساكنة والماء القائم إذا مرت به الرّيح... والمحبوك المُحَكَّم الخلق من حَبَّك الثوب إذا أحكمت نسجه ... ابن منظور - لسان العرب - ٤٠٧/١٠ ، وهذا لا يخرج عما قاله ابن عاشور في معنى الكلمة اللغوي .

(٢) ابن عاشور ، التحرير ، ١١/٢٧

أولاً: أن يراد بالحبك الطرائق مع وجود أكثر من احتمال للمراد بطرائق السماء فهي إما نُجُومُها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن ، أو هي طرائق المجرة التي تبدو ليلاً في قبة الجو ، وقيل : طرائق السحاب .
ثانياً : المراد الحبك إتقان الصنع .

كلام المعاصرين :

يشير ابن عاشور إلى أنّ من معاني الحبك طرائق النجوم والمجرات أي أنه يشير إلى أنها طرق سير الأجرام السماوية ، والعلم الحديث يوضح هذه الطرق حيث يقول الدكتور باسل الطائي : " تتألف المجموعة الشمسية من الشمس والأجرام التي تطوف حولها واهمها الكواكب التسعة المشهورة ، ... وتشتمل المنظومة الشمسية أيضاً على كويكبات ومذنبات واقمار الكواكب وغبار صخرية جرداء وبعضها مكون من جليد في معظمه . . إن لمعظم الكواكب السيارة أجراماً مرافقة أصغر منها حجماً تدور حوله وتسمى أقماراً أو توابع فالارض لها قمر واحد وللمريخ قمران وللمشتري خمسة وعشرون قمر ولزحل ثمانية عشر قمرًا ولأورانوس خمسة عشر قمرًا ولنبتون ثمانية أقمار ولبلوتو قمر واحد وأما عطارد والزهرة فلم يكتشف لها أقمار حتى الآن ... تدور جميع كواكب الأسرة الشمسية في مدارات إهليجية تقع الشمس في إحدى بؤرتيها . لمدارات الكواكب نقطتان أحدهما يكون فيها الكوكب على أبعد ما يكون من الشمس وتسمى هذه نقطة الأوج والثانية يكون فيها الكوكب على أقرب ما يكون من الشمس وتسمى هذه نقطة الحضيض .

لا تدور الكواكب حول الشمس في مستوى واحد بل في مستويات متفاوتة لكن معظم هذه المستويات تميل عن فلك البروج بضع درجات قليلة لذا يرى الراصد الحركة الظاهرية للكواكب واقعة ضمن نطاق ضيق هو أشبه بممر على كرة السماء يبدأ من الشرق وينتهي في الغرب ... تكون سرعة الكوكب أعظم ما تكون في نقطة الحضيض وتكون أقل ما تكون في نقطة الأوج وعموماً تكون سرعة الكواكب القريبة من الشمس أكبر من سرعة الكواكب البعيدة عنها. (١)
وإن اعتبرنا معنى الحبك بمعنى إتقان الصنع فأياً إتقان خير من هذا الإتقان في خلق الله تعالى .

شواهد أخرى :

يشير ابن عاشور إلى أنّ الحَبْك إما بمعنى إتقان الخلق أو أنّ الحَبْك هي الطرائق وكل ذلك تشهد له اللغة -كما تبين- فضلا عن أنّه لا يخرج عن أقوال المفسرين ، يقول الطبري : يقول تعالى ذكره : والسَّمَاء ذات الخَلْق الحسن. وعنى بقوله (ذَاتِ الحُبْكِ) : ذات الطرائق، وتكسير كل شيء: حُبْكُه، وهو جمع حَبَاك وحَبِيكَة؛ يقال لتكسير الشعرة الجعدة: حُبْك؛ وللرملة إذا مرّت بها الريح الساكنة، والماء القائم، والدرع من الحديد لها: حُبْك... ثم روى عن الضحاك قوله : حبكها مثل حبك الرمل، ومثل حبك الدرع، ومثل حبك الماء إذا ضربته الريح، فنسجته طرائق. (١)

وقد رأينا ابن عاشور يحدد الحَبْك بأنها طرائق النجوم وقد جاء الأثر بذلك أيضا فقد روى الطبري أيضا عن الحسن . . . قال: " حبكت بالخلق الحسن، حبكت بالنجوم " (٢) وقد لفت الألوسي إلى وجه اعتبار النجوم حبك بقوله والظاهر أن إطلاق الحَبْك على النجوم مجاز لأنها تزين السماء كما يزين الثوب الموشي حبكه وطرائق وشبهه فكأنه قيل : ذات النجوم التي هي كالحَبْك أي الطرائق في التزيين" (٣) وبالرغم من تزيين النجوم للسماء وكأنها كالطرائق المزينة للثوب فإن علماء الفلك بينوا ذلك علميًا كما تبين .

أما عن احتمال ان يراد بها طرائق السحاب فكما جاز لغة إطلاق وصف الحَبْك على الرمال التي أثرت الرياح في شكلها وفي الماء الذي أثرت الرياح في شكله فالسحاب أحيانا يُرى كذلك . ثانيا : أن يراد "بالحَبْك" إتقان الخلق . وهذا لا شك في صحته من حيث اللغة كما تبين ، ومن حيث الأثر فهو مروى عن مجاهد وغيره (٤) . وكذلك علميا فقد تبين في غير موضع إتقان الخالق في خلق السماوات ونظامها .

تعقيب :

فنخرج من كل ذلك بأن كلام ابن عاشور فيه استيعاب لمعاني كلمة " الحَبْك " والمراد منها؛ مع صحة كل ما ذهب إليه لغة وأثرا ، أضف إلى ذلك موافقته للعلوم الحديثة في هذا الباب لكن بشيء من الإجمال ، وهو يكشف أيضا إحكام آيات وكلمات القرآن فانظر إلى المعاني المتعددة التي جاءت بها كلمة الحَبْك.

(١) الطبري - جامع البيان - مصدر سابق ٣٩٧/٢٢

(٢) المرجع نفسه ٣٩٦/٢٢

(٣) الألوسي - روح المعاني مصدر سابق - ٢٧/٤ (٤) الطبري ، جامع البيان مصدر سابق ٣٩/٢٢

المطلب الثاني : بروج السماء

كلام ابن عاشور :

لقد جاء ذكر بروج السماء في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي :

الآية الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر] ،

والثانية قوله تعالى : ﴿نُبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سُرُبًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [

[الفرقان] ، والثالثة قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج] .

وجاء كلام ابن عاشور في تفسير هذه الآيات متضمنا عدداً من المسائل العلمية فهو يقول في تفسير آية سورة الحجر السابقة :

" وأطلق البرج على بقعة معينة من سمت طائفة من النجوم . . الثوابت متجمع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يشاهد من الجو، فتلك الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطا لو خطت بينها خطوط لخرج منها شبه صورة حيوان أو آلة سموا باسمها تلك النجوم المشابهة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس.

وقد سماها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان. وسماها العرب بروجاً ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سبباً لوضع الاسم ؛ تخيلوا أنها منازل للشمس لأنهم وقتوا بجهتها سمت موقع الشمس من قبة الجو نهاراً فيما يخيل للناظر أن الشمس تسير في شبه قوس الدائرة. وجعلوها اثني عشر مكاناً بعدد شهور السنة الشمسية وما هي في الحقيقة إلا سُموت لجهات تقابل كل جهة منها الأرض من جهة وراء الشمس مدة معينة. ثم إذا انتقل موقع الأرض من مدارها كل شهر من السنة تتغير الجهة المقابلة لها، فبما كان لها من النظام تسنى أن تجعل علامات لمواقيت حلول الفصول الأربعة وحلول الأشهر الإثني عشر، فهم ضبطوا لتلك العلامات حدوداً وهمية عيّنوا مكانها في الليل من جهة موقع الشمس في النهار ، وأعادوا رصدها يوماً فيوم ، وكلما مضت مدة شهر من السنة ضبطوا للشهر الذي يليه علامات في الجهة المقابلة لموقع الشمس في تلك المدة. وهكذا، حتى رأوا بعد اثني عشر شهراً أنهم قد رجعوا إلى مقابلة الجهة التي ابتدأوا منها فجعلوا ذلك حولا كاملاً. وتلك المسافة التي تخال الشمس قد اجتازتها في مدة السنة سموها دائرة البروج أو منطقة البروج. وللتمييز بين تلك الطوائف من النجوم جعلوا لها أسماء الأشياء التي شبهوها بها وأضافوا البرج إليها.

وهي على هذا الترتيب ابتداءً من برج مدخل فصل الربيع: الحمل، الثور، الجوزاء،
"مشتقة من الجوز - بفتح فسكون الوسط - لأنها معترضة في وسط السماء"، السرطان، الأسد،
السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.
فاعتبروا لبرج الحمل شهر "إبريل" وهكذا، وذلك بمصادفة أن كانت الشمس يومئذ في سمت
شكل نجمي شبهه بنقط خطوط صورة كبش . وبذلك يعتقد أن الأقدمين ضبطوا السنة الشمسية
وقسموها إلى الفصول الأربعة، وإلى الأشهر الإثني عشر قبل أن يضبطوا البروج. وإنما
ضبطوا البروج لقصد توقيت ابتداء الفصول بالضبط ليعرفوا ما مضى من مدتها وما بقي. وأول
من رسم هذه الرسوم الكلدانيون، ثم انتقل علمهم إلى بقية الأمم، ومنهم العرب فعرفوها
وضبطوها وسموها بلغتهم. ولذلك أقام القرآن الاستدلال بالبروج على عظيم قدرته وانفراده
بالخلق لأنهم قد عرفوا دقائقها ونظامها الذي تهيأت به لأن تكون وسيلة ضبط المواقيت بحيث لا
تخلف ملاحظة راصدها. وما خلقها الله بتلك الحالة إلا ليجعلها صالحة لضبط المواقيت كما قال
تعالى : {لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [سورة يونس: من الآية ٥] . . . " (١)

التحليل :

لقد عرف ابن عاشور البروج بأنها طائفة من النجوم الثوابت التي تشكل شكلاً معيناً إذا ما
وصل بينها وصلات وهمياً ، ثم بيّن أنها منازل لسير الشمس في قبة السماء ، وهو بهذا لم
يخرج عن أقوال غيره من المفسرين (٢) ، وبين أنها في الحقيقة سموت لجهات تقابل كل جهة
منها الأرض من جهة وراء الشمس مدة معينة ، وبيّن أنها اثنا عشر منزلاً ، وذكر أسماءها
وذكر كيف عرفها الأقدمون بكلام طويل كما مر .

كلام المعاصرين :

وبالرجوع إلى من كتبوا في هذه الموضوعات الفلكية من المعاصرين كالدكتور باسل الطائي
يتبين أن كلام ابن عاشور كلام دقيق ينبى عن معرفته بعلم الفلك ، بيان ذلك أنهم قسموا كرة
السماء إلى اثني عشر قسماً متساوياً يقع في كل قسم منها كوكبة نجمية التي يعبر عنها الشيخ

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٢٨-٢٣/١٣

(٢) انظر الطبري ، جامع البيان ، مصدر سابق ٧٦/١٧ ، و ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم مصدر سابق

في كلامه السابق ب"النجوم الثوابت" ولعله يقصد أنها "النجوم دائمة الظهور" (١) بالتعبير المعاصر . ثم سمّوا هذه الأقسام أبراج وهي مجموعة في قول الشاعر :

حمل الثور جوزة السرطان وحمل الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس جدي ملأ الدلو بركة الحيتان

وقالوا : إن هذه البروج ليست على استقامة واحدة بل تؤلف شريطا دائريا على كرة السماء تتحرك عليه الشمس والقمر والكواكب السيارة .

وبالنسبة لحسابات الشهور التي تحدث عنها الشيخ والتي تكون من خلال موقع الشمس في هذه البروج و أنّ تلك المسافة التي تجتازها الشمس في مدّة السنة سموها دائرة البروج أو منطقة البروج فإنّ كلام ابن عاشور كان موافقا لما عليه العلوم المعاصرة يقول الفلكيون : إنّ البروج تلعب دورا مهما في تحديد مواقع الشمس والقمر والنجوم وبقية الأجرام بل قالوا قريبا من كلام الشيخ من أنّ لدائرة البروج حركتين :

الأولى : يومية وهي دورانها حول الأرض دورة كاملة بالتقريب كل ٢٤ ساعة .

والثانية : سنوية : وهي دورانها حول الأرض دورة كاملة كل ٣٦٥ يوم وربع بالتقريب . (٢)

تعقيب :

كلام ابن عاشور بشكل عام في التعريف بالبروج وأسمائها ومواقع الشمس ومنازلها وحركتها فيها ؛ كان موافقا لما عليه أهل الاختصاص في علم الفلك المعاصر .

(١) هي النجوم التي تقطع السماء دوما دون أن تخنفي والتي يراها الراصد ظاهرة على الدوام

(٢) انظر د. الطائي - مدخل إلى علم الفلك مصدر سابق - ١٦-١٩

المطلب الثالث : رجع السماء :

كلام ابن عاشور :

لقد وصف الله تعالى السماء بذات الرجع في قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ [الطارق] ،

وقد فسّر ابن عاشور الرَّجْعَ بالمطر فقال :

" . . . ذكر من أحوال السماء ما له مناسبة بالمقسم عليه، وهو الغيث الذي به صلاح الناس، فإن إصلاح القرآن للناس كإصلاح المطر. وفي الحديث " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً" الحديث. (١) . . . وفي مسمى الرجع وهو المطر المعاقب لمطر آخر مناسبة لمعنى الرجع البعث فإن البعث حياة معاقبة بحياة سابقة. " (٢)

كلام المعاصرين :

إن معنى رجع السماء الذي ذكره ابن عاشور صحيح فالسمااء ترجع ما يصعد إليها من بخار الماء على شكل أمطار ، إلا أنه لا يمكن أن يُقتصر على ذلك والعلم الحديث يكتشف أكثر من صورة يمكن أن تكون من صور رجع السّماء ؛ وهي لا تنافر الآية وقد بينها الأستاذ الفاضل زغلول النجار بأنها : الرَّجْعُ الاهتزازي للهواء ، والرَّجْعُ المائي ، والرَّجْعُ الحراري ، ورجع الغازات والغبار المرتفع من سطح الأرض ، ورجع الأشعة فوق البنفسجية ، ورجع الإشارات الراديوية ، ورجع الأشعة الكونية " (٣)

شواهد أخرى :

إن تفسير الرجع بمعنى المطر قد ذكره جَمٌّ غفيرٌ من المفسرين وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم (٤) وقال به عدد من المفسرين كالرازي في مفاتيح الغيب وغيره والذي بين أن ذلك الاستخدام مجازي . (٥) وهذا الكلام مقبول ومفسرٌ علمياً حيث أن السماء ترجع ما يصعد إليها من بخار الماء على شكل أمطار .

تعقيب :

كلام ابن عاشور صحيح وهو يعبر عن معنى واحد بينما يأتي العلم الحديث ليبين عددا من الصور الأخرى لرجع السّماء .

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، مرجع سابق ، رقم (٧٩) ٢٧/١ ،

(٢) ابن عاشور التحرير والتنوير ٢٣٧/٣٠

(٣) انظر أ.د النجار ، تفسير الآيات الكونية ، ١٦٥/٤

(٤) ابن عاشور ، التحرير ٢٣٧/٣٠ (٥) الرازي ، مفاتيح الغيب مصدر سابق . ٨٩/١٥

الفصل الثالث : تفسير آيات الشمس والقمر في القرآن

المبحث الأول : آيات الشمس .

المطلب الأول : حركة الشمس ومستقرها .

المطلب الثاني : الشمس ضياء وسراج .

المبحث الثاني : آيات القمر .

المطلب الأول : منازل القمر وحركته .

المطلب الثاني : انشقاق القمر

المبحث الأول : آيات الشمس .

المطلب الأول : حركة الشمس ومستقرها .

كلام ابن عاشور :

بين القرآن الكريم أن الله تعالى قد سخر الشمس والقمر بأمره في قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف] وبين ابن عاشور أن

التسخير أطلق " مجازا على جعلها خاضعة للنظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير، مع أن شأن عظمها أن لا يستطيع غيره تعالى وضعها على نظام محدود منضبط ". (١)

ومما يجري في باب التسخير هو حركة الشمس وما يتعلق بهذه الحركة حيث بينها ابن

عاشور في تفسيره لبعض الآيات ومن ذلك أنه يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ [الأنبياء] :

"...مستأنفة استئنافا بيانيا لأنه لما ذكر الأشياء المتضادة بالحقائق أو بالأوقات ذكرا مجملا في بعضها الذي هو آيات السماء، ومفصلا في بعض آخر وهو الشمس والقمر، كان المقام مثيرا في نفوس السامعين سؤالا عن كيفية سيرها ، وكيف لا يقع لها اصطدام ؟ أو يقع منها تخلف عن الظهور في وقته المعلوم ؟ فأجيبَ ؛ بأن كل المذكورات له فضاء (٢) يسير فيه لا يلاقي فضاء سير غيره. وضمير {يَسْبَحُونَ} عائدٌ إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر..."(٣)

ثم يبين ما المراد باللفظ الذي وضع لحركة الشمس وهو السبح وكذلك مصطلح الفلك والمراد به فيقول : " والسَّبْحُ : مستعار للسير في متسع لا طرائق فيه متلاقية كطرائق الأرض ، وهو تقريب لسير الكواكب في الفضاء العظيم.

والفلك فسره أهل اللغة بأنه مدار النجوم، وكذلك فسره المفسرون لهذه الآية ولم يذكروا أنه مستعمل في هذا المعنى في كلام العرب. ويغلب على ظني أنه من مصطلحات القرآن ومنه أخذه علماء الإسلام ، وهو أحسن ما يعبر عنه عن الدوائر المفروضة التي يضبط بها سير

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ١٢٩/٨

(٢) هذا التعبير غير دقيق ، والأدق هو (لها مدارات وأفلاك محددة) (٣) المرجع نفسه ٤٥ / ١٧

كوكبٍ من الكواكب (١) وخاصةً سير الشمس وسير القمر. والأظهر أن القرآن نقله من فلك البحر وهو الموج المستدير بتنزيل اسم الجمع منزلة المفرد . والأصل الأصيل في ذلك كله فلكة المَعزَل بفتح الفاء وسكون اللام وهي خشبة مستديرة في أعلاها مسمار مثني يدخل فيه الغزل ويدار لينفتل الغزل . " (٢)

أما سير الشمس وحركتها ومستقرها المذكور في قوله تعالى : { والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم } [يس ٣٨] فهو يبينه بالتفصيل فيقول فيما يتعلق بلفظة الجري التي وضعت لحركة الشمس : " . . . والجري حقيقته : السير السريع لذوات الأرجل ، وأطلق مجازاً على تنقل الجسم من مكان إلى مكان تنقلاً سريعاً بالنسبة لتنقل أمثال ذلك الجسم ، وغلب هذا الإطلاق فساوى الحقيقة وأريد به السير في مسافات متباعدة جد التباعد فتقطعها في مدة قصيرة بالنسبة لتباعد الأرض عن الشمس . وهذا استدلال بآثار ذلك السير المعروفة للناس معرفة إجمالية بما يحسبون من الوقت وامتداد الليل والنهار وهي المعروفة لأهل المعرفة بمراقبة أحوالها من خاصة الناس ، وهم الذين يرقبون منازل تنقلها المسماة بالبروج الاثني عشر ، والمعروفة لأهل العلم بالهيئة تفصيلاً واستدلالاتاً وكل هؤلاء مخاطبون بالاعتبار بما بلغه علمهم . " (٣)

ثم يبين ما المراد بالمستقر الذي تجري الشمس له فيقول : " مكان الاستقرار ، أي القرار أو زمانه ، فالسين والتاء فيه للتأكيد مثل : استجاب بمعنى أجاب . واللام في {المُسْتَقَرُّ} يجوز أن تكون لام التعليل على ظاهرها ، أي تجري لأجل أن تستقر ، أي لأجل أن ينتهي جريها كما ينتهي سير المسافر إذا بلغ إلى مكانه فاستقر فيه ، وهو متعلق بـ {تَجْرِي} على أنه نهاية له لأن سير الشمس لما كانت نهايته انقطاعه نزل الانقطاع عنه منزلة العلة كما يقال "لدوا للموت وابنوا للخراب". وتنزيل النهاية منزلة العلة مستعمل في الكلام، ومنه قوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص: ٨]. والمعنى : أنها تسير سيراً دائماً مشاهداً إلى أن تبلغ الاحتجاب عن الأنظار .

(١) لو قال جرماً من الأجرام لكان أصح

(٢) ابن عاشور ، التحرير ، ١٧ / ٤٤-٤٥

(٣) المرجع نفسه ٢٢ / ٢٣٠

ويجوز أن تكون اللام بمعنى "إلى" ، أي تجري إلى مكان استقرارها وهو مكان الغروب ، شبه غروبها عن الأبصار بالمستقر والمأوى الذي يأوي إليه المرء في آخر النهار بعد الأعمال. وقد ورد تقريب ذلك في حديث أبي ذر الهروي في صحيح "البخاري" و"مسلم" و"جامع الترمذي" بروايات مختلفة حاصل ترتيبها أنه قال : "كنت مع رسول الله في المسجد عند غروب الشمس فسألته أو قال: " إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها : ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها " (١) فذلك مستقر لها ومستقرها تحت العرش فذلك قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}. وهذا تمثيل وتقريب للسير اليومي للشمس الذي يبتدىء بشروقها على بعض الكرة الأرضية و ينتهي بغروبها على بعض الكرة الأرضية ، في خطوط دقيقة ، وبتكرّر طلوعها وغروبها يوم الأرض .

وقد جعل الموضع الذي ينتهي إليه سيرها هو المعبر عنه بتحت العرش وهو سمت معين لا قبل للناس بمعرفته ، وهو منتهى مسافة سيرها اليومي، وعنده ينقطع سيرها في إبان انقطاعه وذلك حين تطلع من مغربها، أي حين ينقطع سير الأرض حول شعاعها لأن حركة الأجرام التابعة لنظامها تنقطع تبعا لانقطاع حركتها هي وذلك نهاية بقاء هذا العلم الدنيوي. واللام في قوله: {لَهَا} لام الاختصاص وهو صفة {لِمُسْتَقَرٍّ} . وعدل عن إضافة مستقر لضمير الشمس المغنية عن إظهار اللام إلى الإتيان باللام لئلا يتأتى تنكير "مستقر" تنكيرا مشعرا بتعظيم ذلك المستقر.

وكلام النبي صلى الله عليه وسلم هذا تمثيل لحال الغروب والشروق اليوميين. وجعل سجود

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه الإمام مسلم في الصحيح برقم (٢٥٠) ١/١٣٨ ، وهو بألفاظ مختلفة أيضا في البخاري في الجامع الصحيح برقم (٣١٩٩، ٤٨٠٢ ، ٧٤٢٤) والترمذي ، محمد بن عيسى (١٩٧٥ م) ، سنن الترمذي (تحقيق : محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي) ، ط ٢ ، برقم (٢١٨٦) ٤/٤٧٩ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر

الشمس تمثيلا لتسخير الله إياها كما جعل القول تمثيلا له في آية {فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت]. " (١)

و في تفسير قول الله تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي

فَلَكَ يَسْبُحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس] يقول ابن عاشور :

" لما جرى ذكر الشمس والقمر في معرض الآيات الدالة على انفراده تعالى بالخلق والتدبير .
، وكان الناس يعرفون تقارب الشمس والقمر فيما يراه الرءاون، وكانوا يقدرون سيرهما
بأسمات معلّمة بعلامات نجومية تسمى بروجاً بالنسبة لسير الشمس، وتسمى منازل بالنسبة لسير
القمر، وكانوا يعلمون شدة قرب المنازل القمرية من البروج الشمسية فإن كل برج تسامته
منزلتان أو ثلاث منازل، وبعض نجوم المنازل هي أجزاء من نجوم البروج ، زادهم الله عبرة
وتعليماً بأن للشمس سيرا لا يلاقي سير القمر، وللقمر سيرا لا يلاقي سير الشمس ولا يمر
أحدهما بطرائق مسير الآخر وأن ما يترأى للناس من شدة الشمس والقمر في جو واحد وفي
حجمين متقاربين، وما يترأى لهم من تقارب نجوم بروج الشمس ونجوم منازل القمر، إن هو
إلا من تخيلات الأبصار وتفاوت المقادير بين الأجرام والأبعاد.
فالفكرة العظيمة كالشمس تبدو مقاربة لكرة القمر في المرأى و إنما ذلك من تباعد الأبعاد فأبعاد
فلك الشمس تفوت أبعاد فلك القمر بمئات الملايين من الأميال، حتى يلوح لنا حجم الشمس مقاربا
لحجم القمر. فبين الله أنه نظم سير الشمس والقمر على نظام يستحيل معه اتصال إحدى الكرتين
بالأخرى لشدة الأبعاد بين مداريهما... " (٢)

ثم بين ما المراد بالفلك وأصل الكلمة فقال : " والفلك: الدائرة المفروضة في الخلاء الجوي
لسير أحد الكواكب سيرا مطردا لا يحيد عنه، فإن أهل الأرصاد الأقدمين لما رصدوا تلك
المدارات وجدوها لا تتغير ووجدوا نهايتها تتصل بمبتدأها فتوهموها طرائق مستديرة تسير فيها
الكواكب كما تتقلب الكرة على الأرض وربما توسعوا في التوهم فظنوها طرائق صلبة ترتكز
عليها الكواكب في سيرها مجرورة بسلاسل وكلايب وكان ذلك في معتقد القبط بمصر. وسمى
العرب تلك الطرائق أفلاكا وأحدها فلك اشتقوا له اسما من اسم فلكة المغزل، وهي عود في

(١) ابن عاشور التحرير ٢٢/٢٣٠-٢٣١

(٢) المرجع نفسه . ٢٢/٢٣٣-٢٣٤

أعلاه خشبة مستديرة متبطحه مثل التفاحة الكبيرة تلف المرأة عليها خيوط غزلها التي تفتلها لتديرها بكفيها. فيلتف عليها خيوط الغزل، فتوهموا الفلك جسما كرويا وتوهموا الكواكب موضوعة عليه تدور بدورته ولذلك قدروا الزمان بأنه حركة الفلك. وسمّوا ما بين مبدأ المدّتين حتى ينتهي إلى حيث ابتداء (دورة الفلك) ، ولكن القرآن جاراهم في الاسم اللغوي لأن ذلك مبلغ اللغة وأصلح لهم ما توهموا بقوله: {يَسْبَحُونَ} ، فبطل أن تكون أجرام الكواكب ملتصقة بأفلاكها ولزم من كونها سابحة أن طرائق سيرها دوائر وهمية لأن السبح هنا سبح في الهواء لا في الماء، والهواء لا تخطط فيه الخطوط ولا الأخاديد .^(١)

التحليل :

يبين ابن عاشور في الآيات السابقة أنّ الشمس مسخرة بأمر الله تعالى بنظام عبر عنه القرآن بالتسخير ، ووضع لحركتها ألفاظا كالسبح والجري ، وكلّ من هذه الألفاظ له دلالاته على سرعة جريها وعلى سيرها في خطوط وهمية. ثمّ بيّن حقيقة هذا السير وأنه في البروج الإثني عشر - مبينا معنى البروج - وأنّ لها سيرا لا يلاقي سير القمر في منازلها ، ويبين أن هذا السير في فلك فيفسر معنى الفلك وأصله في اللغة ويُفِيض فيه ، وابن عاشور صاحب معجم خاص إذ أنّه يبدع في بيان هذه المعاني اللغوية . ثمّ بيّن ابن عاشور المراد بمستقر الشمس وهو يميل إلى أن استقرارها يقصد به مغيبتها واحتجابها أو وصولها إلى سَمْتٍ لا يعلمه إلا الله تعالى وذلك باحتجابها في مغربها في كل يوم أو أنها ستوقف وتتوقف الأجرام التابعة لها في اليوم الآخر .

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور السابق يتضمن أكثر من قضية علمية على النحو الآتي :

(١) حركة الشمس : يشير ابن عاشور إلى أن للشمس حركة في مدار معين وهو فلكها وأن هذه الحركة سريعة جداً بحيث تقطع مسافات متباعدة في مدّة قصيرة . وهو يُبيّن أيضا أن سير الشمس هو في البروج التي تم الحديث عنها في الفصل الثاني من هذا الباب ، وأن هذا السير بحسب ما يراه الراصدون ، والعلم الحديث يقول : إن حركة الشمس في البروج هي حركة معروفة فلكيا وهي أحد الحركات المرئية لنا لا الحقيقية كما هو معلوم فلكيا . وحركة الشمس الحقيقية سريعة جداً ، تماما كما أشار الطاهر ابن عاشور فالعلم الحديث يشير إلى أن حركتها نحو برج النسر تصل إلى عشرة أميال في الثانية^(٢) ، لكن العلم الحديث فصل في حركات

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٢٢/٢٣٣-٢٣٦

(٢) غسن ، محمد ، (٢٠٠٦م) ، أسرار السماوات والأرض في القرآن ط١ص ٧٣-٧٤ دار العلم للملايين ، لبنان .

الشمس الأخرى ، وبعد البحث تبين أنّ للشمس أكثر من حركة باعتبارات معينه على النحو الآتي:

أولاً: باعتبار الحركة الظاهرية لنا :

- ١- الحركة الظاهرية اليومية : أشار إليها ابن عاشور .
 - ٢- حركتها في البروج : فصلّ ابن عاشور القول فيها بما يوافق العلم الحديث ، فالشمس تسير في كل برج منها شهرا كاملا ومنازل الشمس بالنسبة للبروج ٤ منازل هي الفصول الأربعة وكل منزل يحتوي على ثلاثة بروج فالربيع برج الحمل والثور والجوزاء والصيف السرطان والأسد والعذراء والخريف الميزان والعقرب والقوس والشتاء الجدي والدلو والحوت (١)
- ثانيا : حركتها الحقيقية :

أما بالنسبة لنظام جريانها وتسخيرها وحركتها الحقيقية فإن الشمس لها أكثر من حركة :

الأولى : لم يذكرها ابن عاشور وهي دورانها حول نفسها مرة كل ٢٧ يوم أرضي .

الثانية : أنها تدور حول مركز مجرتّها في فلك إهليجي (٢) مرة كل ٢٥٠ مليون سنة (٣) وابن عاشور اكتفى هنا ببيان أن للشمس حركة سريعة كما مر وأن هذه الحركة بمدار يسمى فلك أي دائري .

الثالثة: دل الرصد الفلكي على أنّ الشمس تسبح في الفضاء مصحوبة بسياراتها التي تدور حولها بمدارات اهليجية ، تجري بسرعة تبلغ اثني عشر ميلا في الثانية باتجاه نجم كبير يدعى الجاثي على ركبتيه (النسر) يقول الكاتب محمد غصن : لو سئلت عن ما هي أعظم الحقائق التي اكتشفها العلم البشري ؟ لقلت : إنّ الشمس والكواكب السيارة وأقمارها تجري في الفضاء نحو برج النسر بسرعة غير معهودة لنا في الأرض ولكي يتصور القارئ الحقيقة فما عليه الا ان ينظر الى برج النسر الجميل ويتصور اننا نقترب منه يومياً بما يقرب من مليون من الاميال وبما لدينا من معلومات عن هذه المسافة يمكننا القول ان المجموعة الشمسية لن يكون باستطاعتها الوصول الى المكان الذي يقع فيه البرج الا بعد مدة تتراوح بين مليون ونصف مليون سنة من وقتنا الحاضر " (٤) وابن عاشور لم يذكر هذه الحركة .

(١) د. بطاينة ، بركات عطوان ، (٢٠٠٣م) ، مقدمة في علم الفلك ط ١ ص ٣٢ ، دار المسيرة عمان

(٢) دائري .

(٣) حسب النبي ، د. منصور محمد ، الكون والإعجاز العلمي للقرآن ، القاهرة ، دار الفكر العربي ط٢٠٠٢.

١٩٩١ ، ص ١١٦

(٤) غصن ، محمد ، (٢٠٠٦م) ، أسرار السماوات والأرض في القرآن ط١ ص ٧٣-٧٤ دار العلم للملايين ،

لبنان .

٢ (مستقرُّ الشمس :

بالنسبة لمستقر الشمس المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ

الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ [يس] فالشيخ يميل إلى أن استقرارها يقصد به مغيبها واحتجابها أو

وصولها إلى سمتٍ لا يعلمه إلا الله تعالى وذلك باحتجابها في مغربها في كل يوم أو أنها ستتوقف وتتوقف الأجرام التابعة لها في اليوم الآخر ، لكني وجدت اختلافا في تحديد ما هو هذا المستقر أهو :

- انطفاء نورها وانكماشها ووصولها إلى ما يسمّى بالقزم الأبيض .^(١) وهذا الرأي بعيد لأن المفهوم من النصوص الشرعية في أهوال يوم القيامة أن الشمس ستصبح طالعة أي كما عهدتها الناس بلونها وشكلها ولكنّ طلوعها من المغرب .
- أو أن مستقرّها هو وصولها هي ومجرتها إلى برج النسر كما مر قبل قليل .
- أو هو غيابها اليومي .

وهذه الأقوال جميعاً لا تخرج عما قاله ابن عاشور فالقول الثاني والثالث ينفقان في توقف عمل الشمس ومجموعتها ، لكنّ الأقوى هو الثاني لدلالة "تجري" الدالة على شدة حركتها وسرعتها ، واقترانها "باللام" و"مُسْتَقَرٌّ" ، ولتأكد معنى الاستقرار فيه أكثر من غيره ؛ فالكلمة تستعمل في حق شيء متحرك ثم يسكن أكثر من شيء ينمو أو يتمتع بكيفية حياة معينة ثم يتوقف.

(١) حيث إنّ الشمس لا تحوي مواد صلبة وإنما هي كتلة غازية هائلة في باطنها حيث تحوي ٧٠% هيدروجين و٢٧% هيليوم و٣% غازات أخرى مثل الأوكسجين والكربون والبورون وتحترق ذرات الهيدروجين وتتحول إلى ذرات من الهيليوم في عملية مستمرة ويرافق ذلك الضوء الساطع والحرارة الهائلة ، وفي كل ثانية يتحول أربعة ملايين طن من المادة إلى طاقة وبالتالي تنقص كتلتها نحو أربعة ملايين طن كل ثانية إلى أن تصل إلى مرحلة القزم الأبيض حيث يتقلص حجمها وتهدم الاندماجات ، ويتحوّل لونها للأبيض بالرغم من أنّ حرارتها تتزايد بشكل كبير ، فذهب بعض الفلكيين إلى أنّ هذا هو مستقر الشمس ونهايتها . انظر : د. الطائي ، مدخل إلى علم الفلك ، ١٥٨

شواهد أخرى :

لقد كان ابن عاشور يسير في تفسير تلك الآيات علمياً منطلقاً من اللغة بل إنه يوظف اللغة في تحديد التفسير العلمي ، يظهر ذلك جلياً في بيانه أنّ للشمس حركة سريعة حيث تقطع الأميال والمسافات الشاسعة في فترة وجيزة انطلاقاً من الفعل (تجري) ، وكذلك مدارات الأجرام السماوية حيث بين القرآن أنها (في فلك) وبيّن ابن عاشور أنّ هذه اللفظة أصلها من فلكة المغزل، وهي عود في أعلاه خشبة مستديرة تلف المرأة عليها خيوط غزلها التي تفتلها لتديرها بكفيها. فلتف عليها خيوط الغزل ، وربط ذلك بالمعنى العلمي . فكان تفسير ابن عاشور العلمي منطلقاً من اللغة أو أنّ اللغة تتدخل بشكل واضح في المعنى العلمي .

تعقيب :

لقد كان تفسير ابن عاشور للآيات المتعلقة بالشمس متضمناً بعض القضايا العلمية كحركة الشمس حيث يشير ابن عاشور إلى أنّ للشمس حركة في مدار معين وهو فلكها وأن هذه الحركة سريعة جداً بحيث تقطع مسافات متباعدة في مدّة قصيرة . وهو يبيّن أيضاً أن سير الشمس هو في البروج . ورأينا صحة ذلك لغة . ألا أن العلم قد ذكر ذلك بتوسّع . وكذلك مستقر الشمس حيث يرى أنّ مستقرها هو غيابها اليومي أو انتهائها ووقوفها والعلم الحديث لم يستبعد انتهائها لكن الراجح هو ذهابها نحو برج النسر التي تجري نحوه الآن .

المطلب الثاني : الشمس ضياء وسراج .

كلام ابن عاشور :

لقد وصف الله تعالى الشمس بالضياء فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾ [يونس]

ووصفها بالسراج في قوله : ﴿ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (١١)

[الفرقان] ، ووصف السراج بالوهاج في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾ (١٣) [النبأ] ، فما

معنى هذه الأوصاف وتفسيرها العلمي ؟

يقول ابن عاشور في وصف الشمس بالضياء الوارد في آية يونس :

" فجعل الشمس ضياءً لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما تهتمهم مشاهدته بما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم . وجعل القمر نوراً للانتفاع بنوره انتفاعاً مناسباً للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة وهو الليل ، ولذلك جعل نوره أضعف لينفع به بقدر ضرورة المنتفع . . . " (١)

وفي وصف الشمس بالسراج فقد بين أن " الكلام جار على التشبيه البليغ لأن حقيقة

السراج: المصباح الزاهر الضياء. والمقصود: أنه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج " (٢)

ويبين أيضاً القضية عند تفسير قوله تعالى : {والقمر إذا تلاها} الشمس [٢] فيقول : " وفي

الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل

الأرض من القمر، وليس نيرا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن وهو مما أشرت إليه

في المقدمة العاشرة " (٣)

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى أنّ الله تعالى قد وصف الشمس بالضياء لأنه أبلغ من النور فالضياء نور

ساطع قوي ، أما القمر فقد وصف بالنور لأن نوره ضعيف فهو من ضياء الشمس وهذه حقيقة

علمية تعدّ من معجزات القرآن الكريم العلميّة .

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ١٩/١١ ،

(٢) ابن عاشور ، التحرير ، ٨٥/١٩ ،

(٣) المرجع نفسه ، ٣٠ / ٣٢٣-٣٢٤

كلام المعاصرين :

إنّ كلام ابن عاشور صحيح و أصبح الآن من المسلمات علميا وهو أن الشمس تضيء بذاتها وقد تقدم قبل قليل ما يتعلق بتوهجها وشدة اشتعالها ، أما القمر فهو جرم معتم بارد وشدة توهج القمر واحد من ٦٥٠٠٠٠٠ من شدة توهج الشمس و إنّ البدر الكامل يعكس ٧% من ضوء الشمس المرئي ، (١) ،

شواهد أخرى :

لقد أشار ابن عاشور إلى القضية العلمية بناءً على انطلاقاً من أنّ لفظة الضياء مختلفة عن النور وهذا حقّ ، ذلك أنّ إحكام ألفاظ القرآن يقود لذلك أيضا فكلمة الضياء لها استعمال في القرآن الكريم غير استعمال النور فالله تعالى يقول : ﴿... فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وَرَزَقَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ [البقرة: ١٧] فالنار مشتعلة وهي تتوقد فتضيء والذي يظهر

على الأجسام المقابلة لها هو نورها لذلك قال سبحانه { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } ، يقول الدكتور عبد الرحمن عباد: " والسراج هو ذو الفتيل وقد استعمله العرب لكل جسم مضئ بذاته ويتضح الآن لأهل البحث في جميع الآيات ان القرآن الكريم لم يستعمل لفظ النور او مشتقاته الا للضوء المكتسب المعكوس فجاء وصفه تعالى القمر بالنور اشارة واضحة محددة الى ان ضوءه مكتسب معكوس " (٢)

تعقيب :

لقد تبين مما سبق أنّ كلام ابن عاشور في الآيات صحيح علميا وهو غير خارج عن اللغة .

(١) د. السعدي ، داود ، (١٩٩٧م) ، أسرار الكون في القرآن ط ١ ص ٨٦-٨٧ دار الحرف العربي

(٢) د. عبد الرحمن عباد ، بحث في مؤتمر الإعجاز العلمي ، مصدر سابق ٤١٧/٢

المبحث الثاني : آيات القمر .

المطلب الأول : التفسير العلمي لمنازل القمر وحركته .

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

وَالْحِسَابَ ۗ ﴾ [يونس] ، وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول ابن عاشور مبينا ما يتعلق

بالمنازل : " . . . وهي مراتب نور القمر في القوة والضعف التابعة لما يظهر للناس نيراً من كرة القمر، كما في قوله تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [يس: ٣٩]. أي حتى نقص نوره ليلة بعد ليلة فعاد كالعرجون البالي . . . والمنازل: جمع منزل، وهو مكان النزول. والمراد بها هنا المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر. وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشهر القمري. وإطلاق اسم المنازل عليها مجاز بالمشابهة وإنما هي سموت^(١) يلوح للناس القمر كل ليلة في سمت منها، كأنه ينزل بها. وقد رصدها البشر فوجدوها لا تختلف. وعلم المهتدون منهم أنها ما وجدت على ذلك النظام إلا بصنع الخالق الحكيم.

وهذه المنازل أمارتها أنجم مجتمعة على شكل لا يختلف، فوضع العلماء السابقون لها أسماء ، وهذه أسماؤها في العربية على ترتيبها في الطلوع عند الفجر في فصول السنة. والعرب يبتدئون ذكرها بالشرطان وهكذا ، وذلك باعتبار طول القمر كل ليلة في سمت منزلة من هذه المنازل، فأول ليلة من ليالي الهلال للشرطان وهكذا . وهذه أسماؤها مرتبة على حسب تقسيمها على فصول السنة الشمسية. وهي العواء، السَّمَكُ الاعزَل ، العَفْر ، الزُّبَانِي ، الإكليل ، القَلْب ، الشَّوْلة ، النَعَائِم ، البَلْدَة ، سَعْدُ الدَّابِح ، سَعْدُ بَلَع ، سَعْدُ السُّعُود ، سَعْدُ الأَخْيِيَّة ، الفَرْعُ الأعلى ، الفَرْعُ الأسفل ، الحُوت ، الشَّرْطَان ، البُطَيْن ، الثُّرَيَّا ، الدَّبْرَان ، الهَقْعَة ، الهَنْعَة ، ذِرَاعُ الأَسَد ، النَّشْرَة ، الطَّرْف ، الجَبْهَة ، الزُّبْرَة ، الصَّرْفَة .

وهذه المنازل منقسمة على البروج الاثني عشر التي تحل فيها الشمس في فصول السنة، فلكل برج من الاثني عشر برجا منزلتان وثلاث، وهذا ضابط لمعرفة نجومها ولا علاقة له

(١) سموت جمع سمت وهي تعني مواقع

باعتبارها منازل للقمر. وقد أنبأنا الله بعلة تقديره القمر منازل بأنها معرفة الناس عدد السنين والحساب . " (١)

وأحال على تفسيره للمنازل في هذه الآية تفسيرها عند قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ فَدَرَزَنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ

عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس] (٢)

التحليل :

ابن عاشور يثبت أن الله تعالى قد سخر القمر لنظام معين ، هذا النظام هو مسيره بمدار أو فلكٍ خاصٍ له يختلف عن فلك الشمس فهما لا يلتقيان أبداً إلا في الآخرة . والسبب في ذلك برأيه أن لكل منهما فلك تسير فيه الشمس دائرة ببروجها والقمر في منازل ثم أخذ يتحدث عن هذه المنازل على النحو الآتي :

عرّف بالمنازل بأنها المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر - وهذا هو المعنى الأول عنده للمنازل - وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشهر القمري . ثم بيّن أسماء هذه المنازل مرتبة على حسب تقسيمها على فصول السنة ، وهذا المعنى بما فيه التعريف بتلك المنازل قد ذكره الزمخشري في كشافه . (٣)

ثم بيّن أن هذه المنازل منقسمة على البروج الاثني عشر التي تحلّ فيها الشمس في فصول السنة ، فلكل برج من الاثني عشر برجاً منزلتان وثلاث .

أما المعنى الثاني للمنازل وهو أنّها تُطلق على أشكال ظهوره فكأنه يجعل كلمة منازل تصدق على كل من المعنيين وهو لم يفصل هذه الأشكال إلا أنه تناول بعضها ففي تفسير الأهله يشير إلى أن الهلال هو القمر في أول استقباله الشمس كل شهر قمري في الليلة الأولى والثانية،

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٢١/١١

(٢) انظر ابن عاشور ٢٣٢/٢٢

(٣) الزمخشري ، الكشاف ، مصدر سابق ٤٣٤/٥

قيل والثالثة ، ويطلق الهلال على القمر ليلة ست وعشرين، وسبع وعشرين، لأنه في قدر الهلال في أول الشهر^(١) وفي المحاق يبين أن المحاق ذهاب نور القمر^(٢) ، والبدر اكتمال نور القمر وهو اتساقه .^(٣)

كلام المعاصرين :

وكلام ابن عاشور في منازل القمر - بشكل عام - موافق لما عليه أهل الاختصاص من فلكيين ؛ حيث قسّموا السّماء إلى (٢٨) قسماً متساوياً ، كل قسم يمثل منزلة وذلك بحسب حركات القمر اليومية واستدلوا على مواقع هذه المنازل بالكوكبات النّجمية القريبة من خط حركة القمر على دائرة البروج ، ولما كانت كرة السماء مقسمة إلى ١٢ برج فإنّ كل منزلتين وثلاث تقع في حيز برج . وحركة القمر في المنازل تدل على حركته بالنّسبة إلى الخلفية النجومية فالقمر يتم دورته حول الأرض في (٢٧) يوم و (٧) ساعات و (٤٣) دقيقة و(١١) ونصف ثانية ولكن لو راقبنا القمر ووجدناه عند نجم في وقت معين ثم رجعنا في نفس الوقت في اليوم التالي لوجدناه قد ابتعد عنه إلى جهة الشرق ثم يبتعد في اليوم التالي ولا يدرك القمر النجم ثانية إلا بعد (٢٨) يوم تقريبا ؛ لذا جاءت المنازل العربية (٢٨) وإذا تأخر رؤية الهلال يوم جاء الشهر (٢٩) وإذا تأخر يومان جاء (٣٠)^(٤)

أما بالنسبة للمعنى الثاني عند ابن عاشور للمنازل وهي أشكال ظهوره فقد وافق علم

الفلك الذي يقول: إن القمر يتدرج من خيط رفيع في أول الشهر القمري ثم يصبح هلالاً ثم إلى التزبيح الأول ثم الأحدب الأول ثم يكتمل بدراً في منتصف الشهر ، ثم إلى الأحدب الثاني ، ثم الهلال الثاني ثم المحاق ثم إلى هلال الشهر التالي ، وسبب هذا التغير أنّ أشعة الشمس تنعكس على سطحه إلى الأرض ونظراً لوضعه بالنسبة إلى الأرض حيث لا يظهر لنا إلا الجزء المنير المقابل للأرض فقط من وجه القمر .^(٥)

تعقيب :

فكلام الشيخ صحيح بشكل عام يدل على سعة اطلاعه وتمكنه في كثير من العلوم . وكلامه لا يختلف عن كلام العلم الحديث إلا في الإجمال والتفصيل .

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٩٢/٢

(٢) المرجع نفسه ٥٥٨/٢

(٣) المرجع نفسه ، ٢٠٢/٣٠

(٤) انظر د. الطائي ، مدخل إلى علم الفلك ، مصدر سابق ٤١-٤٧

(٥) د. عرابي ، رجا عبد ، (٢٠٠٦م) ، دراسة الإعجاز في سورة الطارق ، ط ١ ص ٢٩١-٢٩٢ دار القبس

المطلب الثاني : انشقاق القمر

كلام ابن عاشور :

من الآيات العظيمة المرتبطة بالقمر التي ذكرها القرآن الكريم ، وفسرها ابن عاشور

قضية انشقاق القمر المذكورة في قوله تعالى : ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر]

حيث يعرض لسبب نزول الآية والأحاديث الواردة في وقوع الانشقاق ويخرج بترجيح وقوع ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان من معجزاته عليه السلام ^(١) والذي يعنينا في هذا المقام هو الكلام العلمي حيث يبين إمكان تلك المعجزة علمياً فيقول :

" ... فيجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدثت في وجهه هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين بينهما سواد حتى يخيل أنه منشق إلى قمرين، فالتعبير عنه بالانشقاق مطابق للواقع لأن الهوة انشقاق وموافق لمرأى الناس لأنهم رأوه كأنه مشقوق .

ويجوز أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي من نحو بعض المذنبات حجب ضوء الشمس عن وجه القمر بمقدار ضل ذلك الجسم على نحو ما يسمى بالخشوف الجزئي، وليس في لفظ أحاديث أنس بن مالك عند مسلم والترمذي، وابن مسعود وابن عباس عند البخاري ما يناكر ذلك .

(١) يظهر من كلام ابن عاشور في المسألة أنه يرى أن انشقاق القمر قد وقع فعلاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان معجزة من معجزاته ، ذاكراً أن معظم السلف من المفسرين ومن خلفهم حملوا هذه الآية على أن انشقاق القمر حصل قبل نزولها أو بقرب نزولها ، (انظر ابن عاشور التحرير ، ١٦٢/٢٧-١٦٣) ، وهذا صحيح إذ يقول ابن كثير في تفسيره : قد كان هذا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: "خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر" . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أي انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. ا.هـ (ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٤٧٢/٧) ،

ثم أخذ يسوق الأحاديث الواردة في ذلك واكتفي هنا بإيراد حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي يشير إليه ابن عاشور إذ أخرجه البخاري عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقيين، حتى رأوا حراء بينهما . (صحيح البخاري ، رقم (٣٨٦٨)

ومن الممكن أن يكون الانشقاق حدثاً مركباً من خسوف نصفي في القمر على عادة الخسوف فحجب نصف القمر، والقمر على سمت أحد الجبلين قد حصل في الجو ساعة إذ سحب مائي انعكس في بريق مائه صورة القمر مخسوفاً بحيث يخالطه الناظر نصفاً آخر من القمر دون كسوف طالعا على جهة ذلك الجبل، وهذا من غرائب حوادث الجو. وقد عرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة لأشعة الشمس^(١) ويجوز أن يحدث مثلها بالنسبة لضوء القمر على أنه نادر جدا وقد ذكرنا ذلك عند قوله تعالى {وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ} في سورة الأعراف. [١٧١]. ويؤيد هذا ما أخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: سحر القمر فنزلت {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ} الآية فسماه ابن عباس كسوفاً تقريبا لنوعه.

وهذا الوجه لا ينافي كون الانشقاق معجزة لأن حصوله في وقت سؤالهم من النبي صلى الله عليه وسلم آية وإلهام الله إياهم أن يسألوا ذلك في حين تقدير الله كاف في كونه آية صدق . أو لأن الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يتحداهم به قبل حصوله دليل على أنه مرسل من الله إذ لا قبل للرسول صلى الله عليه وسلم بمعرفة أوقات ظواهر التغيرات للكواكب. وبهذا الوجه يظهر اختصاص ظهور ذلك بمكة دون غيرها من العالم^(٢)، وإما على الوجه الأول فإنما لم يشعر به غير أهل مكة من الأرض لأنهم لم يكونوا متأهبين إليه إذ كان ذلك ليلا وهو وقت غفلة أو نوم ولأن القمر ليس ظهوره في حد واحد لأهل الأرض فإن مواقيت طلوعه تختلف باختلاف البلدان في ساعات الليل والنهار وفي مسامته السماء . . . {وَأَشَقُّ} مطاوع شقه، والشق: فرج وتفرق بين أديم جسم ما بحيث لا تنفصل قطعة مجموع ذلك الجسم عن البقية، ويسمى أيضا تصدعا كما يقع في عود أو جدار.

فإطلاق الانشقاق على حدوث هوة في سطح القمر إطلاق حقيقي وإطلاقه على انطماس بعض ضوئه استعارة، وإطلاقه على تفرقة نصفين مجاز مرسل. . . " (٣)

(١) هذا الكلام من ابن عاشور غريب وبعيد وهو لم يبين تلك الحوادث التي في الشمس .
(٢) قضية اختصاص مشاهدة خسف القمر بمكة لا تُسلم لابن عاشور عليه الرحمة ، فقد أورد الدكتور محمد حميد الله في كتابه المعنون " محمد رسول الله " أنه قد جاء في أحد المخطوطات الهندية القديمة والمحفوظة في المركز الهندي بمدينة لندن تحت الرقم ٢٨٠٧ / ١٥٢-١٧٣ أن أحد ملوك ماليفار وكان اسمه (chakrawati farmas) شاهد انشقاق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ يحدث الناس بذلك .

(٣) ابن عاشور ، التحرير ١٦٦-١٦٢ / ٢٧

التحليل:

لقد أورد ابن عاشور تفسيرات علمية متعددة لانشقاق القمر المذكور في قوله تعالى :

﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر: ١] ، فهو إما خسف حل بالقمر أحدث في وجهه

هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين ، أو أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي فكون خسوفا جزئيا ، أو انعكاس نصف القمر بسحاب مائي . . .

أودُّ الإشارةَ أولاً إلى أن هذا الأمر يتعلق بمعجزة ، فلا يستلزم الأمر إمكان ذلك علمياً بالكلام عن معجزة والمعجزة فيها خروج عن السنن الإلهية المطردة في الكون والعلم معرفة السنن الإلهية ، على أن ابن عاشور تنبه لذلك حينما قال : فبنا أن نبين إمكان حصول هذا الانشقاق مسافرين للاحتتمالات الناشئة عن روايات الخبر عن الانشقاق إبطالا لجحد الملحدين، وتقريبا لفهم المصدقين . " (١) فإذا تعلق الأمر بذلك اقتضى البيان .

كلام المعاصرين :

أشير هنا إلى ما قاله الأستاذ الدكتور زغلول النجار – حفظه الله - من أن هناك شق كبير في القمر يزيد طوله على ٢٢٥ كم ويدعمه عدم تماثل نصفي القمر الحالي (٢) ؛ فهذا يبين وقوع تلك المعجزة . وابن عاشور لم يذكر هذا .

شواهد أخرى :

التفسيرات التي أوردها ابن عاشور لا تتفق مع الأحاديث لأن الأحاديث تبين أنهم رأوا حراء بين شقي القمر وهذا يعني أنهما انفصلا عن بعضهما . فالقول بوقوع خسوف أو ورود سحب مائي . . . قول يعارض ذلك ثم إن القرآن الكريم سماه انشقاقا بكل ما تحمله اللفظة من معنى الانفصال واللفظ على حقيقته ولا صارف له إلى المجاز أقصد أن يطلق على الخسوف أو على غير هذا المعنى مجازاً

تعقيب :

نخرج من كل ذلك بأن الاحتمالات التي أوردها ابن عاشور لا صحة لها خاصة أن الآية أثبتت حقيقة انشقاق القمر ولا داعي لاحتمالات لم يقع فيها انشقاق بل كان الانشقاق فيها كلها مجازياً . ثم إن العلم الحديث أثبت وجود شق كبير في القمر يدل على أنه كان قد انشق في وقت من الأوقات.

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٦٤/٢٧ (٢) أ.د. النجار ، السماء ، مصدر سابق ٥٤٥

الفصل الرابع : تفسير آيات النجوم والكواكب والشهب

المبحث الأول : النجوم .

المطلب الأول : مواقع النجوم .

المطلب الثاني : الخنس الجواري الكنس .

المبحث الثاني : الكواكب.

المبحث الثالث : الشهب .

المبحث الأول : النجوم .

المطلب الأول : مواقع النجوم .

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ ﴾ [الواقعة] ويفسر ابن عاشور مواقع

النجوم فيقول :

" و { مواقع النجوم } جمع موقع يجوز أن يكون مكان الوقوع ، أي محالٌ وقوعها من ثوابت وسيارة . والوقوع يطلق على السقوط ، أي الهوى ، فمواقع النجوم مواضع غروبها فيكون في معنى قوله تعالى : { والنجم إذا هوى } [النجم : ١] والقسم بذلك مما شمله قوله تعالى : { فلا أقسم برب المشارق والمغرب } [المعارج : ٤٠] . وجعل { مواقع النجوم } بهذا المعنى مقسماً به لأن تلك المساقط في حال سقوط النجوم عندها تذكّر بالنظام البديع المجعول لسير الكواكب كل ليلة لا يختل ولا يتخلف ، وتذكّر بعظمة الكواكب وبتداولها خلفه بعد أخرى ، وذلك أمر عظيم يحق القسم به الراجع إلى القسم بمُبدعه .

ويطلق الوقوع على الحلول في المكان ، يقال : وقعت الإبل ، إذا بركت ، ووقعت الغنم في مراتبها ، ومنه جاء اسم الواقعة للحادثة كما تقدم ، فالمواقع : محالٌ وقوعها وخطوط سيرها فيكون قريباً من قوله : { والسماء ذات البروج } [البروج : ١] . والمواقع هي : أفلاك النجوم المضبوطة السير في أفق السماء ، وكذلك بروجها ومنازلها . وذكر (مواقع النجوم) على كلا المعنيين تنويه بها وتعظيم لأمرها لدلالة أحوالها على دقائق حكمة الله تعالى في نظام سيرها وبدائع قدرته على تسخيرها . ويجوز أن يكون (مواقع) جمع موقع المصدر الميمي للوقوع .

ومن المفسرين من تأول النجوم أنها جمع نجم وهو القسط من الشيء من مال وغيره كما يقال : نجومُ الديات والغرامات وجعلوا النجوم ، أي الطوائف من الآيات التي تنزل من القرآن وهو عن ابن عباس وعكرمة فيؤول إلى القسم بالقرآن على حقيقته على نحو ما تقدم في قوله تعالى : { والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً } [الزخرف : ٢ ، ٣] . (١)

التحليل :

بداية يشير ابن عاشور إلى أنّ للنجوم أفلاكاً مضبوطة السير و بالنسبة لمواقع النجوم وتفسيرها عند الشيخ فإن لها احتمالات :

الأول : أن مواقع النجوم هي مواضع غروبها .

الثاني : المواقع هي محالٌ وقوعها وخطوط سيرها. فهي بهذا أفلاك النجوم المضبوطة السير في أفق السماء ، وكذلك بروجها ومنازلها .

الثالث: أن النجوم هي نجوم القرآن.

كلام المعاصرين :

بالنسبة لمعنى إضافة المواقع للنجوم فابن عاشور يشير إلى أنه من الممكن أن يراد محالٌ وأمكنة وجودها وسيرها وقد أضاف العلم شيئاً جديداً غير الذي قاله ابن عاشور وهذا الأمر يعتبر من المرجّحات للحمل على هذا المعنى ، وما اكتشفه العلم الحديث - مما لم يذكره ابن عاشور - يلخصه الدكتور الفاضل زغول النجار فيما يلي:

" أولاً: أنه نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عنا، فإننا لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبداً، ولا بأية وسيلة مادية، وكل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها، إما بالجري في الفضاء الكوني بسرعات مذهلة، أو بالانفجار والاندثار، أو بالانكدار والطمس.

فالشمس وهي أقرب نجوم السماء إلينا تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر، فإذا انبثق منها الضوء بسرعه المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية من موقع معين مرت به الشمس فإن ضوءها يصل إلى الأرض بعد ثماني دقائق وثلاث دقيقة تقريباً، بينما تجري الشمس بسرعة تقدر بحوالي ١٩ كيلومتراً في الثانية في اتجاه نجم النسر الواقع [Vega] فتكون الشمس قد تحركت لمسافة لا تقل عن عشرة آلاف كيلومتر عن الموقع الذي انبثق منه الضوء. وأقرب النجوم إلينا بعد الشمس وهو المعروف باسم الأقرب القنطوري يصل إلينا ضوءه بعد ٤,٣ سنة من انطلاقه من النجم، أي بعد أكثر من خمسين شهراً يكون النجم قد تحرك خلالها ملايين عديدة من الكيلومترات، بعيداً عن الموقع الذي صدر منه الضوء، وهكذا فنحن من على سطح الأرض لا نرى النجوم أبداً، ولكننا نرى صوراً قديمة للنجوم انطلقت من مواقع مرت بها" (١)

(١) د. النجار ، السماء في القرآن مصدر سابق ص ٢٠٣ - ٢٠٤

شواهد أخرى :

إنّ تفسير " مواقع النجوم " يتبع المراد بالنجوم والنّاطر إلى القرآن الكريم يجد أن هذه الكلمة لم تستخدم إلا ويراد بها النجوم بمعنى الأجرام السماوية المعروفة لا بمعنى نجوم القرآن ثم إنّ استخدام مادة التنجيم لنزول القرآن لم توجد في القرآن الكريم فالله تعالى يقول : { وَقُرْآنًا

فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٦﴾ [الإسراء:] ولم يقل قرءانا نجْمناه ، الأمر الذي

يجعلني أقول إنّ استخدام النجوم هنا بمعناها المشهور أولى من حملها على نجوم القرآن الكريم والله أعلم . والطبري يرجح هذا الرأي (١) وهو الظاهر من كلام ابن كثير الذي يقول: " وقال مجاهد أيضا : مواقع النجوم في السماء ويقال مطالعها ومشارقها وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير وعن قتادة : مواقعها منازلها." (٢)

وقبل أن أنهى الكلام في هذه القضية أريد أن ألفت الأنظار إلى قضية أخرى تجدر الإشارة إليها وهي أن من تمام إعجاز القرآن الكريم صلاحيته للخطاب بالآية الواحدة لكل الأجيال من خلال اختيار اللفظ المعبر بصورة دقيقة محكمة يخاطب جميع المستويات ؛ بحيث يكون لكل آية فهماً يوافق كلّ عصر ؛ فالقسم بمواقع النجوم بالنسبة للسابقين يفهمون منه أنّها نجوم القرآن الكريم أو أنها مغارب النجوم ونظام سيرها الذي يبدو لهم وتسييرها بذلك النظام وهداية السائر بها . ونحن في زمن العلم الحديث يتجلى لنا المعنى المذكور أنفا كجانب من جوانب إعجاز القرآن العلمي في باب النجوم .

تعقيب :

لقد بيّن ابن عاشور أنّ المراد بمواقع النجوم إما غروبها أو أمكنة سيرها وقد بيّن العلم الحديث معنى أعمق وهو أنّ النجوم التي نراها الآن هي في الواقع في أمكنة أخرى وأنّ كل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها .

(١) الطبري ، جامع البيان ، مصدر سابق ١٤٨/٢٣

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ، مصدر سابق ٥٤٤/٧

المطلب الثاني : الخنس الجواري الكنس

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝۱۵ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝۱۶ ﴾ [التكوير] ويقول ابن عاشور في تفسيرهاتين الآيتين : " . . . و (الخُنُس) : جمع خانسة ، وهي التي تخنس ، أي تختفي ، يقال : خنست البقرة والظبية ، إذا اختفت في الكناس . و "الجواري" : جمع جارية، وهي التي تجري، أي تسير سيرا حثيثا. و { الْكُنَّسُ } : جمع كانسة، يقال: كنس الظبي، إذا دخل كناسه بكسر الكاف وهو البيت الذي يتخذه للمبيت.

وهذه الصفات أريدَ بها صفات مجازيَّة لأنَّ الجمهور على أن المراد بموصوفاتها الكواكب ^(١) ، وُصِفَ بذلك لأنها تكون في النهار مختفية عن الأنظار فشبهت بالوحشية المختفية في شجر ونحوه ، فقيل : الخنس وهو من بديع التشبيه ، لأنَّ الخُنوس اختفاء الوحش عن أنظار الصيادين ونحوهم دون السكون في كناس . وكذلك الكواكب ^(٢) لأنها لا ترى في النهار لغلبة شعاع الشمس على أفقها وهي مع ذلك موجودة في مطالعها.

وشبه ما يبدو للأنظار من تنقلها في سمت الناظرين للأفق باعتبار اختلاف ما يسامتها من جزء من الكرة الأرضية بخروج الوحش ، فشبهت حالة بدوها بعد احتجابها مع كونها كالمتحركة بحالة الوحش تجري بعد خنوسها تشبيه التمثيل. وهو يقتضي أنها صارت مرئية فلذلك عقب بعد ذلك بوصفها بالكنس، أي عند غروبها تشبيها لغروبها بدخول الظبي أو البقرة الوحشية كناسها بعد الانتشار والجري . فشبه طلوع الكوكب بخروج الوحشية من كناسها، وشبه تنقل مرآها للناظر بجري الوحشية عند خروجها من كناسها صباحا . . . وشبه غروبها بعد سيرها بكنوس الوحشية في كناسها وهو تشبيه بديع فكان قوله: { بِالْخُنُوسِ } استعارة وكان { الْجَوَارِ الْكُنَّسِ } ترشيحين للاستعارة. وقد حصل من مجموع الأوصاف الثلاث ما يشبه اللغز يحسب به أن الموصوفات ظباء أو وحوش لأن تلك الصفات حقائقتها من أحوال الوحوش، والألغاز طريقة مستملحة عند بلغاء العرب وهي عزيزة في كلامهم . . . وعن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن عباس: حمل هذه الأوصاف على حقائقتها المشهورة، وإن الله أقسم بالظباء وبقر الوحش . والمعروف في أقسام القرآن أن تكون بالأشياء العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى أو الأشياء المباركة. " ^(٣)

(١) الشيخ يذكر هنا الكواكب أكثر من مرة لكن تفسير الخُنُس يقصد به الثقوب السوداء وهي نجوم لا كواكب .

(٢) وكذلك النجوم ما عدا الشمس لقربها النسبي منا . (٣) ابن عاشور ، التحرير ، ١٣٥/٣٠ - ١٣٦

التحليل :

لقد تبين من خلال تفسير ابن عاشور السابق للآية أن الرَّاجح في المراد بالخنس هو الكواكب التي تظهر ليلا بعد اختفائها وخنوسها نهاراً ، ذاكراً أن من المفسرين من أجراها على حقيقتها من بقر أو ضبَاءٍ ، وضعّف ابن عاشور ذلك بقريظة القسم بها والقسم لا يكون إلا على شيء عظيم دال على قدرة الله تعالى .

كلام المعاصرين :

صحيح أن المراد بالخنس هو النجوم ولكن بحالة غير الحالة التي ذكرها ابن عاشور أي أنها تُرى في الليل وتختفي في النهار ، ذلك أنّ العلم الحديث قد كشف عن حالة من أحوال النجوم وهي تمثل مرحلة من مراحل حياة النجوم يصدق عليها الوصف بالخنس الجوّاري الكنّس وهو ما عرف مؤخراً باسم الثقوب السوداء ، حيث أنّه إذا زاد تراكم الضغط في داخل القرص الأبيض الذي يشكّل مرحلة من مراحل حياة النجوم فإنه ينفجر انفجاراً كاملاً محدثاً نوراً في السّماء يقارب نور بليون شمس كشمسنا ، وتسمّى هذه المرحلة باسم النّجم المستعر الأعظم . وقد يتحول أحياناً حتى يصل إلى مرحلة الثقب الأسود . . . وهذه المرحلة لا يمكن إدراكها بصورة مباشرة، ولكن يمكن تحديد مواقعها بعدد من الملاحظات غير المباشرة من مثل صدور موجات شديدة من الأشعة السينية من الأجرام الواقعة تحت تأثيرها، واختفاء كل الأجرام السماوية بمجرد الاقتراب من مجال جاذبيتها.

ومن العجيب أن العلماء الغربيين يسمون هذه الثقوب السود تسمية مجازية عجيبة حين يسمونها بالمكانس العملاقة التي تبتلع (أو تشفط) كل شيء يقترب منها إلى داخلها:
(⁽¹⁾ Suckin every thing insight Giant Vaccum Cleanersthat)

شواهد أخرى :

من المرجحات لهذا التفسير أيضا :

(١) أنه الموافق للغة الآية فقد سميت بالخنس أي المختفية ، وهي مختفية فعلا إذ لم تصور ولم يدرك إلا أثرها ، وهي جوّاري في أفلاكها وفعل الجري نسب للشمس في قوله تعالى :

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨] ، فالكلمة قد عُهِدَ

(١) د. النجار ، السماء مصدر سابق ٢٢٧-٢٢٨

استخدامها لحركة أجرام السماء ، وهي كائنة بمعنى أنها جاذبة بشكل كبير كل ما يقع في نطاق جاذبيته وجامعته له . وهي كائنة أيضا أي مختلفة غائبة عن الأنظار .
(٢) أن الأثر يشير إلى أن المراد بهذا الموصوف هو النجوم

تعقيب :

لقد تبين أن ابن عاشور حمل المراد بالخنس على النجوم فهي تظهر بالليل وتختفي في النهار، والعلم الحديث بين حالة من أحوال النجوم يمكن أن تفسر به الخنس وهو ما يسمى في علم الفلك بالثقوب السوداء .

المبحث الثاني : الكواكب .

كلام ابن عاشور :

من أوائل الآيات التي بين ابن عاشور فيها بعض ما يتعلق بالكواكب من أمور علمية قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة] حيث قال في تفسيرها :

" رابعها - أي الأدلة على أن السماوات السبع هي كواكب ^(١) . - : أن هاته السيارات هي الكواكب المنضبط سيرها بنظام مرتبط مع نظام سير الشمس والأرض، ولذلك يعبر عنها علماء الهيئة المتأخرون بالنظام الشمسي فناسب أن تكون هي التي قرن خلقها بخلق الأرض. وبعضهم يفسر السماوات بالأفلاك وهو تفسير لا يصح لأن الأفلاك هي الطرق التي تسلكها الكواكب السيارة في الفضاء، وهي خطوط فرضية لا ذوات لها في الخارج. هذا وقد ذكر الله تعالى السماوات سبعا هنا وفي غير آية وقد ذكر العرش والكرسي بما يدل على أنهما محيطان بالسماوات وجعل السماوات كلها في مقابلة الأرض، وذلك يؤيد ما ذهب إليه علماء الهيئة من عد الكواكب السيارة تسعة وهذه أسماؤها على الترتيب في بعدها من الأرض: نبتون. أورانوس. زحل. المشتري. المريخ. الشمس. الزهرة. عطارد. بلكان - يقصد بلوتو- . ^(٢)

والأرض في اصطلاحهم كوكب سيار وفي اصطلاح القرآن لم تعد معها لأنها التي منها تنظر الكواكب وعد عوضا عنها القمر ^(٣) وهو من توابع الأرض فعده منها عوضاً عن الأرض تقريبا لأفهام السامعين. وأما الثوابت فهي عند علماء الهيئة شمس سابحة في شاسع الأبعاد عن الأرض وفي ذلك شكوك. ولعل الله لم يجعلها سماوات ذات نظام كنظام السيارات السبع فلم يعدها في السماوات أو أن الله إنما عد لنا السماوات التي هي مرتبطة بنظام أرضنا. " ^(٤)

(١) هذا الكلام مردود وقد تمت مناقشته سابقاً في الفصل الأول من هذا الباب، انظر ص (٣٦-٣٢)

(٢) يشير الدكتور زغول النجار إلى أن الكواكب كالتالي : عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، مدار الكويكبات، المشتري، زحل، يورانس، نيبتون، بلوتو، سيدنا. وكل الكواكب كانت مكتشفة قبل في عصر ابن عاشور باستثناء كوكب سيدنا الذي اكتشف في عام ٢٠٠٣م، انظر د. النجار، تفسير الآيات الكونية /١

(٣) في مجموعتنا الشمسية حوالي سبعين قمراً . (٤) ابن عاشور التحرير ٣٨١/١

ويعرف بالكواكب ويبين أقسامها في تفسير قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ

الْكُوكَبِ ﴿٦﴾ [الصّافات] فيقول : " . . . و { الكواكب } : الكريّات السماوية التي تلمع في

الليل عدا الشمس والقمر. وتسمى النجوم، وهي أقسام: منها العظيم، ومنها دونه، ومنها الكواكب السيارة ، ومنها الثوابت ، ومنها قطع تدور حول الشمس. وفي الكواكب حكم منها أن تكون زينة للسماء في الليل فالكواكب هي التي بها زينت السماء . " (١)

ويبين نظام سير الكواكب ويفسر انتشارها عند تفسير قول الله تعالى : { وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَثَرَتْ } [الانفطار ٢] ، فيقول : " والانتثار : مطاوع النثر ضد الجمع وضد الضم ، فالنثر هو رمي أشياء على الأرض بتفرق .

وأما التفرق في الهواء فإطلاق النثر عليه مجاز كما في قوله تعالى: { فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } [الفرقان: ٢٣]. فانتثار الكواكب مستعار لتفرق هيئات اجتماعها المعروفة في مواقعها، أو مستعار لخروجها من دوائر أفلاكها وسموتها فتبدو مضطربة في الفضاء بعد أن كانت تلوح كأنها قارة، فانتثارها تبددها وتفرق مجتمعتها، وذلك من آثار اختلال قوة الجاذبية التي أقيم عليها نظام العالم الشمسي . " (٢)

التحليل :

حيث أشار الشيخ ابن عاشور إلى أنّ الكواكب هي الكريّات السّماويّة التي تلمع في الليل عدا الشمس والقمر وتُسمّى النجوم ، ثم ذكر أقسامها العظيم ودونه ومنها الثوابت ومنها السيارة ومنها قطع تدور حول الشمس ومنها الكواكب شديدة الضوء فهو بهذا قسمها من حيثيات مختلفة كالحجم والحركة . وأنها ستنتثر في الآخرة بسبب اختلال قوى الجاذبية فيما بينها .

كلام المعاصرين :

نرى فيما مضى من الكلام أكثر من قضية علمية أثارها ابن عاشور على النحو الآتي :

الأولى : تعريفه للكواكب وأقسامها ...

حيث أشار الشيخ ابن عاشور إلى أنّ الكواكب هي الكريّات السّماويّة التي تلمع في الليل عدا الشمس والقمر وتُسمّى النجوم ،

(١) ابن عاشور ، التحرير ١١/٢٣

(٢) المرجع نفسه ، ١٥٢/٣٠

ولعلّ الشيخ هنا قد جمع بين الكواكب والنجوم وهما في الواقع شيئان مختلفان فمن حيث المادة اللغوية للنجوم فهي مصدر نجم ومعناه الظهور والطلوع والانكشاف ، (١) وهي أجرام سماوية منتشرة بالسماء الدنيا، كروية أو شبه كروية، غازية، ملتهبة، مضيئة بذاتها، متماسكة بقوة الجاذبية على الرغم من بنائها الغازي، هائلة الكتلة، عظيمة الحجم، عالية الحرارة بدرجة مذهلة، وتشع كلا من الضوء المرئي وغير المرئي بجميع موجاته. ويمكن بدراسة ضوء النجم الواصل إلينا التعرف على العديد من صفاته الطبيعية والكيميائية من مثل درجة لمعانه، شدة إضاءته، درجة حرارته، حجمه، كتلته، موقعه منا، سرعة دورانه حول محوره، وسرعة جريه في مداره، تركيبه الكيميائي، ومستوى التفاعلات النووية فيه الي غير ذلك من صفات .

أما الكواكب فهي أجرام لها لمعان ثابت ينتج عن انعكاس نور الشمس عنها تتحرك ظاهريا حول الأرض من الغرب الى الشرق وهي تسعة كواكب (٢)

ومن الفروق أن الكواكب ينعكس ضوء الشمس عليها فتبدو منيرة لا أن ضوءها ذاتي {الزجاجة كأنها كوكب دري} والزجاجة هي التي تعكس . (٣)

أما عن تصنيف الشيخ للكواكب فيصنفها انطلاقا من حيثيات معينة وتقسيمه فيه شيء من الصّحة العلميّة ، بيانه أنه قسّمها بالنسبة للحجم إلى عظيم و دونه ؛ وذلك حق لأنهم قسموا الكواكب في العلوم المعاصرة من حيث الحجم إلى قسمين رئيسيين هما :

الكواكب الأرضية أي الشبيهة بالأرض من حيث حجمها وكتلتها مثل المريخ وعطارد والزهرة والكواكب العملاقة مثل المشتريّة مثل المشتري وزحل (٤) فكلام الشيخ سديد في هذا.

ومن حيث الحركة صنّفها إلى سيّارة و ثوابت وقطعاّ تدور حول الشّمس ؛ فالسيّارة أمرها واضح وهي الكواكب التي تدور حول الشمس ، أما عن الثوابت فلا يوجد كواكب ثابتة ولكن لعله يقصد بها ما هو ثابت بنظرنا بالرغم من أنّ له حركة في فلكه ، وهو التجمّعات النّجمية المسمّاة بالبروج وهذا غير صحيح . أما القطع التي تجري حول الشمس فلعل ذلك المعروف حاليا عند الفلكيين بالكويكبات ، وهي أجرام سماوية مستضيئة لها حركات مماثلة

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ٥٦٨/١٢

(٢) د. النجار ، تفسير الآيات الكونية ، مصدر سابق ١٢٦/٤-١٢٧

(٣) بوكاي ، موريس ، (١٩٨٧م) ، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، ترجمة الشيخ حسن خالد ، ط٢ ص١٩٢ المكتب الاسلامي بيروت .

(٤) د. الطائي مدخل إلى علم الفلك ، مصدر سابق ٢٠١

لحركات الكواكب لكنها أقل لمعانا لأنها صغيرة الحجم وهي تقع بين المشتري والمريخ حيث وصل عددها الى (٣٠٠٠٠) كويكب تدور بمدارات إهليجية حول الشمس ، قالوا : إن أصلها كوكب قد انفجر ولكن الرأي السائد فلكيا أنها موجودة منذ وجود النظام الشمسي وقد تصادمت مع بعضها البعض بسبب جذب المشتري لها مما جعلها تتناثر وقد سقط قسم منها على الكواكب المجاورة على شكل نيازك حتى كان للأرض نصيب منها (١)

الثانية : نظم سيرها :

بين الشيخ في تفسير انتشار الكواكب أن هذه الكواكب تسير في أفلاك كغيرها من أجرام السماء وبما هو معروف من خواص النظام الشمسي وتحكمها نظم الجاذبية وانتثارها بسبب تتخللها من أماكنها وتحطيم نظم جاذبيتها ولا شك في صحة كلامه ، يقول سيد قطب :
"ويشارك في تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتشار الكواكب . بعد تماسكها هذا الذي تجري معه في أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة ، وهي ممسكة في داخل مداراتها لا تتعدها ، ولا تهيم على وجهها في هذا الفضاء الذي لا يعلم أحد له نهاية . ولو انتشرت كما سيقع لها يوم ينتهي أجلها وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق غير المنظور الذي يشدها ويحفظها ، لذهبت في الفضاء بدداً ، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها! " (٢)

تعقيب :

كلام ابن عاشور فيه الصحيح وفيه الخطأ ففي تعريفه بها قد خلط بين النجوم والكواكب ، أما عن تقسيمه لها فقد أصاب ذلك أنه قسمها إلى عظيم ودونه ، والعلم الحديث قسمها إلى ما يشابه ذلك ، ومن ثم قسمها إلى ثوابت وسيارات وقطعا تدور حول الشمس وكل ذلك صحيح علميا بأسماء مختلفة عما ذكره ابن عاشور فكلام ابن عاشور بشكل عام صحيح فيه بعض الملاحظات.

(١) د. الطائي مدخل إلى علم الفلك ص ٢٣١-٢٣٣

(٢) قطب ، سيد ١٤١٢ ، في ظلال القرآن ، ط١٧ ، ٣٨٤٦/٦ ، دار الشروق ، بيروت /القاهرة .

المبحث الثالث : الشهب :

كلام ابن عاشور :

يشير ابن عاشور إلى بعض ما يتعلق بالشهب وذلك في أكثر من موضع من تفسيره فمن ذلك أنه يبين كيف تمنع الشهب علمياً استراق السمع فيقول في تفسير قول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ

السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ [الحجر]

" . . . فيه تعليم لهم بأن الشهب التي يشاهدونها متساقطة في السماء هي رجوم للشياطين المسترقة . . . جعل للشهب قوة خرق التموجات التي تتلقى منها الشياطين المسترقة السمع ، وتمزيق تلك التدرجات الموصوفة في الحديث الصحيح . . . فربما خلصت إليه (المنجم) تموجات هي أوساط بين تموجات كرة الهواء و تموجات الطبقات العليا المجاورة لها ، مما وراء الكرة الهوائية ، ولنفرض أن هذه الطبقة هي المسماة بالسماء الدنيا وأن هذه التموجات هي تموجات الأثير فإنها تحفظ الأصوات مثلا . " (١)

ويقول أيضا في تفسير قول الله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ

شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ [الصفات] " . . . والحفظ من الشياطين حكمة من حكم خلق الكواكب

في علم الله تعالى لأن الكواكب خلقت قبل استحقاق الشياطين الرجم فإن ذلك لم يحصل إلا بعد أن أطرده إبليس من عالم الملائكة فلم يحصل شرط اتحاد المفعول لأجله مع عامله في الوقت، وأبو علي الفارسي لا يرى اشتراط ذلك ولعل الزمخشري يتابعه على ذلك حيث جعله مفعولا لأجله وهو الحق لأنه قد يكون على اعتباره علة مقدره كما جوز في الحال أن تكون مقدره. ولك أن تجعل {حفظا} منصوبا على المفعول المطلق الآتي بدلا من فعله فيكون في تقدير: وحفظنا، عطا على {زينا}، أي حفظنا بالكواكب من كل شيطان مارِد. وهذا قول المبرد. والمحفوظ هو السماء، أي وحفظناها بالكواكب من كل شيطان.

وليس الذي به الحفظ هو جميع الذي به التزيين بل العلة موزعة فالذي هو زينة مشاهد
الأبصار، والذي هو حفظ هو المبين بقوله: {فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ} [الصافات] . " (١)

ثم يبين كيفية الحفظ ويعرف بالشهب فيقول : " ومعنى كون الكواكب حفظا من الشياطين
أن من جملة الكواكب الشهب التي ترحم بها الشياطين عند محاولتها استراق السمع فتفر
الشياطين خشية أن تصيبها لأنها إذا أصابت أشكالها اخترقتها فتفككت فعلها تزول أشكالها بذلك
التفكك فتتعدم بذلك قوام ماهيتها أو تتفرق لحظة لم تلتئم من ذلك الخرق والالتئام فإن تلك الشهب
التي تلوح للناظر قطعاً لامعة مثل النجوم جارية في السماء إنما هي أجسام معدنية تدور حول
الشمس وعندما تقرب إلى الأرض تتغلب عليها جاذبية الأرض فتتزعجها من جاذبية الشمس
فتنقض بسرعة نحو مركز الأرض ولشدة سرعة انقضاضها تولد في الجو الكروي حرارة كافية
لإحراق الصغار منها وتحمي الكبار منها إلى درجة من الحرارة توجب لمعانها وتسقط حتى تقع
على الأرض في البحر غالباً وربما وقعت على البر، وقد يعثر عليها بعض الناس إذ يجدونها
واقعة على الأرض قطعاً معدنية متفاوتة وربما أحرقت ما تصيبه من شجر أو منازل. وقد أرخ
نزول بعضها سنة ٦١٦ قبل ميلاد المسيح ببلاد الصين فكسر عدة مركبات وقتل رجالاً، وقد
ذكرها العرب في شعرهم قبل الإسلام . . .

وفي سنة "٩٤٤" سجل مرور كريات نارية في الجو أحرقت بيوتا عدة وسقطت بالقطر التونسي
مرتين أو ثلاث مرات، منها قطعة سقطت في أوائل هذا القرن وسط المملكة أحسب أنها بجهاث
تالة ورأيت شظية منها تشبه الحديد، والعامية يحسبوننها صاعقة ويسمون ذلك حجر
الصاعقة. وتساقطها يقع في الليل والنهار ولكن لا تشاهد مرورها في النهار لأن شعاع الشمس
يحجبها عن الأنظار.

ومما علمت من تدحرج هذه الشهب من فلك الشمس إلى فلك الأرض تبين لك سبب كونها من
السماء الدنيا وسبب اتصالها بالأجرام الشيطانية الصاعدة من الأرض تتطلب الاتصال
بالسماوات. وقد سميت شهباً على التشبيه بقبس النار وهو الجمر . . .
والشهاب : القبس والجرم من النار. والمراد به هنا ما يسمى بالنيزك في اصطلاح علم
الهيئة. " (١)

ويقول أيضا في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا

﴿٨﴾ [الجن] : " والشهب : جمع شهاب وهو القطعة التي تنفصل عن بعض النجوم فتسقط في

الجو أو في الأرض أو البحر وتكون مضاءة عند انفصالها ثم يزول ضوءها ببعدها عن مقابلة شعاع الشمس وتسمى الواحد منها عند علماء الهيئة نيزكا باسم الرمح القصير، وقد تقدم الكلام عليها في أول سورة الصافات. (١)

التحليل :

لقد عرف ابن عاشور الشهب تعريفا علميا بأنها أجسام معدنية تدور حول الشمس وعندما تقرب إلى الأرض تتغلب عليها جاذبية الأرض فتتزعجها من جاذبية الشمس فتتقض بسرعة نحو مركز الأرض فتتولد في الجو حرارة كافية لإحراقها . ثم بين أن لتلك الشهب قدرة على خرق تموجات الأصوات التي يأخذ منها مسترقو السمع حاجتهم .

كلام المعاصرين :

لقد تضمن كلام ابن عاشور السابق بعض القضايا العلمية المتعلقة بالشهب على أن هناك بعض الأخطاء التي وقع بها كأن جعل الشهب هي النيازك وفرق بينهما وكلامه بشكل عام صحيح علميا حيث يعرف العلم الحديث الشهب بأنها : ومضات ضوئية تظهر في الليل فجأة وهذه الأجرام في الواقع هي قطع صغيرة من دقائق الغبار أو القطع الصلبة الصغيرة تسقط على الأرض بفعل الجاذبية ؛ فتحترق بفعل احتكاكها بالغلاف الجوي فتتوهج ويتبخّر القسم الأعظم منها أو كلها قبل وصولها إلى الأرض ، ويمكن مشاهدة العشرات منها في الليلة الواحدة وفي بعض أوقات السنة حيث تمر الأرض عبر أنقطة معينة تشكل هذه الشهب زخاتٍ كثيفة ، وإذا لم يتبخر الشهاب كاملا وبقي منه شيء وسقط على الأرض فإن هذا الباقي يسمى علميا بالنيزك الذي يتنوع الى أنواع :

- ١- فمنه النيازك الحديدية وتتألف ٩٠% منها من الحديد و٩% من النيكل والباقي عناصر أخرى
- ٢- النيازك الصخرية .
- ٣- النيازك الصخرية الحديدية

وأصل هذه الشهب والنيازك هي الكسيف التي منها الصغير الذي هو من مخلفات المذنبات ومنها الكسيف الأكبر حجماً والذي ينتج عن تصادم الكويكبات مع بعضها البعض (٢) .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٢٩/٢١١

(٢) د. الطائي ، مدخل إلى علم الفلك ، مصدر سابق ٢٤٠-٢٤١

فيتبين أن كلام ابن عاشور بشكل عام منسجم مع ما قاله العلم فيها ، وكلامه في كيفية إبطال الاستماع كلام جميل يدل على سعة اطلاعه وإصابة فهمه حيث بين أن للشهب قوة خرق تموجات الأصوات وبالتالي تبديدها وإبطال استماع الجن ، ولعلي أستشهد على صحة كلامه في عمل الشهب على اختراق التموجات بأن العلماء قالوا : إن الأصوات تشكل ضغوطا تنتشر على هيئة أمواج تتحرك في الهواء في كل الاتجاهات من حولنا، فتتلقى طبلة الأذن لأفراد آخرين تلك الاهتزازات فيسمعونها بوضوح وهي موجودة في الجو الذي حدثت فيه ، على شكل تموجات (١) كما قال الطاهر ابن عاشور فباختراق الشهب لأماكن وجودها فإنها تعمل على تبديدها ، والله تعالى أعلم .

تعقيب :

إن كلام ابن عاشور بشكل عام منسجم مع ما قاله العلم الحديث .

(١) د. النجار ، تفسير الآيات الكونية ، مصدر سابق ١٢٣/ ٢

الباب الثاني : تفسير آيات الأرض وما فيها.

وفيه فصول . . .

الفصل الأول : خلق الأرض وأوصافها

الفصل الثاني : تفسير آيات الجبال .

الفصل الثالث : تفسير آيات البحار

الفصل الرابع : الظواهر الجوية والقضايا العلمية المتعلقة بالمياه

الفصل الأول : من آيات الأرض

المبحث الأول : خلق الأرض

المبحث الثاني : أوصاف الأرض :

المطلب الأول : وصف الأرض بالمهاد والفراش ونظائرها من الألفاظ

المطلب الثاني : وصف الأرض بالقرار .

المطلب الثالث : الأرضين السبع .

المطلب الرابع : وصف الأرض بذات الصدع .

المطلب الخامس : كروية الأرض .

المبحث الثالث : من ظواهر الأرض .

المطلب الأول : ظاهرة الليل والنهار

المطلب الثاني : ظاهرة المشارق والمغارب .

المطلب الثالث : ظاهرة الظل .

المطلب الرابع : ظاهرة الشفق .

المبحث الأول : خلق الأرض

كلام ابن عاشور :

يبين ابن عاشور كيفية خلق الأرض ومراحلها في تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفُرُونَ

بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَيَتَجَلَّوْنَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا

وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ [فصلت] فيقول :

" و {الأرض} : هي الكرة الأرضية بما فيها من يابس وبحار، أي خلق جرمها . واليومان : تشئية يوم، وهو الحصة التي بين طلوع الشمس من المشرق وطلوعها ثانية. والمراد: في مدة تساوي يومين مما عرفه الناس بعد خلق الأرض لأن النور والظلمة اللذان يقدر اليوم بظهورهما على الأرض لم يظهر إلا بعد خلق الأرض، وقد تقدم ذلك في سورة الأعراف. (١) . . . {وَبَارَكَ فِيهَا} جعل فيها البركة. والبركة: الخير النافع، وفي الأرض خيرات كثيرة فيها رزق الإنسان وماشيتته، وفيها التراب والحجارة والمعادن، وكلها بركات. و {قدر} جعل قدرا، أي مقدارا، قال تعالى {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٣]. والمقدار: النصاب المحدود بالنع أو الكمية، فمعنى {قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} أنه خلق في الأرض القوى التي تنشأ منها الأقوات وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها من الحب للحبوب، والكأ والكأ، والنوى للثمار، والحرارة التي يتأثر بها تولد الحيوان من الدواب والطيور، وما يتولد منه الحيتان ودواب البحار والأنهار. ومن التقدير: تقدير كل نوع بما يصلح له من الأوقات من حر أو برد أو اعتدال. . . " (٢)

ثم انتقل إلى تفصيل الكلام في مدة خلق الأرض فقال : " قوله {في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} فذلكة لمجموع مدة خلق الأرض جرمها، وما عليها من رواسي، وما فيها من القوى، فدخل في هذه الأربعة

(١) ظاهر كلام ابن عاشور هنا أن المراد باليوم اليوم الأرضي المعروف لكنه استبعد هذا القول في تفسير سورة الأعراف إذ يقول : " وَأَيًّا مَا كَانَ فَالْأَيَّامُ مُرَادٌ بِهَا مَقَادِيرٌ لَا الْأَيَّامُ الَّتِي وَاحِدُهَا يَوْمٌ الَّذِي هُوَ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا إِذْ لَمْ تَكُنْ شَمْسٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمُدَّةِ " انظر ابن عاشور التحرير ١٦٢/٨ ط التونسية ، وقد تقدم الكلام على ذلك مستوفيا ، في الفصل الأول من الباب الأول ص (٤٩-٥٢)

(٢) ابن عاشور ، التحرير ١٨-١٧/ ٢٥

الأيام اليومان اللذان في قوله { فِي يَوْمَيْنِ } فكأنه قيل: في يومين آخرين فتلك أربعة أيام، فقوله { فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ } فذللكة (١) ، و عدل عن ذلك إلى ما في نسج الآية لقصد الإيجاز واعتمادا على ما يأتي بعده من قوله { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ } [فصلت: ١٢] ، فلو كان اليومان اللذان قضى فيهما خلق السماوات زائدين على ستة أيام انقضت في خلق الأرض وما عليها لصار مجموع الأيام ثمانية . " (٢)

التحليل :

لقد تضمن كلام ابن عاشور قضيتين مهمتين على النحو الآتي :

أولا : مدة خلق الأرض :

وفيها الكلام على المدة كاملة وقد بين ابن عاشور أنه أربعة أيام ، حيث جعل الله تعالى لخلق جرم الأرض يومين ولجعل الرواسي وتقدير الأقوات . . يومين آخرين .

ثانيا : مراحل خلق الأرض :

حيث تبين أن مراحل خلق الأرض كانت في مرحلتين :

المرحلة الأولى : وهي المذكورة في قول الله تعالى : { خلق الأرض في يومين } و التي بيّن ابن عاشور أنها مرحلة خلق جرم الأرض .

المرحلة الثانية : وهي المذكورة في :

- قول الله تعالى : { وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا } والتي مر تفسيرها عند

ابن عاشور .

- ما ذكر في آيات النازعات من قوله تعالى { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ } .

[النازعات] ، وابن عاشور يرى في أن المراد : بعد أن خلق السماء خلق الأرض مدحوة. أي

مبسوطة والماء والمرعى يدلان على كل ما تخرجه الأرض فالمرعى كل ما تخرج الأرض من

ثمار وحبوب والماء كل شيء بحاجة له حتى الملح .

(١) أي جمعاً لما سبق ذكره وتلخيصا .

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٢٥ / ١٨-١٩

كلام المعاصرين :

بالنسبة للمرحلة الأولى من خلق الأرض التي في يومين فلعل معنى ذلك ما ذكرته في خلق السماء من كلام الدكتور النجار أن المقصود هنا هو خلق عناصر الأرض، والذي تلاه تجميع تلك العناصر على هيئة الأرض الابتدائية والتي تم رجمها بوابل من النيازك الحديدية .
أما بالنسبة للمرحلة الثانية التي كان فيها إخراج الماء والمرعى وإلقاء الرواسي فالعلم الحديث فسّر ذلك ففي كيفية وجود الماء على سطح الأرض وكذلك المرعى يقول الأستاذ الدكتور النجار – حفظه الله – بقوله : إن الماء قد خرج من الأرض عبر الثورات البركانية المتكررة ؛ فقد اتضح بالدراسة أنّ بخار الماء تصل نسبته الى أكثر من ٧٠ % من مجموع الغازات والأبخرة البركانية التي تتصاعد من البراكين . ومن المسلم أنّ البراكين كانت في بداية تشكل الأرض أكثر عنفا وعددا ، وقد أجريت حسابات بضرب متوسط ما تنتجه الثورة البركانية الواحدة من بخار الماء من فوهة واحدة في متوسط مرات ثورانها في عمر البركان في عدد الفوهات والشقوق البركانية النشيطة والخامدة الموجودة اليوم على سطح الأرض ، أعطت رقما قريبا جدا من الرقم المحسوب لكمية الماء على سطح الأرض ... (١)

ومما يخرج من البراكين غاز ثاني اكسيد الكربون وهو من الأمور المؤثرة تأثيرا مباشرا على النبات وإخراج المرعى لأنه أساس عملية التمثيل الضوئي فلولاها لما كسيت الأرض بالخضرة (٢) فسبحان منزل الكتاب .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الأرض كانت بعد انفصالها عن الشمس كتلة من الرماد حتى رجمت بوابل من النيازك مما أدى لإنزال الحديد عليها واستقراره في داخلها فالحديد لم يكن في بداية الأمر من مكونات الأرض لكنه أنزل إليها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴿٢٥﴾ ﴾

[الحديد] لكن ابن عاشور لم يفسر إنزال الحديد بذلك وجعله مستعاراً لخلق كقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْ

لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَوْجِحٍ ﴾ [الزمر] (٣) أي أنّ إنزاله يعني خلقه وإيجاده لا إنزال حقيقي .

(١) د. النجار ، الأرض في القرآن ١٣٥-١٣٦

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٥

(٣) ابن عاشور ، التحرير ط التونسية ٤١٦/٢٧

شواهد أخرى :

بالنسبة لأيام الخلق وتفسير ابن عاشور لعددها فقد قال غيره من المفسرين بهذا المعنى ، يقول أبو السعود في مدة الخلق المذكورة في الآيات : " وإنما قيل في أربعة أيام أي تنمة أربعة تصريحاً بالذلّة " (١)

وبالنسبة للمرحلة الأولى لخلق الأرض والتي هي إيجاد جرمه – كما قال ابن عاشور - أو إيجاد العناصر التي خُلقت منها فإني أرى أن وجود كلمة خلق دون كلمة جعل التي في جانب رواسي من فوقها يؤيد ذلك .

تعقيب :

فكلام ابن عاشور في خلق الأرض ومراحل ذلك الخلق لا يتعارض مع ما قاله المعاصرون ولكنّ العلم جاء بنفصيلات وتوضيحات لم تكن عند ابن عاشور لأنّ كلامه ضمن تفسير للقرآن لا كتاب علمي متخصص .

(١) أبو السعود ، محمد بن محمد ، إرشاد العقل السليم ط دار إحياء التراث العربي لبنان ٥/٨

المبحث الثاني: من أوصاف الأرض

المطلب الأول : وصف الأرض بالمهاد والفراش ونظائرها من الألفاظ .

كلام ابن عاشور :

لقد ذكر الله عز وجل في كتابه أن الأرض مبسطة ووردت الإشارة لذلك بأكثر من صيغة على النحو الآتي :

صيغة فرش حيث وصف الله تعالى الأرض بالفراش في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

الْأَرْضَ فِرَاشًا ۖ ﴾ [البقرة] ويبين ابن عاشور ما المقصود بذلك فيقول :

" . . . ومعنى جعل الأرض فراشا أنها كالفراش في التمكن من الاستقرار والاضطجاع عليها وهو أخص أحوال الاستقرار. والمعنى أنه جعلها متوسطة بين شدة الصخور بحيث تؤلم جلد الإنسان وبين رخاوة الحماة بحيث يتزحزح الكائن فوقها ويسوخ فيها وتلك منة عظيمة . . . و {جَعَلَ} إن كانت بمعنى أوجد فحمل الامتنان هو إن كانتا على هذه الحالة وإن كانت بمعنى صير فهي دالة على أن الأرض والسماء قد انتقلتا من حال إلى حال حتى صارتا كما هما. وصار أظهر في معنى الانتقال من صفة إلى صفة وقواعد علم الأرض (الجيولوجيا) تؤذن بهذا الوجه الثاني فيكون في الآية منتان وعبرتان في جعلهما على ما رأينا وفي الأطوار التي انتقلتا فيهما بقدرة الله تعالى وإذنه. " (١)

صيغة مدّ وهي في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۗ ﴾ [الرعد]

ويقول ابن عاشور فيها : " . . . والمد: البسط والسعة، ومنه: ظل مديد. ومنه مد البحر وجزره، ومد يده إذا بسطها. والمعنى: خلق الأرض ممدودة متسعة للسير والزرع لأنه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالا شاهقة متلاصقة لما تيسر للأحياء التي عليها الانتفاع بها والسير من مكان إلى آخر في طلب الرزق وغيره. وليس المراد أنها كانت غير ممدودة فمدّها (٢) بل هو كقوله: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ}. فهذه خلقة دالة على القدرة وعلى اللطف بعباده فهي آية ومنة. " (٣)

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٣٢٥/١ - ٣٢٧

(٢) بل هذا المعنى محتمل كما سيتبين في الصفحتين التاليتين .

(٣) المرجع نفسه ١٣٨/١٢

وصيغة مهد من مثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ [طه] حيث يقول ابن عاشور في تفسيرها : " {مَهْدًا} بفتح

الميم وسكون الهاء، أي كالمهد الذي يمهد للصبي، وهو اسم بمصدر مهد ، على أن المصدر بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، ثم شاع ذلك فصار اسما لما يمهد. ومعنى القراءتين واحد، أي جعل الأرض ممهودة مسهلة للسير والجلوس والاضطجاع بحيث لا نتوء فيها إلا نادرا يمكن تجنبه " (١)

وصيغة ذلّ : وهي في قول الله جل ثناؤه ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا

مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك] و يقول ابن عاشور فيها : " أنه خلقها هينة لهم صالحة للسير

فيها مخرجة لأرزاقهم، وذيل ذلك بأن النشور منها وأن النشور إليه لا إلى غيره. والذلول من الدواب المنقادة المطواعة، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد، فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث، وتقدم في قوله تعالى: { إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ } الآية في سورة [البقرة: ٧١]، فاستعير الذلول للأرض في تذييل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة. (٢)

وصيغة بسط ، في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ [نوح] يقول ابن عاشور في

تفسيرها : " ... والبساط: ما يفرش للنوم عليه والجلوس من ثوب أو زريبة فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيهه بليغ، أي كالبساط. ووجه الشبه تناسب سطح الأرض في تعادل أجزائه بحيث لا يوجع أرجل المشيين ولا يقض جنوب المضطجعين، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط لأن حجم الأرض كروي، وقد نبه على ذلك بالعلة الباعثة في قوله: لكم} ، والعلة الغائبة في قوله: { لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا } وحصل من مجموع العلتين الإشارة إلى جميع النعم التي تحصل للناس من تسوية سطح الأرض مثل الحرث والزرع، وإلى نعمه خاصة وهي السير في الأرض

(١) ابن عاشور التحرير ١٣٢/١٦

(٢) ابن عاشور التحرير ٣٠/٢٩

وخصت بالذكر لأنها أهم لاشتراك كل الناس في الاستفادة منها." (١)

وصيغة دحى وهي في قول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات] التي يقول

ابن عاشور فيها: " والدحو والدحي يقال: دحوت ودحيت. واقتصر الجوهري على الواوي وهو الجاري في كلام المفسرين هو: البسط والمد بتسوية. والمعنى: خلقها مدحوة، أي مبسطة مسواة." (٢)

صيغة سطح، في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية] يقول ابن عاشور:

" ثم نزل بأنظارهم إلى الأرض وهي تحت أقدامهم وهي مرعاهم ومفترشهم، وقد سطحها الله، أي خلقها ممهدة للمشى والجلوس والاضطجاع. ومعنى سطحت: يقال سطح الشيء إذا سواه ومنه سطح الدار. والمراد بالأرض أرض كل قوم لا مجموع الكرة الأرضية." (٣)

التحليل:

وبعد، فالناظر لهذه الصيغ يجدها تتقارب في دلالاتها كما رأينا جليا في كلام ابن عاشور وبشكل عام فإن مجموع الآيات يشمل عند ابن عاشور الأمور الآتية:

أولا: أن الله تعالى قد جعل الأرض منبسطة ممهودة مسهلة للسير عليها والاضطجاع بحيث لا نتوء فيها إلا نادرا وذلك من خلال وصفها بأنها مسطوحة ومدحوة.

ثانيا: أنها مبسطة بشكل ومادة لا هي بالرخوة لا يمكن المسير عليها ولا هي بالشديدة التي لا يستطيع التعامل معها والانتفاع بها من زرع وغيره فالإنسان يفترشها افتراشا وهو اخص أنواع الاستقرار.

ثالثا: مع أنها ممهدة فهي متسعة ممدودة ليتسنى زرعها والاكتفاء بخيراتها.

كلام المعاصرين:

بالنسبة لمعنى بسط الأرض يقول الدكتور الفاضل زغلول النجار: إن اليابسة بدأت بسلاسل من الجبال شديدة الوعورة ثم سخر الله تعالى عمليات التعرية المختلفة لتسوية تلك السلاسل الجبلية إلى تلال وسهول تشققها الأودية التي تحمل رسوبياتها إلى السهول والمنخفضات كما تحملها إلى البحار مكونة دالات عملاقة ظاهرة ومغمورة تتقدم في البحار التي تصب فيها،

(١) ابن عاشور، التحرير ٢٩/١٩٠

(٢) المرجع نفسه ٣٠/٧٧

(٣) المرجع نفسه ٣٠/٢٧١

ودورات تشكل الأرض أو دورات التحاتّ ظلت تعمل على مدى ٤.٦ بلايين سنة حتى تمّ تمهيد سطح الأرض وبسطه .^(١)

وهناك معنى آخر للدحو هو أنها كالبيضة – كما سأفصله بعد قليل – فقد صورت الأرض بالأقمار ورآها من سعدوا للقمر فهي أشبه بحبة الكمثرى وان اقرب شيء لها هو البيضة لا هي مفرطحة كثيرا ولا مكورة تماما^(٢)

شواهد أخرى :

أريد أن ألفت الأنظار إلى أن ابن عاشور قد عدّ من بين تلك الصيغ الدالة على بسط الأرض وتمهيدها هو دحو الأرض فمعنى خلقها مدحوة ، أي مبسوطة ، ويقول صاحب لسان العرب في معنى الدحو : " (دحا) الدَحْوُ البَسْطُ دَحَا الأَرْضَ يَدْحُوهَا دَحْوًا بَسَطَهَا وقال الفراء في قوله عز وجل والأرض بعد ذلك دحّاها قال بَسَطَهَا ... والأدْحُوَّة مَبِيض النعام في الرمل وزنه أَفْعُول من ذلك لأن النعام تَدْحُوه برجلها ثم تَبْيِض فيه وليس للنعام عُشٌّ ومدَحَى النعام موضع بيضها وأدْحِيَّها موضعها الذي تُفَرِّخ فيه قال ابن بري ويقال للنعام بِنْتُ أدْحِيَّة " ^(٣)

فيخرج من ذلك معنيان للدحو الأول المد والبسط وهو الأقوى والآخر مأخوذ من قولهم للنعام بنت ادحية وهي من البيضة فالمعنى هو جعلها كشكل البيضة حتى إن بعض البلدان لا زالت للآن لا تعرف كلمة البيضة الا بالدحية .^(٤)

فيمكن بعد ذلك أن يقال : إن الآية تتسع لكل من المعنيين البسط – وهو الأقوى – ومعنى التشكل كشكل بيضة مدحوه .

(١) أ.د. النجار تفسير الآيات الكونية ٧٢/١-٧٣

(٢) حسن ، ابراهيم ، (١٩٨٠ م) ، ظواهر جغرافية في القرآن الكريم ، ط١ ص ٤٧ ، جمعية عمال المطابع ، الأردن .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ٢٥١/١٤

(٤) حسن ، ابراهيم ، ظواهر جغرافية في القرآن الكريم ، ٤٧ .

المطلب الثاني : وصف الأرض بالقرار .

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور أيضا في تفسير وصف الأرض بالقرار المذكور في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ

جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [النمل] : " والقرار: مصدر قر، إذا ثبت وسكن. ووصف الأرض به للمغالبة، أي ذات قرار. والمعنى جعل الأرض ثابتة قارة غير مضطربة. وهذا تدبير عجيب ، ولا يدرك تمام هذا الصنع العجيب إلا عند العلم بأن هذه الأرض سابحة في الهواء متحركة في كل لحظة وهي مع ذلك قارة فيما يبدو لسكانها فهذا تدبير أعجب، وفيه مع ذلك رحمة ونعمة، ولولا قرارها لكان الناس عليها متزلزلين مضطربين ولكانت أشغالهم معتنة لهم. ومع جعلها قرارا شق فيها الأنهار فجعلها خلالها. وخلال الشيء: منفرج ما بين أجزائه. والأنهار تشق الأرض في أخاديد فتجري خلالها الأرض . " (١)

ويزيد القول في بيان وصف الأرض بالقرار أيضا في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَلْيَى

جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا ... ﴾ [غافر] : " والقرار أصله، مصدر قر، إذا سكن.

وهو هنا من صفات الأرض لأنه في حكم الخبر عن الأرض، فالمعنى يحتمل: أنه جعلها قارة غير مائدة ولا مضطربة فلم تكن مثل كرة الهواء مضطربة متحركة ولو لم تكن قارة لكان الناس في عناء من اضطرابها وتزلزلها، وقد يفضي ذلك بأكثرهم إلى الهلاك وهذا في معنى قوله: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} في سورة الأنبياء [٣١].

ويحتمل أن المعنى جعل الأرض ذات قرار، أي قرار لكم، أي جعلها مستقرا لكم كقوله تعالى: {وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} [المؤمنون: ٥٠] أي خلقها على كيفية تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسة غير سائلة ولو شاء لجعل سطح الأرض سيالا كالزئبق أو كالعجل فلا يزال الإنسان سائحا فيها يطفو تارة ويسبخ أخرى فلا يكاد يبقى على تلك الحالة، وذلك كوسط سبخة "التَّأَكَّمَرْتُ" المسماة "شط الجريد" الفاصل بين "نفطة" و "نفزاوة" من الجنوب التونسي فإن فيها مسافات إذا مشت فيها القوافل ساخت في الأرض فلا يعثر عليها

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٩ / ٢٨٧

ولذلك لا تسير فيها القوافل إلا بهدأة عارفين بمسالك السير في علامات منصوبة، فكانت خلقه الأرض دالة على عظيم قدرة الله وعلى دقيق حكمته وعلى رحمته بالإنسان والحيوان المعمور بهما وجه الأرض . " (١)

التحليل :

من خلال ما سبق يتبين أن الشيخ ابن عاشور يحمل هذا الوصف من أوصاف الأرض على تفسيرين :

الأول : أنه جعلها قارة غير مائدة ولا مضطربة ، انطلاقاً من أن أصل معنى الفعل قرّهُو سكن والثاني : أنها ذات قرار، أي قرار لكم، أي جعلها مستقراً لكم . ومن مظاهره أن خلقها على كيفية تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسة غير سائلة وهذا كلام سديد .

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور في المسألة صحيح ولكني أرى أن يزداد هنا الكلام في أن الأرض تسبح في الفضاء في مدارها وفلكها بقدر منظم من الله تعالى وتدور حول نفسها بانتظام أيضاً ، وهي تبعد عن الشمس بعداً لو اختلفت الحياة وسببه أن الاتزان بين قوة جذب الشمس للأرض، والقوة النابذة المركزية التي دفعت بالأرض الأولية من الشمس هو الذي حدد (بمشيئة الله الخالق) بعد الأرض عن الشمس.

والارتباط الوثيق بين كل من كتلتها الأرض والشمس بطريقة منتظمة بمعنى أنه كلما تغيرت كتلة أحدهما تغيرت كتلة الآخر بنفس المعدل، هو من الأمور التي تعمل على تثبيت بعد الأرض عن الشمس، وجعلها مستقرة في دورانها حول محورها، وفي جريها حول الشمس في مدار محدد مما يؤدي إلى تثبيت كمية الطاقة الشمسية التي تصل إلى الأرض وهي من عوامل تهيتها لاستقبال الحياة واستقرارها، وذلك لأن كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب من كواكبها تتناسب تناسباً عكسياً مع بعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جري الكوكب في مداره حول الشمس.

(١) ابن عاشور التحرير ٢٤ / ٢٣٣-٢٣٤

ثم في مكونات الأرض نفسها ما يثبتها فتركيز هذه الكتلة الهائلة من الحديد وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض من وسائل جعله جرماً مستقراً في ذاته.^(١)

شواهد أخرى :

بالنسبة للمعنى لأول للقرار وهو أن الله تعالى جعلها قارة غير مائدة ولا مضطربة، فقد انطلق ابن عاشور من أن أصل معنى الفعل قرّ هو الذي هو سكن كما قالت المعاجم^(٢) والمعنى الثاني وهو أنها ذات قرار، أي قرار لكم - فقد ذهب إليه البغوي والألوسي أيضاً^(٣) ومن مظاهره أن خلقها على كيفية تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسة غير سائلة وهذا كلام سديد .

(١) أ.د. النجار، الأرض في القرآن ٤٠٣-٤٠٨

(٢) يقول ابن فارس : القاف والراء أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على برد، والآخر على تمكّن. / ابن فارس ، أحمد (٢٠٠٢م) ، مقاييس اللغة ، ط إتحاد الكتاب العرب ٤/٥ ، وانظر ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ٨٢/٥

(٣) انظر البغوي ، الحسين بن مسعود (١٩٩٧م) معالم التنزيل ، تحقيق : محمد عبد الله النمرط ٤ ٣٤٩/٦ دار طيبة ، و الألوسي ، روح المعاني ، مصدر سابق ٥/٢٠

المطلب الثالث : الأرضون السبع .

كلام ابن عاشور :

من صفات الأرض التي عرض لبيانها ابن عاشور في تفسيره هو بيان مثلية الأرض
للسماوات السبع المذكورة في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْزُ
بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق] حيث يبين أن

الكلام يحتمل وجهين:

" أحدهما : أن يكون المعطوف قوله { مِنِ الْأَرْضِ } على أن يكون المعطوف لفظ الأرض ويكون
حرف { من } مزيدا للتوكيد . . . والتقدير: وخلق الأرض، ويكون قوله: { مثلهن } حالا من
{ الأرض } . ومماثلة الأرض للسماوات في دلالة خلقها على عظيم قدرة الله تعالى، أي أن خلق
الأرض ليس أضعف دلالة على القدرة من خلق السماوات لأن لكل منهما خصائص دالة على
عظيم القدرة. وهذا أظهر ما يؤول به الآية. وفي إفراد لفظ { الأرض } دون أن يؤتى به جمعا كما
أتي بلفظ السماوات إيدان بالاختلاف بين حالتهما.

الوجه الثاني: أن يكون المعطوف { مثلهن } ويكون قوله: { وَمِنِ الْأَرْضِ } بيانا للمثل فما صدق
{ مثلهن } هو { الأرض } . وتكون { من } بيانية وفيه تقديم البيان على المبين، وهو وارد غير نادر
فيجوز أن تكون مماثلة في الكروية، أي مثل واحدة من السماوات، أي مثل كوكب من الكواكب
السبعة في كونها تسير حول الشمس مثل الكواكب فيكون ما في الآية من الإعجاز العلمي الذي
قدمنا ذكره في المقدمة العاشرة . " (١) وهذا باطل لأن السماوات ليست كواكب على ما مرّ بيانه .

ثم أخذ يناقش قول أن الأرض أرضين سبع بالعدد فقال : " وفي الكشف قيل ما في القرآن آية
تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه اهـ. وقد علمت أنها لا دلالة فيها على ذلك وقال المازري في
كتابه المعلم على صحيح مسلم عند قول النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الشفعة: " من اقتطع
شبرا من الأرض ظلما طوقه من سبع أرضين يوم القيامة " (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣٠٤ / ٢٨

(٢) الحديث أخرجه البخاري الجامع المسند الصحيح ، مصدر سابق ، برقم [٢٣٢٠] ٨٦٦ / ٢ . ومسلم ،

الجامع الصحيح برقم (١٦١٠) ١٢٣٠ / ٣ .

كان شيخنا أبو محمد عبد الحميد كتب إلي بعد فراقه له هل وقع في الشرع عما يدل على كون الأرض سبعة، فكتبت إليه قول الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} وذكرت له هذا الحديث فأعاد كتابه إلي يذكر فيه أن الآية محتملة هل مثلهن في الشكل والهيئة أو مثلهن في العدد. وأن الخبر من أخبار الأحاد، والقرآن إذا احتتمل والخبر إذا لم يتواتر لم يصح القطع بذلك، والمسألة ليست من العمليات فيتمسك فيها بالظاهر وأخبار الأحاد، فأعدت إليه المجابفة أحتج لبعده الاحتمال عن القرآن وبسطت القول في ذلك وترددت في آخر كتابي في احتمال ما قال. فقطع المجابفة اهـ.

وأنت قد تبينت أن أفراد الأرض مشعر بأنها أرض واحدة وأن المماثلة في قوله: {مثلهن} راجعة إلى المماثلة في الخلق العظيم، وأما الحديث فإنه في شأن من شؤون الآخرة وهي مخالفة للمتعارف، فيجوز أن يطوق الغاصب بالمقدار الذي غصبه مضاعفا سبع مرات في الغلط والثقل، على أن عدد السبع يجوز أن يراد به المبالغة في المضاعفة. ولو كان المراد طبقات معلومة لقال: طوقه من السبع الأرضين بصيغة التعريف. كلام عبد الحميد أدخل في التحقيق من كلام المازري. " (١)

ثم أورد احتمالا على المماثلة في عدد السبع مجازة لقول الجمهور وهو " أن السبع سبع قطع واسعة من سطح الأرض يفصل بينها البحار نسميها القارات ولكن لا نعني بهذه التسمية المعنى الاصطلاحي في كتب الجغرافيا القديمة أو الحديثة بل هي قارات طبيعية كان يتعذر وصول سكان بعضها إلى بعضها الآخر في الأزمان التي لم يكن فيها تنقل بحري وفيما بعدها مما كان ركوب البحر فيها مهولا. وهي أن آسيا مع أوروبا قارة، وإفريقيا قارة، وأستراليا قارة، وأمريكا الشمالية قارة، وأمريكا الجنوبية قارة، وجرولندة في الشمال، والقارة القطبية الجنوبية. ولا التفات إلى الأجزاء المتفرقة من الأرض في البحار، وتكون {من} تبعيضية لأن هذه القارات الاصطلاحية أجزاء من الأرض. " (٢)

(١) ابن عاشور، التحرير ٢٨ / ٣٠٥-٣٠٦

(٢) المرجع نفسه ٢٨ / ٣٠٦

التحليل :

لقد تبين مما سبق أنّ ابن عاشور يحتمل وجهين لتفسير الآية :

الأول : أن يكون المعطوف قوله { مِنْ الأَرْضِ } والمعنى أنّ خلق الأرض خلق عظيم كخلق السماء ، فكما خلق الله السماء خلق الأرض بقدرته .

الثاني: أن يكون المعطوف { مثلهن } وعلى هذا :

١ . يجوز أن تكون مماثلة في الكروية، أي مثل واحدة من السماوات، أي مثل كوكب من الكواكب السبعة وهذا باطل .

٢- أن يراد سبع بالعدد ونقل ذلك عن الزمخشري

وأنها الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي تدل على أن الأرض سبع أرضين ثم نقل كلام المازري وعبد الحميد ورجح كلام الثاني القاضي بعدم التسليم بأن الأرضين هي سبع بأن الآية محتملة هل مثلهن في الشكل والهيئة أو مثلهن في العدد. وأن الخبر الذي ذكره من أخبار الأحاد . . . وأقول : تأكيد القرآن المحتمل لأكثر من تأويل بخبر الأحاد يجعل القول بمدلولهما أرجح الأقوال خصوصا عند القول بأنّ خبر الأحاد يؤخذ به في العقيدة على الراجح وخصوصا إذا جاء العلم الحديث ليشهد بذلك أي أن الأرض سبع نطق مختلفة .

كلام المعاصرين :

ذهب المعاصرون لترجيح المعنى الثاني وأنّ المثلية هي مثلية في العدد حيث بيّن الدكتور

الفاضل زغول النجار - حفظه الله - ما يتعلق بتلك النطق وأنها على النحو الآتي :

١ - اللب الداخلي : وهي نواة صلبة عبارة عن كرة مصمتة من الحديد وبعض النيكل، مع قليل من عناصر أخف مثل الكبريت والفسفور والكربون أو السيليكون، ويبلغ قطر هذه النواة ٢٤٠٠ كيلو متر تقريبا، وتعرف باسم لب الأرض الصلب

٢- اللب الخارجي : وهي طبقة الحديد والنيكل المنصهرين ويبلغ سمكه نحو ألفي كيلو متر.

٣- الطبقة الإنتقالية وهي طبقة بين لب الأرض الصلب والسائل يبلغ سمكها ٤٥٠ كيلو مترا.

٤- ٥-6 وشاح الأرض : حيث يلي لب الأرض السائل إلي الخارج نطاق يعرف باسم وشاح الأرض ويبلغ سمكه نحو ٢٧٦٥ كيلو مترا(من عمق ١٢٠ كم إلي عمق ٢٨٨٥ كم تحت سطح الأرض)، ويفصله إلي ثلاثة نطق مميزة، مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل، يقع أحدهما عند عمق ٤٠٠ كيلو متر من سطح الأرض، بينما يقع الآخر

علي عمق ٦٧٠ كيلو متر من سطح الأرض، ويستخدم هذان المستويان في تقسيم وشاح الأرض إلي وشاح سفلي ومتوسط وعلوي (من عمق ١٨٨٥ كم إلي عمق ٦٧٠ كم، ومن ٦٧٠ كم إلي ٤٠٠ كم، ومن عمق ٤٠٠ كم إلي عمق ١٢٠ كم، ويضم هذان النطاقان فيما يعرف عادة باسم نطاق الضعف الأرضي.

٧- الطبقة الخارجية : حيث يلي وشاح الأرض إلي الخارج الغلاف الصخري للأرض ويصل سمكه إلي ٦٥ كيلو مترا تحت قيعان المحيطات وإلي ١٢٠ كيلو مترا تحت القارات، ويقسمه خط الانقطاع الاهتزازي المسمي باسم الموهو (Moho) إلي قشرة الأرض ويتراوح سمكها بين ٥- ٨ كيلو مترات تحت قيعان المحيطات، وبين ٢٠- ٨٠ كيلو مترا تحت القارات (بمتوسط ٣٥ كم).^(١)

شواهد أخرى :

بالنسبة للمعنى الثاني للمثلية أقصد المثلية العددية فقد نقل ابن عاشور ذلك عن الزمخشري وأنها الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي تدل على أن الأرض سبع أرضين ثم نقل كلام المازري وعبد الحميد ورجح كلام الثاني القاضي بعدم التسليم بأن الأرضين هي سبع بأن الآية محتملة هل مثلهن في الشكل والهيئة أو مثلهن في العدد. وأن الخبر الذي ذكره من أخبار الأحاد . . . وأقول : تأكيد القرآن المحتمل لأكثر من تأويل بخبر الأحاد يجعل القول بمدلولهما أرجح الأقوال خصوصا عند القول بأنّ خبر الأحاد يؤخذ به في العقيدة على الراجح وخصوصا إذا جاء العلم الحديث ليشهد بذلك أي أن الأرض سبع نطق مختلفة كما مرّ آنفاً .

تعقيب :

كلام ابن عاشور في الآية لا يخرج عن أقوال المفسرين فهو يستوعب المعاني المحتملة للسبع أرضين وهو لا يفصل في طبقات الأرض لأنه لا يرى ترجيحها علما بأن العلم الحديث يفصلها كما مر بيانه بل هو المعنى الراجح والله تعالى أعلم . أما عن كلامه المتعلق بأنّ المراد سبع قارات فهو وإن كان يدل على فطنة الشيخ ابن عاشور ؛ إلا أنّ هناك ملاحظات عليه ، فهو نفى أنها القارات الحاليّة ثم أثبتّها ، وإذا بحثنا في الانفصال بين القارات فأفريقيا متصلة بآسيا وأمريكا الشماليّة بالجنوبيّة ، وبالتالي فهذا لا يوافق عليه .

(١) أ. د. النجار. الأرض ، مصدر سابق ١٥٤-١٥٦

المطلب الرابع : وصف الأرض بذات الصدع .

كلام ابن عاشور :

لقد وصف الله تعالى الأرض بذات الصدع في قوله سبحانه ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ (١٢) [الطارق]:

وقد فسر ابن عاشور الآية بقوله : " والصدع: الشق، وهو المصدر بمعنى المفعول، أي

المصدوع عنه، وهو النبات الذي يخرج من شقوق الأرض قال تعالى : ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ

شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ [عبس]. " (١)

كلام المعاصرين :

وبالرغم من صحة المعنى الذي ذهب إليه ابن عاشور إلا أنّ هناك تفسير علمي معاصر آخر لم يذكره ابن عاشور وهو تصدع الغلاف الصخري للأرض ويبين الدكتور النجار طبيعة هذا الغلاف بأنه " ممزق بشبكة هائلة من الصدوع تمتد لآلاف من الكيلومترات طولاً و عرضاً بعمق يتراوح ما بين ٦٥ و ١٥٠ كيلومتر و من الغريب أن هذه الصدوع مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً يجعلها كأنها صدع واحد ، يشبهه العلماء باللحام على كرة التنس و القرآن الكريم يقول (و الأرض ذات الصدع) و هذا الصدع لازمة من لوازم جعل الأرض صالحة للعمران فهو شق في الغلاف الصخري للأرض ، و لكنه ليس شقاً عادياً و إنما تتم عبره حركة إما رأسية أو أفقية لجزء من الغلاف الصخري للأرض كما أن الأرض فيها كم من العناصر المشعة التي تتحلل تلقائياً بمعدلات ثابتة هذا التحلل يؤدي إلى إنتاج كميات هائلة من الحرارة ، و لو لم تجد هذه الحرارة متنفساً لها لفجرت الأرض كقنبلة ذرية هائلة من اللحظة الأولى لتتيسر قشرتها الخارجية ، و انطلاقاً من ذلك يقسم الله تعالى بهذه الحقيقة الكونية المبهرة التي لم يستطع العلماء أن يدركوا أبعادها إلا بعد الحرب العالمية الثانية و استمرت دراستهم لها لأكثر من عشرين سنة متصلة (١٩٤٥ - ١٩٦٥) حتى استطاعوا أن يرسموا هذا الصدوع بالكامل .

فالارض تصدعت من حوادث متعددة ولا تزال تتصدع ولعل من الصدوع ايضا ما نراه من عيون الماء وفوهات البراكين والحفر الانهدامية وشقوق النبات ومن صدوعها غير الظاهرة الشقوق التي تحدث في داخلها والتي ينتج عنها حدوث الزلازل والبراكين (٢)

(١) ابن عاشور التحرير ٢٦٦/٣٠

(٢) أ.د. النجار ، الأرض في القرآن مصدر سابق ١٧٤-١٨٢

شواهد أخرى :

التفسير الذي ذهب إليه ابن عاشور قد روي أثراً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه (١) وهو مناسب لوصف السماء بذات الرجوع وفضلاً عن ذلك فهو تفسير مشاهد ومألوف . إلا أنه يستدرك عليه المعنى العلمي الآخر المذكور آنفاً .

تعقيب :

كلام ابن عاشور في المسألة صحيح لغة وأثراً وعلماً إلا أنّ العلم استدرك عليه معنى آخر لم يذكره الشيخ رحمه الله تعالى .

(١) انظر ابن كثير ، مصدر سابق ٣٧٦/ ٨

المطلب الخامس : كروية الأرض .

كلام ابن عاشور :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ

النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴿٥٤﴾

[الزمر] ، لقد استشف ابن عاشور من هذه الآية أنّ الأرض كروية بل يعدّ ذلك من معجزات

القرآن العلمية يقول رحمه الله :

" والتكوير حقيقته : اللف والليّ، يقال: كور العمامة على رأسه إذا لواها ولفها، ومثلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض وعكس ذلك على التعاقب بهيئة كور العمامة إذ تغشى الليلة الليلة التي قبلها. وهو تمثيل بديع قابل للتجزئة بأن تشبه الأرض بالرأس، ويشبه تعاور الليل والنهار عليها بلف طيات العمامة ، ومما يزيده إبداعا إثثار مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن المشار إليها في المقدمة الرابعة والموضحة في المقدمة العاشرة فإن مادة التكوير جائية من اسم الكرة، وهي الجسم المستدير من جميع جهاته على التساوي، والأرض كروية الشكل في الواقع وذلك كان يجهله العرب وجمهور البشر يومئذ فأوما القرآن إليه بوصف العرضين اللذين يعتريان الأرض على التعاقب وهما النور والظلمة، أو الليل والنهار، إذ جعل تعاورهما تكويرا لأن عرض الكرة يكون كرويا تبعا لذاتها، فلما كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإلهية الحق بإنشاء السماوات والأرض اختير للاستدلال على ما يتبع ذلك الإنشاء من خلق العرضين العظيمين للأرض مادة التكوير دون غيرها من نحو الغشيان الذي عبر به في قوله تعالى: { يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } في سورة الأعراف [٥٤]، لأن تلك الآية مسوقة للدلالة على سعة التصرف في المخلوقات لأن أولها: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف: ٥٤] فكان تصوير ذلك بإغشاء الليل والنهار خاصة لأنه دل على قوة التمكّن من تغييره أعراض مخلوقاته، ولذلك اقتصر على تغيير أعظم عرض وهو النور بتسليط الظلمة عليه، لتكون هاته الآية لمن يأتي من المسلمين الذين يطلعون على علم الهيئة فتكون معجزة عندهم . . . " (١)

التحليل :

يستخلص من كلام ابن عاشور مسألة علمية وهي أنّ الأرض كروية لأن الله تعالى سمى تعاور الليل والنهار تكويراً والتكوير مادته تشير للّف والتدوير والليل والنهار عرضان للأرض وعرض الكرة يكون كروياً تبعاً لذاتها .

كلام المعاصرين :

لقد صوّرت الأرض مراراً وتبيّن أنها كروية بلا أدنى شك .

شواهد أخرى :

ابن عاشور استدللّ على الأمر العلميّ انطلاقاً من نفس النصّ القرآنيّ الحكيم ، وأقول : أنّه مع تسليم المفسرين بأنّ التكوير هو اللف واللي من كار العمامة على رأسه وكورها ، إلا أنهم قالوا : أنّ المراد يَغشى أحدهما الآخر أي يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً وبالعكس فالمغشي حقيقة المكان .^(١)

لكنّ القرآن محكم والغشيان ذكر في موضع آخر والمذكور هنا هو التكوير وإن أجريناه على حقيقته ومعناه اللغوي انصرف إلى ما ذكره ابن عاشور من جعل تعاور الليل والنهار تكويراً لأنّ عرض الكرة يكون كروياً تبعاً لذاتها وقضية كروية الأرض أشار إليها غير ابن عاشور من المفسرين حيث أشار إليها الرازي في أكثر من موضع من كتابه .^(٢)

تعقيب :

لقد جاء ابن عاشور بكلام بديع في استدلاله على كروية الأرض من خلال الآية المذكورة وافق فيه لغة الآية والعلم

(١) انظر الألويسي ، روح المعاني ٢٣٨/٢٣

(٢) انظر الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٤/١٦٦ و ٥/١٩ وغيرها من المواضع

المبحث الثالث: من ظواهر الأرض .

المطلب الأول : ظاهرة الليل والنهار

كلام ابن عاشور :

تحدث ابن عاشور عن ظاهرة الليل والنهار المذكورة في القرآن الكريم بكلام علمي من حيثيات مختلفة في مواضع متعددة من تفسيره وأسوق أولاً بعض النصوص من تفسير ابن عاشور في هذا الموضوع ثم أنتقل إلى تحليل كلامه – رحمه الله تعالى - ومن ذلك أنه يقول في بيان حكم خلق الليل والنهار عند تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ [يونس]:

" . . . فمن تلك الآيات: خلق الشمس، وخلق الأرض، وخلق النور في الشمس وخلق الظلمة في الأرض، ووصول شعاع الشمس إلى الأرض، ودوران الأرض كل يوم بحيث يكون نصف كرتها مواجهاً للشعاع ونصفها الآخر محجوباً عن الشعاع وخلق الإنسان، وجعل نظام مزاجه العصبي متأثراً بالشعاع نشاطاً، وبالظلمة فتوراً، وخلق حاسة البصر، وجعلها مقترنة بتأثر الضوء؛ وجعل نظام العمل مرتبطاً بحاسة البصر؛ وخلق نظام المزاج الإنساني مشتملاً على قوى قابلة للقوة والضعف ثم مدفوعاً إلى استعمال قواه بقصد وبغير قصد بسبب نشاطه العصبي، ثم فاقداً بالعمل نصيباً من قواه محتاجاً إلى الاعتياض بقوى تخلفها بالسكون والفتور الذي يلجئه إلى تطلب الراحة. أية آيات أعظم من هذه، وأية منة على الإنسان أعظم من إيداع الله فيه دواعي تسوقه إلى صلاحه وصلاح نوعه بداع من نفسه . " (١)

ويقول محدثاً عن بعض ما يتعلق بظاهرة الليل والنهار ، وفي سبب ذكره لها مع الأرض لا

مع السماء في تفسير قوله تعالى : ﴿ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الرعد:

" وأما إغشاء الليل والنهار فهو أمر متجدد كل يوم وليلة. وهذا استدلال بأعراض أحوال الأرض. وذكره مع آيات العالم السفلي في غاية الدقة العلمية لأن الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضية بحسب اتجاهها إلى الشمس وليس من أحوال السماوات . " (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير ١١/١٣٢

(٢) المرجع نفسه ١٢/٢٥٤

ويقول أيضا فيما يتعلق بالليل والنهار والظلمة والنور عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي

خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ [الأنبياء] :

" وخلق الليل هو جزئي من جزئيات خلق الظلمة التي أوجد الله الكائنات فيها قبل خلق الأجسام التي تفيض النور على الموجودات، فإن الظلمة عدم والنور وجود وهو ضد الظلمة، والعدم سابق للوجود فالحالة السابقة لوجود الأجرام النيرة هي الظلمة، والليل ظلمة ترجع لجرم الأرض عند انصراف الأشعة عن الأرض.

وأما خلق النهار فهو بخلق الشمس ومن توجه أشعتها إلى النصف المقابل للأشعة من الكرة الأرضية، فخلق النهار تبع لخلق الشمس وخلق الأرض ومقابلة الأرض لأشعة الشمس، ولذلك كان لذكر خلق الشمس عقب ذكر خلق النهار مناسبة قوية للتنبيه على منشأ خلق النهار كما هو معلوم . وقد جمعت الآية استدلالا وامتنانا فهي دليل على عظم قدرة الخالق، وهي أيضا تذكير بنعمه، فإن في اختلاف الليل والنهار آيات جمة لما يدل عليه حصول الظلمة من دقة نظام دوران الأرض حول الشمس ^(١) ومن دقة نظام خلق الشمس ^(٢) ، ولما يتوقف عليه وجود النهار من تغيير دوران الأرض ومن فوائد نور الشمس، ثم ما في ذلك من نظام النوم المناسب للظلمة حين ترتخي أعصاب الناس فيحصل لهم بالنوم تجدد نشاطهم، ومن الاستعانة على التستر بظلمة الليل ومن نظام النهار من تجدد النشاط وانبعاث الناس للعمل وسأمتهم من الدعة، مع ما هو ملائم لذلك من النور الذي به إِبْصَار ما يقصده العاملون. ^(٣)

وعن الظلمة والنور يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَاذَاهُمْ

مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ [يس] :

" إن الظلمة هي الحالة السابقة للعوالم قبل خلق النور في الأجسام النيرة لأن الظلمة عدم والنور وجود، وكانت الموجودات في ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب النيرة ويوصل نورها إلى الأجسام التي تستقبلها كالأرض والقمر.

(١) لو قال : حول محورها أمام الشمس لأصاب .

(٢) لو قال : النظام الشمس أو الكون لكان أولى

(٣) ابن عاشور ، التحرير ، ٦٧/١٦

وإذا كانت الظلمة هي الحالة الأصلية للموجودات فليس يلزم أن تكون أصلية للأرض . . . وإنما
ظلمة نصف الكرة الأرضية إذا غشيها نور الجسم معتبرة كالجسم الذي غشيه جلده فإذا أزيل
النور عادت الظلمة فشبه ذلك بسلخ الجلد عن الحيوان كما قال تعالى: في مقابله في سورة الرعد
[٣]: {يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}. فليس في الآية دليل على أن أصل أحوال العالم الأرضي هو الظلمة
ولكنها ساقط للناس اعتباراً ودلالة بحالة مشاهدة لديهم ففرع عليه {فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} بناء على
ما هو متعارف. " (١)

ويقول أيضاً في ذكر بعض الحكم الأخرى لظاهرة الليل والنهار في تفسير قوله تعالى :

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾﴾ غافر [:

" وابتدى الاستدلال بدلائل الأكوان العلوية وآثارها الواصلة إلى الأكوان السفلية (٢) ، وهي
مظهر النعمة بالليل والنهار فهما تكوينان عظيمان دالان على عظيم قدرة مكونهما ومنظمتها
وجاعلها متعاقبين، فنيطت بهما أكثر مصالح هذا العالم ومصالح أهله، فمن مصالح العالم
حصول التعادل بين الضياء والظلمة، والحرارة والبرودة لتكون الأرض لائقة بمصالح من عليها
فتنتب الكلاً وتتضح الثمار، ومن مصالح سكان العالم سكون الإنسان والحيوان في الليل لاسترداد
النشاط العصبي الذي يعييه عمل الحواس والجسد في النهار، فيعود النشاط إلى المجموع العصبي
في الجسد كله وإلى الحواس، ولولا ظلمة الليل لكان النوم غير كامل فكان عود النشاط بطيئاً
وواهنًا ولعاد على القوة العصبية بالانحطاط والاضمحلال في أقرب وقت فلم يتمتع الإنسان بعمر
طويل. ومنها انتشار الناس والحيوان في النهار وتبين الذوات بالضياء، وبذلك تتم المساعي للناس
في أعمالهم التي بها انتظام أمر المجتمع من المدن والبوادي، والحضر والسفر، فإن الإنسان
مدني بالطبع، وكادح للعمل والاكتساب، فحاجته للضياء ضرورية ولولا الضياء لكانت تصرفات
الناس مضطربة مختبطة.

(١) ابن عاشور ، التحرير ٢٢/٢٢٩

(٢) الأولى أن يعبر ابن عاشور بغير مصطلح " الأكوان السفلية "

وللتنويه بشأن إِبصار الناس في الضياء وكثرة الفوائد الحاصلة لهم من ذلك أسند الإِبصار إلى النهار على طريقة المجاز العقلي لقوة الملابسة بين الأفعال وزمانها، فأسند إِبصار الناس إلى نفس النهار لأنه سبب بعضه وسبب كمال بعض آخر. فأما نعمة السكون في الليل فهي نعمة واحدة هي رجوع النشاط .

... ولكن لما كان المقصد الأول من هذه الآية الامتنان ذكر الليل والنهار دون الشمس، وقد ذكرت الشمس في آيات أخرى كان الغرض الأهم منها الدلالة على عظيم القدرة والوحدانية كقوله: { وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [الأنعام: ٩٦].

وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يكبحون له في نهارهم فأنه تعالى جعل النوم حاصلًا للإنسان بدون اختياره، فالنوم يلجئ الإنسان إلى قطع العمل لتحصل راحة لمجموعه العصبي الذي ركنه في الدماغ، فبتلك الراحة يستجد العصب قواه التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها، بحيث لو تعلق رغبة أحد بالسهر لا بد له من أن يغلبه النوم وذلك لطف بالإنسان بحيث يحصل له ما به منفعة مداركة قسرا عليه لئلا يتهاون به. " (١)

التحليل :

هذا الكلام من ابن عاشور يدور في ثلاث جهات :

الجهة الأولى : تفسير ظاهرة الليل والنهار علميا :

- حيث كان كلام الشيخ في وصف ظاهرة الليل والنهار كلام صحيح علميًا من حيث مايلي :
- ١- إشارته من خلال تفسيره لآيات الليل والنهار إلى حالة الظلمة السابقة للنور وأنها تعم الكون ، وأن الليل والنهار هو نتاج دوران الأرض حول نفسها وتسلط الشمس على النصف المواجه لها .
 - ٢- إشارته إلى أن خلق النهار هو بخلق الشمس ومن توجه أشعتها إلى النصف المقابل للأشعة من الكرة الأرضية
 - ٣- وحينما بين أيضا : أن ذكر الليل والنهار في القرآن مع آيات الأرض في غاية الدقة العلمية ، لأن الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضية بحسب اتجاهها إلى الشمس وليس من أحوال السماوات .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٢٣٠/٢٤

الجهة الثانية : الألفاظ الموضوعية لحلول الليل والنهار على الأرض ودلالاتها العلمية :

حيث بين ابن عاشور بعض الدلالات العلمية للألفاظ الموضوعية لحلول الليل والنهار فتقليب الليل والنهار تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة النهار ثم إلى حالة الظلام ، أو هو تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر .

وإلاج الليل في النهار يشمل تعاقبهما وازدياد مدة النهار على الليل والعكس ، واختلاف الليل والنهار له معنيان عند الشيخ : الأول هو أن يخلف كل واحد منهما الآخر فيعقبه وفي ذلك منة عظيمة اذ لو استمر الليل طوال الحياة لتعسرت المعيشة . أما الثاني فهو تفاوتهما في الطول والقصر والسبب في رأيه أن ذلك بحسب أزمنة الفصول وبحسب أمكنة الأرض في أطوال البلاد وأعراضها كما هو مقرر في علم الهيئة .

الجهة الثالثة : فوائد تعاقب الليل والنهار :

يشير ابن عاشور إلى أن لخلق الليل والنهار وتعاقبهما على البشر فوائد جمّة على الإنسان من حيث إراحة جهازه العصبي وغيرها من الفوائد ، وكذلك على الأرض من حيث اعتدال الحرارة وغيرها من الفوائد .

كلام المعاصرين :

بالنسبة للجهة الأولى وهي تفسير ظاهرة الليل والنهار علمياً فكلام الشيخ في وصف ظاهرة الليل والنهار كلام صحيح علمياً من حيث مايلي :

١- إشارته من خلال تفسيره لآيات الليل والنهار إلى حالة الظلمة السابقة للنور وأنها تعم الكون والعلم الحديث يشير إلى أن الكون ظلام حالك وأن القشرة المنيرة فوقنا لا تتعدى ٢٠٠ كيلومتر فقط^(١) وأن الليل والنهار هو نتاج دوران الأرض حول نفسها وتسلط الشمس على النصف المواجه لها .

ثم إن الله تعالى قد وصف الشمس بقوله {وجعلنا سراجاً وهاجاً} [النبأ ١٣] وذلك باتقادها بالتفاعلات النووية التي تبعث منها ذلك الضوء بالإضافة إلى درجات الحرارة العالية ، والضوء

(١) محمد ، منصور ، الكون والاعجاز العلمي للقرآن مصدر سابق ، ص ٢٠٣

لا يرى والذي نراه هو تشتته وانعكاسه على المرئيات وذلك بواسطة الغلاف الجوي ... (١)
فعند سقوط أشعتها على هباءات الاتربة العالقة بالغلاف تشتتت اشعتها في جهات مختلفة وأكثر
الألوان تشتتت هو اللون الأزرق وعند مرور الإنسان في طبقات عليا تتميز خصائصها سيرى أن
السماء تأخذ بالزرقة الشديدة حتى إذا وصل إلى الفضاء الخارجي وتناقصت المواد العالقة
بالغلاف تبدو السماء سوداء معتمة على الرغم من وجود الشمس بالأفق. (٢)

٢- إشارته إلى أن خلق النهار هو بخلق الشمس ومن توجه أشعتها إلى النصف المقابل للأشعة
من الكرة الأرضية ، وبشكل عام فكلام ابن عاشور في تفسير الظاهرة صحيح مجمع عليه من
قبل الفلكيين فحركة الأرض حول نفسها أمام الشمس دورة كاملة في كل يوم ٢٤ ساعة ينتج عنها
الليل والنهار ، وهو إشارة أيضا إلى كروية الأرض إذ لو لم تكن كذلك لما استقامت هذه الدورة
وانتجت الليل والنهار (٣)

٣- وحينما بين أيضا : أنّ ذكر الليل والنهار في القرآن مع آيات الأرض في غاية الدقة العلمية ،
فكل ذلك يدل على فطنة الشيخ ابن عاشور ودقة أقواله وصحتها علميا .

أما الجهة الثانية وهي الألفاظ الموضوعية لحلول الليل والنهار على الأرض ودلالاتها العلمية
فإنّ فيه بعض القضايا العلميّة مثل ازدياد مدة النهار على الليل والعكس حيث قال المعاصرون
فيها : أنّ الله تعالى يدخل بعض وقت الليل في النهار فيطول النهار في بعض أيام السنة والعكس
بسبب جعل محور دوران الأرض حول نفسها مائلا وهو سبب للفصول الأربعة أيضا (٤)
وبشكل عام فالسبب هو انتقال الشمس في البروج وترنح محور الأرض وميلانه. (٥)

أما الجهة الثالثة يشير ابن عاشور إلى أن لخلق الليل والنهار وتعاقبهما على البشر فوائد جمّة
على الإنسان من حيث إراحة جهازه العصبي وغيرها من الفوائد ، وكذلك على الأرض من

(١) منصور ، الكون والإعجاز العلمي للقرآن ، مصدر سابق ٢٠٢

(٢) ابراهيم ، ظواهر جغرافية ، مصدر سابق ١٢٨-١٢٩

(٣) انظر د. النجار ، زغلول ، (٢٠٠٧م) ، تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ، ط ١ / ٢٨٩ ، مكتبة
الشروق الدولية .

(٤) د. داود ، أسرار الكون مصدر سابق ، ٢٦٧

(٥) ابراهيم ، ظواهر جغرافية ، مصدر سابق ٥٢

حيث اعتدال الحرارة وغيرها من الفوائد ، وقد جاء العلم الحديث ليؤكد ذلك ؛ فقد أكدت الدراسات الحديثة على أن الإنسان بحاجة ماسة للنوم وان أفضل واصح نوم هو نوم الساعات الأولى من الليل فالإنسان بحاجة إلى الراحة لاستعادة نشاطه البدني والذهني والنفسي والروحي ومن استجماع قواه في ذلك كله ليهيئ نشاطه للعمل في اليوم التالي ، وقد ثبت أيضا أن نوم الليل يجدد النشاط ويقوي الذاكرة ويريح اغلب أجهزة الجسم وان كثرة النوم في النهار في غير ساعات القيلولة يؤثر سلبا على الدورة الدموية وعلى أجهزة الجسم ويهدد العضلات بالتعب والوزن بالزيادة والتوتر والقلق وربما من أسباب ذلك وفرة الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس وتناقص النشاط العصبي بالنوم . أما الليل فنصف الكرة الأرضية المظلم يحمي من الإشعاعات الخطرة المنبثقة منها وانكماش بعض النطق كالنطق المتأينة والأوزون وغيرها يزيد من قدرة الاحزمة على حماية هذا الجزء المظلم في وقت تناقص النشاط الحيوي عند النوم وقد ثبت انها تصل لذروة انكماشها في منتصف الليل الفلكي وتتمدد في وقت الظهيرة ، ولو استمر الليل على الأرض لهلك الناس من شدة البرد ومثل ذلك لو استمر النهار لهلكنا من شدة الحر^(١)

تعقيب :

نلاحظ أن كلام ابن عاشور فيما يتعلق بظاهرة الليل والنهار صحيح علمياً ومنسجم مع ما قاله المعاصرون من أهل الاختصاص .

(١) د. النجار ، تفسير الآيات العلمية ، مصدر سابق ٤٠٣-٤٠٤

المطلب الثاني : ظاهرة المشرق والمغرب .

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في تفسير المشرق والمغرب في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء] :

" والمشرق والمغرب يجوز أن يراد بهما مكان شروق الشمس ومكان غروبها في الأفق . . . ويجوز أن يراد بالمشرق والمغرب المصدر الميمي، أي رب الشروق والغروب . . . فأما ما بين الشروق والغروب فالضحى والزوال والعصر والاصفرار، وأما ما بين الغروب والشروق فالشفق والفجر والإسفار كلها دلائل على تكوين ذلك النظام العجيب المتقن. وقيل المراد برب المشرق والمغرب مالك الجهتين. وهذا التفسير يفيت مناسبة الكلام لمقام الاستدلال بعظيم ولا يلاقي التذييل الواقع بعده في قوله { إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } . وتأنك الجهتان هما منتهى الأرض المعروفة للناس يومئذ فكأنه قيل: رب طرفي الأرض، وهو كناية عن كون جميع الأرض ملكا لله. وهذا استدلال عرفي إذ لم يكونوا يعرفون يومئذ ملكا يملك ما بين المشرق والمغرب وما كان ملك فرعون المؤله عندهم إلا لبلاد مصر والسودان. " (١)

ويقول أيضا في تفسير المشرقين والمغربيين في قوله تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن]

" : ... والمشرق: جهة شروق الشمس، والمغرب : جهة غروبها وتنحية المشرقين والمغربيين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر وبمراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربيين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال: المشرق والمغرب كما في قوله تعالى: { فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ } في سورة المعارج [٤٠].

ومن زعم أن تنحية المشرقين لمراعاة مشرق الشمس والقمر وكذلك تنحية المغربيين لم يغص على معنى كبير. وعلى ما فسر به الجمهور { المشرقين } و { المغربيين } بمشريقي الشمس ومغربيها فالمراد بالمشرقين النصف الشرقي من الأرض، وبالمغربيين النصف الغربي منها . وربوبية الله تعالى للمشرقين والمغربيين بمعنى الخلق والتصرف. (٢)

(١) ابن عاشور التحرير ١٣٤/١٩ (٢) المرجع نفسه ١٣١/٢٧

ويقول في صيغة الجمع في تفسير قول الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴾ (٤)

[المعارج] " وجمع { الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ } باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة فإن ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته من عظيم صنع الله من حيث إنه دال على الحركات الحافة بالشمس التي هي من عظيم المخلوقات " (١)

التحليل :

إن ظاهرة شروق الشمس وغروبها جاء ذكرها في القرآن الكريم على ثلاث صيغ الإفراد والتثنية والجمع والمفهوم من كلام الشيخ ابن عاشور أن الإفراد مراد به الجهة دون الفصل وإذا روعي الفصلان الشتاء والصيف جيء بالتثنية ، على أن جمع المشارق قد يكون بمراعاة اختلاف المطالع في مبادئ الفصول الأربعة أو أنها بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة .

أما عن المقصود بما بين المشرق والمغرب فمقصود به ما يقع في خلال ذلك من الأحوال، فما ما بين الشروق والغروب هو الضحى والزوال والعصر والاصفرار، وما بين الغروب والشروق فالشفق والفجر والإسفار كلها دلائل على تكوين ذلك النظام العجيب المتقن.

كلام المعاصرين :

أما عن تفسير هذه الظاهرة وهي اختلاف المشارق والمغارب فابن عاشور لم يبين سببه الرئيس والعلم الحديث يبين أنه يعود إلى ميل محور دوران الأرض على مستوى مدارها حول الشمس بمقدار ٣٣ درجة ونصف لهذا فإن النصف الشمالي من الكرة الأرضية يميل نحو الشمس في الصيف فيطول النهار ويقصر الليل حتى يبلغ ذلك أقصى مداه وعند الاقتراب من الاعتدال الخريفي يأخذ هذا النصف في الميل عن الشمس فيطول الليل ويقصر النهار وتستمر الشمس في تأخرها نحو الجنوب حتى تبلغ مدى بعدها إلى الجنوب في قمة الشتاء ومن ثم تتردد إلى الشمال في حركة ظاهرية يوما بعد يوم حتى تبلغ المشرق والمغرب في الاعتدال الربيعي وهكذا ويصدق هذا جميعه في نصف الكرة الجنوبي (١)

(١) ابن عاشور التحرير ١٦٦/٢٩

(٢) ابراهيم ، ظواهر جغرافية مصدر سابق ٨٥

شواهد أخرى :

ولعل ما قاله ابن عاشور هو ما عليه جل المفسرين ففي المشرقين والمغربين قال البيضاوي مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما. ^(١) وقد رواه الطبري عن مجاهد وقتادة ^(٢)

وفي الآيات جميعا قال ابن كثير : " { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } يعني: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء. وقال في الآية الأخرى: { فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ } [المعارج : ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } [المزمّل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغرب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغرب، مصالِح للخلق من الجن والإنس قال : { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } ؟ " ^(٣)

تعقيب :

إنّ كلام ابن عاشور في مسألة المشارق والمغرب كلام صحيح لم يخرج فيه عن أقوال غيره من المفسرين ، ومن حيث العلم فهو مجمل بينما العلم الحديث فقد جاء بتفصيل أكثر مما جاء ابن عاشور عليه الرّحمة .

(١) البيضاوي ، أنوار التنزيل ، مصدر سابق ٤٥/٢

(٢) انظر الطبري جامع البيان مصدر سابق ٢٩-٢٨/٢٣

(٣) ابن كثير تفسير القرآن العظيم مصدر سابق ٢٣٤/٣

المطلب الثالث : ظاهرة الظل .

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا

﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ [الفرقان:]

ويقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية : " الظل: وفي وجود الظل دقائق من أحوال النظام الشمسي فإن الظل مقدار محدد من الظلمة يحصل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاع فينتطب على المكان مقدار من الظل مقدر بمقدار كيفية الجسم الحائل بين الشعاع وبين موقع الشعاع على حسب اتجاه ذلك الجسم الحائل من جهته الدقيقة أو الضخمة، ويكون امتداد تلك الظلمة المكيفة بكيفية ذلك الجسم متفاوتا على حسب تفاوت بعد اتجاه الأشعة من موقعها ومن الجسم الحائل ومختلفا باستواء المكان وتحديه، فذلك التفاوت في مقادير ظل الشيء الواحد هو المعبر عنه بالمد في هذه الآية . . .

وهذا الامتداد يكثر على حسب مقابلة الأشعة للحائل فكلما اتجهت الأشعة إلى الجسم من أخفض جهة كان الظل أوسع، وإذا اتجهت إليه مرتفعة عنه تقلص ظله رويدا رويدا إلى أن تصير الأشعة مسامطة أعلى الجسم ساقطة عليه فيزول ظله تماما أو يكاد يزول، وهذا المعنى قوله تعالى {وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا} أي غير متزايد . . .

ودلت مقابلة قوله {مَدَّ الظِّلَّ} بقوله {لَجَعَلَهُ سَاكِنًا} على حالة مطوية من الكلام، وهي حالة عموم الظل جميع وجه الأرض، أي حالة الظلمة الأصلية التي سبقت اتجاه أشعة الشمس الى وجه الأرض . . .

وقوله {ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا} . . . أي أن الله مد الظل بأن جعل الشمس دليلا على مقادير امتداده. . . وجعلت الشمس من حيث كانت سببا في ظهور مقادير الظل كالهادي إلى مراحل، بطريقة التشبيه البليغ، فكما أن الهادي يخبر السائر أين ينزل من الطريق، كذلك الشمس بتسببها في مقادير امتداد الظل تعرف المستدل بالظل بأوقات أعماله ليشرع فيها . . .

والقبض: ضد المد فهو مستعمل في معنى النقص، أي نقصنا امتداده، والقبض هنا استعارة للنقص . وتعديته بقوله {إِلَيْنَا} تخييل ، شبه الظل بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة المكنية . . . " (١)

التحليل :

يعرف ابن عاشور بالظل بأنه مقدار محدد من الظلمة يحصل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاع . . . وبيّن أنّ العوامل المؤثرة فيه وفي تفاوته هي تفاوت بعد اتجاه الأشعة من موقع الظل ومن الجسم الحائل ومختلفا باستواء المكان وتحديه، وهذا هو المعبر عنه بالمد في هذه الآية . . . ووصفت الشمس بأنها دليلا عليه لأنها المسببة والمؤثرة فيه وفي تفاوته ، والقبض اليسير هو نقص هذا الظل .

كلام المعاصرين :

لا شك أن لموقع ظهور الشمس على الأرض أثر من أشهر صورهِ الظل وتغيرهِ في الأوقات جميعا فهو في وقت الزوال يختلف عن العصر وهكذا في غيرها من الأوقات والظلّ آية من آيات الله تعالى و هو حجب أشعة الضوء المرئي عن منطقة من مناطق سطح الأرض بواسطة أحد الأجسام المعتمة فيتكون الظل في عكس الاتجاه^(١) وكلام ابن عاشور يؤيده العلم الحديث حيث إن الذي يساهم في تشكل الظل هو أكثر من عامل : كروية الارض إذ لو كانت منبسطة لما تغير الظل ، ودورانها حول محورها امام الشمس ، ودورانها في مدارها حول الشمس بمحور مائل على مستوى دورانها ؛ فالشمس عند الشروق والغروب يصل ظل كل شيء الى اقصى مداه ومع ارتفاعها في الافق يتقاصر حتى تكون عمودية وقت الزوال ومع بدء تحركها من تعامدها يبدا بالتطاول نحو الشرق حتى يصل اقصاه عند الغروب . والقبض اليسير المذكور في الآية يشير إلى كيفية الزيادة والنقص في طول الظل حسب موقع الشمس ومن المعلوم ان الارض تدور حول محورها بسرعة ٣٠ كم في الدقيقة وحول الشمس ب ٣٠ كم في الثانية وهاتان الحركتان تلعبان دورا مهما في زيادة وقصر الظل^(٢) ثم إن هذا الظل يتغير بحسب فصول السنة ايضا فالشمس في ايام الصيف تكون عمودية على الارض وبالتالي اكثر ارتفاعا بينما تكون مائلة في ايام الشتاء مما يعني ان هذا الظل سيكون أقصر ، وأطول ما يكون الظل في ايام السنة في الشتاء في يوم ٢١ كانون أول وعندها يحصل الانقلاب الشتوي ويكون اقصر نهار واطول ليل ، وفي يوم ٢١ حزيران يكون أطول نهار وأقصر ليل واقصر ظل^(٣)

تعقيب :

كلام ابن عاشور في ظاهرة الظل كلام صحيح منسجم مع ما قاله المعاصرون

(١) د . النجار تفسير الآيات الكونية مصدر سابق ٣٢٥/٢

(٢) المرجع نفسه / ٣٢٥-٣٣٠ (٣) د. الطائي، محمد باسل ، علم الفلك والتقويم ، مصدر سابق ص ١١٧

المطلب الرابع : ظاهرة الشفق .

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝۱۶ ﴾ [الانشقاق]

ويقول ابن عاشور في تفسيرها : " والشفق: اسم للحمرة التي تظهر في أفق مغرب الشمس اثر غروبها وهو ضياء من شعاع الشمس إذا حجبها عن عيون الناس بعض جرم الأرض، واختلف في تسمية البياض الذي يكون عقب الاحمرار شفقا. " (١)

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور العلمي في الشفق كلام صحيح ، لكن العلم الحديث يبين سبب وقوع الشفق بما لم يبينه ابن عاشور حيث يقول ا.د مجيد محمود : أنها تحدث نتيجة تشتت ضوء الشمس في الطبقات العليا لجو الارض عند اصطدامه بمختلف أنواع الذرات والجسيمات العالقة فيه وانعكاسه علينا فيستضيء به الافق ولو لم يكن الغلاف لظهر النهار والليل فجأة ، وله أهمية اسلاميا فهو الدليل على العشاء والفجر فالفجر بعد ظهور الشفق الابيض الصادق عندما تكون الشمس قبل شروقها تحت الافق والعشاء عندما تكون تحت الافق بعد الغروب (٢)

شواهد أخرى :

زاد الألوسي في بيان أصل الكلمة اللغوي فقال : " هي الحمرة التي تشاهد في أفق المغرب بعد الغروب وأصله من رقة الشيء يقال شيء شفق أي لا يتماسك لرقته ومنه أشفق عليه رق قلبه والشفقه من الإشفاق " (٣) ، والخلاف الذي أشار إليه ابن عاشور في تسمية الشفق الأبيض شفقا فصله الرازي (٤)

(١) ابن عاشور التحرير ٢٠٢/٣٠

(٢) ا.د مجيد محمود جراد (٢٠٠٨ - ١٤٢٨) ، المدخل إلى علم الفلك ، ط دار دجلة الأردن والعراق ، ص ١٧٣-١٧٤

(٣) الألوسي ، روح المعاني ٨١/٣٠

(٤) انظر الرازي مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ٣١،٩٩

الفصل الثاني : تفسير آيات الجبال

المبحث الأول : خلق الجبال وحكمته .

المطلب الأول : خلق الجبال ودلالة الألفاظ التي وضعت له .

المطلب الثاني : حكمة خلق الجبال ووظيفتها في حفظ الأرض

المبحث الثاني : مرور الجبال كمر السحاب ودلالته

المبحث الثالث : الجبال وألوانها .

المبحث الأول : خلق الجبال وحكمته .

المطلب الأول : خلق الجبال ودلالة الألفاظ التي وضعت له :

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في معنى إلقاء الرواسي ويبين كيفية خلقها في تفسير قول الله تعالى :

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل] :

" انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان . وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكلمة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض . ولعلّ خلقها كان متأخرا عن خلق الأرض ، إذ لعلّ الجبال انبتقت باضطرابات أرضية كالزلازل العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار . وأما السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر ، فصار خلق هذه الأربعة سببها بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه .

ولعلّ أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح الأرض ، كما أن الأمطار تهطلت فكانت الأنهار؛ فيكون تشبيه حصول هذين بالإلقاء بينا . وإطلاقه على وضع السبل والعلامات تغليب . ومن إطلاق الإلقاء على الإعطاء ونحوه قوله تعالى: { أَلْقَى الذُّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا } [سورة القمر: ٢٥].

و {رَوَاسِيَ} جمع راس. وهو وصف من الرّسوّ بفتح الراء وسكون السين. ويقال بضم الراء والسين مشددة وتشديد الواو. وهو الثبات والتمكن في المكان قال تعالى: {وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} [سبأ: ١٣]. ويطلق على الجبل راس بمنزلة الوصف الغالب. وجمعه على زنة فواعل على خلاف القياس. وهو من النوادر مثل عوائل فوارس . " (١)

ويقول في تفسير إرساء الجبال المذكور في قوله تعالى : ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا﴾ (٣٣) [النازعات] :

" . . . وإرساء الجبال: إثباتها في الأرض، ويقال: رست السفينة، إذا شددت إلى الشاطئ فوقفت

على الأنجر، ويوصف الجبل بالرسو حقيقة كما في "الأساس" . . .
وإثبات الجبال: هو رسوخها بتغلغل صخورها وعروق أشجارها لأنها خلقت ذات صخور سائخة
إلى باطن الأرض ولولا ذلك لزعزعتها الرياح، وخلقت تتخللها الصخور والأشجار ولولا ذلك
لتهيلت أتربتها وزادها في ذلك أنها جعلت أحجامها متناسبة بأن خلقت متسعة القواعد ثم تتصاعد
متضائفة . ومن معنى إرسائها: أنها جعلت منحدره ليتمكن الناس من الصعود فيها بسهولة كما
يتمكن الراكب من ركوب السفينة الراسية ولو كانت في داخل البحر ما تمكن من ركوبها إلا
بمشقة" (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى أنّ خلق الجبال كان متأخرا عن خلق الأرض ، فالجبال انبثقت
باضطرابات أرضية كالزلازل العظيم أو أنه كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح
الأرض . ولكنه لا يقطع بذلك .

وإرساؤها رسوخها بتغلغل صخورها لأنها خلقت ذات صخور سائخة إلى باطن الأرض
ويذكر أيضا أنّ من معاني إرسائها أنها جعلت منحدره ليتمكن الناس من الصعود فيها بسهولة كما
يتمكن الراكب من ركوب السفينة الراسية .

كلام المعاصرين :

لم يحدد ابن عاشور مسافة الارتفاع الذي هو الحد الفاصل لبداية الجبال كما بينه العلم الحديث
الذي يقول : إن الجبل يطلق على المرتفعات أو التلال التي ترتفع بشكل كبير عن الأراضي
حولها وتوجد عادة متصلة وقد تكون منفردة وارتفاعها لا بد ان يبلغ ١٠م وما دونها يسمى تلا
أو ربوة (٢)

أما من حيث بعض الدلالات العلمية لبعض الألفاظ الموضوعه لخلق الجبال في الأرض
كالإرساء والذي يشير للثبات والاستقرار فيبين ابن عاشور من خلال ما مضى أن معنى إضافته
للجبال تظهر بتغلغل صخورها وعروق أشجارها لأنها خلقت ذات صخور سائخة إلى باطن
الأرض ولولا ذلك لزعزعتها الرياح، وخلقت تتخللها الصخور والأشجار . وقد أشار احد
الباحثين إلى وجه آخر في ذلك وهو أن الرّسو يكون لثبات شيء تحته مائع لا صلابة فهو إشارة

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣٠ / ٧٨

(٢) د. العبيدي، الأرض ، مصدر سابق ص ٣٠

إلى ما في داخل الأرض من حمم وصهارات وبالرغم من ذلك فالجبال راسية شامخة^(١) وربما لم يلزم ذلك لأنني لم أجد من أهل اللغة من يشير إلى القيد المذكور في التعريف أقصد قيد وجود المائع تحت ما يرسو كما تبين من كلام ابن فارس عند تفصيل الكلام في معنى الرواسي اللغوي .

أما عن خلق الجبال وكيفيته وموقعه من خلق الأرض والكون ، فالشيخ يشير إلى أن خلقها كان متأخرا عن خلق الأرض ، و يذكر احتمالات في كيفية خلق الجبال ، فهو يحتمل أنها انبثقت باضطرابات أرضية كالزلازل ، أو أن أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح الأرض . وكلام ابن عاشور صحيح إلى حد ما فالعلم الحديث يبين أصل الجبال باختلاف أنواعها فالجبال النارية (البركانية) تتكون بعمليات إلقاء للطفوح البركانية : ذلك أن الغلاف الصخري للأرض يقسم بواسطة عدد من الخسوف الأرضية التي تتراوح أعماقها بين ٦٥ كيلو مترا و ١٥٠ كيلو مترا إلى حوالي الاثني عشر لوحا كبيرا بالإضافة الي عدد أقل من ألواح الغلاف الصخري الصغيرة . ولما كانت هذه الألواح تطفو فوق نطاق لدن، شبه منصهر يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي فإن البراكين تكثر عند الحدود الفاصلة بين تلك الألواح خاصة عند حدود التباعد بينها، ومعظم هذه البراكين تلقي بحممها من أسفل إلى أعلى وتظل تلك الحمم تتراكم فوق بعضها البعض لتكون كتلا جبلية معزولة من الصخور البركانية تصل ارتفاعاتها الي آلاف الأمتار فوق مستوي سطح البحر لأن معظم هذه البراكين يستمر في نشاطه لفترات تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ مليون سنة، وإن كان بعضها قد يستمر نشاطه لأكثر من مائة مليون سنة.^(٢) ولا شك ان هذا من الاضطرابات الأرضية التي اثار إليها الشيخ كسبب من أسباب تشكل الجبال حتى إن الدكتور النجار أشار إلى أن تشكل الجبال هو بسبب الحركات الرأسية أو الأفقية للغلاف الصخري^(٣)

تعقيب :

فاتضح من ذلك صحة كلام ابن عاشور علمياً ، وموافقته لكلام أهل الاختصاص .

(١) د. العبيدي، الأرض ، مصدر سابق ص ٣١ (٣) المرجع نفسه

(٢) د. النجار ، الأرض ، مصدر سابق ٧٥/٣

المطلب الثاني : حكمة خلق الجبال ووظيفتها في حفظ الأرض . . .

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

[النحل] : ويقول ابن عاشور في تفسيرها : " وقوله تعالى: { أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ } تعليل لإلقاء الرواسي في الأرض. والميد: الاضطراب. وضمير { تَمِيدَ } عائد إلى { الأرض } بقرينة قرنه بقوله تعالى: { بِكُمْ }، لأن الميد إذا عدي بالباء علم أن المجرور بالباء هو الشيء المستقر في الظرف المائد، والاضطراب يعطل مصالح الناس ويلحق بهم آلاما. . . وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية معنى غامض. ولعل الله جعل نتوء الجبال على سطح الأرض معدلا لكرويتها بحيث لا تكون بحد من الملاسة يخفف حركتها في الفضاء تخفيفا يوجب شدة اضطرابها. " (١)

ويقول الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ

الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النمل] يقول ابن عاشور في تفسيرها : " والرواسي: الجبال، جمع راس وهو الثابت. واللام في { لَهَا } لام العلة، أي الرواسي لأجلها أي لفائدتها، فإن في تكوين الجبال حكمة لدفع الملاسة عن الأرض ليكون سيرها في الكرة الهوائية معدلا غير شديد السرعة وبذلك دوام سيرها. " (٢)

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ] يقول الشيخ ابن عاشور: ". . . والأوتاد:

جمع وتد بفتح الواو وكسر المثناة الفوقية. والتد: عود غليظ شيئا، أسفله أدق من أعلاه يدق في الأرض لتشد به أطناب الخيمة وللخيمة أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها. والإخبار عن الجبال بأنها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ أي كالأوتاد.

ومناسبة ذكر الجبال دعا إليها ذكر الأرض وتشبيهها بالمهاد الذي يكون داخل البيت فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد كانت الأرض مشبهة بالبيت على طريقة المكنية فشبهت جبال الأرض بأوتاد البيت تخبيلا للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده. وأيضا فإن كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض قد يخطر في الأذهان أنها لا تناسب جعل

(١) ابن عاشور ، التحرير ٩٧ / ١٣

(٢) المرجع نفسه ٢٨٨/١٩

الأرض مهادا فكان تشبيهه الجبال بالأوتاد مستملحا بمنزلة حسن الاعتذار، فيجوز أن تكون الجبال مشبهة بالأوتاد في مجرد الصورة مع هذا التخييل كقولهم: رأيت أسودا غابها الرماح. ويجوز أن تكون الجبال مشبهة بأوتاد الخيمة في أنها تشد الخيمة من أن تقلعها الرياح أو تزلزلها بأن يكون في خلق الجبال للأرض حكمة لتعديل سبوح الأرض في الكرة الهوائية إذ نتو الجبال على الكرة الأرضية يجعلها تكسر تيار الكرة الهوائية المحيطة بالأرض فيعتدل تياره حتى تكون حركة الأرض في كرة الهواء غير سريعة. على أن غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع جمة في الجبال فمنها مسابيل الأدوية، وقرارات المياه في سفوحها، ومراعي أنعامهم، ومستعصمهم في الخوف، ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طرقت العدو. ولذلك كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض. (١)

التحليل :

لقد بين الله تعالى حكمة خلق الجبال في الآيات الماضية بأنه كان لأجل ألا تميد الأرض بنا وبين ابن عاشور بأن المِيد هو الاضطراب من حيث أنها تنقل الأرض وتجعل سبحها في الفلك منتظم ومعنى المِيد عند ابن عاشور لم يخرج عن أقوال المفسرين (٢) وفي الآية الأخيرة شبهها بالأوتاد والشيخ ابن عاشور قد بين وجه الشبه بينهما بأمرين : أولهما : في مجرد الصورة . والثاني : ويجوز أن تكون الجبال مشبهة بأوتاد الخيمة في أنها تشد الخيمة من أن تقلعها الرياح أو تزلزلها بأن يكون في خلق الجبال للأرض حكمة لتعديل سبوح الأرض في الكرة الهوائية. . . ويشير لذلك أيضا بتفسيره للآية الثانية .

كلام المعاصرين :

أما العلم الحديث فبيّن بعض ما ما يتعلّق بتشبيهه الجبال بالأوتاد حيث بيّن الدكتور الفاضل زغلول النجار أنّه : من حيث البروز عن سطح الأرض والرسوخ فيها فالجبال والأوتاد متشابهة ، والأوتاد تختلف فيما بينها من حيث مدى البروز ودرجة الميل والجبال كذلك والأوتاد تختلف رسوخها باختلاف درجة صلابتها وشكلها ومدى تعلق جذورها في الأرض وطبيعة تلك الأرض والجبال كذلك ، والأهم من ذلك أن الأوتاد يجب أن تكون قد تم خرطها وتشكيلها قبل أن تثبت

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣٠ / ١٤

(٢) ابن كثير تفسير القرآن مصدر سابق ٣٤٠ / ٥

في الأرض والجبال كذلك فقد تشكلت أولاً بفعل عوامل التعرية ثم أظهرتها قوى التضاضط الجانبي للقارات القديمة ، والأوتاد لا تتغرس وحدها في الأرض وإنما لا بد من قوة تعمل على تثبيتها وهو ما يحصل بواسطة التثاقل بالضغط الرأسي كما أن تناقص الجبال بفعل عوامل التعرية يشبه تناقص الأوتاد بنفس العوامل مع طول الزمن .^(١) و من أبرز الوجوه أيضاً هو أن الناس يرون الجبال شامخة ويظنون أن هذا الجبل بأكمله لكن القرآن أخبرهم بأن ما تشاهدونه ليس إلا جزء من الجبل والجزء الأكبر هو المغروس في الأرض كحال الوتد فان ما ينغرس في الأرض هو أكثر مما هو ظاهر .

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن عاشور أيضاً في قضية أثر الجبال في حفظ توازن الأرض من أن وجود الجبال تعدل سبج هذه الكرة بنظام دون اضطراب في الفضاء يقول الدكتور منصور محمد : الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ومن المعروف ان أي جسم يعمل حركة مغزلية بدورانه حول محور لا يميل ولا يضطرب إلا اذا كان هناك تماثل في الكتلته حول هذا المحور وحيث ان الأرض لا تميد اثناء دورتها حول محورها بدليل عدم شعورنا بهذا الدوران فانه لا بد ان تكون الجبال موزعة في الأرض بشرط ان تتماثل في الكتلته على جانبي محور الدوران وهذا يتفق تماماً مع معطيات الجيولوجيا كما يقول موريس بوكاي...^(٢) فبان من كل ذلك أن كلام الطاهر ابن عاشور العلمي فيما يتعلق بأثر الجبال في حفظ توازن للأرض كلام صحيح يؤيده العلم الحديث .

على أني أزيد هنا كلاماً آخر للدكتور النجار يبين فيه وجهاً آخر في أثر الجبال الإيجابي على الكرة الأرضية وهو أن الغلاف الصخري للأرض ممزق بشبكة هائلة من الصدوع المزدوجة العميقة (الأغوار) الى عدد ممن الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق لدن شبه منصهر عالي الكثافة عالي اللزوجة وان الواح الغلاف الصخري للأرض تنزلق فوق هذا النطاق متباعدة او مصطدمة عن بعضها البعض وان هذه الحركة السريعة لا يبطنى من عنفها إلا تكون الجبال^(٣)

تعقيب :

كلام ابن عاشور في حكمة خلق الجبال كلام صحيح علمياً ، إلا أن العلم الحديث زاد بعض الأمور عليه وهذا لا ينقص من قيمته .

(١) د. النجار ، الأرض ، مصدر سابق ٢٧ (٢) د. منصور ، محمد ، الكون والإعجاز ، مصدر سابق ١٧٣
(٣) د. النجار، زغلول(٢٠٠٧م) ، من آيات الإعجاز العلمي للقرآن (المفهوم العلمي للجبال في القرآن) ط٢ ٣ / ١١٤-١١٥ ، مكتبة الشروق

المبحث الثاني : مرور الجبال كمر السحاب ودلالته

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ [النمل] : بعد ربط الآية بسياقها في آخر سورة النمل يبين ابن عاشور أن الآية

تتضمن إعجازا علمياً بديعاً فيقول في بيان هذا الإعجاز :

" . . . هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة. وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزة من الجانب العلمي يدركها أهل العلم، كما كان معجزة للبلغاء من جانبه النظمي كما قدمناه في الجهة الثانية من المقدمة العاشرة. فإن الناس كانوا يحسبون أن الشمس تدور حول الأرض فينشأ من دورانها نظام الليل والنهار، ويحسبون الأرض ساكنة. واهتدى بعض علماء اليونان إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضية تقريبا وضياء النصف الآخر وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار، ولكنها كانت نظرية مرموقة بالنقد وإنما كان الدال عليها قاعدة أن الجرم الأصغر أولى بالتحرك حول الجرم الأكبر المرتبط بسيره وهي علة اقناعية لأن الحركة مختلفة المدارات فلا مانع من أن يكون المتحرك الأصغر حول الأكبر في رأي العين وضبط الحساب وما تحققت هذه النظرية إلا في القرآن السابع عشر بواسطة الرياضي "غاليلي" الإيطالي . والقرآن يدمج في ضمن دلالة الجملة وعقب دليل تكوين النور والظلمة دليلا رمز إليه رمزا، فلم يتناوله المفسرون أو تسمع لهم ركزا. وإنما ناط دلالة تحرك الأرض بتحريك الجبال منها لأن الجبال هي الأجزاء النابتة من الكرة الأرضية فظهور تحرك ظلها متناقصة قبل الزوال إلى منتهى نقصها، ثم أخذة في الزيادة بعد الزوال. ومشاهدة تحرك تلك الظلال تحركا يحاكي دبيب النمل أشد وضوحا للراصد، وكذلك ظهور تحرك قممها أمام قرص الشمس في الصباح والمساء أظهر ."^(١)

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣١٩/١٩

ثم لفت ابن عاشور الأنظار إلى سرّ الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم (وترى) دون أن يكون للأمة بضمير الغائب أو غيرها من الألفاظ كغيرها من الآيات كقوله تعالى: "

﴿الْمَرِيضُونَ أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنْوا فِيهِ﴾ [النمل: ٨٦] فقال: " والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم

تعلّما له لمعنى يدرك هو كنهه ولذلك خص الخطاب به ولم يعمم كما عمم قوله {الْمَرِيضُونَ أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنْوا فِيهِ} [النمل: ٨٦] في هذا الخطاب، وادخار لعلماء أمته الذين يأتون في وقت ظهور هذه الحقيقة الدقيقة. فالنبي صلى الله عليه وسلم أطلع الله على هذا السر العجيب في نظام الأرض كما أطلع إبراهيم عليه السلام على كيفية إحياء الموتى، اختص الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعلم ذلك في وقته وائتمنه على علمه بهذا السر العجيب في قرآنه ولم يأمره بتبليغه إذ لا يتعلق بعلمه للناس مصلحة حينئذ حتى إذا كشف العلم عنه من نقابه وجد أهل القرآن ذلك حقا في كتابه، فاستلوا سيف الحجة به وكان في قرابه. . . " (١)

ثم يفسر باقي الآية ويقدم الدلائل على أن الآية متعلقة بالدنيا لا بالآخرة فيقول: " وقوله {وهي تمر} الذي هو بمعنى السير {مَرَّ السَّحَابِ} أي مرا واضحا لكنه لا يبين من أول وهلة. وقوله بعد ذلك كله {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَثَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} {المقتضي أنه اعتبار بحالة نظامها المألوف لا بحالة انخرام النظام لأن خرم النظام لا يناسب وصفه بالصنع المتقن ولكنه يوصف بالأمر العظيم أو نحو ذلك من أحوال الآخرة التي لا تدخل تحت التصور.

و {مَرَّ السَّحَابِ} مصدر مبين لنوع مرور الجبال، أي مرورا تنتقل به من جهة إلى جهة مع أن الرائي يخالها ثابتة في مكانها كما يخال ناظر السحاب الذي يعم الأفق أنه مستقر وهو ينتقل من صوب ويمطر من مكان إلى آخر فلا يشعر به الناظر إلا وقد غاب عنه. . . . وانتصب قوله {صُنِعَ اللَّهُ} على المصدرية مؤكدا لمضمون جملة {تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ} بتقدير: صنع الله ذلك صنعا. وهذا تمجيد لهذا النظام العجيب إذ تتحرك الأجسام العظيمة مسافات شاسعة والناس يحسبونها قارة ثابتة وهي تتحرك بهم ولا يشعرون. " (٢)

التحليل:

يشير الشيخ فيما مضى إلى أن دلالة مرور الجبال في الآية تشير إلى مبدأ وحقيقة دوران الأرض حول الشمس وأنّ هذا لم يكتشف الا حديثا وهذا الأمر منطقي انطلاقا من أن الجرم

(١) ابن عاشور، التحرير، ١٩/٣١٩

(٢) المرجع نفسه ١٩/٣١٩-٣٢٠

الأصغر أولى بالدوران حول الأجرام الأكبر فالأرض هي التي تدور حول الشمس لا العكس كما كان معتقد سابقا ويشير إلى أن هذا الأمر يعد من قبيل المعجزات العلمية التي أشار إليها في المقدمة العاشرة .

والشيخ لفت الأنظار إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلع الله على هذا السر العجيب في نظام الأرض كما أطلع إبراهيم عليه السلام على كيفية إحياء الموتى، اختص الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعلم ذلك في وقته وائتمنه على علمه بهذا السر العجيب في قرآنه ولم يأمره بتبليغه إذ لا يتعلق بعلمه للناس مصلحة حينئذ حتى إذا كشف العلم عنه من نقابه وجد أهل القرآن ذلك حقا في كتابه .

كلام المعاصرين :

يشير ابن عاشور من خلال كلامه السابق إلى أن الآية تدل على دوران الأرض وحركتها وفي الحقيقة هذا الكلام صحيح علميا حيث أن الجبال بالرغم من ثقلها بوجود المعادن الثقيلة في داخلها تدور وتتحرك مع الأرض التي هي جزء منها .^(١)

شواهد أخرى :

بهذا التفسير تكون الآية متعلقة بالدنيا لا بالآخرة وهو ظاهر الآية بالفعل المضارع (تَمُرُّ) يقول القاسمي : " فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها في هذه النشأة. و لا يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام." ^(٢)

وفي قضية خصوص الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم التي لفت إليها ابن عاشور فإنّ المفسرين قد بين بعضهم أنّ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو كل من يصلح للرؤية .^(٣) وبهذا لا يكون الخطاب خاصّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم كما قال ابن عاشور ، وهو الراجح وهناك أمر آخر وهو كيف يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتمان ذلك وعدم تبليغه؟ وهل هناك أمر آخر أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم تبليغه؟ فالظاهر بُعد ما قاله ابن عاشور والله أعلم .

تعقيب :

لقد كان كلام ابن عاشور صحيح علميًا .

(١) د.خالد العبيدي ، الأرض مصدر سابق ٣٠

(٢) القاسمي محاسن التأويل ، مصدر سابق ٥١٠/٧

(٣) الشوكاني ، محمد بن علي(١٤١٤) ، فتح القدير ، ط ١ ١٧٨/٤ دار الكلم الطيب وابن كثير-دمشق ، بيروت

المبحث الثالث : ألوان الجبال .

كلام ابن عاشور :

يقول الله جل ثناؤه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ

جُدُدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر] : يقول ابن عاشور في تفسيرها :

" . . . { من } تبعية على معنى: وبعض تراب (١) الجبال جدد، ففي الجبل الواحد توجد جدد مختلفة، وقد يكون بعض الجدد بعضها في بعض الجبال وبعض آخر في بعض آخر.

و { جُدُدٌ } : جمع جدة بضم الجيم، وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه. يقال للخطة السوداء التي على ظهر الحمار جدة، وللظبي جدتان مسكيتا اللون تفصلان بين لوني ظهره وبطنه، والجدد البيض التي في الجبال هي ما كانت صخورا بيضاء مثل المروة، أو كانت تقرب من البياض فإن من التراب ما يصبر في لون الأصب (٢) فيقال: تراب أبيض، ولا يعنون أنه أبيض كالجير والجص بل يعنون أنه مخالف لغالب ألوان التراب، والجدد الحمر هي ذات الحجارة الحمراء في الجبال. و { غَرَابِيبُ } : جمع غريب، والغريب: اسم الشيء الأسود الحالك سواده . . . فالغريب يدل على أشد من معنى أسود، " (٣)

كلام المعاصرين :

الشيخ ابن عاشور قد أصاب في التعريف بالجدد، ولكنه لم يبين أصل اختلاف ألوان تلك الجدد التي يبينها الدكتور النجار بقوله :

" . . . إن الجدد التي تتداخل في صخور الجبال هي في الأصل من الصخور النارية، وأن أفضل تصنيف لتلك الصخور هو التصنيف القائم على أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس على ألوانها على النحو التالي :

(١) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر وهي الصخور الحامضية وفوق الحامضية وتشمل عائلة الصخور الجرانيتية (الرايولايت - الجرانيت).

(١) تعبير التراب خطأ هنا فالجبل يحتوي على الجدد التي هي طبقات ولا تكون بالعادة ترابية بل صخرية على اختلاف درجات قساوتها .

(٢) في الطبعة التونسية (الأصب) وهو الصحيح ، قال ابن سيده في المخصص : "الذي تخطت بياضه حُمْرَة"

(٢) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر من جهة والألوان الداكنة من جهة أخرى، ولذا يغلب عليها الألوان الرمادية، وهي الصخور الموصوفة بالوسطية (بين الصخور الحامضية وفوق الحامضية من جهة، والصخور القاعدية وفوق القاعدية من جهة أخرى) وتضم عائلة الصخور الدايورائيتية (الانديزائيت - ديورايت)، وتقع تحت الوصف القرآني: مختلف ألوانها..

(٣) صخور تميل ألوانها إلى الدكنة حتى السواد وهي الصخور القاعدية وفوق القاعدية، وتشمل عائلتي الجابرو (البازلت - الجابرو) والبريدوتايت. (١)

شواهد أخرى :

إن معنى الجدد في اللغة : الخِطُّ والطَّرُق تكون في الجبال خِطُّ بيض وسود وحممر كالطَّرُق واحدها جُدَّة (٢) ، وهذا ما أشار إليه ابن عاشور ، ثم بين أن المعنى: وبعض تراب الجبال جدد، ففي الجبل الواحد توجد جدد مختلفة، وقد يكون بعض الجدد بعضها في بعض الجبال وبعض آخر في بعض آخر. فهو إشارة إلى ألوان الجدد التي يتكون منها الجبل الواحد التي هي بيضاء او حمراء او بينها.

والشيخ ابن عاشور أصاب في التعريف بالجدد اللغوي والعلمي ووافق كلام المفسرين يقول القرطبي : " الجدد جمع جدة، وهي الطرائق المختلفة الالوان، وإن كان الجميع حجرا أو ترابا. . قال تعالى: " ومن الجبال جدد بيض وحممر مختلف ألوانها " أي طرائق تخالف لون الجبل. ومنه قولهم : . . . كساء مجدد: فيه خطوط مختلفة. " (٣)

تعقيب :

لقد تبين أن كلام ابن عاشور صحيح لغة وعلما حيث وافق العلم الحديث إلا أنه لم يبيّن سبب اختلاف الجُدد كما فصله المختصون بذلك .

(١) د. النجار ، الأرض ، ٣٣٤

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ١٠٧/٣

(٣) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٣٤٢/١٤

الفصل الثالث : تفسير آيات البحار

المبحث الأول : تسخير البحر للناس ومظاهره

المطلب الأول : تكوين البحار وفوائده .

المطلب الثاني : الحلية واللحم الطري .

المبحث الثاني : أمواج البحر وظلماته

المبحث الثالث : البرازخ المائية .

المبحث الرابع : البحر المسجور.

المبحث الأول : تسخير البحر للناس ومظاهره

المطلب الأول : تكوين البحار وفوائده

كلام ابن عاشور :

بين الطاهر ابن عاشور بعض القضايا العلمية في ثنايا تفسيره لآيات البحار في أكثر من موضع من كتابه " التحرير والتنوير " ومن ذلك أنه بين كيف سخر الله تعالى الفلك للناس وسخر للفلك الرياح فقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْبُلِّ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ [البقرة] :

وَأَلْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴿١٦٦﴾ [البقرة] :

" . . . فأما جريها في البحر- الفلك - فهو يتضمن آيتين، إحداهما آية خلق البحر الذي تجري فيه الفلك خلفا عجيبا عظيما إذ كان ماءً غامراً لأكثر الكرة الأرضية وما فيه من مخلوقات وما رُكب في مائه من الأملاح والعقاقير الكيماوية ليكون غير متعفن بل بالعكس يخرج للهواء أجزاء نافعة للأحياء على الأرض، والثانية آية سير السفن فيه وهو ماء من شأنه أن يتعذر المشي عليه فجرى السفن آية من آيات إلهام الله تعالى للإنسان للتفطن لهذا التسخير العجيب الذي استطاع به أن يسلك البحر كما يمشي في الأرض . . . " (١)

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن دور الرياح في جري الفلك فيقول : " ثم إن الله تعالى سخر للفلك الرياح الدورية وهي رياح تهب في الصباح إلى جهة وفي المساء إلى جهة في السواحل تنشأ عن إحماء أشعة الشمس في رابعة النهار الهواء الذي في البر حتى يخف الهواء فيأتي هواء من جهة البحر ليخلف ذلك الهواء البري الذي تصاعد فتحدث ريح رخاء من جهة البحر ويقع عكس ذلك بعد الغروب فتأتي ريح من جهة البر إلى البحر، وهذه الريح ينتفع بها الصيادون والتجار وهي تكون أكثر انتظاما في مواقع منها في مواقع أخرى . وسخر للفلك رياحا موسمية وهي تهب إلى جهة واحدة في أشهر من السنة وإلى عكسها في أشهر أخرى تحدث من اتجاه حرارة أشعة الشمس على الأماكن الواقعة بين مدار السرطان ومدار الجدي من الكرة الأرضية عند انتقال الشمس من خط الاستواء إلى جهة مدار السرطان

وإلى جهة مدار الجدي، فتحدث هاته الرّيح مرتين في السنة وهي كثيرة في شطوط اليمن وحضرموت والبحر الهندي وتسمى الرّيح التجارية . . . " (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور فيما مضى إلى أنّ البحر قد خلق خلقاً عجيباً فهو غامر لأكثر الكرة الأرضية وفيه مخلوقات وأملاح وعقاقير كيميائية . . . وهو يخرج للناس هواءً نافعاً . ثمّ بيّن أنّ سير السفن هو آية من آيات إلهام الله تعالى للبشر فهو ماء من شأنه أن يتعذر المشي عليه فكيف تجري فيه السفن . ثمّ بيّن أثر الرياح على جري السفن وأنواع تلك الرياح دورية وموسمية . . .

كلام المعاصرين :

يشير ابن عاشور فيما مضى إلى أنّ البحر قد خلق خلقاً عجيباً فهو غامر لأكثر الكرة الأرضية وفيه مخلوقات وأملاح وعقاقير كيميائية . . . وهذا الكلام صحيح و دقيق ؛ فالكرة الأرضية تحوي ٧٥-٨٠% ماءً من سطح الأرض ، ولهذه النسبة أثرها في بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت ويصونها من التقلبات الشديدة .. ثم من مظاهر التسخير طفو الجليد على الماء لا غوصه بداخله فيكون طبقة عازلة تحفظ حرارة الماء الذي تحتها فوق درجة التجمد مما يحفظ حياة الكائنات البحرية (٢)

أما ما يتعلق بإخراج البحار للهواء أجزاء نافعة فينقل سيد قطب عن أحد العلماء المختصين في بيان هذه الحقيقة قوله : « وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور ومعظمها سام فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ، ودون تغيير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء أي المحيط الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيراً الإنسان نفسه . » (٣)

وكذلك القول في إشارة ابن عاشور لاحتواء البحار على الأملاح النافعة والعقاقير الكيميائية فهذا الكلام صحيح علمياً فالبحار تمتلئ بثروات عديدة فهي مصدر للأملاح مثل ملح

(١) ابن عاشور التحرير ٧٩/٢ - ٨٠

(٢) د. العبيدي ، المنظار الهندسي ، مصدر سابق ٥٨٦

(٣) سيد قطب في ظلال القرآن، مصدر سابق ٤ / ١٨٧

الطعام .. وحدث عن فوائده.. وملح كلوريد وكبريتات الصوديوم الذي يمدنا بعنصر المغنيسيوم الهام في صناعة الطائرات لخفته وصلابته ولعمل القنابل المضيفة المستخدمة في كشف المواقع ..وألاح اليود والبروم الهامة في صناعة الأدوية والصبغات وألاح الفسفور والنيتروجين التي تمتصها البلاستيكون "كائنات بحرية نباتية " الذي يتغذى عليه السمك ... ويجري التفكير حاليا حول استغلال طاقة الأمواج التي تعادل ضربتها حوالي ٢٠ طن أو أكثر للمتر المربع لاستخدامها في توليد الكهرباء ..أضف لهذا وذلك تحلية مياه البحار واستخدامها في شتى شؤون الحياة (١) . فكلام ابن عاشور العلمي قد تبينت دقته وصحته .

والشيخ يبين قضية أخرى وهي علاقة الرياح بالفلك وأصناف هذه الرياح كما مر بيانه ؛ وأقول : لا شك أن للهواء تأثيراً على سير الفلك حيث يقول تعالى : {حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ

وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس] وكلام الشيخ عن التيارات الهوائية كلام دقيق ينبئ عن معرفته العلمية فالعلم الحديث يوافق كلامه تماما ، يقول الدكتور العبيدي : " إن تكوين ونشوء رياح متعددة يتعلق بظاهرة دورية ترتبط بدوران الأرض حول محورها وحول الشمس وكذلك نوعية التضاريس الأرضية والرياح المتولدة بهذه الطريقة تحدث بانتظام وتؤخذ بنظر الاعتبار في الحسابات وعموما فإن الهواء في المناطق الاستوائية يسخن و يتصاعد بسبب تدفق الهواء في المناطق الخالية . والرياح الناتجة من هذه الظاهرة تسمى الرياح التجارية ومعدل سرعتها يتراوح بين ٦-٨ م بالثانية باتجاه الشمال الشرقي في نصف الكرة الشمالي وبتجاه الجنوب الغربي في نصف الكرة الجنوبي والرياح الغربية عادة أساسية في خطوط العرض الأساسية للكرة الأرضية وهناك رياح محلية قليلة التأثير وحسب المنطقة... وهناك رياح موسمية أيضا هي نوع من أنواع الرياح تتكون بفعل تغير حرارة الهواء فوق المحيط وفوق اليابسة وخصوصا الساحل الجنوبي لقارة آسيا ، وهي في الشتاء تندفع من اليابسة إلى المحيط وفي الصيف تتحرك بالعكس من المحيط البارد إلى اليابسة الحارة وتجلب معها الرطوبة والأمطار إلا أن سرعتها ليست قوية " (٢)

(١) منصور ، الكون ، مصدر سابق ١٧٩-١٨٠

(٢) د. العبيدي ، المنظار الهندسي ، مصدر سابق ٣١١

وجري الفلك في البحر وتسخيره لحملها هي آية من آيات الله تعالى قد بُحِثت في العلم الحديث من وجوه أخرى فلو تأملنا ظاهرة الطفو وكيف تطفو السفن على الماء لعجبنا فالقانون يقتضي ألا يغوص من السفينة إلا ما يكفي لإزاحة قدر من الماء وزنه مثل وزن السفينة وحمولتها فإذا زادت الحمولة غاص من السفينة جزء جديد وإذا نقصت الحمولة نقص الغاطس منها ولولا سنة الله تعالى في طفو الأجسام ما كان هناك للسفن هندسة ولا صناعة^(١) . ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى : والفلك تجري في البحر وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والرياح والأرض والسماء . فخلقة هذه الخلائق بخواصها هذه هي التي جعلت الفلك تجري في البحر ولا تغطس أو تقف . ولو اختلفت تلك الخواص أي اختلال ما جرت الفلك في البحر . لو اختلفت كثافة الماء أو كثافة مادة الفلك . لو اختلفت نسبة ضغط الهواء على سطح البحر . لو اختلفت التيارات المائية والهوائية . لو اختلفت درجة الحرارة عن الحد الذي يبقي الماء ماء ، ويبقي تيارات الماء والهواء في الحدود المناسبة . لو اختلفت نسبة واحدة أي اختلال ما جرت الفلك في الماء ، وبعد ذلك كله يبقى أن الله هو حارس الفلك وحاميتها فوق ثبح الأمواج وسط العواصف والأنواء ، حيث لا عاصم لها إلا الله . فهي تجري بنعمة الله وفضله على كل حال . ثم هي تجري حاملة نعمة الله وفضله كذلك .^(٢)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور كلام موافق للمفسرين وموافق للعلوم الحديثة التي فصلت بعض ما أجمله ابن عاشور في كلامه العلمي .

(١) منصور ، الكون ، مصدر سابق ١٨٠

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن، مصدر سابق ٢٧٩٧ / ٥

المطلب الثاني : استخراج الحلية واللحم الطري

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ [النحل]

يقول ابن عاشور في تفسيرها : " ومن تسخير البحر خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين. وزيد في الامتنان أن لحم صيده طري . . . والطري : ضد اليابس. والمصدر: الطراوة. وفعله: طرو، بوزن خشن . والحلية: ما يتحلى به الناس، أي يتزينون . . . وذلك اللؤلؤ والمرجان؛ فاللؤلؤ يوجد في بعض البحار مثل الخليج الفارسي، والمرجان؛ يوجد في جميع البحار ويكثر ويقل. " (١)

ويعرف ابن عاشور باللؤلؤ في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ [الحج] فيقول : " إنه الدر. ويقال له الجمان والجوهر. ويذكر ماهيته بأنه حبوب

بيضاء وصفراء ذات بريق رقيق تستخرج من أجواف حيوان مائي حلزوني (٢) مستقر في غلاف ذي دفتين مغلقتين عليه يفتحهما بحركة حيوية منه لامتصاص الماء الذي يسبح فيه ويسمى غلافه صدفا، فتوجد في جوف الحيوان حبة ذات بريق وهي تتفاوت بالكبر والصغر وبصفاء اللون وبياضه. وهذا الحيوان يوجد في عدة بحار : كبحر العجم وهو المسمى بالبحرين ، وبحر الجابون، وشط جزيرة جربة من البلاد التونسية ، وأجوده وأحسنه الذي يوجد منه في البحرين حيث مصب نهري الدجلة والفرات، ويستخرجه غواصون مدربون على التقاطه من قعر البحر بالغوص، يغوص الغائص مشدودا بحبل بيد من يمسكه على السفينة وينتشله بعد لحظة تكفيه لالتقاط. " (٣)

(١) ابن عاشور التحرير ٩٥/١٣

(٢) الأصح علميا أنه صدفي لا حلزوني كما سيتبين

(٣) المرجع نفسه ١٦٨/١٧

ويبين ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَنْهَمَا بَرْحٌ لَا بِيَعْيَانِ ﴿٢٠﴾

فِي آيَةِ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ [الرحمن] أن المراد بالبحرين إما بحرين معروفين من البحار الملحة فاللؤلؤ والمرجان يكونان في البحر الملح. أو أن المراد البحر الملح، والبحر العذب ثم يعرف باللؤلؤ والمرجان وأماكن وجودهما فيقول : " أما اللؤلؤ فأجوده ما كان في مصب الفرات على خليج فارس، قال الرماني: لما كان الماء العذب كاللقاح للماء الملح في إخراج اللؤلؤ، قيل: يخرج منهما كما يقال: يتخلق الولد من الذكر والأنثى . . . وقال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما وهو كقوله تعالى {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} [نوح: ١٥، ١٦]، والقمر في السماء الدنيا. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب حذف المضاف، أي من أحدهما كقوله تعالى {عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْئِينَ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١] أي من أحدهما.

و {المرجان} : حيوان بحري ذو أصابع ، ينشأ لنا ثم يتحجر ويتلون بلون الحمره ويتصلب كلما طال مكثه في البحر فيستخرج منه كالعروق تتخذ منه حلية ويسمى بالفارسية بسذ. وقد تتفاوت البحار في الجيد من مرجانها. ويوجد ببحر طبرقة على البحر المتوسط في شمال البلاد التونسية. و {المرجان} : لا يخرج من ملتقى البحرين الملح والعذب بل من البحر الملح. وقيل: المرجان أصغر لصغار الدر، واللؤلؤ كباره فلا إشكال في قوله منهما^(١).

التحليل :

يبين ابن عاشور في الآيات السابقة أن الحلية هي اللؤلؤ والمرجان ويعرف بهما – كما مر - وبيّن أن مكان وجودهما في البحر الملح، والبحر العذب ويسمى بعض البحار التي يكثران فيها .

كلام المعاصرين :

تعريف ابن عاشور السابق باللؤلؤ والمرجان هو تعريف علمي دقيق والعلم كذلك يقول في أصل اللؤلؤ أنه حيوان عجيب الخلقة إذ يتقي بصدفته الجيرية من الأخطار وله شبكة دقيقة كمصفاة تسمح بدخول الماء والغذاء والهواء إلى جوفه وتمنع الرمال والحصى وتحت الشبكة

يكون فمه المكون من اربع شفاه فإذا دخلت ذرة رمل أو أي جسم أفرز مادة لزجة يغطيها ثم تتجمد مكونة اللؤلؤ . (١)

أما عن مكان خروجهما فابن عاشور يذكر احتمالات لكن لا يمكن أن نقول أن خروج الحلية من البحر المالح (٢) فهذا الكلام غير دقيق بدلالة "ومن كل" في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي

الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَبَنَعًا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ [فاطر]: والعلم الحديث أثبت

عكس ما كان معروفًا ومقتصرًا عليه من أن الحلية هي من البحر الأجاج فقط فاللؤلؤ كما يستخرج من أنواع معينة من البحار يستخرج أيضا من أنواع معينة من الأنهار فلعل الإشارة بالآية السابقة ب"هذا عذب فرات" الأنهار وب"هذا ملح أجاج" إلى البحار ، فقد اكتشف العلم الحديث استخراج اللؤلؤ في المياه العذبة في إنجلترا واسكتلندا وتشيكوسلوفاكيا واليابان بالإضافة إلى مصائد اللؤلؤ البحرية المشهورة . (٣)

فإلى الآن تظهر صحة كلام ابن عاشور ودقته العلمية ، لكننا إذا ما انتقلنا للجانب الغذائي فابن عاشور لم يتكلم كلاما علميا في هذا الجانب ، لكن الدراسات المعاصرة تشير إلى احتواء البحر تقريبا عشرين ألف نوع من الأحياء تقريبا (٤) تتفاوت في أحجامها ووظائفها وأنواعها وسبحان الذي سخر لنا البحر لناكل منه لحما طريا فلو لم يكن البحر بخصائصه الحالية لما استقامت به الكائنات التي تمثل غذاء للبشر لو لم يكن بملوحته المعروفة لو لم تكن ظاهرة طفو الجليد فوق سطحه لما عاشت الأسماك . هذا اللحم الطري ما علينا سوى استخراجة لا أن نرعاه ونرعى تكاثره ونربيه فانه تعالى هو الملمه له. (٥)

(١) رجا ، غالب محمد (٢٠٠٣م) ، الماء في القرآن الكريم ، ط١ ص١٣٤ ، دار الزمان ، المدينة النورة

(٢) ربما يفهم من بعض كلام ابن عاشور ، انظر التحرير ٥٨-٥٧/٧

(٣) إبراهيم حسن ظواهر جغرافية ، مصدر سابق ٢١١

(٤) الماء في القرآن ، مصدر سابق ١٣١

(٥) انظر ، إبراهيم ، ظواهر جغرافية ، مصدر سابق ٢١٠-٢٠٦

شواهد أخرى :

وبعد ؛ فتمثل الحلية الموارد المالية والمواد الخام واللحم الطري الموارد الغذائية وهو من مظاهر تسخير البحر للناس فهناك موارد مالية وأخرى غذائية للبحر . أما عن المالية فهي إشارة القرآن إلى أن من البحر تستخرج الحلية والحلية هي المفسرة باللؤلؤ والمرجان ، وتعريف ابن عاشور السابق بهما هو تعريف علمي دقيق ، وقد جاء سيد قطب بكلام قريب منه إذ يقول : " والحلية من اللؤلؤ والمرجان . واللؤلؤ يوجد في أنواع القواقع يتكون في أجسامها نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء ، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب ، كي لا يؤذي جسم القوقعة الرخو . وبعد زمن معين يتصلب هذا الإفراز ، ويتحول إلى لؤلؤة! والمرجان ... يعيش ويكون شعاباً مرجانية تمتد في البحر أحياناً عدة أميال ، وتتكاثر حتى تصبح خطراً على الملاحه في بعض الأحيان؛ وخطراً على كل حي يقع في برائنها! وهو يقطع بطرق خاصة وتتخذ منه الحلى! (١) "

تعقيب :

كلام ابن عاشور فيما يتعلق بالحلية من مرجان ولؤلؤ صحيح علمياً ودقيق إلا أنه لم يتحدث عن الجانب الغذائي .

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مصدر سابق ٥ / ٢٩٣٤

المبحث الثاني : أمواج البحر وظلماته

كلام ابن عاشور :

و يقول الله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ

بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ، لَمْ يَكْدِ بِرَيْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٤﴾ [النور] :

يقول ابن عاشور في تفسيرها : " واللجي منسوب إلى اللجة، واللج: هو معظم البحر، أي في بحر عميق . . . والموجة: مقدار يتصاعد من ماء البحر أو النهر عن سطح مائه بسبب اضطراب في سطحه بهبوب ريح من جانبه يدفعه إلى الشاطئ. وأصله مصدر: ماج البحر، أي اضطرب وسمي به ما ينشأ عنه. ومعنى {مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ} أن الموج لا يتكسر حتى يلحقه موج آخر من فوقه وذلك أبقى لظلمته. والسحاب تقدم في سورة الرعد. والسحاب يزيد الظلمة إظلاما... وقوله: {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} استئناف. والتقدير: هي ظلمات. والمراد بالظلمات التي هنا غير المراد بقوله: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ} لأن الجمع هنا جمع أنواع وهناك جمع أفراد من نوع واحد. (١)

تحليل:

يشير الشيخ ابن عاشور إلى أن المقصود بالأمواج في الآية الأخيرة هي الأمواج المتتابعة بحيث أن الموج لا ينتهي حتى يكون هناك موج آخر خلفه ويبين أن الأمواج نتيجة تدفق الهواء وتأثيره على المياه .

وأقول : إن الآية تشير إلى دلالات محكمة ؛ حيث ذكرت الآية موجين أحدهما فوق الآخر لا خلفه كما قال الطاهر رحمه الله تعالى ، ثم ذكرت أن وجود تلك الأمواج مع وجود السحاب تقع ضمن نطاق بحر وصف باللجي ، والطاهر يبين أنه البحر الواسع .

كلام المعاصرين :

العلم الحديث يكتشف بعض الحقائق العلمية المؤيدة لهذه الدلالات التي جاءت بها الآية وهي أن هناك أمواج عميقة تقع تحت الأمواج السطحية ، وأن هذه الأمواج لا توجد إلا في البحار اللحية العميقة ، وأن المناخ في تلك المناطق ملبد بالغيوم والسحب بشكل دائم . وأن كل ذلك يسبب الظلمة في تلك البحار .

وتفصيل ذلك أنه اكتشف في عام ١٩٠٠ أن هناك أمواجا داخلية تقع في المحيطات وقد صورت في عام ١٩٧٣ بواسطة الأقمار الصناعية ويبلغ طولها حوالي ١٠ كم وسمكها آلاف الأمتار والمسافة بين الموجة السحيقة والأخرى المجاورة لها في الأعماق ٣-٤ كم والعجيب أن هذا كله في البحار المظلمة وهي المحيطات والأعجب أن الظلمة تبدأ بعد حوالي ٢٠٠ م فقط وكلما ازداد العمق ازدادت الظلمة حيث تصبح مطلقة في عمق ١٠٠٠ م حيث يستحيل وصول ضوء الشمس إلى تلك الأعماق بسبب تراكم طبقات المياه والموج الداخلي والخارجي . (١)

تعقيب :

نلاحظ أن كلام المعاصرين كان أدق من كلام ابن عاشور في هذه المسألة .

المبحث الثالث : البرازخ المائية :

كلام ابن عاشور :

يبين ابن عاشور في عدد من الآيات ما يتعلق بقضية البرازخ المائية التي اكتشفها العلم

الحديث فيبين في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۚ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ۝٥٢﴾ [الفرقان] : أن معنى المرج هو الخلط والبحر: الماء

المستبحر، أي الكثير العظيم. والعذاب: الحلو. والفرات: شديد الحلاوة . والملح المالح ، ثم

يبين أنه أريد هنا ملتقى ماء نهري الفرات والدجلة مع ماء بحر خليج العجم . أما البرزخ فيبينه أنه الحائل بين شيئين . والمراد بالبرزخ تشبيه ما في تركيب الماء الملح مما يدفع تخلل الماء

العذب فيه بحيث لا يخلط أحدهما بالآخر ويبقى كلاهما حافظا لطعمه عند المصب. ولفظ " حجرا محجورا " لم يستعمل هنا بمعنى التعوذ^(١) بل للدلالة على تعمق المعنى .^(٢)

ويعرّف بالحاجز وسببه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَافَهَا أَنْهَارًا ۚ وَجَعَلْ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلْ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِأَعْيُنِنَا لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ لِلْأُنثَىٰ إِلَّا لِمَنْ حَمَلَ فِيهَا مَوْلًىٰ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْبَشَرِ خَلَائِفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦١﴾ [النمل] :

فيقول : " وجعل الحاجز بين البحرين من بديع الحكمة، وهو حاجز معنوي حاصل من دفع كلا الماءين: أحدهما الآخر عن الاختلاط به، بسبب تفاوت الثقل النسبي لاختلاف الأجزاء المركب منها الماء المالح والماء العذب. فالحاجز حاجز من طبيعتهما وليس جسما آخر فاصلا بينهما، وتقدم في سورة النحل.

وهذا الجعل كناية عن خلق البحرين أيضا لأن الحجز بينهما يقتضي خلقهما وخلق الملوحة والعذوبة فيهما..^(٣)

(١) يقصد كالذي في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيُقُولُونَ هَذَا جِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢﴾ [الفرقان] [٢٢]

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٧٦ / ١٩

(٣) المرجع نفسه ١٣ / ٢٠

ويزيد ابن عاشور الكلام عن البرازخ المائية وأسبابها في تفسير قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ

يَلْتَقِيَانِ . . . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ وَالْمَرْمَاتُ ﴿٢٢﴾ [الرحمن] : . . . أرسل البحرين لا يحبس ماءهما

عن الجري حاجز. . . يلتقيان: يتصلان بحيث يصب أحدهما في الآخر.

والبحر: الماء الغامر جزءا عظيما من الأرض يطلق على الماء المالح والعذب. والمراد

تثنية نوعي البحر وهما البحر الملح والبحر العذب . . . والتعريف تعريف العهد الجنسي.

فالمقصود ما يعرفه العرب من هذين النوعين وهما نهر الفرات وبحر العجم المسمى اليوم

بالخليج الفارسي^(١). والتقاؤهما انصباب ماء الفرات في الخليج الفارسي. في شاطئ البصرة،

والبلاد التي على الشاطئ العربي من الخليج الفارسي تعرف عند العرب ببلاد البحرين لذلك.

والمراد بالبرزخ الذي بينهما: الفاصل بين المائين الحلو والملح بحيث لا يتغير أحد البحرين

طعم الآخر بجواره. وذلك بما في كل ماء منهما من خصائص تدفع عنه اختلاط الآخر به. وهذا

من مسائل الثقل النوعي. وذكر البرزخ تشبيه بليغ، أي بينهما مثل البرزخ وهو معنى {لا يبغيان}،

أي لا يبغي أحدهما على الآخر، أي لا يغلب عليه فيفسد طعمه فاستعير لهذه الغلبة لفظ البغي

الذي حقيقته الاعتداء والتظلم.

ويجوز أن تكون التثنية تثنية بحرين ملحين معينين، والتعريف حينئذ تعريف العهد

الحضوري، فالمراد: بحران معروفان للعرب. فالأظهر أن المراد: البحر الأحمر الذي عليه

شطوط تهامة مثل: جدة وينبع النخل، وبحر عمان وهو بحر العرب الذي عليه حضرموت

وعدن من بلاد اليمن: والبرزخ: الحاجز الفاصل، والبرزخ الذي بين هذين البحرين هو مضيق

باب المنذب حيث يقع مرسى عدن ومرسى زيلع . . . " ^(٢).

التحليل:

نلاحظ من خلال كل ما سبق أن ابن عاشور يرى أن البرزخ هو برزخ واقع بين البحر

العذب (النهر) وبين البحر المالح أي في مصبات الأنهار بالبحار التي تلتقي فيها ، ويقع كذلك

بين البحار الضخمة ويشير إلى أمثلة على ذلك كمضيق باب المنذب . . .

(١) الأولى بابن عاشور أن يقول الخليج العربي لا الفارسي ، وهو يعيد التسمية نفسها حوالى أربع مرات في

نفس تفسير هذه الآية . وهذا من أخطاء ابن عاشور – رحمه الله-

(٢) ابن عاشور التحرير ٢٧ / ٢٣٢ - ٢٣٤

كلام المعاصرين :

أما عن الحقيقة الأولى وهي وجود البرزخ بين البحرين الملح والعذب يقول الدكتور زكريا هميمي : يؤكد علم البحار حقيقة مهمة وهي أنه ينجم عن التقاء الماء العذب والماء المالح تكون منطقة فاصلة تختلف خصائصها وأبعادها تبعاً لمد البحر وجزره وفيضان النهر وجفافه .. وفي هذه المنطقة تزداد الملوحة كلما اقتربنا من البحر وتزداد درجة العذوبة كلما دلفنا من النهر وهذه المنطقة يطلق عليها البرزخ وهي تحيط بمنطقة المصب ولها سماتها المميزة حتى لو كان النهر يصب في البحر من مكان مرتفع في صورة شلال ... ولا يسمح هذا البرزخ بأن يطغى الماء العذب على الماء المالح أو أن يطغى الماء المالح على العذب ... وقد تأكد العلماء من ذلك من خلال دراسة عينات المياه وتتبع درجات العذوبة والملوحة وقياس درجات الحرارة ومقادير الكثافة فضلاً عن دراسة الكائنات الحية التي تتواجد بمنطقة البرزخ"^(١)

ومن أمثلة ذلك في العالم مثلاً في الخليج العربي ، تندفع الأنهار العذبة قرب دولتي البحرين وقطر في مياه الخليج المالحة دون أن يختلط أحدهما بالآخر وعند ملتقى نهر الكنج والجامونا في مدينة الله أباد يتحد ماء النهرين مع بقاء غشاء التمدد السطحي فاصلاً بينهما طوال مسيرتيهما وكذلك عند تدفق مياه نهر النيل في البحر المتوسط يبدو خط من الماء الحلو يشق طريقه بوضوح وسط مياه البحر المالحة دون أن يختلط بها .^(٢)

ومن العجائب أيضاً التي قالها العلم الحديث هي أن المنطقة البرزخية تختلف في جميع خصائصها حتى في حيواناتها التي تبقى في حجر محجور ، حجر على ما بداخله محجور عما في خارجه حتى أنه لو أراد حيوان أن يخرج من الماء العذب إلى الماء الملح فإنه ينقبض مباشرة ويصبح جافاً ولو أراد آخر أن يخرج من الملح ويدخل في العذب فإنه ينفجر .^(٣)

أما عن القضية الأخرى وهي الحاجز بين البحرين الملحين فكما قيل بالنسبة لالتقاء النهر بالبحر يقال بالنسبة لالتقاء البحار ببعضها فقد توالى دراسات متعددة منذ ١٨٧٣م لدراسة خواص البحار أسفرت نتائجها عن اختلاف خواص البحار من حيث الملوحة والخواص الكيميائية ودرجات الحرارة والكائنات البحرية فيها عن بعضها البعض " ^(٤)

(١) د. هميمي الاعجاز العلمي ، مصدر سابق ٢٠٤

(٢) د. العبيدي المنظار الهندسي ، مصدر سابق ٥٩١

(٣) المرجع نفسه ، وانظر هميمي، الإعجاز العلمي مصدر سابق ٢٠٥

(٤) د. العبيدي المنظار الهندسي ، مصدر سابق ٥٩١ ، وانظر: رجا ، الماء في القرآن، مصدر سابق ١٤٧

شواهد أخرى :

والآن لنأت إلى الأمر الأول وهو تحديد ما المراد من البحرين الذين يكون بينهما البرزخ
أهما البحر العذب " الأنهار " والبحر المالح أم المقصود البحر الملح ونظيره الملح إذا جئنا
للآيات نرى أن آية سورة الفرقان واضحة في أن المراد بالبحرين العذب والمالح فالله تعالى
يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (٥٣)
الفرقان [٥٣] . ولعل هذه الآية هي التي جعلت جل المفسرين يذهب للقول الأول في الآيات
بشكل عام (١)

ولكن هل يستقيم أن النهر هو بحر في اللغة ؟ والجواب : إن ذلك مستقيم وجائز فالأنهار
كلها بحار (٢) : يقول ابن منظور: ... وكلُّ نهرٍ عظيمٍ بحرٌ ، الزجاج : وكلّ نهرٍ لا ينقطع ماؤه
فهو بحر " . (٣)

وبهذا تبين أن الطاهر ابن عاشور يرى أن مما يفسر به هذه الآية أن البحران هما البحر
العذب " النهر " والبحر المالح ورأينا صحة ذلك لغة ، وهو المفهوم أيضا بل المشار إليه في آية
سورة الفرقان بشكل غير قابل للخلاف فيه ، ولكن هل من الممكن أن يراد بالبحرين أيضا
البحرين الملحين ؟

الطاهر ابن عاشور يجيز ذلك كما رأينا ويشير إلى أنهما بحران ملحان معروفان وهما البحر
الأحمر وبحر عمان والبرزخ مضيق باب المنذب
وفي الحقيقة قضية اعتبار البحرين الملحين داخلين في الآيات أرى أنها صحيحة فآية سورة
الرحمن لم تفيد البحرين بالعذب والمالح وكذا آية سورة النمل فلعلهما تشيران لحقيقة أخرى
غير التي تشير إليها آية سورة الفرقان .

تعقيب :

فخرج من كل ذلك بأن ابن عاشور لم يخرج عن اللغة ولم يحمل الآيات ما لم تحتل حيث
فسر أحد البحرين بالنهر ، ثم بين أن البرازخ موجودة بين الأنهار ومصباتها في البحار ،
وموجودة بين البحار والتقائها ببعضها البعض ومثل لذلك ، وهذان الشكلان للبرازخ قد بينهما
العلم الحديث ، ومن جهة أخرى بين أيضا طبيعة هذه البرازخ ووظيفتها وكيفية احتفاظ كل من
البحار بخصائصه . . . كل ذلك يسير وفق القواعد السليمة للمنهج العلمي في التفسير .

(١) ابن كثير تفسير القرآن مصدر سابق ٦،٢٠٣

(٢) ابن فارس مقاييس اللغة مصدر سابق ١٩٦/١

(٣) ابن منظور لسان العرب ، مصدر سابق ٤١/٤

المبحث الرابع : البحر المسجور .

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ [الطور] ويقول ابن عاشور في تفسيرها : "والبحر يجوز أن يراد به البحر المحيط بالكرة الأرضية. وعندني: أن المراد ... البحر الأحمر ومناسبة القسم به أنه أهلك به فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل فلحق بهم فرعون. و {المَسْجُور} قيل المملوء، مشتقا من السجر وهو الملاء والإمداد. فهو صفة كاشفة قصد منها التذكير بحال خلق الله إياه مملوءا ماء دون أن تملأه أودية أو سيول . . . والظاهر عندني: أن وصفه بالمسجور للإيماء إلى الحالة التي كان بها هلاك فرعون بعد أن فرق الله البحر لموسى وبنو إسرائيل ثم أسجره، أي أفاضه على فرعون وملئه. (١)

كلام المعاصرين :

العلم الحديث يكشف عن رأي آخر وهو أن معنى البحر المسجور هو الموقد أو المحمي عليه ، والحقيقة العلمية تتبين لو رجعنا للفصل الأول من هذا الباب وبالتحديد عند وصف الأرض بذات الصدع وقد تبين هناك تفصيل كلام الدكتور الفاضل زغلول النجار في قضية تخلل الغلاف الصخري للأرض بصدوع عظيمة تخرج منها الحمم المنصهرة ذات الدرجات العالية التي تكاد توقد البحر من شدتها ولكن هيهات لا الماء على كثرته قادر على إطفائها ولا الصحارة على درجات حرارتها تبخر الماء بالكامل ، فهما في صراع دائم الى يوم القيامة وهذا الرأي أشار اليه الدكتور النجار (٢)

شواهد أخرى :

يفسر ابن عاشور البحر هنا بجنس البحار أو بالبحر الأحمر ويفسر سجره بامتلائه ، والقول بأن السّجر بمعنى الامتلاء قول روي أثرا واختاره ابن جرير حيث روي عن قتادة أنه المملوء. وقيل عكسه أيضا أي أن المراد به الفارغ ، وروي عن ابن عباس (٣) . وهناك رأي آخر مأثور وهو أن البحار يوم القيامة تسجر نارا وجعلوه كقوله تعالى: { وَإِذَا الْبِحَارُ

(١) ابن عاشور ، التحرير ٥٥/٢٧

(٢) د. النجار ، الأرض ١٩٧-١٩٨

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن ، مصدر سابق ٧،٤٢٩

سُجِّرَتْ { [التكوير: ٦] أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج، محيطية بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب' عن علي بن أبي طالب، ورؤي عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهم. (١) ، ومن الآراء التي رويت أثراً أن معنى البحر المسجور أي المحمى أي الموقد عليه وقد رواه الطبري عن عطيه ومجاهد حيث قالوا : المسجور الموقد (٢).

وبالرجوع للغة يتبين أن لفظة السجر تشير لمعان ذكرها ابن فارس بقوله (سجر) السين والجيم والراء أصولٌ ثلاثة: الملاء، والمخالطة، والإيقاد. فأما الملاء، فمنه البحر المسجور، أي المملوء... وأما المخالطة فالسجير: الصاحب والخليط..... وأما الإيقاد فقولهم : سجرت التَّنُّور، إذا أوقدته (٣) .

وهذا الرأي كاد الطبري أن يرجحه لولا أنه لم يجد أنه مشاهد أو معروف في زمانهم حيث يقول الطبري : " وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: والبحر المملوء المجموع ماؤه بعضه في بعض، وذلك أن الأغلب من معاني السجر: الإيقاد، كما يقال: سجرت التَّنُّور، بمعنى: أوقدت، أو الامتلاء على ما وصفت فإذا كان ذلك الأغلب من معاني السَّجْر، وكان البحر غير مُوقد اليوم ، وكان الله تعالى ذكره قد وصفه بأنه مسجور، فبطل عنده إحدى الصفتين، وهو الإيقاد صحت الصفة الأخرى التي هي له اليوم، وهو الامتلاء، لأنه كلَّ وقت ممتلئ " (٤)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور بالرغم من موافقته للغة والأثر إلا أنّ العلم العلم الحديث جاء بما هو أدق وهذا أيضا غير خارج عن لغة الآية ولا تفسيرها المنقول .

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن ، مصدر سابق ٤٣٠/٧

(٢) الطبري ، جامع البيان ، مصدر سابق ٤٥٨/٢٢

(٣) ابن فارس مقاييس اللغة ، مصدر سابق ١٠٣/٣-١٠٣

(٤) الطبري ، جامع البيان ، مصدر سابق ٤٢٩/ ٢٢

الفصل الرابع : الظواهر الجوية وقضايا المياه

المبحث الأول : تشكل المطر وكيفيته .

المبحث الثاني : ظاهرة الصواعق والبرق والرعد .

المبحث الثالث : الرياح وفوائدها .

المبحث الرابع : السحب وأنواعها .

المبحث الخامس : مصير مياه الأمطار (التبخر ، والمياه الجوفية) .

المبحث الأول : تشكل المطر وكيفيته

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور مبيناً كيفية تشكل المطر في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة] : " واعلم أن

كون الماء نازلاً من السماء هو أن تكونه يكون في طبقات الجو من آثار البخار الذي في الجو فإن الجو ممتلئ دائماً بالأبخرة الصاعدة إليه بواسطة حرارة الشمس من مياه البحار والأنهار ومن نداوة الأرض ومن النبات ولهذا نجد الإناء المملوء ماء فارغاً بعد أيام إذا ترك مكشوفاً للهواء فإذا بلغ البخار أقطار الجو العالية برد ببرودتها وخاصة في فصل الشتاء فإذا برد مال إلى التميع، فيصير سحباً ثم يمكث قليلاً أو كثيراً بحسب التناسب بين برودة الطبقات الجوية والحرارة البخارية فإذا زادت البرودة عليه انقبض السحاب وثقل وتميع فتجتمع فيه الفقائيع^(١) المائية وتثقل عليه فتنزّل مطراً وهو ما أشار له قوله تعالى: ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ﴾ [الرعد]: ١٢]. وكذلك إذا تعرض السحاب للرياح الآتية من جهة البحر وهي ريح ندية ارتفع الهواء إلى أعلى الجو فبرد فصار مائعا وربما كان السحاب قليلاً فساقت إليه الريح سحباً آخر فانضم أحدهما للآخر ونزلا مطراً، ولهذا غلب المطر بعد هبوب الريح البحرية وفي الحديث " إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة " ^(٢). ومن القواعد أن الحرارة وقلة الضغط يزيدان في صعود البخار وفي انبساطه والبرودة وكثرة الضغط يصيران البخار مائعا وقد جرب أن صعود البخار يزداد بقدر قرب الجهة من خط الاستواء وينقص بقدر بعده عنه وإلى بعض هذا يشير ما ورد في الحديث " أن المطر ينزل من صخرة تحت العرش " ^(٣) فإن العرش هو اسم لسماء من السماوات ^(٤) والصخرة تقرب لمكان ذي برودة وقد علمت أن المطر تنشئه البرودة فيتميع السحاب فكانت البرودة هي لقاح المطر. " ^(٥)

(١) لو قال القطيرات لكان أقرب إلى العلم .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ، باب ما جاء في الاستمطار بالنجوم حديث رقم (٦٥٤) ٢/٢٦٩ ، والطبراني في الأوسط ، باب من اسمه محمد برقم (٧٧٥٧) ٧/٣٧١ ، ومعناه : إذا ظهرت سحابة من ناحية البحر «ثم تشاءمت» أي: أخذت نحو الشام شمالاً؛ «عين غديقة» أي: كثيرة الماء .انظر الموطأ ، تحقيق الأعظمي ٢/٢٦٩ .

(٣) الحديث لم أجد له أصلاً في كتب السنن .

(٤) هذا فهم غريب لمعنى العرش ، وقد تمت مناقشة المراد بالسماوات في الباب الأول.

(٥) ابن عاشور ، التحرير ٢/ ٨١ - ٨٣

وحول قضية المطر وتشكله يشير ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿... وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿١٦٤﴾ البقرة [١٦٤] يشير لعبارة علمية فيقول :

" . . . وفي الآية عبرة علمية لمن يجيء من أهل العلم الطبيعي وذلك أن جعل الماء نازلا من السماء يشير إلى أن بخار الماء يصير ماء في الكرة الهوائية عند ما يلامس الطبقة الزمهريرية وهذه الطبقة تصير زمهريرا عندما تقل حرارة أشعة الشمس، ولعل في بعض الأجرام العلوية وخاصة القمر أهوية باردة يحصل بها الزمهرير في ارتفاع الجو فيكون لها أثر في تكوين البرودة في أعلى الجو فأسند إليها بإنزال الماء مجازا عقليا وربما يستروح لهذا بحديث مروى وهو أن المطر ينزل من بحر تحت العرش^(١) أي أن عنصر المائية يتكون هنالك ويصل بالمجاور حتى يبلغ إلى جونا قليل منه فإذا صادفته الأرض تكون من ازدواجها الماء وقد قال تعالى: {وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} [النور: ٤٣]، ولعلها جبال كرة القمر وقد ثبت في الهيئة أن نهار القمر يكون خمسة عشر يوما، وليله كذلك، فيحصل فيه، تغيير عظيم من شدة الحر إلى شدة البرد هي مدة استقباله الأرض أحدث في جو الأرض عنصر البرودة." (٢)

التحليل :

يشير ابن عاشور فيما مضى إلى كيفية تكون المطر الذي يرى انه يتم بمراحل :
المرحلة الأولى : التبخر وهو أول خطوة في عملية تكون المطر وهي تبخر الماء من الأرض من المحيطات والبحار والأنهار بفعل حرارة الشمس
أما المرحلة الثانية من تشكل المطر فقد بينها الشيخ بكلام مفصل يشير فيه إلى مرحلة اشباع الهواء ببخار الماء وتكثفه لينزل مطرا ودور البرودة في طبقات الجو العليا في التكثف وبالتالي نزول المطر .

ومما يشير اليه الشيخ أيضا أن صعود البخار يزداد بقدر قرب الجهة من خط الاستواء

(١) هذا الحديث لم أجد له أصلا بهذا النص ، ولكن جاء في حديث آخر عن وجود بحر تحت العرش أخرجه الترمذي في السنن ، باب ما جاء سورة الحاقة ، رقم (٣٣٢٠) ٤٢٤/٥ بلفظ : «فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةَ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَطْلَافِهِنَّ وَرُكْبِهِنَّ مِثْلَ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ظُهُورِهِنَّ الْعَرْشُ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلَ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، وَاللَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ» وأخرجه ابن ماجه باب فيما أنكرت الجهمية برقم (١٩٣) ٦٩/١ وقال الألباني : ضعيف

(٢) ابن عاشور ٨٣-٨٢/٢

وينقص بقدر بعده عنه ، والشيخ يشير إلى أن الماء من الممكن أن يكون غير نافع للبشر فلا ينزل على الأرض أو ينزل في البحار.. ، وآخر قضية هي إشارة الشيخ إلى إعجاز علمي آخر في الآيات وهو أن كمية أمطار السماء واحدة ولكن المختلف هو التوزيع فقط .

كلام المعاصرين :

قبل البدء بتفسير تكوّن المطر ألفت النظر إلى بعض الأخطاء العلمية التي وقع بها ابن عاشور -رحمه الله تعالى - التي تتلخّص في أنّه عزى البرودة في طبقات الجوّ العليا إلى القمر وفي الحقيقة يعزى سبب ارتفاع درجة حرارة القمر نهائياً وانخفاضها ليلاً بشكل كبير إلى انعدام الغلاف الغازي للقمر لا لغير ذلك .

على أية حال فإنّ ابن عاشور يشير فيما مضى إلى كيفية تكون المطر الذي يرى انه يتم بمراحل :

المرحلة الأولى : التبخر وهو أول خطوة في عملية تكون المطر وهي تبخر الماء من الأرض من المحيطات والبحار والأنهار بفعل حرارة الشمس وكذا خروجها من النباتات يقول موريس بوكاي : إن إشعاع الشمس الحراري يحدث تبخر المحيطات وكل مساحات الأراضي المغرقة أو المشوبة بالمياه وبانفصال البخار يرتفع في الجو وتكثفه يشكل السحاب الذي تسوقه الرياح بدورها إلى مسافات مختلفة وقد يختفي دون أن ينزل مطراً كما قد يجد له مجموعات أخرى فيتراكم معها في تكثف ضخم أو يتجزأ فينزل مطراً في بعض مراحل تطوره فإذا نزل على البحر فقد انتهى دوره سريعاً أما إن أصاب الأراضي فقد تمتص منه المزروعات بعضه يسهم في نمائها ثم هي بدورها وعن طريق تنفسها تعيد جزءاً منه إلى الجو ، وأما البعض الآخر فيتسرب قليل منه أو كثير إلى الأرض ويتجه إلى البحار في مجار مائية أو يعود عن طريق ترشحات في الأرض إلى شبكة المياه السطحية من الينابيع وغيرها" (١)

أما المرحلة الثانية من تشكل المطر فقد بينها الشيخ بكلام مفصل يشير فيه إلى مرحلة اشباع الهواء ببخار الماء وتكثفه لينزل مطراً ودور البرودة في طبقات الجو العليا في التكثف وبالتالي نزول المطر وهذا كلام صحيح علمياً يقول الباحث غالب الزعاري : " تسقط الأمطار نتيجة لانخفاض درجة حرارة الهواء المحمل ببخار الماء في طبقات الجو العليا فهذا الانخفاض في درجات الحرارة يؤدي إلى تكثيف البخار على شكل ذرات مائية صغيرة تتكون منها السحب التي تبقى سابحة في الجو فإذا وصلت إلى مناطق أو مستويات أشد برودة من المناطق و

(١)موريس بوكاي ، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ٢١٥

المستويات التي اتت منها بدات هذه الذرات تجتمع مع بعضها مكونة نقطا كبيرة فتبدا بالسقوط على شكل مطر فلولا وجود المناطق الباردة جدا في طبقات الجو لاختلت الحياة على سطح هذا الكوكب لأن الماء المتبخر يتكثف في هذا الغلاف البارد فتتألف منه الغيوم التي تنزل مطرا ولولا هذا الغلاف الذي يرجع الماء الى الأرض لتبخر ماء الأرض وجفت وماتت عليها الحياة^(١)

ومما يشير اليه الشيخ أيضا أن صعود البخار يزداد بقدر قرب الجهة من خط الاستواء وينقص بقدر بعده عنه ، ولعل السبب في ذلك ظاهرة عصر السحاب – التي سنناقشها بعد قليل – ساقال بعد الحديث عنها الدكتور العبيدي : وهذه الظاهرة تشاهد كثيرا في المناطق الاستوائية حيث تيارات الحمل قوية فتحمل السحاب وينزل المطر ..^(٢)

ومن كمال قدرة الله تعالى وللفت الأنظار إلى أن المطر بيد الله تعالى قال سبحانه : ﴿ أَوَءَيْتُهُ

الْمَاءَ الَّذِي نَسْرُبُونَ ﴿١٦﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١٧﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ [الواقعة]

والشيخ يشير إلى أن الماء من الممكن أن يكون غير نافع للبشر فلا ينزل على الأرض أو ينزل في البحار.. ، ولكن العلم الحديث أشار إلى أن الماء من الممكن أن يكون أجاج فقد ثبت علميا أنه يمكن تحويل خليط من غاز النيتروجين والأوكسجين إلى أكاسيد نيتروجين بإمرار شرارة كهربية من هذا الخليط وهذه الأوكاسيد النيتروجينية قابلة للذوبان في الماء لتكوين أحماض آزوتية مثل حامض النيتريك ومن الطبيعي أن البرق شرارة كهربية قوية تؤدي إلى هذا التفاعل في الهواء الجوي الذي يحتوي على الغازين المذكورين وإنتاج حمض النيتريك الذي يحيل ماء المطر إلى حامض لا يستسيغ الناس شربه... ولكن الله تعالى يتحكم في كمية التفريغ الكهربائي ومدته وتكراره خلال السحب حتى لا يتأثر ماء المطر ويصبح أجاجا حمضيا وهذا موضع الامتنان الإلهي في الآية .^(٣)

وأذكر هنا سؤالاً أورده موريس بوكاي وهو أن التقنية العلمية المعاصرة تمكنت من انتزاع المطر صناعيا فهل تتعارض هذه القدرات البشرية في إنزال المياه مع تأكيدات القرآن ؟ - يقصد في آية سورة الواقعة – ثم أجاب عن السؤال فقال : لا أظنه كذلك لأنه يبدو لنا أنه ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار حدود إمكانيات الانسان في هذا المظمار ولقد كتب الاستاذ م.أ . فاسي ..لا يمكن مطلقا إنزال المياه من السحاب الذي ليست له خصائص السحاب المطير أو السحاب الذي

(١) غالب الزعاري ، الماء ٤٦-٤٧

(٢) د. العبيدي ، المنظار الهندسي للقرآن ٥٨٩

(٣) منصور ، الكون والإعجاز ، مصدر سابق ١٩٧

لم يتوصل بعد إلى مستوى من النضوج المناسب ". وبالتالي فإن الانسان لا يستطيع بمساعدة وسائل فنية محضرة إلا تعجيل فترة النزول الذي تهيأت فيه كل الشروط الطبيعية ... وسيبقى حلما أن يظن الانسان بأنه يستطيع أن يكون سيد المطر وعدمه وذلك لانه لا يستطيع أن يخرق حسب هواه النظام المثبت الذي يؤكد جريان المياه في الطبيعة هذا النظام الذي يمكن تلخيصه بمعطيات العلم الحديث التي تقول : ان اشعاع الشمس الحراري يحدث تبخر المحيطات وكل مساحات الأراضي المغرقة أو المشوبة بالمياه وبانفصال البخار يرتفع في الجو وبتكثفه يشكل السحاب الذي تسوقه الرياح بدورها إلى مسافات مختلفة وقد يخفي دون أن ينزل مطرا كما قد يجد له مجموعات أخرى فيتراكم معها في تكثف ضخم أو يتجزأ فينزل مطرا في بعض مراحل تطوره فإذا نزل على البحر فقد انتهى دوره سريعا أما إن أصاب الأراضي فقد تمتص منه المزروعات بعضه يسهم في نمائها ثم هي بدورها وعن طريق تنفسها تعيد جزءا منه إلى الجو، وأما البعض الآخر فيتسرب قليل منه أو كثير إلى الأرض ويتجه الى البحار في مجار مائية أو يعود عن طريق ترشحات في الأرض إلى شبكة المياه السطحية من الينابيع وغيرها (١)

والآن نأت لكلام الشيخ المتعلق بطهورية الماء الذي يبينه في موضع آخر من كتابه حيث قال فيه : والطهور بفتح الطاء من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال: رجل صبور. وماء المطر بالغ منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يكدره أو يقدره وهو في علم الكيمياء أنقى المياه لخلوه عن جميع الجراثيم فهو الصافي حقا. اه (٢) وذلك حق فحينما تبخر أشعة الشمس الماء الذي يكون ملوثا على الأرض فإنه يتطهر مما فيه من الملوثات، ويصعد إلي الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي علي هيئة بخار ماء نقي طاهر من كل ما كان فيه من أدران وأوساخ وأملاح . (٣)

بقيت آخر قضية وهي إشارة الشيخ إلى إعجاز علمي آخر في الآيات وهو أن كمية أمطار السماء واحدة ولكن المختلف هو التوزيع فقط وهذا الكلام صحيح وثابت علميا أما من حيث كلامه عن السحاب وبعض أنواعه في الآيات السابقة فسوف أفرد به حديث مستقل إن شاء الله .

(١) بوكاي ، موريس ، (١٩٨٧م) ، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، ترجمة الشيخ حسن خالد ، ط ٢١٥

المكتب الاسلامي بيروت

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٦٩/١٩

(٣) د. النجار ، تفسير الآيات الكونية ٣٣٧/٢

تعقيب :

فكلام ابن عاشور في كيفية تشكل المطر مقبول علمياً فقد تحدّث عن مراحل تشكّل المطر وبين بعض الحقائق العلمية المتعلقة بذلك كقضية أنّ صُعود البخار يزداد بقدر قرب الجهة من خط الاستواء ، وبين حقيقة ما يتعلّق بجعل المطر أجاباً بأن يحبس نزوله أو ينزل في البحار.. ، ولكن العلم الحديث أشار إلى حالة أخرى وهي أن الماء من الممكن أن ينزل حمضياً فلا ينتفع به.

المبحث الثاني : ظاهرة الصواعق والبرق والرعد

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْوَعًا فِيءِ إِذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ

الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ [البقرة] : يقول ابن عاشور في تفسيرها : " . . . والرعد

أصوات تنشأ في السحاب. والبرق لامع ناري مضيء يظهر في السحاب، والرعد والبرق ينشآن في السحاب من أثر كهربائي يكون في السحاب فإذا تكاثفت سحابتان في الجو إحداهما كهرباءؤها أقوى من كهرباء الأخرى وتحاكتا جذبت الأقوى منهما الأضعف فحدث بذلك انشقاق في الهواء بشدة وسرعة فحدث صوت قوي هو المسمى الرعد وهو فرقة هوائية من فعل الكهرباء، ويحصل عند ذلك التقاء الكهرباءين وذلك يسبب انقذاح البرق . (١)

ويقول الله تعالى أيضا : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ [البقرة] : يقول ابن عاشور

في تفسيرها : " والصاعقة نار كهربائية من السحاب تحرق من أصابته، وقد لا تظهر النار ولكن يصل هوؤها إلى الأحياء فيختنقون بسبب ما يخالط الهواء الذي يتنفسون فيه من الحوامض الناشئة عن شدة الكهرباءية، وقد قيل: إن الذي أصابهم نار، وقيل سمعوا صعقة فماتوا. " (٢)

ويقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ [الرعد] :

يقول ابن عاشور في تفسيرها : " . . . وإنشاء السحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة التي تتجمع سحابا ، والسحاب: اسم جمع لسحابة. والثقال: جمع ثقيلة. والثقل كون الجسم أكثر كمية أجزاء من أمثاله، فالثقل أمر نسبي يختلف باختلاف أنواع الأجسام، فرب شيء يعد ثقيلًا في نوعه وهو خفيف بالنسبة لنوع آخر. والسحاب يكون ثقيل بمقدار ما في خلاله من البخار. وعلامة ثقله قربه من الأرض وبطء تنقله بالرياح. والخفيف منه يسمى جهاما. وعطف الرعد على ذكر البرق والسحاب لأنه مقارنهما في كثير من الأحوال .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣١٣/١

(٢) المرجع نفسه ٤٩١/١

أما الصواعق فهي بفعل كهربائية السحب ولكن السحابة الآن يكون التفريغ بينها وبين الأرض أو أجزاء منها فإذا كان السحاب قريبا من الأرض ومشحونا بشحنة كهربائية عالية فإذا حدث التفريغ بين السحابة أو أي جزء على الأرض فإنه يسمى بالصاعقة والتي تظهر كضوء مصحوب بصوت وقد تتعرض الأشجار والمنازل والسفن ... وإذا تعرض إنسان لمس صاعقة ولم يحترق يجرى له تنفس اصطناعي^(١) - ولعل هذا سببه ما أشار إليه الطاهر ابن عاشور من أن الإنسان حينئذ يكون قد اختنق بسبب الغازات العنيفة الخارجية من تلك العملية وهو كلام صحيح فإن أي عملية احتراق يكون فيها استهلاك للأوكسجين وبالتالي التأثير المباشر على تنفس من كان في مكان الاحتراق .

تعقيب :

فكلام الشيخ إجمالي غير دقيق وقد جاء العلم الحديث بتفصيل أكثر من هذا الكلام العام .

(١) د. النجار ، تفسير الآيات الكونية

المبحث الثالث : الرياح وفوائدها .

كلام ابن عاشور :

هناك ثلاث آيات متعلقة بالرياح كان لابن عاشور فيها كلامٌ علميٌّ وأولها : قول الله تعالى :

﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة] ،

إذ يقول ابن عاشور في تفسيرها : " . . . إن سبب تصريف الرياح أن الله أحاط الكرة الأرضية بهواء خلقه معها، به يتنفس الحيوان وهو محيط بجميع الكرة بحرها متصل بسطحها ويشغل من فوق سطحها ارتفاعا لا يعيش الحيوان لو صعد إلى أعلاه، وقد خلقه الله تعالى مؤلفا من غازين هما النيتروجين والأكسجين وفيه جزء آخر عارض فيه هو جانب من البخار المائي المتصاعد له من تبخر البحار ورطوبة الأرض بأشعة الشمس وهذا البخار هو غاز دقيق لا يشاهد، وهذا الهواء قابل للحرارة والبرودة بسبب مجاورة حار أو بارد، وحرارته تأتي من أشعة الشمس ومن صعود حرارة الأرض حين تسخنها الشمس وبرودته تجيء من قلة حرارة الشمس ومن برودة الثلوج الصاعدة من الزمهرير الذي يتزايد بارتفاع الجو كما تقدم.

ولما كانت الحرارة من طبيعتها أن تمدد أجزاء الأشياء فتتلطف بذلك التمدد كما تقرر في الكيمياء، والبرودة بالعكس، فإذا كان هواء في جهة حارة كالصحراء وهواء في جهة باردة كالمنجمد وقع اختلاف بين الهواءين في الكثافة فصعد الخفيف وهو الحار إلى الأعلى وانحدر الكثيف إلى الأسفل وبصعود الخفيف يترك فراغا يخلفه فيه الكثيف طلبا للموازنة فتحدث حركة تسمى ريحا، فإذا كانت الحركة خفيفة لقرب التفاوت بين الهواءين سميت الحركة نسيمًا، وإذا اشتدت الحركة وأسرعت فهي الزوبعة. فالرياح جنس لهاته الحركة والنسيم والزوبعة والزعرع أنواع له. " (١)

ثم بين ابن عاشور بعد ذلك السر في اختيار لفظ التصريف دون غيره من الألفاظ هنا بأن لفظ "التصريف تفعيل من الصرف للمبالغة وقد علمت أن منشأ الرياح هو صرف بعض الهواء إلى مكان وصرف غيره إلى مكانه الذي كان فيه فيجوز أن تقدر: وتصريف الله تعالى الرياح، وجعل التصريف للرياح مع أن الرياح تكونت بذلك التصريف فهو من إطلاق الاسم على الحاصل وقت الإطلاق وهو ضرب من مجاز الأول، وأن تجعل التصريف بمعنى التغيير

أي تبديل ريح من جهة إلى جهة فتنقى الحقيقة ويفوت الإعجاز العلمي ويكون اختيار لفظ التصريف دون التغيير لأنه أخف . وجمع الرياح هنا لأن التصريف اقتضى التعدد لأنها كلما تغير مهبتها فقد صارت ريحا غير التي سبقت " (١)

والثانية : قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا

ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَدِّ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

﴿الأعراف﴾ [٥٧] : يقول ابن عاشور في تفسيرها : " وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه

الاستعارة، فإرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ووصولها، وحسن هذه الاستعارة أن الريح مسخرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه فشبهت بالعاقل المرسل إلى جهة ما، ومن بدائع هذه الاستعارة أن الريح لا تفارق كرة الهواء . . . (نشراً) . . . النشر هو التفريق في جهات كثيرة، ومعنى ذلك أن ريح المطر تكون لينة، تجيء مرة من الجنوب ومرة من الشمال، وتتفرق في الجهات حتى ينشأ بها السحاب ويتعدد سحابات ماثوثة . . . ومن أجل ذلك عبر عنها بصيغة الجمع لتعدد مهابها، ولذلك لم تجمع فيما لا يحمد فيه تعدد المهاب كقوله: { وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } [يونس: ٢٢] من حيث جري السفن إنما جبهه بريح متصلة . . . والرحمة هذه أريد بها المطر . . .

وإقلال الريح السحاب هو أن الرياح تمر على سطح الأرض فيتجمع بها ما على السطح من البخار، وترفعه الرياح إلى العلو في الجو، حتى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجو، فهناك ينقبض البخار وتتجمع أجزاءه فيصير سحابات، وكلما انضمت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابة أثقل من إحدهما حين كانت منفصلة عن الأخرى، فيقل انتشارها إلى أن تصير سحابة عظيمة فيثقل، فينماع، ثم ينزل مطرا، وقد تبين أن المراد من قوله { أَقَلَّتْ } غير المراد من قوله في الآية الأخرى { فَتُنِيرُ سَحَابًا } [الروم: ٤٨]. (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير ٨٣/٢-٨٥

(٢) المرجع نفسه ١٣٧/٨-١٤١

والثالثة قول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ

بِحَزْنِينَ ﴿٢٢﴾ [الحجر] : يقول ابن عاشور في تفسيرها : " . . . انتقال من الاستدلال

بظواهر السماء وظواهر الأرض إلى الاستدلال بظواهر كرة الهواء الواقعة بين السماء والأرض، وذلك للاستدلال بفعل الرياح والمنة بما فيها من الفوائد. والإرسال: مجاز في نقل الشيء من مكان إلى مكان. وهذا يدل على أن الرياح مستمرة الهبوب في الكرة الهوائية. وهي تظهر في مكان آتية إليه من مكان آخر وهكذا. . .

ومعنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطرا على الأرض ؛ وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت ، وبدون ذلك تثبت أو لا تصلح. وهذا هو الإبار. وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة. وبعضه يكتفي منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر. ومن بلاغه الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العاملين اللذين تعملهما الرياح وقد فسرت الآية بهما. واقتصر جمهور المفسرين على أنها لواقح السحاب بالمطر ... " (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور في الآية الأولى إلى السر في وجود تصريف دون كلمة تبديل أو غيرها ويبدأ كلامه العلمي في أن أصل منشأ الرياح هو صرف بعض الهواء إلى مكان وصرف غيره إلى مكانه الذي كان فيه ، ويفصل في ذلك بكلام هو من أجمل ما قيل في الآية وهو يكشف إحكام الفاظ القرآن ودلالاتها .

أما ما يتعلق بالآية الثانية فقد ذكر الطاهر ابن عاشور عدة قضايا علمية متصلة بالآية كتعلق الاستعارة التي في إطلاق الإرسال على الانتقال ، بقضية علمية وهي أن الريح لا تفارق كرة الهواء . وأشهر ما بينه ابن عاشور قضية نشر الرياح للسحاب وبالتالي علاقة الرياح بالمطر من الناحية العلمية وفصل الكلام بما مر ذكره .

أما عن الآية الثالثة ومعنى الإلقاح فقد ذكر أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل

الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطرا على الأرض؛ وأنها تلقح الشجر بنقل الغبرة من الذكر الأنثى .

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور في الآية الأولى المتعلق بتصريف الرياح ودلالته مقبول علميا فكل أنواع الرياح تخضع لقانون صرف الهواء الدافئ للأعلى ونزول الهواء البارد الأكثر كثافة للأسفل فنأخذ مثلا كلام الدكتور العبيدي في تكوين الرياح التجارية أنه يقول : ويقدم الإشعاع الشمسي الطاقة لدورة الرياح إذ يسقط هذا لإشعاع أكثر تركيزا ومباشرة على خط الاستواء فيتزايد قرب منه على القطبين إذ يتناقص قربهما وهذا يؤدي الى حركة صاعدة قرب هذا الخط وحركة هابطة قرب القطبين... إن الهواء الساخن يتصاعد عند الاستواء ويندفع الهواء تحت المداري ليملا الفراغ ويعمل دوران الارض إلى دفع الهواء المتحرك باتجاه الغرب مما يشكل الرياح التجارية... (١)

ويشير أحد الباحثين في الأرصاد الجوية أيضا إلى أن الإشعاع الشمسي هو عامل الرياح إذ يسقط هذا الإشعاع بشكل أكبر على خط الاستواء أكثر منه على القطبين وهذا يؤدي الى حركة صاعدة قرب الاستواء وحركة هابطة قرب القطبين فيندفع الهواء تحت المداري ليملا الفراغ ويعمل دوران الارض الى دفع الهواء المتحرك باتجاه الغرب مما يشكل الرياح التجارية. (٢)

أما ما يتعلق بالآية الثانية وإرسال الرياح وعلاقتها بنزول فالعلم الحديث يبين " أن السحاب هو بخار ماء تكاثف في طبقات الجو العلوية ولتكوينه في الأعلى يحتاج لأن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار والثاني أن يكون محتويا على نويات يتكاثف عليها البخار ... ولزيادة التشبع عاملان تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه ويبرد الهواء ببرودة الجو في طبقات الجو العليا وبسبب قلة الضغط فيها فالهواء يتمدد بالصعود بسبب قلة الضغط ... وأحيانا تلنقي ريح دافئة بريح قطبية باردة فيختلطان بريح فوق المشبعة ... وكما للرياح أثر في تكوين السحاب لها أثر كذلك في تكثيفه إما بفعل الكهرباء الجوية وإما بفعل الجبال " المكثفات " والكهربائية التي تجمع الغيمة بالغيمة أو تفرقها بمشيئة الله تعالى وإذا اجتمعت كبرت شحنتها الكهربائية ولا تزال كذلك حتى تتحد فاذا اتحدت نزل المطر فتجتمع القطيرات المختلفة بين

(١) د. العبيدي المنظار الهندسي مصدر سابق ٣٢٦

(٢) المرجع نفسه

السحابتين فتجذب كل منهما قرينتها حتى تكون قطرة فيها ثقل فتتنزل" (١)
أما عن الآية الثالثة ومعنى الإلقاء فالمفسرون قد ذكروا كلا المعنيين (٢) وارجئ الحديث
عن المعنى الثاني إلى الفصل المتعلق بالنبات .

ولكني أقول هنا ان في قوله تعالى : " فأنزلنا من السماء ماء" عقب قوله سبحانه " و أرسلنا
الرياح لواقح " لهو قرينة على ترجيح أنّ المراد تلقيح السحاب لا النبات على أنه لا مانع من
الثاني ، وهذا ما اشار إليه الشيخ الغمراوي بقوله "ومفتاح هذه الآية الكريمة هو ترتيب إنزال
الماء لسقيا الناس على ارسال الرياح لواقح ... إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه
إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لا إنزال الماء من السماء يشربونه" اهـ (٣) .

تعقيب :

كلام ابن عاشور في الرياح وفوائدها بشكل عام منسجم مع كلام المعاصرين خاصة في
كلامه عن أنواع الرياح بالرغم من أنه كلام إجمالي ، وأنّ كلام العلم يظهر فيه التفصيل .

(١) انظر د. الغمراوي، الاسلام في عصر العلم ٣٤٠-٣٤٦

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ، مصدر سابق ٥٣٠/٤

(٣) د. الغمراوي ، محمد أحمد (١٩٧٣) ، الاسلام في عصر العلم ، ط مطبعة السعادة ص ٣٥١ ، القاهرة

المبحث الرابع : السحب وأنواعها

كلام ابن عاشور :

يبين ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٦٤) ❦

[البقرة] كيفية تكون السحاب بأنه يتكون من تصاعد أبخرة البحار ورطوبة الأرض التي تبخرها أشعة الشمس وكذا مياه البحار التي تتبخر وتنقلها الرياح ثم إذا جاور سطحاً بارداً ثقل وتكاثف فصار ضباباً أو ندى أو سحاباً، وإنما تكاثف لأن أجزاء البخار تجتمع فنقل قدرة الهواء على حمله ، ثم إذا تكامل اجتماعه نزل مطراً (١)

ويعرّف أيضاً بالسحاب الثقال في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ

يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ

يُخْرِجُ الْمَوْتُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ [الأعراف] بأنها البطينة التي تنقل لما فيها من رطوبة الماء،

وهو البخار، وهو السحاب المرجو منه المطر . . . ثم يبين كيف تحرك الرياح الأبخرة وتوصلها للعلو فتصل إلى التكثف وبالتالي نزول المطر ويقف على ألفاظ الآية ودلالاتها فيقول: " . . . ومعنى {أَقْلَتِ} حملت . . . وإقلال الرياح السحاب هو أن الرياح تمر على سطح الأرض فيتجمع بها ما على السطح من البخار، وترفعه الرياح إلى العلو في الجو، حتى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجو، فهناك ينقبض البخار وتتجمع أجزاؤه فيصير سحابات، وكلما انضمت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابة أثقل من إحداهما حين كانت منفصلة عن الأخرى، فيقل انتشارها إلى أن تصير سحابة عظيمة فيثقل، فينماع، ثم ينزل مطراً، وقد تبين أن المراد من قوله {أَقْلَتِ} غير المراد من قوله في الآية الأخرى {فَتُنْبِتُ سَحَابًا} [الروم: ٤٨]. والسحاب اسم جمع لسحابة . . . ووصف بعد الغاية بأنها ثقال، وهذا من إعجاز القرآن العلمي، وقد ورد الاعتباران في هذه الآية فوصف السحاب بقوله {ثِقَالًا} . . . وحقيقة السوق أنه تسيير ما يمشي ومسيره وراءه يزدنيه ويحثه، وهو هنا مستعار لتسيير

السحاب بأسبابه التي جعلها الله، وقد يجعل تمثيلاً إذا روعي قوله {أَقْلَتْ سَحَابًا} أي: سقناه بتلك الريح إلى بلد، فيكون تمثيلاً لحالة دفع الريح السحاب بحالة سوق السائق الدابة " (١)

ويقول في تفسير قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى

الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ

يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ [النور] فيقول : " وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو . . . وقد

حصل من هذا حسن التخلص للانتقال إلى الاستدلال على عظم القدرة وسمو الحكمة وسعة العلم الإلهي. . . وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوق حتى يصير سحاباً كثيفاً، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عنه بالتأليف بين أجزائه بقوله تعالى: {ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ} إلخ . . . والركام: مشتق من الركم. والركم: الجمع والضم. ووزن فعال وفعالة يدل على معنى المفعول. فالركام بمعنى المركوم . . . فإذا تراكم السحاب بعضه على بعض حدث فيه ما يسمى في علم حوادث الجو بالسيال الكهربائي وهو البرق. فقال بعض المفسرين: هو الودق. وأكثر المفسرين على أن الودق هو المطر، وهو الذي اقتضرت عليه دواوين اللغة، والمطر يخرج من خلال السحاب. " (٢)

التحليل :

أقول : إن الناظر إلى آيات القرآن الكريم التي ذكرت السحاب يجد أن منها آيات بينت كيف يتكون المطر وينزل إلى الأرض وبالتالي بينت طور السحاب ومنها آيات ذكرت السحاب بألفاظ مختلفة وضعتها للسحاب ، ومن هنا سأقف بإذن الله تعالى على كل من هذه الآيات بشرطها :

أولاً : الآيات التي بينت تشكل المطر وبالتالي كيف يتكون السحاب كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ

الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِكَلْدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٣٧/٨ - ١٤١

(٢) المرجع نفسه ١٨ / ٢٠٩

فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَةَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ الأعراف [٥٦] : وبعض

المواضع الأخرى التي بين الطاهر فيها كيف يتكون السحاب ومن خلال الآيات في هذا الموضوع يبين الشيخ ابن عاشور كيف ينشأ السحاب بتصاعد الأبخرة ثم تكاثفها بكلام مفصل ذكره في كثير من الآيات بشكل عام . و يشير الشيخ إلى أن الرياح تقوم بأمرين : أولهما : أن الرياح تحرك الأبخرة التي على سطح الأرض، وتمدها برطوبات تسوقها إليها من الجهات الندية التي تمر عليها كالبحار فإذا بلغ حد البخارية رفعته الرياح من سطح الأرض إلى الجو، حتى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجو، فهناك ينقبض البخار وتتجمع أجزاؤه فيصير سحابات، ومن خلال كلام ابن عاشور السابق يظهر أنه يبين أحوال السحاب من خلال الآيات فهو يُبسط في السماء تارة، أي يكون ممتدا عاما في جو السماء . . . ويبين أن المركوم المجتمع بعضه على بعض ويبين من خلال كلامه السابق ما المقصود بالسحاب الثقال بأن السحاب يتقل بمقدار ما في خلاله من البخار فإنه إذا بلغ نقطة باردة في أعلى الجو، ينقبض البخار وتتجمع أجزاؤه فيصير سحابات، وكلما انضمت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابة أثقل من إحداهما حين كانت منفصلة عن الأخرى، فيقل انتشارها إلى أن تصير سحابة عظيمة فينقل، فينماع، ثم ينزل مطرا .

كلام المعاصرين :

يشير العلم الحديث إلى أنّ هناك أثراً للبرودة والحرارة في تجمع السحاب لا ينسى والسحاب نوعان الأول الركامي (الثقال) والطبقي أما الأول فقال فيه المعاصرون : " تبدأ قصة هذا السحاب بتكوين قطع السحاب المتنافرة يساق برفق إلى خط التجمع فإذا وصلت إلى خط التجمع تجمعت وتآلفت ... كانت كل سحابة فيها كائنا مستقلا وتنظيما مستقلا وتركيبا مستقلا فلما اجتمعت أخذت تنظيما واحدا ... قالوا إذا رفع - الهواء- إلى أعلى تكثف وتحول من بخار ماء إلى قطرات ماء إلى سائل ويرجع مرة ثانية عندما . يتحول فإن الحرارة التي كانت مخزونة فيه تنطلق وهذه الحرارة تسخن الهواء فوقها في منطقة التجمع فاذا سخن الجو ارتفع الهواء إلى أعلى فجاء الضغط الهوائي من اسفل فيرفع السحابة فيركمها ركما " (١)

أما السحاب الطبقي فهو الذي يتكون من انبساط السحب بشكل واسع ربما يصل إلى ٢٠٠ كم حيث تبدأ طبقة عالية من السحاب تتكون وبعد قليل طبقة أسفل منها تمتد كما يمتد البساط ثم تأتي الثالثة وبعدها ومن ثم ينزل المطر (١)

بقيت ملاحظة أخرى وهي أننا إذا تأملنا في آية سورة النور وجدنا أن ظاهرة البرد وظاهرة الصواعق مرتبطتان بهذا النوع من السحاب حيث أثبت العلم الحديث أن السحب الركامية هي النوع الوحيد الذي ينتج البرد يبدأ تكوينها على شكل دقائق بخار تدفعها الرياح فتتألف مع بعضها البعض فتتشكل منه ذلك كتلة كالجبل يتكون عند قمته البرد في شكل حبات صغيرة مؤلفة من دقائق بخار الماء وأثناء تكون أغلفة حبة البرد تهبط إلى قاعدة السحب الجبلية الدفيئة نسبياً فتدوب بعض أغلفتها وينزل المطر وتعاود حبة البرد الهبوط والنزول حتى تصبح في حجم جوز الهند وينتج البرق من التفريغات الكهربائية بين الأجزاء العليا للسحب الركامية والأجزاء السفلى ... (٢)

شواهد أخرى :

إن هناك بعض الدلالات تؤخذ من الآيات القرآنية المتعلقة بالسحاب وهي : بالنسبة لتشكلها :- إن أول عملية تكون بواسطة الرياح فالرياح تقوم بإثارة السحاب " الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا " وتفسير الطاهر ابن عاشور لها كان بأن الرياح تحرك الأبخرة التي على سطح الأرض، وتمدها برطوبات تسوقها إليها من الجهات الندية التي تمر عليها كالبحار والأنهار والبحيرات والأرضين الندية، ويجتمع بعض ذلك إلى بعض وهو معنى قوله تعالى: {فَتُثِيرُ سَحَابًا} [الروم: ٤٨] والفعل ثار يدل على الظهور " ثار الشيء يُثَوِّرُ ثَوْرًا... وَثَوَّرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ شَرًّا، إِذَا أَظْهَرَهُ. و محتمل أن يكون الثور فيمن يقول إنه الطُّحْلَبُ من هذا، لأنه شيءٌ قد ثارَ على مَثْنِ الماء." (٣) وللشيخ الغمراوي تحقيق نفيس بناه على المعنى اللغوي للإثارة مفاده أن الريح تظهر السحاب بعد خفائه ، وهو إظهار التكوين أي تسبب التكاثر، وإذا تذكرت أن السحاب هو بخار كان قبل كامنا في الهواء غير المشبع أو في الهواء المشبع الخالي من الأيونات أو الغبار ثم ظهر بالتكاثر لما انقلبت حالة الهواء من حيث التشبع أو من

(١) د. متولي الموسوعة الذهبية ١٣٤-١٣٥

(٢) المرجع نفسه

(٣) ابن فارس ، مقاييس اللغة ، مصدر سابق ٣٥٦/١

حيث نسبة الأيونات أو الغبار فيه ، هذا الانقلاب لا يكون إلا بفعل الهواء سواء أكان بحمل البخار إلى المناطق العلوية الباردة أو بحملها الغبار أو الأيونات إلى تلك المناطق ، فإثارة السحاب هو تكوينه لا حملة (١)

ثم تأتي المرحلة الأخرى وهي إقلال السحاب الثقيل والتي يصفها الشيخ بأنه إذا بلغ الهواء حد البخارية رفعت الرياح من سطح الأرض إلى الجو. فترفعه الرياح إلى العلو في الجو، حتى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجو، فهناك ينقبض البخار وتتجمع أجزاؤه فيصير سحابات، وكلما انضمت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابة أثقل من إحدهما حين كانت منفصلة عن الأخرى، فيقل انتشارها إلى أن تصير سحبا عظيما فيثقل، فينماع، ثم ينزل مطرا، وهذا هو إقلالها " حتى إذا أقلت سحبا ثقالا " .

وفي التحقيق السابق تبين أن وصول الهواء إلى مرحلة التكثيف وكل ما قبله يعد إثارة للسحاب أي إظهار ولكن إقلال الرياح للسحاب لا بد أن تكون السحابة قد تشكلت بتكاثفها لأن القرآن قال أقلت سحابة لا بخار ماء غير متكاثف ومنتشر في الهواء . فمرحلة الإقلال هنا لا بد أن تحمل على المرحلة التي تلي تشكل السحابة والإقلال كما هو معروف لغة الحمل فأقلت حملت (٢) لا شكلت أو أظهرت فيحمل الهواء السحاب والسحاب هنا وصف بأنه الثقيل وهذا يؤيد ما قلته فمرحلة الإقلال تكون بعد مصير بخار الماء سحبا وتكثفه وبعد تجمع السحاب بعضه مع بعض وتآلفه ليصبح ثقالا فلا يشمل مرحلة تكون السحاب الثقيل فضلا عن تكون السحاب الأولي أصلا .

القضية الأخرى : أن حمل السحاب نسبته كانت إلى الرياح بلفظ الإقلال بقوله تعالى " حتى إذا أقلت سحبا ثقالا " أما سوق الرياح وهي مقلة للسحاب الثقيل فهو إلى الله تعالى ولا يخفى الفرق فانظر للفظ الاقلال وما يحمله من معنى الحمل وتسخير الشيء لحمل الشيء ، وانظر إلى مفردة السوق ومعنى التمكن من الشيء وتسييره كيفما أراد الذي يسوقه لا سيما إذا اقترن بنون العظمة الدالة على القدرة والتمكن من الشيء فيكون تقدير الكلام سقنا الرياح المقلة للسحاب الثقيل إلى بلد ميت يقول الدكتور الغمراوي : "والانسان يتبين طرفا من هذه الحكمة إذا تذكر الفرق الكبير في التقدير بين تكوين السحاب وبين توزيعه وسوقه إلى مكان الحاجة إليه

(١) انظر د. الغمراوي ، الاسلام في عصر العلم ، مصدر سابق ٣٤٩

(٢) ابن منظور لسان العرب ، مصدر سابق ٥٧٩/٢

فالتكوين لا يحتاج إلا إلى تكثيف وهذا يكفي فيه أن يحمل البخار إلى حيث يمكن أن يتكاثف
سحابا في الجو والرياح تفعل ذلك فينتكون السحاب في أي مكان كان لكن سوقه بعد تكوينه إلى
حيث الناس والأنعام والزرع في حاجة إليه يحتاج إلى تقدير وتدبير ... " (١)

وقضية قريبة أيضا وهي أن الله تعالى نسب إزجاء السحاب والتأليف بينه إليه سبحانه فقال
" ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه " ولكن ما المراد بذلك ؟ الإزجاء قريب من
السوق " والتزجية دفع الشيء... وأزجاه ساقه ودفعه والرييح تزجي السحاب أي تسوقه سَوْقًا
رفيقاً " (٢)

أما قضية التأليف فالشيخ لا يذكر كلاما علميا فيها إلا أنه يشير إلى التلقيح " الرياح لواقح " بأن
معنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن
ذلك البخار الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطرا على الأرض ؛ " (٣)
القضية الثالثة : أن القرآن الكريم وصف السحاب في موضع بأنه {سحاب مركوم} [الطور
٤٤] وقال أيضا { ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما } [النور ٤٣]
وقال في آية أخرى " فيبسطه " والشيخ أشار إلى المراد بالبسط .

تعقيب :

وبعد ، فكلام ابن عاشور بشكل عام كلام صحيح علميًا .

(١) د. الغمراوي الاسلام في عصر العلم ، مصدر سابق ٣٥٠

(٢) ابن منظور لسان العرب ، مصدر سابق ٣٥٥/١٤

(٣) ابن عاشور ، التحرير ٣/١٤

المبحث الخامس : مصير مياه الأمطار (التبخر ، والمياه تحت السطحية)

كلام ابن عاشور :

لقد كان لابن عاشور كلامٌ علميٌّ فيما يتعلق بمصير المياه ومن ذلك أنه يتحدث عن دخول المياه لباطن الأرض ويبين أثر اختلاف طبيعة الصخور في ذلك فيقول في تفسير قول الله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٦١] . . . قد أشارت الآية إلى أن انفجار الماء من الأرض من الصخور منحصر في هذين الحالين وذلك هو ما تقرر في علم الجغرافيا الطبيعية أن الماء النازل على الأرض يخرق الأرض بالتدرج لأن طبع الماء النزول إلى الأسفل جريا على قاعدة الجاذبية فإذا اضغط عليه بنقل نفسه من تكاثره أو بضاغط آخر من أهوية الأرض تطلب الخروج حتى إذا بلغ طبقة صخرية أو صلصالية طفا هناك فالحجر الرملي يشرب الماء والصخور والصلصال لا يخرقها الماء إلا إذا كانت الصخور مركبة من مواد كلسية وكان الماء قد حمل في جريته أجزاء من معدن الحامض الفحمي فإن له قوة على تحليل الكلس فيحدث ثقبا في الصخور الكلسية حتى يخرقها فيخرج منها نابعا كالعيون. وإذا اجتمعت العيون في موضع نشأت عنها الأنهار كالنيل النابع من جبال القمر، وأما الصخور غير الكلسية فلا يفتتها الماء ولكن قد يعرض لها انشقاق بالزلازل أو بفلق الآلات فيخرج منها الماء إما إلى ظاهر الأرض كما نرى في الآبار وقد يخرج منها الماء إلى طبقة تحتها فيخترن تحتها حتى يخرج بحالة من الأحوال السابقة. وقد يجد الماء في سيره قبل الدخول تحت الصخر أو بعده منفذا إلى أرض ترابية فيخرج طافيا من سطح الصخور التي جرى فوقها. وقد يجد الماء في سيره منخفضات في داخل الأرض فيستقر فيها ثم إذا انضمت إليه كميات أخرى تطلب الخروج بطريق من الطرق المتقدمة ولذلك يكثر أن تنفجر الأنهار عقب الزلازل. (١)

و يقول ايضا في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ

بِهِ لَقَدِيرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨] : . . . وإنزال الماء هو إسقاطه من السحب ماءً وتلجا

وبردا على السهول والجبال.والقدر هنا: التقدير والتعيين للمقدار في الكم وفي النوبة،

فيصح أن يحمل على صريحه، أي بمقدار معين مناسب للإنعام به لأنه إذا أنزل كذلك حصل به الري والتعاقب، وكذلك ذوبان الثلوج النازلة. ويصح أن يقصد مع ذلك الكناية عن الضبط والإتقان. وليس المراد بالقدر هنا المعنى الذي في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "وتؤمن بالقدر خيره وشره".

والإسكان: جعل الشيء في مسكن، والمسكن: محل القرار، وهو مفعل اسم مكان مشتق من السكون. وأطلق الإسكان على الإقرار في الأرض على طريق الاستعارة. وهذا الإقرار على نوعين: إقرار قصير مثل إقرار ماء المطر في القشرة الظاهرة من الأرض عقب نزول الأمطار على حسب ما تقتضيه غزارة المطر ورخاوة الأرض وشدة الحرارة أو شدة البرد. وهو ما ينبت به النبات في الحرث والبقل في الربيع وتمتص منه الأشجار بعروقها فتثمر إثمارها وتخرج به عروق الأشجار وأصولها من البذور التي في الأرض.

ونوع آخر هو إقرار طويل وهو إقرار المياه التي تنزل من المطر وعن ذوب الثلوج النازلة فتتسرب إلى دواخل الأرض فتنشأ منها العيون التي تتبع بنفسها أو تفجر بالحفر آبارا. وجملة {وَأِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهٖ لِقَادِرُونَ} معترضة بين الجملة وما تفرع عليها، وفي هذا تذكير بأن قدرة الله تعالى صالحة للإيجاد والإعدام.

وتذكير ذهاب للتفخيم والتعظيم، ومعنى التعظيم هنا تعدد أحوال الذهاب به من تغييره إلى أعماق الأرض بانشقاق الأرض بزلزال ونحوه، ومن تجفيفه بشدة الحرارة، ومن إمساك إنزاله زمنا طويلا. " (١)

ويقول في معنى تصريف الماء بين الناس في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا...﴾

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿٥٠﴾ الفرقان: ٥٠ ﴿٤٨﴾ [الفرقان]

والتصريف: التغيير. والمراد هنا تغيير أحوال الماء، أي مقاديره ومواقعه. وتوكيد الجملة بلام القسم و"قد" لتحقيق التعليل لأن تصرف المطر محقق لا يحتاج إلى التأكيد وإنما الشيء الذي لم يكن لهم علم به هو ان من حكمة تصريفه بين الناس أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم مع نزوله عليهم وفي حالة إمساكه عنهم، لأن كثير من الناس لا يقدر قدر النعمة إلا عند فقدانها فيعلموا أن الله هو الرب الواحد المختار في خلق الأسباب والمسببات وقد كانوا لا يتدبرون حكمة الخالق ويسندون الآثار إلى مؤثرات وهمية أو صورية. ولما كن التذکر شاملًا

لشكر المنعم عليهم بإصابة المطر ولتفطن المحرومين إلى سبب حرمانهم إياه لعلهم يستغفرون،
جيء في التعليل بفعل {لِيَذْكُرُوا} ليكون علة لحالتي التصريف بينهم.

ويؤخذ من الآية أن الماء المنزل من السماء لا يختلف مقداره وإنما تختلف مقادير توزيعه
على مواقع القطر، فعن ابن عباس: ما عام أقل مطرا من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على
ما شاء. وتلا هذه الآية. وذكر القرطبي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم المعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا
عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفياقي والبحار" اهـ. فحصل من هذا أن المقدار الذي تفضل
الله به من المطر على هذه الأرض لا تختلف كميته وإنما يختلف توزيعه. وهذه حقيقة قررها
علماء حوادث الجو في القرن الحاضر، فهو من معجزات القرآن العلمية الراجعة إلى الجهة
الثالثة من المقدمة العاشرة لهذا التفسير . (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى أن الماء النازل من السماء يسكن الأرض بصورتين : الأولى مبدئية
حيث يمكث قليلا على سطح الأرض حتى يتم تبخيره تدريجياً والثانية التي يتم فيها دخوله إلى
باطن الأرض وأبارها وعيونها ويشير بكلام طويل إلى كيفية خروجه من بين الصخور وعلاقة
الصخور وأنواعها بحفظ أو إخراج الماء ويذكر حقيقة أن كمية المياه المتبخرة من الأرض
والعائدة عليه واحدة والمختلف التوزيع .

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور في قضية مكث الماء في الأرض بصورتها كلام صحيح (٢) ، وبالنسبة
للحقيقة المذكورة وهي أن كمية الماء المتبخر من سطح الأرض مساوية تماما للكمية النازلة
على العالم خلال عام فهي صحيحة وهذه الكمية تبلغ ٣٨٠٠٠٠ كم^٣ من الماء وسبب هذه
الحقيقة العلمية أن من شأن بخار الماء أن يتكثف إذا ما وصل إلى منطقة نطاق التغيرات الجوية
(٧-٨ كم) فوق مستوى سطح البحر ، فلا يفلت منه شيء وبالتالي ستكون الكميات النازلة
تعادل المتبخرة . (٣)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور بشكل عام موافق لما جاء به العلم الحديث لكن بشيء من الإجمال .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٧٣-٧١/١٥

(٢) د. العبيدي . المنظار الهندسي للقرآن ٥٨٨

(٣) د، النجار ، تفسير الآيات الكونية ٢ / ٢٥٨-٢٥٩

الباب الثالث : تفسير الآيات المتعلقة بالكائنات الحية غير

الإنسان (النباتات والحيوانات والطيور والحشرات)

وفيه فصول . . .

الفصل الأول : تفسير آيات النباتات .

الفصل الثاني : خصائص بعض الحيوانات وعجائب خلقتها.

الفصل الثالث : تفسير آيات الطيور .

الفصل الرابع : تفسير آيات الحشرات .

الفصل الأول : تفسير آيات النباتات

المبحث الأول : بعض العوامل المؤثرة في النبات .

المطلب الأول : طبيعة الأرض .

المطلب الثاني : العوامل الوراثية .

المطلب الثالث : الرياح وأثرها في تلقيح النبات

المبحث الثاني : بعض الأشجار والنباتات المذكورة في القرآن الكريم :

المطلب الأول : المن و الخردل

المطلب الثاني : الزيتون :

المطلب الثالث : التين

المبحث الثالث : ذكر بعض القضايا المتناثرة في النبات

- حفظ القمح في سنبله .

- النار من الشجر الأخضر .

المبحث الأول : بعض العوامل المؤثرة في النبات .

المطلب الأول : طبيعة الأرض .

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في أثر طبيعة تضاريس الأرض في الثمار كأن تكون بربوة ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَأَنَّ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦٥﴾

[البقرة] "وتخصيص الجنة بأنها في ربوة لأن أشجار الربي تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا" (١)

و يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ [الأعراف]: " المعنى: كما أن

البلد الطيب يخرج نباته سريعا بهجا عند نزول المطر، والبلد الخبيث لا يكاد ينبت فإن أنبت

أخرج نباتا خبيثا لا خير فيه. والطيب وصف على وزن فيعل وهي صيغة تدل على قوة الوصف في الموصوف مثل: قيم، وهو المتصف بالطيب . . . والبلد الطيب الأرض الموصوفة بالطيب ، وطيبها زكاء تربتها وملاءمتها لإخراج النبات الصالح وللزرع والغرس وهي الأرض النقية. {وَالَّذِي خَبثَ} ضد الطيب {وَالَّذِي خَبثَ} حمله جميع المفسرين على أنه وصف للبلد، أي البلد الذي خبث وهو مقابل البلد الطيب، وفسروه بالأرض التي لا تنبت إلا نباتا لا ينفع، ولا يسرع إنباتها، مثل السباح، وحملوا ضمير يخرج على أنه عائد للنبات، وجعلوا تقدير الكلام: والذي خبث لا "يخرج" نباته إلا نكدا، فحذف المضاف فالتقدير، وهو نبات، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهو ضمير البلد الذي خبث، المستتر في فعل يخرج . والذي يظهر لي: أن يكون {الذي} صادقا على نبات الأرض، والمعنى: والنبات الذي خبث لا يخرج إلا نكدا، ويكون في الكلام احتباك إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر. (٢)

(١) ابن عاشور التحرير ٥٢٣/٢ (٢) المرجع نفسه ١٤٢/٨

- يشير ابن عاشور إلى أن تخصيص الجنة بأنها في ربوة في قوله تعالى : { كمثل جنة بربوة } البقرة [٢٦٥] ، لأن أشجار الرّبي تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا . ويشير أيضا في الآية الثانية إلى أن من العوامل المؤثرة في الإنبات هو نوع الأرض فمن الأرض ما يمسك الماء وبالتالي يجعل هذه الأرض صالحة للإنبات .

كلام المعاصرين :

يقول العلم الحديث : إن من مميزات بيئة الروابي أنها ذات درجات حرارة معتدلة ولطيفة مما يؤدي لاستفادة النبات من الندى ^(١) ، فكلام ابن عاشور في أنّ الرّبي تنتج ثماراً أفضل سديد لكنه مجمل ، وقد فصله العلم الحديث و بين سببه المباشر .

- أما في الآية الثانية فكلام الشيخ صحيح فالعلم الحديث يقول : إن الأرض مختلفة في طبيعتها فمنها الرملية والأخرى الطينية والأراضي السبخة وكذلك الطينية وسبب تفاوتها بالإنبات اختلاف في حجم المسام بينها. ^(٢)

شواهد أخرى :

أقول : لعل تخصيص الجنة بأنها بربوة يأتي في معرض ذكر توافر الجو المحيط لتلك الجنة لتؤتي أكلها على أتم وجه فالجنة بربوة والجنة أصابها وابل فكانت النتيجة أن آتت أكلها ضعفين ، وإذا تأمل القارئ الآية السابقة لهذه الآية يجدها مقابلة لمعنى هذه الآية فالذي ينفق ماله رياء الناس مثله { كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ... } البقرة (٢٦٤) أما الآخر فمثله { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرِبُوتٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ } البقرة [٢٦٥] فالصفوان لا يمسك الماء والنتيجة أن تركه صلدا أما الربوة فهي ممسكة للماء والنتيجة أن آتت أكلها ضعفين.

تعقيب :

وأختم الكلام هنا أيضا بأن الآية الثانية ربما اتسعت أيضا لتشمل حلول بركة الله تعالى بأرض قوم أتقياء ونزعها من أرض قوم أشقياء حيث تنبت الأولى الزرع بإذن ربها وبدون كبير عناء أما الأخرى فمع العناء والأسباب المادية إلا أنها لا تنبت إلا نكدا بكل ما تحمله الكلمة من شؤم وقلة خير، والله تعالى أعلم .

(١) د. المليجي ، عبد الستار (٢٠٠٥) علم النبات في القرآن الكريم ط الهيئة المصرية للطباعة مصر ١٠٣

(٢) انظر د. متولي الموسوعة الذهبية ، مصدر سابق ٤٠٩

المطلب الثاني : العوامل الوراثية .

كلام ابن عاشور :

ويقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ

أَعْنَبٍ وَزَرَءٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ [الرعد]

" أي فضل بعض الجنات على بعض أو بعض الأعناب والزروع والنخيل على بعض من جنسه بما يثمره. والمعنى أن اختلاف طعمه وتفاضلها مع كون الأصل واحد والغذاء بالماء واحد ما هو إلا لقوى خفية أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة. " (١)

كلام المعاصرين :

يشير ابن عاشور في الآية السابقة إلى أن ذلك التفضيل المذكور في الآية هو بسبب قوى خفية أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة . ولكنه لا يحدد هذه القوى .

وأقول :إنّ النباتات تشترك في بعض الصفات فكلها تقوم بعملية التمثيل الضوئي وهناك تشابه بينها في تركيب البذور والسيقان والأوراق والأزهار وهناك الاستجابة للمؤثرات الخارجية فكلها تنتحي نحو الضوء وتموت عندما تحرم منه او من الأوكسجين . (٢)

وبالرغم من أنها جميعا تسقى الماء وتحوي نسبة عالية منه لا يعني أن تكون الثمرات ذات قيمة واحدة فهناك عوامل داخلية محددة توجه وتقود لإنتاج ثمرة ذات صفات تؤهلها للتفوق على غيرها .. وهذه العناصر الداخلية هي الصفات الوراثية والشفيرة الوراثية الخاصة بكل نبات والمختلفة من نبات إلى آخر . (٣)

تعقيب :

فالعلم الحديث كان أدق من ابن عاشور الذي لفت النظر إلى أنّ هناك أسباب داخلية (مودعة في النبات) تؤثر فيه على أن هذا كلام صحيح لكنه لم يفصل .

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٤٣/١٢

(٢) نخبة من العلماء الأمريكيين ، الله يتجلى في عصر العلم ، ترجمة د. الدمرداش سرحان ، دار الترفية

للطباعة والنشر بغداد العراق ١٣١

(٣) د. المليجي ، علم النبات في القرآن ١٧٣

المطلب الثالث : الرياح وأثرها في تلقيح النبات

كلام ابن عاشور :

ويبين أثر الرياح في النبات والتفسير العلمي لكونها لواقح في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر] ٢٢

فيقول : " . . . ومعنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطرا على الأرض؛ وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك تثبت أو لا تصلح. وهذا هو الإبار. وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة. وبعضه يكفي منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر. ومن بلاغه الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العمليين اللذين تعملهما الرياح وقد فسرت الآية بهما. واقتصر جمهور المفسرين على أنها لواقح السحاب بالمطر. وروى أبو بكر بن العربي عن مالك أنه قال: قال الله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ} فلقاح القمح عندي أن يحبب ويسنبل ولا أريد ما يبیس في أكامه ولكن يحبب حتى يكون لو بیس حينئذ لم يكن فسادا لا خير فيه. ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت. " (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى أن الإلقاح المذكور في الآية يشمل تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطرا على الأرض؛ وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت .

كلام المعاصرين :

تقدّم في الفصل الرابع من الباب الثاني أثر الرياح وإلقاحها للسحاب فهي تعمل على تكثيفه إما بفعل الكهربائية الجوية وإما بفعل الجبال " المكثفات " والكهربائية التي تجمع الغيمة بالغيمة أو تفرقها بمشيئة الله تعالى وإذا اجتمعت كبرت شحنتها الكهربائية ولا تزال كذلك حتى تتحد فاذا اتحدت نزل المطر فتجتمع القطيرات المختلفة بين السحابتين فتجذب كل منهما قرينتها حتى تكون قطرة فيها ثقل فتتنزل . (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣٢/١٣

(٢) انظر د. الغمراوي، الاسلام في عصر العلم ٣٤٠-٣٤٦

وبالنسبة للمعنى الثاني فقد جاء العلم الحديث ليكشف عن أثر الرياح في تلقيح الشجر ، يقول صاحب تفسير المنار : " قَالَ مِسْتَرٌ (أَجْنِيرِي) الْمُسْتَشْرِقُ الَّذِي كَانَ أَسْتَاذًا لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ أَكْسُفُورْدَ فِي الْقُرْنِ الْمَاضِي: إِنَّ أَصْحَابَ اللَّيْلِ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ الرِّيحَ تُلْقِحُ الشَّجَرَ وَالنَّمَارَ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَهَا أَهْلُ أَوْرُبَّةِ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ قُرْنًا. اهـ.

نَعَمْ إِنَّ أَهْلَ النَّخِيلِ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْرِفُونَ التَّلْقِيحَ إِذْ كَانُوا يَنْقُلُونَ بِأَيْدِيهِمُ اللَّقَاحَ مِنْ طَلْعِ دُكُورِ النَّخْلِ إِلَى إِنَائِهَا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الرِّيحَ تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَفْهَمِ الْمُفَسِّرُونَ هَذَا مِنَ النَّايَةِ بَلْ حَمَلُوهَا عَلَى الْمَجَازِ. " (١)

شواهد أخرى :

وفيما يتعلق بالمعنى الآخر الثاني في تفسير التلقيح الذي تقوم به الرياح عند ابن عاشور وهو أنها لواقح للشجر أقول : إن صحة نسبة هذا المعنى للغة الآية لا شك في صحته لأن المفردة تتحمل كل من المعنيين الذين فسر ابن عاشور بهما الآية ؛ ف" اللام والقاف والحاء أصلٌ صحيح يدلُّ على إقبال ذكرٍ لأنثى، ثم يقاس عليه ما يشبهه. منه لِقَاحُ النَّعَمِ وَالشَّجَرِ. أَمَّا النَّعَمُ فَيُلْقِحُهَا دُكْرَانُهَا، وَأَمَّا الشَّجَرُ فَيُلْقِحُهُ الرِّيحُ. ورياحٌ لواقح: تُلقح السحاب بالماء، وتلقح الشجر. (٢)

و الأثر جاء بالمعنيين فابن كثير يروي عن عبد الله بن مسعود ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادة أنهم قالوا : ترسل الرياح، فتحمل الماء من السماء، ثم تمرى السحاب، حتى تدر كما تدر اللقحة. وروى الطبري عن ابن عباس والحسن أنها تلقح الشجر (٣)

ولكننا إذا تأملنا السياق الذي جاء وصف الرياح به بأنها لواقح ونظم الآية يكون أسعد بحمل ذلك على تلقيح السحاب لا الشجر ، فعلى الرغم من أن الآية أطلقت وصف لواقح دون أن تقيده بشجر أو سحاب جاء التعقيب الفوري بالفاء { فأنزّلنا من السماء ماء } ولا ذكر للشجر ولا للنبات هنا بل الإمتنان بنزول الماء للسقيا "فأسقيناكموه " وزيادة في إظهار معنى القدرة والامتنان أتبع بقوله تعالى " وما أنتم له بخازنين " فالكلام لا يزال على الماء لا على النبات . وبالرغم من كل ذلك فلا إنكار لصحته العلمية كما تبين قبل قليل .

تعقيب :

كلام ابن عاشور بشكل عام صحيح لكثته مجمل والعلم الحديث أكثر تفصيلا .

(١) رضا ، محمد رشيد ، المنار ١/١٧٦

(٢) ابن فارس مقاييس اللغة مصدر سابق ٥ / ٢١٠ (٣) الطبري جامع البيان مصدر سابق ١٧/٨٧-٨٨

المبحث الثاني : بعض الأشجار والنباتات المذكورة في القرآن الكريم :

المطلب الأول : المن و الخردل :

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِنْ طَبَقَاتِ مَا

رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ [البقرة] ، و يقول ابن عاشور - رحمه

الله - : " والمن مادة صمغية جوية ينزل على شجر البادية شبه الدقيق المبلول ، فيه حلاوة إلى الحموضة ولونه إلى الصفرة ويكثر بوادي تركستان وقد ينزل بقلّة في غيرها ولم يكن يعرف قبل في برية سيناء. وقد وصفته التوراة بأنه، دقيق مثل القشور يسقط ندى كالجليد على الأرض وهو مثل بزر الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بعسل وسمته بنو إسرائيل منا، وقد أمروا أن لا يبقوا منه للصباح لأنه يتولد فيه دود وأن يلتقطوه قبل أن تحمي الشمس لأنها تذيبه فكانوا إذا التقطوه طحنوه بالرحا أو دقوه بالهاون وطبخوه في القدور وعلوه مِلَات (١) وكان طعمه كطعم قطائف بزيت وأنهم أكلوه أربعين سنة حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان يريد إلى حبرون" (٢)

كلام المعاصرين :

إنّ أهم ما في التعريف بالمنّ أن هذا المن هو مادة نباتية صمغية والعلم الحديث يقول أن الآية الكريمة تشير إلى ظاهرة إفراز بعض النباتات للمواد الصمغية على سطحها الخارجي في موضع الساق أوالأوراق وأحيانا يلجأ المزارعون الى استنهاض الشجر على إخراج سوائلها للقيمة الاقتصادية وإلا كيف يستخرج المطاط فانه تعالى قد امتن على بني اسرائيل ان رزقهم شجرة تخرج هذه المادة السكرية والتي تصلح غذاءً غنيا (٣) . فتفسير ابن عاشور موافق للعلم الحديث .

كلام ابن عاشور :

ويعرّف بنبات الخردل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ

(١) الفعل (ملا) قال ابن منظور : الملاوة والملا . . . كله مُدّة العيش . ا ه ، لسان العرب فربّما تعني أنهم

عملوه قوت وادّخروه . وقد ثبت أكلهم له . انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن ٢٨٠/١

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٤٩٢/١-٤٩٣ (٣) انظر د. المليجي ، النبات ٤٥-٤٦

نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء]

فيقول : " . . . والخردل: حبوب دقيقة كحب السمسم هي بذور شجر يسمى عند العرب الخردل. واسمه في علم النبات "سينابيس". وهو صنفان بري وبستاني، وينبت في الهند ومصر وأوروبا. وشجرته ذات ساق دقيقة ينتهي ارتفاعها إلى نحو متر، وأوراقها كبيرة. يخرج أزهار صفرا منها تتكون بزوره إذ تخرج في مزادات صغيرة مملوءة من هذا الحب، تخرج خضراء ثم تصير سوداء مثل الخرنوب الصغير. وإذا دق هذا الحب ظهرت منه رائحة معطرة إذا قربت من الأنف شما دمعت العينان، وإذا وضع معجونها على الجلد أحدث فيه بعد هنيهة لذعا وحرارة ثم لا يستطيع الجلد تحملها طويلا ويترك موضعه من الجلد شديد الحمرة لتجمع الدم بظاهر الجلد ولذلك يجعل معجونه بالماء دواء يوضع على المحل المصاب باحتقان الدم مثل ذات الجنب والنزلات الصدرية. " (١)

كلام المعاصرين :

وهذا الكلام من ابن عاشور صحيح حيث يقول الدكتور المليجي : إن نبات الخردل نبات عشبي يزرع في معظم بلدان العالم وجميع أعضائه وطعمه الحار يرجع لوجود مواد كبريتية في أنسجته ويعتبر الخردل من النباتات الطبية فهو يعالج الروماتيزم والسعال والنزلات الشعبية ولعل السبب في ذكر حبه هنا دون غيره من الحبوب أن بذوره دقيقة الحجم سوداء اللون لا تميز من بين حبات الرمل والتراب ، فسبحان من يحيط بها . (٢)

تعقيب :

كلام ابن عاشور في التعريف بكل من الصنفين صحيح علميًا .

(١) ابن عاشور / التحرير ٦٣/١٧

(٢) د،المليجي النبات ٢٧٧-٢٧٨

المطلب الثاني : الزيتون :

كلام ابن عاشور :

وفيما يتعلق بشجرة الزيتون فإن ابن عاشور له ملحظ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ

مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبَّغٌ لِلْأَكْلِينَ ﴾ [المؤمنون] فهو يقول :

" وقوله : {تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ} يقتضي أن لها مزيد اختصاص بطور سيناء. وقد غمض وجه ذلك. والذي أراه أن الخروج مستعمل في معنى النشأة والتخلق كقوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى} . . . فيظهر أن المعنى أن الله خلق أول شجر الزيتون في طور سيناء، وذلك أن الأجناس والأنواع الموجودة على الكرة الأرضية لا بد لها من مواطن كان فيها ابتداء وجودها قبل وجودها في غيرها لأن بعض الأمكنة تكون أسعد لنشأة بعض الموجودات من بعض آخر لمناسبة بين طبيعة المكان وطبيعة الشيء الموجود فيه من حرارة أو برودة أو اعتدال، وكذلك فصول السنة كالربيع لبعض الحيوان والشتاء لبعض آخر والصيف لبعض غيرها فانه تعالى يوجد الموجودات في الأحوال المناسبة لها فالحيوان والنبات كله جار على هذا القانون .

. . . فلعل جو طور سيناء لتوسطه بين المناطق المتطرفة حرا وبردا ولتوسط ارتفاعه بين النجود والسهول يكون أسعد بطبع فصيلة الزيتون كما قال تعالى: {زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} ، فانه تعالى هيا لتكوينها حين أراد تكوينها ذلك المكان . . . ثم يكون الزيتون قد نقل من أول مكان ظهر فيه إلى أمكنة أخرى نقله إليها ساكنوها للانتفاع به فنجح في بعضها ولم ينجح في بعض . . .

والتعبير بالمضارع في قوله: {تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ} لاستحضار الصورة العجيبة المهمة التي كونت بها تلك الشجرة في أول تكوينها حتى كأن السامع يبصرها خارجة بالنبات في طور سيناء. وذلك كقوله: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} . وهذا أنسب بالوجه الأول في تفسير معنى {تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ} . " (١)

ويقول في تفسيره لقول الله تعالى أيضاً: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

فِيهَا مِصْبَاحٌ مِّمَّصْبَاحٍ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ

زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ [النور].

" ووصف الزيتون بالمباركة لما فيها من كثرة النفع فإنها ينتفع بحبها أكلا وبزيتها كذلك ويستتار بزيتها ويدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة، وينتفع بحطبها وهو أحسن حطب لأن فيه المادة الدهنية قال تعالى: {تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ} ، وينتفع بجودة هواء غاباتها.

وقد قيل إن بركتها لأنها من شجر بلاد الشام والشام بلد مبارك من عهد إبراهيم عليه السلام قال تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} يريد أرض الشام، ووصف الزيتون ب {مُبَارَكَةٌ} على هذا وصف كاشف، ويجوز أن يكون وصفا مخصصا ل {زَيْتُونَةٍ} أي: شجرة ذات بركة، أي نماء ووفرة ثمر من بين شجر الزيتون . . .

وقوله: {لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} وصف ل {زَيْتُونَةٍ} ... والمعنى: إنها زيتونة جهتها بين جهة الشرق وجهة الغرب، فنفي عنها أن تكون شرقية وأن تكون غربية. وهذا الاستعمال من قبيل الكناية لأن المقصود لازم المعنى لا صريحه. وأما إذا لم يكن الأمران المنفيان متضادين فإن نفيهما لا يقتضي أكثر من نفي وقوعهما كقوله تعالى: {وَوَظَلُّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} . . .

ثم يحتمل أن يكون معنى: {لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} أنها نابئة في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها وذلك هو البلاد الشامية، وقد قيل إن أصل منبت شجرة الزيتون بلاد الشام. ويحتمل أن يكون المعنى أن جهة تلك الشجرة من بين ما يحف بها من شجر الزيتون موقع غير شرق الشمس وغربها وهو أن تكون متجهة إلى الجنوب. أي لا يحجبها عن جهة الجنوب حاجب وذلك أنفع لحياة الشجرة وطيب ثمرتها، فبذلك يكون زيتها أجود وإذا كان أجود كان أشد وقودا ولذلك أتبع بجملة {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ} وهي في موضع الحال. (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى قضايا علمية مهمة تتعلق بالزيتون ومن تلك القضايا :

أولا : أن في إضافة شجرة الزيتون لطور سيناء وخروجها منه في قوله تعالى ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ

طُورِ سَيْنَاءَ ۗ ﴾ [المؤمنون:] إشارة إلى أن بعض البقاع من الأرض أسعد من بعض في

ملاءمتها لأنواع الزروع فطور سيناء كان أول مكان وضع الله تعالى فيه الزيتون في الأرض وأخذ ذلك من دلالة قوله تعالى : {تخرج من طور سيناء }

ثانيا : القضية الأخرى هي وصف الزيتون بالبركة وابن عاشور يفسرها بكثرة نفعها فإنها ينتفع بحبها أكلا وبزيتها كذلك ويستنار بزيتها ويدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة. . .

ثالثا : وصف الشجرة ب{لا شرقية ولا غربية } حيث يرى ابن عاشور فيها احتمالين :

الأول : أنها نابذة في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها وذلك هو البلاد الشامية.

الثاني : ويحتمل أن يكون المعنى أن جهة تلك الشجرة من بين ما يحف بها من شجر الزيتون

موقع غير شرق الشمس وغربها وهو أن تكون متجهة إلى الجنوب. أي لا يحجبها عن جهة

الجنوب حاجب وذلك أنفع لحياة الشجرة. . .

كلام المعاصرين :

في إضافة شجرة الزيتون لطور سيناء وخروجها منه فإن رأي ابن عاشور يؤكد العلم الحديث حيث يقول الدكتور زغلول النجار : " أن زراعته انتقلت أصلا من شبه جزيرة سيناء إلى باقي أجزاء حوض البحر الأبيض المتوسط. وأحد هذين الصنفين يعرف باسم الزيتون التفاحي، ويتميز بثمرته الكبيرة الحجم نسبيا، والقليلة الزيت نسبيا، ولذلك يصلح أكثر للتخليل، وتكثر زراعة هذا الصنف في واحات صحراء مصر الغربية وفي منطقة الفيوم. أما الصنف الآخر فيعرف باسم الزيتون الشمالي ويمتاز بثماره الصغيرة الحجم نسبيا والغنية بالزيت ولذلك يصلح للعصر واستخراج ما به من زيت، وتكثر زراعته في شبه جزيرة سيناء وعلو طول سواحل البحر الأبيض المتوسط .

والآية القرآنية الكريمة . . . تشير بوضوح إلى شجرة الزيتون التي تؤكل ثمارها، ويؤتم بزيتها وبما فيه من منافع، وقد جاءت الإشارة إليها منسوبة إلى طور سيناء مما يرجح أن هذه المنطقة هي أصل منبت شجرة الزيتون، كما ترجح وجود ميزات للصنف من الزيتون الذي منبت في تلك المنطقة تميزه عن غيره " (١)

ثانيا : القضية الأخرى هي وصف الزيتون بالبركة فابن عاشور يفسرها بكثرة نفعها فإنها ينتفع بحبها أكلا وبزيتها كذلك ويستتار بزيتها ويدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة

ومما قاله المعاصرون ما بينه الدكتور النجار من أنّ " زيت الزيتون يحتوي علي البروتينات وعلي نسب متفاوتة من عناصر البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنسيوم، والفسفور والحديد، والنحاس، والكبريت وغيرها بالإضافة إلي نسبة من الألياف، وتدخل هذه المكونات في بناء حوالي الألف مركب كيميائي حيوي في زيت الزيتون، كلها نافعة لجسم الإنسان وبعضها ضروري لسلامته، ومن هنا كان فضل هذا الزيت علي غيره من الدهون والزيوت التي تمثل مركبات عضوية لها تركيب كيميائي متشابه فإذا بقيت سائلة عند درجة حرارة (٢٠) درجة مئوية سميت زيتا، وإذا بقيت جامدة عند نفس الدرجة سميت دهنا، ومنها الدهون المتعادلة، والشموع، والدهون المعقدة (الليبيدات المختلفة).... وأفضل الزيوت النباتية علي الإطلاق هو زيت الزيتون، وذلك لما أعطاه الله تعالى من خاصية خفض ضغط الدم، وتقليل امتصاص الجسم للكوليسترول بصفة عامة وإنقاص المعدل الكلي للكوليسترول في الدم بحوالي ١٣%، وإنقاص معدل الكوليسترول الضار في الدم والمعروف باسم الكوليسترول الخفيف. بنسبة ٢١% فيرفع بذلك نسبة الكوليسترول المفيد نسبيا في الدم، والمعروف باسم الكوليسترول الثقيل ، ومن الثابت طبيا أنه كلما انخفضت نسبة الكوليسترول الضار وزادت نسبة المفيد منه في الدم كلما قلت نسبة الاصابة بالجلطات القلبية خاصة الاصابة المعروفة باسم احتشاء العضلة القلبية، وعلي ذلك فإن تناول زيت الزيتون بكميات منتظمة يحمي القلب من أمراض انسداد الشرايين وهي من أكثر الامراض إنتشارا في الزمن الحاضر، خاصة في الدول الغنية التي يبالغ أفرادها في تناول الطعام إلي حد التخمة. وعلي الرغم من ذلك فقد لوحظ أن أقل نسبة إصابة بمرض الشرايين التاجية (الإكليلية) القلبية يوجد في حوض البحر الأبيض المتوسط خاصة في بلدانه التي يتناول أفرادها الزيتون وزيته بكميات ثابتة ومنتظمة، ويعتبرون كلا من هذه الثمرة المباركة وزيتها مصدرا أساسيا للدسم في طعامهم مما يشير الي الدور الفاعل لهما في الوقاية من أمراض شرايين القلب، خاصة أنه ثبت بالتحليل الدقيق احتواء كل من الثمرة وزيتها علي مركبات كيميائية تمنع تخثر الدم. وانطلاقا من ذلك يوصي الأطباء كل من أجريت لهم

عمليات توسعة شرايين القلب بتناول ٤-٥ ملاعق من زيت الزيتون يوميا وبشكل روتيني كجزء من العلاج. (١)

أما عن المعنى الذي ذهب إليه ابن عاشور في وصفها ب{لا شرقية ولا غربية} وهو أنها في موقع متوسط فقد قال المتخصصون أن شجر الزيتون يتأثر بالظروف المحيطة به فهو بحاجة الى درجة حرارة معتدلة ودرجة رطوبة معتدلة ودرجة إضاءة معتدلة ومن المعروف أنها تنبت في مكان متوسط في العالم حيث لا تقع في الغرب حيث البرودة القارصة والرطوبة المفرطة ولا تقع في موقع متطرف في الشرق حيث درجات الحرارة العالية والجفاف (٢).

ثالثا: وصف الشجرة ب{لا شرقية ولا غربية} حيث يرى ابن عاشور فيها احتمالين الأول: أن يكون معنى: {لا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ} أنها نابتة في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها وذلك هو البلاد الشامية. والثاني: ويحتمل أن يكون المعنى أن تكون متجهة إلى الجنوب. أي لا يحجبها عن جهة الجنوب حاجب.

وإذا نظرنا في المأثور نجد أن المشهور هو المعنى الثاني عند ابن عاشور أي أنها ضاحية للشمس لا يظلمها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شيء من حين تطلع إلى أن تغرب وذلك أحسن لزيتها وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والكلبي (٣) والقول القائل بأنها في موقع متوسط في الأرض غير خارج عن الأثر فقد ورد عن زيد بن أسلم (٤)، وهناك قول آخر روي عن الحسن البصري وهو أنها: ليست من شجر الدنيا، ليست شرقية ولا غربية (٥). ولعل الراجح أن يدور الأمر بين المعنى الأول والثاني فكلاهما محتمل خاصة إذا رجعنا لقول المعاصرين في المسألة الذي ذكر آنفاً.

(١) انظر د. النجار، النبات في القرآن، ٢٧٩-٢٨٠، وانظر: لجنة من علماء الأزهر، (١٩٩٥م)،

المنتخب من تفسير القرآن الكريم، ط١٨، ٣٤٢/٢ مؤسسة الأهرام، مصر

(٢) انظر د. المليجي، علم النبات، مصدر سابق ٢٤٣

(٣) انظر ابن كثير تفسير القرآن، مصدر سابق ٦/٥٩-٦٠

(٤) المرجع نفسه ٦/٦٠

(٥) ابن جرير جامع البيان مصدر سابق ١٨٢/١٩

شواهد أخرى :

في إضافة شجرة الزيتون لطور سيناء وخروجها منه فإن رأي ابن عاشور ذهب له غير واحد من المفسرين يقول الرازي : قال المفسرون وإنما أضافها الله تعالى إلى هذا الجبل لأن منها تشعبت في البلاد وانتشرت ولأن معظمها هناك .^(١)

تعقيب :

كلام ابن عاشور فيما يتعلق بالزيتون في كل تفصيلاته صحيح لكنه مجمل والعلم الحديث فصل ذلك الإجمال وبيّن فوائد الزيتون الطبيّة بتوسّع .

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٢٦٩/٢٣

المطلب الثالث : التين

كلام ابن عاشور :

ويقول معرفا بالتين في تفسير قول الله تعالى ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ [التين] :

" . . . والتين ظاهرة : الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي ثمرة يشبه شكلها شكل الكمثرى ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التفشير تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة مخلوط ببزور دقيقة مثل السمس الصغير، وهي من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته، فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيدان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج." (١)

كلام المعاصرين :

يعرف ابن عاشور بالتين هنا ، وأقول : لقد جاء القسم الالهي بالتين وما ذلك إلا لأهميتها فهي شجرة تتحمل الجفاف وقلة الماء ، وبالنسبة لثمرها فهو يكفي الإنسان من الجوع فضلا عن العطش فإذا تناوله إنسان يشعر بالعطش والجوع فيكفيه لذلك أن يتناول بضع ثمرات من التين. (٢) وللتين فوائد كثيرة حيث يشير الدكتور سلطان التمياط إلى أن التين يعتبر من أفضل الأطعمة للجهاز الهضمي وذلك لاحتوائه على الألياف فينصح بتناوله قبل الوجبات الثقيلة ، وهو من أفضل ما يعالج به أمراض الجهاز التنفسي وأمراض الحلق خاصة إذا أخذ طازجا . (٣) ثم إن التين قلوي يزيل حموضة الجسم التي هي منشأ الأمراض وهبوط القوى والشعور بالوهن وأنه يغسل الكلى والمسالك البولية ، والمواد الفاعلة في التين هي مواد مطهرة يمكن استخدامها في معالجة الحروق والجروح النتنة وذلك بتغميرها بثمار التين ، ويفد التين في معالجة الإمساك المستعصي . والتين مصدر مهم من مصادر الفيتامينات المختلفة التي تقوي الجسم . (٤)

تعقيب : فكلام ابن عاشور مجمل في فوائد التين وكلام العلم الحديث موسّع .

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٣٧١/٣٠ ،

(٢) د. المليجي ، النبات ، مصدر سابق ٤٣٣-٤٣٤

(٣) د. التمياط ، سلطان . فوائد التين طبيًا وعلاجيا ، على شبكة الإنترنت ، www.alhasa.com

تاريخ الإضافة ٢٠١٠/٧/٧م

(٤) مارديني ، موسوعة الإعجاز العلمي ٣٢٣ - ٣٢٤

المبحث الثالث : ذكر بعض القضايا المتناثرة في النبات

كلام ابن عاشور :

ويبين ابن عاشور ما يتعلق بقضية الإدخار للحبوب وبعض شروطها فيقول في تفسير قول

الله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧)

[يوسف]: " وكان ما أشار به يوسف - عليه السلام - على الملك من الادخار تمهيدا لشرع ادخار الأقوات للتموين، كما كان الوفاء في الكيل والميزان ابتداء دعوة شعيب - عليه السلام - وأشار إلى إبقاء ما فضل عن أقواتهم في سنبله ليكون أسلم له من إصابة السوس الذي يصيب الحب إذا تراكم بعضه على بعض فإذا كان في سنبله دفع عنه السوس، " (١)

كلام العلم الحديث :

إنّ القضية المذكورة في كلام ابن عاشور صحيحة علميا حيث يقول العلم الحديث : إن بقاء القمح في أغلفته تعزلها عن الهواء المحمل بالجراثيم وتوفر لها الحماية من الحشرات الثاقبة للبدور ، وهي تمنع الرطوبة وبالتالي تسهم في عدم الإنبات (٢) أثناء الخزن .

تعقيب :

فكلام ابن عاشور دقيق وصحيح علميًا .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٧٤/١٢

(٢) المليحي ، النبات في القرآن ١٦٧

كلام ابن عاشور :

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾

﴿ ٨٠ ﴾ [يس] : " والمراد بالشجر هنا: شجر المرخ "بفتح الميم وسكون الراء" وشجر العفار

"بفتح العين المهملة وفتح الفاء" فهما شجران يقتدح بأغصانهما يؤخذ غصن من هذا وغصن من الآخر بمقدار المسواك وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتنتدح النار، يقال: يجعل العفار أعلى والمرخ أسفل، وقيل العكس لأن الجوهرى وابن سيده في "المخصص" قالوا: العفار هو الزند وهو الذكر والمرخ الأنثى وهو الزند. وقال الزمخشري في "الكشاف": المرخ الذكر والعفار الأنثى، والنار هي سقط الزند، وهو ما يخرج عند الاقتداح مشتعلا فيوضع تحته شيء قابل للالتهاب من تبن أو ثوب به زيت فتخطف فيه النار. والمفاجأة الاستفادة من {إِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ} دالة على عجيب إلهام الله البشر لاستعمال الاقتداح بالشجر الأخضر واهتدائهم إلى خاصيته. (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور هنا إلى أن المراد بالشجر هنا: شجر المرخ وشجر العفار فهما شجران يقتدح بأغصانهما يؤخذ غصن من هذا وغصن من الآخر بمقدار المسواك وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتنتدح النار .

كلام المعاصرين :

ابن عاشور يخصص الشجر بالصنفين المذكورين والعلم الحديث يجعل اللفظ على عمومه فيقول : إن عملية التركيب الضوئي تؤدي الى تخزين طاقة الشمس في جسم الشجر الأخضر لحين الحاجة إليها واليخضور هو مخزن لطاقة الشمس، ولولاه لما تم تخزين الطاقة ، فبعد سلسلة من التفاعلات فان نتاج البناء الضوئي من المواد الكربونية النشوية يتحول إلى صور أخرى من المنتجات العضوية المفعمة بالطاقة الشمسية وهي محتويات الغذاء النباتي كالنشويات والبروتينات والدهون بالإضافة الى كتل من الأخشاب و الأصماغ والفحم والغاز (٢) التي يتم إيقادها والاستفادة منها .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٢٢/٢٨٠

(٢) د. المليجي النبات مصدر سابق ٣١١

شواهد أخرى :

ما ذهب إليه ابن عاشور قد أشار إليه غيره من المفسرين ، كالبيضاوي (١) ، وهذا أحد وجوه تفسير هذه الآية وهو يكشف عن خصائص هذين الصنفين من النبات . ولكني أقول : إن لفظ الآية عام فلماذا يخصصه المفسرون ؟ هذا السؤال يجعلني أميل إلى تفسير الآية بما بينه العلم الحديث .

تعقيب :

رأي ابن عاشور مرجوح برأي العلم الحديث الذي أراه أنسب للغة الآية .

الفصل الثاني : خصائص بعض الحيوانات وعجائب خلقتها

المبحث الأول : ما يؤكل لحمه غالبا .

المطلب الأول : الأنعام وإخراج اللبن السائغ من ضروعها.

المطلب الثاني : الحوت .

المطلب الثالث : الخيل .

المطلب الرابع : الإبل وعجائب خلقها .

المبحث الثاني : ما لا يؤكل لحمه غالبا :

المطلب الأول : الكلاب وسر لهاتها .

المطلب الثاني : اللؤلؤ .

المبحث الأول : ما يؤكل لحمه غالبا .

المطلب الأول : الأنعام وإخراج اللبن السائغ من ضروعها

كلام ابن عاشور :

يقول الطاهر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّئَلَّا تُسْقِيَكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ

مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّرِبِۖ ۗ ﴾ [النحل] : " . . . ووجه العبرة في ذلك أن ما

تحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المعدة، ثم الكبد، ثم غدد الضرع، مانعا يسقى وهو مفرز من بين فرث ودم. والفرث: الفضلات التي تركها الهضم المعدي فتتحد إلى الأمعاء فتصير فرثا. والدم: إفراز تفرزه الكبد^(١) من الغذاء المنحدر إليه ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيكية إلى الشرايين والعروق ويبقى يدور كذلك بواسطة القلب. . . . ومعنى كون اللبن من بين الفرث والدم أنه إفراز حاصل في حين إفراز الدم وإفراز الفرث. وعلاقته بالفرث أن الدم الذي ينحدر في عروق الضرع يمر بجوار الفضلات البولية والثقلية، فتفرزه غدد الضرع لبنا كما تفرزه غدد الكليتين بولا بدون معالجة زائدة، وكما تفرز تكاميش الأمعاء ثفر بدون معالجة بخلاف إفراز غدد المثانة للمني^(٢) لتوقفه على معالجة ينحدر بها الدم إليها. وليس المراد أن اللبن يتميع من بين طبقتي فرث ودم، وإنما الذي أوهم ذلك من توهمه حمله {بين} على حقيقتها من ظرف المكان... فمن بلاغة القرآن هذا التعبير القريب للأفهام لكل طبقة من الناس بحسب مبالغ علمهم، مع كونه موافقا للحقيقة. والمعنى: إفراز ليس هو بدم لأنه ألين من الدم، ولأنه غير باق في عروق الضرع كبقاء الدم في العروق، فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه، وليس هو بالفضلة لأنه إفراز طاهر نافع مغذ، وليس قدرا ضارا غير صالح للتغذية كالبول والثقل. وموقع {مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ} موقع الصفة لـ {لبنا} ، قدمت عليه للاهتمام بها لأنها موضع العبرة، فكان لها مزيد اهتمام، وقد صارت بالتقديم حالا. ولما كان اللبن يحصل في الضرع لا في البطن جعل مفعولا لـ {تُسْقِيَكُمُ}، وجعل {مِمَّا فِي بُطُونِهِ} تبيينا لمصدره لا لمورده، فليس اللبن مما في البطن؛ ولذلك كان {مِمَّا فِي بُطُونِهِ} متقدما في الذكر ليظهر أنه متعلق بفعل {تُسْقِيَكُمُ} وليس وصفا للبن. " (٣)

(١) أصل تكون الدم تفصيله في الباب الرابع الفصل الثالث ص ٣١٨-٣١٩

(٢) هذا من الأخطاء العلمية عند ابن عاشور لأنّ تكون المنى في غدد التناسل لا في المثانة .

(٣) ابن عاشور التحرير ١٦٢/١٣

ثم بين بعد ذلك المراد بخلوص اللبن ودلالة هذا الوصف على الإعجاز ، فقال : " وقد أحاط بالأوصاف التي ذكرناها للبن قوله تعالى: {خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ}. فخلوصه نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل، وسوغه للشاربين سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهمه. وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذ أن يعرف دقائق تكوينه، ولا أن يأتي على وصفه بما لو وصف به العالم الطبيعي لم يصفه بأوجز من هذا وأجمع. " (١)

التحليل :

يبين ابن عاشور أن الآية السابقة فيها إعجاز علمي ويبدأ ببيان ذلك بتعريفه بالفرت ، وكذلك الدم وأصل تكوينه وقد تمّ الحديث عنه سابقاً ، ويبين بشكل علمي كيفية تكون اللبن بل كل من البول واللبن والفرت والمني كل في جهاز إفرازه وبشكل عام فاللبن في نظر الشيخ هو نتاج مرور الدم الذي تكون في الكبد وتوزع بالدورة الدموية ووصله إلى الضرع وغدد اللبن التي فيه حيث يصير لبنا بعد ذلك بإذن الله تعالى .

ووصف اللبن بالسائغ للشاربين يبينه بأن خلوصه نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل، وسوغه للشاربين سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه والخالص : الصافي. والسائغ : السهل المرور في الحلق .

كلام المعاصرين :

بشكل عام فإنّ كلام ابن عاشور له صحته العلمية ، وهو يوافق ما جاء به العلم الحديث حيث يقول الدكتور موريس بوكاي : تتكون المواد الأساسية التي تؤمن تغذية الجسم من تحولات كيميائية تجري في طول القناة الهضمية وعندما تصل إلى المرحلة المراد فيها التحول الكيميائي تمر عبر غشاوة نحو الدورة الدموية العامة إما بالشاربين للمفاوية أو بالدورة التي تسوقها إلى الكبد ... فتتمر بشكل عام بالدورة الدموية .

إن مركبات الحليب ترشح من الغدد الرضعية التي تتغذى من حصيلة هضم الأغذية التي تصلها بواسطة الدم السائل إذ يلعب دور المصدر والمورد للمواد المستخلصة من الأغذية ليجلب الغذاء للغدد الرضعية المنتجة للحليب كما تجلبه لغيرها من الأعضاء .

وهنا كل شيء ينشأ من منطلق وضع المحتوى المعوي بحضرة الدم في مستوى الجدار المعوي ذاته . هذا المفهوم الدقيق يرجع إلى أبحاث كيميائية وعضوية في عملية الهضم . وقد كانت مجهولة تماما في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ومعرفتها تعود إلى الفترة

الحديثة كما أن الدورة الدموية من تعريف هاري الذي ظهر بعد الوحي القرآني بما يقارب عشرة قرون (١)

أما عن الشطر الآخر من الآية ووصف اللبن بالسائغ فكلام الشيخ فيه صحيح فإني أرى أن هذه الأوصاف تضيي كل معاني الطهارة واللذة والسهولة في تناول اللبن يقول البغوي: " {سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ } هنيئًا يجري على السهولة في الحلق ، وقيل: إنه لم يغص أحد باللبن قط " (٢) ومكونات وعناصر اللبن تستخلص بعد هضم الطعام والأعلاف بعد تخمرها في معدة الاجترار (الفرث) وتجري مع مجرى الدم لتصل الى الغدد اللبنية في شروع الاناث التي تتولى استخلاص مكونات اللبن من بين الدم وتضاف اليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغا للشاربين (٣)

تعقيب :

كان كلام ابن عاشور في هذه المسألة موافق للعلوم المعاصرة التي فصلت ما أجمله ابن عاشور رحمه الله تعالى .

(١) د. بوكاي ، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، مصدر سابق ٢٣٥-٢٣٦

(٢) البغوي ، معالم التنزيل، مصدر سابق ٢٨/٥

(٣) انظر بازرة ، علي سليمان (٢٠٠٨م) ، سنريهم آياتنا في الأفاق ط ١ ص ٦٩ ط.جائزة دبي لحفظ القرآن الكريم .

المطلب الثاني : الحوت

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى ﴿ فَالْقَمَّةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات] ، يقول الشيخ ابن عاشور

مبيناً فصيلة الحوت الذي التقم يونس عليه السلام :

" والالتقام : البلع . والحوت الذي التقمه:حوت عظيم يبتلع الأشياء ولا يعض بأسنانه ويقال:إنه الحوت الذي يسمى "بَالَيْن" بالإفريقية " (١) .

كلام المعاصرين :

إنّ تعيين الشيخ ابن عاشور لنوع الحوت الذي التقم يونس عليه السلام كان دقيقاً فهو يبين أنه حوت عظيم يبتلع الأشياء ولا يعض بأسنانه وهو الحوت الذي يسمى "بَالَيْن" ، وقد بحثت فوجدت أن ذلك يدل على سعة أفق الشيخ واطلاعه وصحة هذا الكلام منه حيث يقول الدكتور النجار : أن من أضخم أنواع الحيتان الحوت الأزرق ويصنف ضمن الحيتان عديمة الأسنان حيث أن الحوت الأزرق له عدد من الألواح تتكون من مادة تعرف بالكيراتين تتراوح بين ثلاثمائة الى أربعمائة لوح تعرف باسم البالينات وتتدلى من جانب الفك العلوي هذا الحوت الذي يتسع (٥٠طن) من الماء في الرشفة الواحدة ويرتفع رأسه عن الماء كل ١٠-١٥ دقيقة ليتنفس ، . . . من هنا يمكن أن يكون هذا النوع هو الذي ابتلع يونس عليه السلام (٢)

تعقيب :

كان كلام ابن عاشور موافق للعلوم المعاصرة ، ومع كل هذا أقول : ربّما كان الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس عليه السلام له أسنان والله تعالى حفظه من أن يأكله ، وهذا أبلغ من كونه بلا أسنان . أيضاً قضية حاجة الحوت لرفع رأسه في فترات متقاربة للتنفس ربّما جعلت النبيّ الكريم يتأذى من هذه الحركة العنيفة والله تعالى أعلم .

(١) ابن عاشور التحرير ٨٦/٢٣

(٢) د . النجار ، زغلول (٢٠٠٦م) ، الحيوان في القرآن ، ط١ ٣٩٧-٣٩٨ دار المعرفة بيروت

المطلب الثالث : الخيل

كلام ابن عاشور :

و في قول الله سبحانه و تعالى في حق سيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَئِيِّ

الضَفِينَتُ الْجِيَادُ ﴾ [٣١] فَقَالَ إِنَّ أَحَبَّتْ حُبَّ الْحَرِيرِ عَنْ ذِكْرِي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [٣٢] رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ

﴿ [٣٢] ﴾ [ص] يبين ابن عاشور معنى الآية فيقول :

" و {الصَّافِنَاتُ} : ... الصافن لا يكون إلا من الخيل والأفراس وهو الذي يقف على ثلاث قوائم
وطرف حافر القائمة الرابعة لا يمكن القائمة الرابعة من الأرض، وتلك من علامات خفته الدالة
على كرم أصل الفرس وحسن خلاله ، و{الجيادُ} : ... الفرس ذو الجودة، أي النفاسة، وكان
سليمان مولعا بالإكثار من الخيل والفرسان، فكانت خيله تعد بالآلاف . . . والمسح حقيقته:
إمرار اليد على الشيء لإزالة ما عليه من غبش أو ماء أو غبار وغير ذلك مما لا يراد بقاؤه
على الشيء ويكون باليد وبخرقة أو ثوب، وقد يطلق المسح مجازا على معان منها: الضرب
بالسيف يقال: مسحته بالسيف. ويقال: مسح السيف به. ولعل أصله كناية عن القتل بالسيف لأن
السيف يمسح عنه الدّم بعد الضرب به. والسوق: جمع ساق...
و {الأعناقُ} : جمع عنق وهو الرقبة. والباء في {بالسوق} مزيدة للتأكيد، أي تأكيد اتصال الفعل
بمفعوله . . . " (١)

ثم بين ما المقصود بالخير في الآيات وأن من الخير الخيل ، ثم أشار إلى معنى التواري وهو
الإختفاء واستعماله هنا للشمس وذلك أن نبي الله سليمان عليه السلام اشتغل بتلك الخيل والنظر
إليها حتى توارت الشمس بالحجاب ولم يصل صلاة العصر . و يبين كيف طفق نبي الله عليه
السلام مسحاً بالسوق والأعناق و عرض لأقوال المفسرين في ذلك فنقل القول القائل بأنه عليه
السلام : "طفق يمسح أعراف الخيل وسوقها بيده حبا لها" وكاد يرجحه لولا أنه يقتضي إجراء
ترتيب الجمل على خلاف مقتضى الظاهر كما بينه في النص المنقول ، ثم ذكر القول الآخر في
الآية وهو انه عليه السلام أخذ يضرب سيقانها وأعناقها فيقتلها وذكر استدراك بعض المفسرين
على ضعفه بأنه قتلها ثم وزعها على الفقراء وضعف هذا القول ثم انتقل للرأي الراجح عنده

(١) ابن عاشور التحرير ١٥٢-١٥١/٢٣

بأنَّ جَعَلَ المسح مستعاراً للتوسيم بسمة الخيل الموقوفة في سبيل الله بكي نار أو كشط . (١)
كلام المعاصرين :

وإذا ما رجعنا لعلم سلوك الحيوان الحديث وجدناه يشير إلى قضية مهمة تقودنا إلى فهم وتوجيه صحيح لفهم الآية وهي ما بيّنه الدكتور الفاضل زغول النجار - حفظه الله - من أنّ المسح لسيقان الخيل وأعناقها يلعب دوراً مهماً في تطمينها وأشعارها بالود والمحبة فجلد الخيل من أكثر أجزاء جسده حساسية للمس... وأكثر مناطق جسم الحصان حساسية للمس هي سيقانه وعنقه وما حول رأسه " (٢) وهذا يرجح المعنى القائل بأنه عليه السلام أخذ بمسح سيقانها وأعناقها على الحقيقة .

شواهد أخرى :

من القرائن الأخرى - غير العلميّة - التي ترجح الرأي السابق :
- أننا إذا تأملنا الآية ولم ننزعها من السياق نرى أن الآية التي قبلها وصفت سليمان عليه السلام بالعبودية وأي عبودية في قتل الخيل التي كانت من أهم أسباب النصر وإعلاء دين الله تعالى في الأرض .

- كان مما أشار إليه ابن عاشور أن الخيل من الخير الذي هو شيء ثمين وهذا صحيح فالخيل تشير للخير وقد جاء في الحديث " والخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" (٣) فكيف يقتلها نبي الله عليه السلام ؟

- بالرغم من قول بعض المفسرين : إنّ المقصود بالضمير في " توارت بالحجاب " هو الشمس والذي يدلّ لذلك من الآية هو {بالعشي} (٤) بل الأولى أن يعود على الخيل الوارد ذكرها وهذا ما حققه غير واحد من المفسرين على رأسهم الرّازي (٥) وعلامة الرافدين الألوّسي . (٦)
- إن المعنى الحقيقي للمسح هو ما ذكره الطاهر ابن عاشور من إمرار اليد على الشيء وإعمال الحقيقة أولى من المجاز بل لا يصر إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة .

تعقيب :

كلام ابن عاشور بشكل عام لا نرى فيه إشارات علميّة وبالرغم من عدم بُعد القول الذي رجّحه إلا أنّ القول المرجّح آنفاً أولى بالقبول في ظل ما جاء به العلم الحديث وعلم سلوك الحيوان .

(١) ابن عاشور التحرير ١٥١/٢٣-١٥٥

(٢) د . النجار ، الحيوان في القرآن ٢٩٣

(٣) مسلم ، الجامع المسند، حديث رقم (١٨٧١)

(٤) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٩٥

(٥) الرّازي ، مفاتيح الغيب ٣٩١/٢٦ (٦) الألوّسي ، روح المعاني ، مصدر سابق ١٧٩/٢٦

المطلب الرابع : الإبل وعجائب خلقتها .

كلام ابن عاشور :

يبين ابن عاشور بعض ما يتعلق بالإبل وعجائب خلقتها في تفسيره لقوله تعالى ﴿ أَفَلَا

يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ [الغاشية] ، فيقول : " ... وقد خلقها الله خلقا عجيبا بقوة

قوائمها ويسر بروكها لتيسير حمل الأمتعة عليها، وجعل أعناقها طويلة قوية ليتمكنها النهوض بما عليها من الأثقال بعد تحميلها أو بعد استراحتها في المنازل والمبارك، وجعل في بطونها أمعاء^(١) تخزن الطعام والماء بحيث تصبر على العطش إلى عشرة أيام في السير في المفاز مما يهلك فيما دونه غيرها من الحيوان. " ^(٢)

كلام المعاصرين :

لعل ما ذكره ابن عاشور هنا هو أشهر ما في الإبل أو أهم ما به من أوصاف ، وإن كانت مجملة ، ويفصل الأستاذ الدكتور زغلول النجار فيما يتعلق بالجمل وصفاته فيبين أن الجمل يتصف بصفات أخرى كضخامة الجسم ، وارتفاع القوائم وطول العنق في تناسق عجيب يمكن الجمل من السرعة في الحركة واتساع مجال الرؤية واختزان كميات من الماء والطعام والدهون والطاقة ، وله رأس ذو أذنين صغيرتين قليلتي البروز، فضلا عن أن الشعر يغطيها من كل جانب ليقبها من الرمال التي تحملها الرياح، وكما أن لها القدرة على الانثناء خلفاً والالتصاق بالرأس إذا ما هبت العواصف الرملية. ومنخرين يتخذان شكل شقين ضيقين محاطين بالشعر وحافتهما لحمية مما يسمح للجمل أن يغلقهما أمام ما تحمله الرياح إلى رنتيه من دقائق الرمال. ^(٣) وتبين علوم الأحياء أيضا أن ذيل الجمل يحمل كذلك على جانبيه شعرا يحمي الأجزاء الخلفية من حبات الرمل التي تثيرها الرياح والتي كأنها وابل من طلاقات الرصاص . ^(٤) ومما ذكره ابن عاشور أن طول رقبتة يساعد في حمله للأثقال وهذا كلام صحيح يفصله العلم الحديث الذي بين أن تفسير ذلك بقانون القوة في ذراعها تساوي المقاومة في ذراعها فإذا كان محور الارتكاز عند التقاء أقدامه بجسده، فإن حاصل ضرب وزن الرأس في طول الرقبة يُعادل الحمل في المسافة القصيرة بينه

(١) الجمل يخزن في سنامه لا أمعائه .

(٢) ابن عاشور التحرير ٢٧٠/٣٠

(٣) أ.د. النجار ، الحيوان في القرآن ، مصدر سابق ص ٢٧٤-٢٧٥

(٤) هلال موسوعة الإعجاز ، مصدر سابق ص ١٧٢

وبين محور الارتكاز عند أقدامه الأمامية، وتضاف إلى ذلك معاونة الأقدام الخلفية للجمل ورفعته .^(١)

" ومن أبرز مزايا الجمل قلة حاجته إلى الماء حيث يتحمل أسبوع لأسبوعين في الصيف وشهر إلى شهرين في الشتاء ^(٢)

وأما معدة الإبل فهي ذات أربعة أوجه وجهازه الهضمي قوى بحيث يستطيع أن هضم أي شئ بجانب الغذاء كالمطاط مثلا في الامكان الجافة .

إن الإبل لا تتنفس من فمها ولا تلهث أبداً مهما اشتد الحر أو استبد بها العطش، وهي بذلك تتجنب تبخر الماء من هذا السبيل. ^(٣)

للجمل أخفاف تساعد على الحركة على الرمال دون أن يغرز فيه وشفته مطاطيتان قاسيتان تلتهمان الأشواك الحادة وعيناه لهما رموش كثيفة مزدوجة وتتميز عيناه بقدرتها على التكبير حيث تريحه البعيد قريبا "

والجمل يخزن في سنامه كمية كبيرة من الدهن تعادل خمس وزنه تقريبا يستعمل كمصدر احتياطي للطاقة والماء وكذلك تتحمل الإبل تركيز البول في دمها نتيجة حصر البول دون حدوث تسمم . ^(٤)

تعقيب :

ابن عاشور يشير إلى أهم القضايا فهي بالرغم من أنها مجملة إلا أنها من أهم ما في الجمل من آيات وكلها صحيحة في حين أننا إذا انتقلنا إلى علم الحيوان وجدنا تفصيلات أخرى موسّعة.

(١) د. أبو العطا ، نظمي خليل ، فوائد في اليقظة والمنام ، الإبل . على شبكة الإنترنت www.albdoo.com تاريخ الإضافة ٢٠٠٨/٤/١٩م

(٢) بازرة ، سنريهم آياتنا ، مصدر سابق ص ٦٧

(٣) هلال ، موسوعة الإعجاز ، مصدر سابق ١٧٣

(٤) انظر د. الحتي ، (١٩٩٠م) ، الإبل العربية الأصيلة ، ط١ دار جروس لبنان الصفحات : ٧٣،٨٠

المبحث الثاني : ما لا يؤكل لحمه غالبا :

المطلب الأول : الكلاب وسر لهاثها

كلام ابن عاشور :

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا

فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ حَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ۝١٧٦﴾ [الأعراف]

" ... وهذا التمثيل من مبتكرات القرآن فان الله حالة تؤذن بحرج الكلب من جراء عسر تنفسه عن اضطراب باطنه وان لم يكن لاضطراب باطنه سبب آت من غيره فمعنى {إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ} أن تطارده وتهاجمه. مشتق من الحمل الذي هو الهجوم على أحد لقتاله . . . والكلب حيوان من ذوات الأربع ذو أنياب وأظفار كثير النبح في الليل قليل النوم فيه كثير النوم في النهار، يألف من يعاشره يحرس مكانه من الطارقين الذين لا يألفهم، ويحرس الأنعام التي يعاشرها، ويعدو على الذئب ويقبل التعليم لأنه ذكي. ويلهث إذا أتعب أو اشتد عليه الحر، ويلهث بدون ذلك لأن في خلقته ضيقا في مجاري النفس يرتاح له باللهث. . . واللهث سرعة التنفس مع امتداد اللسان لضيق النفس، وفعله بفتح الهاء وبكسرها، ومضارعه بفتحها لا غير، والمصدر اللهث بفتح اللام والهاء ويقال للهات بضم اللام لأنه من الأدواء. وليس بصوت (١)

التحليل :

يعرف ابن عاشور بفصيحة الكلاب ، ويبين أن من شأن الكلاب الهات الذي يبين أنه سرعة التنفس مع امتداد اللسان لضيق النفس .

ثم يبين السبب العلمي لهاثها بأن في خلقته ضيقا في مجاري النفس يرتاح له باللهث . ويبين أن هذا الهات يكون إذا أتعب ، أو اشتد عليه الحر، ويلهث بدون ذلك .

كلام المعاصرين :

أما العلم الحديث فيعرف باللهات بما يوافق تعريف ابن عاشور له فيقول الدكتور زغلول النجار فيه : أنّ " الأنفاس السريعة الضحلة التي يأخذها الكلب عن طريق فمه المفتوح، ولسانه المتدلي إلي الخارج " (١)

ويبين أسبابه بأنّ اللهات يكون " لتزويد جسمه بقدر كاف من الأكسجين، و ضبط كل من كمية الماء ودرجة الحرارة في الجسم، وتهويته في حالات الحر الشديد، والسبب في ذلك أن جسم الكلب لا يحمل غددا عرقية؛ إلا في باطن أقدامه فقط، وهذه لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك فإن الكلب يستعين بعملية (اللهات) لتعويض غيبة الغدد العرقية في غالبية جسمه، ولوجود الشعر الكثيف الذي يغطي أغلب الجسم فيرفع من درجة حرارته خاصة في غيبة الغدد العرقية التي تقوم بتنظيم درجة حرارة أجساد أغلب الكائنات الحية الأرضية." (٢)

وهذا يتعلق بلهث الكلب الذي لا يتعلق بسبب كالحمل عليه أو غير ذلك أما عن الأسباب الأخرى للهث عند الكلاب فيجملها الدكتور النجار بقوله :

"والكلب يلهث عادة عند ارتفاع درجة حرارة جسده بسبب ارتفاع درجة حرارة البيئة التي يحيا فيها، أو بسبب العطش، أو بسببهما معا، أو عند الإجهاد الشديد، أو الإعياء والمرض العضوي أو النفسي، أو عند الاستثارة والمفاجأة، أو عند الفرح والرضا بصفة عامة" (٣)

تعقيب :

وكلام ابن عاشور بشكل عام كان دقيقا فهو يبيّن أسباب لهات الكلاب وهي في وضع طبيعي دون أن يحمل عليها أي أنه يبين معنى قول الله تعالى : "أو تتركه يلهث" بأوضح مما قاله الآخرون . فيتبين من ذلك أن ابن عاشور قد أصاب في التعريف العلمي للهات عند الكلاب، وبيان بعض أسبابه .

(١) د. النجار ، الحيوان في القرآن ،مصدر سابق ص ٣٥٠

(٢) المرجع نفسه ص ٣٥٠

(٣) المرجع نفسه ص ٣٥١

المطلب الثاني : اللؤلؤ :

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن] ، ويقول الشيخ ابن عاشور

في تفسير الآية معرفا باللؤلؤ :

" وهو حبوب بيضاء وصفراء ذات بريق رقيق رقيق تستخرج من أجواف حيوان مائي حلزوني مستقر في غلاف ذي دفتين مغلفتين عليه يفتحها بحركة حيوية منه لامتصاص الماء الذي يسبح فيه ويسمى غلافه صدفا، فتوجد في جوف الحيوان حبة ذات بريق وهي تتفاوت بالكبر والصغر وبصفاء اللون وبياضه. وهذا الحيوان يوجد في عدة بحار ... وأجوده وأحسنه الذي يوجد منه في البحرين حيث مصب نهري الدجلة والفرات، ويستخرجه غواصون مدربون على التقاطه من قعر البحر بالغوص، يغوص الغائص مشدودا بحبل بيد من يمسكه على السفينة وينتقله بعد لحظة تكفيه لالتقاط. " (1)

تعقيب :

لقد تمت مناقشة هذه القضية في فصل البحار وبينت أن ابن عاشور قد أصاب في التعريف بأصل اللؤلؤ وكيف يتخلق بما يوافق علوم الأحياء .

الفصل الثالث : تفسير آيات الطيور

المبحث الأول : آية إمساك الطير في جو السماء

المبحث الثاني : طائر الهدد

المبحث الثالث : الغراب وطبائعه الخلقية

المبحث الأول : آية إمساك الطير في جو السماء

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧١﴾ [النحل] يقول الشيخ ابن عاشور في تفسيره للآية : " والجو:

الفضاء الذي بين الأرض والسماء. وإضافته إلى السماء لأنه يبدو متصلا بالقبة الزرقاء في ما يخال الناظر . والإمساك: الشد عن التفلت. . . والمراد هنا: ما يمسكهن عن السقوط إلى الأرض من دون إرادتها، وإمساك الله إياها خلقه الأجنحة لها والأذنان، وجعله الأجنحة والأذنان قابلة للبط، وخلق عظامها أخف من عظام الدواب بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذناها ونهضت بأعصابها خفت خفة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأن يخرق ما تحتها من الهواء إلا إذا قبضت من أجنحتها وأذناها وقوست أعصاب أصلابها عند إرادتها النزول إلى الأرض أو الانخفاض في الهواء. فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثم تقع متى شاءت أو عيبت. فلولا أن الله خلقها على تلك الحالة لما استمسكت، فسمي ذلك إمساكا على وجه الاستعارة، وهو لطف بها.

والرؤية: بصرية. وفعالها يتعدى بنفسه . . . وجمع الآيات لأن في الطير دلائل مختلفة : من خلقة الهواء، وخلقة أجساد الطير مناسبة للطيران في الهواء، وخلق الإلهام للطير بان يسبح في الجو، وبأن لا يسقط إلى الأرض إلا بإرادته. (١)

ويزيد ابن عاشور الكلام في قضية تسخير الطيور للطيران وخلقها بكيفية تلائم الطيران

فيقول في تفسير قول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ

بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ [الملك: ١٩] : " جيء في وصف الطير بـ {صافات} بصيغة الاسم لأن

الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران، فناسبه الاسم الدال على الثبات، وجيء في وصفهن بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد، أي ويجددن القبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عندما يحسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران . . .

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٣/١٩٠

وجملة {ويقبضن} في موضع نصب على الحال . . . ومعنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص في خفة عظامها وقوة حركة الجوانح وما جعل لهن من القوادم، وهي ريشات عشر هي مقادير ريش الجناح، وفي الخوافي وهي ما دونها من الجناح إلى منتهى ريشه، وما خلقه من شكل أجسادها المعين على نفوذها في الهواء فإن ذلك كله بخلق الله إياها مانعا لها من السقوط وليس ذلك بمعاليق يعلقها بها أحد كما يعلق المشعوذ بعض الصور بخيوط دقيقة لا تبدو للناظرين. " (١)

التحليل:

يشير الشيخ ابن عاشور في تفسير هذه الآيات إلى القضايا التالية :
الأولى : أن الآيات جاءت لتلفت الأنظار إلى جانب من جوانب قدرته سبحانه ولطفه بالمخلوقات التي هداها الله تعالى وسخرها للطيران .

ثانيها : أنَّ جوَّ السَّماء هو الفضاء الذي بين الأرض والسَّماء . (٢)

ثالثها : معنى إمساك الله تعالى للطيور بخلقها على نظام وهيئة تحفظها من السقوط ثم يبين ذلك بكلام علمي له صحته العلميّة

كلام المعاصرين:

يعرف الفاضل الدكتور النجار بخصائص الطيور التي منها :

- ١- الشكل الخارجي الانسيابي للجسم ليساعد على اختراق الهواء
- ٢- الجناحان المدعومان بعظام الطرفين الامامين والمشدودان الى الجسم بمفاصل واوتار تسهل الحركة
- ٣- الريش المغطي لمعظم الجسم
- ٤- خفة وزن الهيكل العظمي وامتلاؤه بالهواء مع صلابته وشدة التحامه
- ٥- حويصلات الهواء المنتشرة في جسمه
- ٦- تزويد الجهاز الهضمي بالحوصلة كمخزن للغذاء والقونصة تطحن الغذاء قبل وصوله للمعدة وكل ذلك لامداد الطائر بالطاقة
- ٧- رئات تتناسب مع قلة الاوكسجين في الطبقات العليا .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣٧/٢٩

(٢) وقال صاحب لسان العرب أنه : " جمع جَوٌّ وهو ما بين السماء والأرض وجَوُّ السماء الهواء الذي بين

السماء والأرض " ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ١٥٧/١٤

٨- القلب ذو الكفاءة العالية

٩- درجة حرارة الجسم لينجز عمليات الاحتراق الداخلي .

١٠- حدة البصر

١١- معرفة الاتجاهات والطرق (١)

تعقيب :

وهكذا يظل إمساك الله تعالى للطيور آية تدل على قدرته ولطفه سبحانه . قد بين الطاهر ابن عاشور بعض أسرارها العلمية الصحيحة ، وتوسع العلم الحديث في بيان أسرار وصفات أخرى للطيور .

(١) د. النجار ، الحيوان في القرآن ، مصدر سابق ٤٢١-٤٢٤

المبحث الثاني : الغراب وطبائعه الخلقية

كلام ابن عاشور :

ويتحدث ابن عاشور عن الغربان كنوع من أنواع الطيور التي ميزها الله تعالى بأمر خاصته وذلك في تفسير قول الله جل ثناؤه في قصة ابني آدم عليه السلام :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَّتِي عَجْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ

هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ [المائدة] فيقول : " وكان اختيار

الغراب لهذا العمل إما لأن الدفن حيلة في الغربان من قبل، وإما لأن الله اختاره لذلك لمناسبة ما يعترى الناظر إلى سواد لونه من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض النفس. ولعل هذا هو الأصل في تشاؤم العرب بالغراب، فقالوا: غراب البين. " (١)

كلام المعاصرين :

يشير ابن عاشور إلى قضية مهمة في علم سلوك الحيوان تتعلق بالغراب ، وهي أن اختيار الغراب لهذا العمل كان لأن الدفن حيلة في الغربان . وفي الحقيقة هذا الكلام سديد مقبول يدل على سعة ثقافة الشيخ وثقافته فيما يتعلق بعالم الحيوان وهذه الحقيقة قد بينها وأوضحها من بحثوا في أحوال الحيوانات والطيور من المعاصرين حيث تبين حديثاً " أن الغراب طائر شديد الذكاء ، ومن أوضح الأدلة على ذلك أنه يدفن موثاه ولا يتركها نهبا للجوارح من الطيور... أو للتعفن والتحلل ...وقد ثبت ان الغراب يقوم بحفر الارض بواسطة كل من مخالبه ومنقاره ليكون حفرة عميقة فيها ثم يقوم بطي جناحي الغراب الميت وضمها الى جنبه ورفع برفق لوضعه في قبره ثم يهيل عليه التراب حتى يخفي جسد الميت " (٢)

ومن أعجب ما يتعلق بالغربان أيضا تلك المحاكم التي تقام للعدل حيث يتم إنشاءها إما في أرض فضاء واسعة أو في حقل ويتم اصدار الحكم فاذا كان اغتصاب طعام لفرخ تهجم الغربان على الجاني لتنتف ريشه تماما كحال طائر جديد وفي حال الاعتداء على عش تلزم الجاني ببناء عش جديد للمعتدى عليه وفي حالة الاعتداء على انثى لآخر يقتل المعتدي ضربا بالمناقير حتى الموت ثم يؤخذ ليدفن . . . (٣) وليس الغربان وحدها بل هناك طائر اللقلق ثبت وجود محاكم يقيمها ويقتص بعضها من بعض (٤) فسبحان من هياها وألهمها ذلك .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٨٥-٨٦ / ٥

(٢) د. النجار ، الحيوان في القرآن ، مصدر سابق ٤٠٧

(٣) المرجع نفسه . (٤) د. فرّاج ، عز الدين ، عجائب المخلوقات ص ١٥٣

تعقيب :

إشارة ابن عاشور العلميّة إلى أنّ الدفن حيلة في الغربان صحيح وضّحها العلم الحديث والمختصون بعلم سلوك الحيوان .

المبحث الثالث : طائر الهدهد

كلام ابن عاشور :

وفي قول الله سبحانه وتعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ وَنَقَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى

أَلْهُدْهُدًا مَّ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ [النمل] ، وما يتعلق بطائر الهدهد والتعريف به يقول :

" والهدهد: نوع من الطير وهو ما يقرقر وفي رائحته نتن وفوق رأسه قرعة سوداء، وهو أسود البرائن، أصفر الأجفان، يفتات الحبوب والدود، يرى الماء من بعد ويحس به في باطن الأرض فإذا رفرف على موضع علم أن به ماء، وهذا سبب اتخاذه في جند سليمان. قال الجاحظ: يزعمون أنه هو الذي كان يدل سليمان على مواضع الماء في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها. " (١)

كلام المعاصرين :

وتقول علوم الأحياء في وصف هذا الطائر "طائر صغير يبلغ طوله ٣٠سم ويتميز بأرجله القصيرة وأقدامه العريضة ومخالبه القوية وتاجه الريشي الجميل وذيله المربع وريشه المزخرف ومنقاره الطويل الرقيق المعقوف قليلا إلى الأسفل وصوته ... ويتغذى على الحشرات ويرقاتها .. وديدان الأرض .. والهداهد من أكثر الطيور وفاءً لأمهاتها وحنانا على صغارها " (٢) وبالنسبة لعلم ما تحت الأرض فهو يعلم بالدود وهو تحت الأرض (٣) ويعلم بالماء كذلك وهو تحت سطح الأرض (٤)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور كلام سديد يدل على سعة إطلاعه وموسوعيته وعنايته بالجانب العلمي وهذا ما جعلني أفرد التفسير العلمي عند ابن عاشور بهذه الدراسة .

(١) ابن عاشور . التحرير ٢٣٢/١٩

(٢) د. النجار ، الحيوان في القرآن ، مصدر سابق ٤٣٣ / ٤٤٤

(٣) الشعراوي ، محمد متولي (١٩٩٩)، قصص الحيوان في القرآن الكريم ، ط١دار أخبار اليوم ، مصر

(٤) شهاب الدين ،حسن يوسف ، الهدهد . على شبكة الإنترنت 16/01/2010 ejabat.google.com

الفصل الرابع : تفسير آيات الحشرات

وفيه . . .

المبحث الأول : البعوضة وما فيها من أسرار .

المبحث الثاني : النحل .

المبحث الثالث : النمل .

المبحث الرابع : العنكبوت .

المبحث الخامس : الجراد و الفراش .

المبحث الأول : البعوضة وما فيها من أسرار

كلام ابن عاشور :

يعرف ابن عاشور بالبعوض في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا

مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ

﴿ [البقرة] فيقول : " والبعوضة واحدة البعوض وهي حشرة صغيرة طائرة ذات خرطوم

دقيق تحوم على الإنسان لتمتص بخرطومها من دمه غذاء لها، وتعرف في لغة هذيل بالخموش، وأهل تونس يسمونه الناموس واحدته الناموسة وقد جعلت هنا مثلاً لشدة الضعف والحقارة. " (١)

كلام المعاصرين :

ابن عاشور هنا يعرف بالبعوض تعريفاً مقتضياً كما مرّ . ويذكر فيه أنّ البعوض حشرة مصاصة للدماء، وأنها تعيش على الدم. ولكن هذه المعلومة ليست صحيحة ؟ تبين أنّ أنثى البعوض فقط هي التي تمص الدم. ولعلّ هناك سرّ آخر في ذكر الله سبحانه للبعوض بصيغتها المؤنثة وهو أنّ البعوضة المؤنثة أشد قوة وأكثر تعقيداً كما أنها هي التي تنتشر الأمراض وتنتشر في المنازل فذكور البعوض لا تظهر إلا في موسم التزاوج . (٢)

عندما تحط البعوضة على الهدف تقوم أولاً بشم الدم ومعرفة هل هو مناسب لها فإن لم تجده مناسباً تركته وذهبت تبحث عن غذاء آخر.

بعد أن تتأكد أن نوع الدم مناسب لها تقوم بالبحث عن مكان مناسب رقيق فيه كمية دم غزيرة كالأوردة الشعرية ثم تقوم بتحديد مكان معين بواسطة الشفاه الموجودة في الخرطوم. ثم تقوم ببيخ المكان الذي سوف تقوم بشقه بمادة مخدرة أشبه ما تكون بالمخدر الموضعي فالبعوضة لها إبرة مغلقة بغلاف خاص تخرجها عندما تقوم بمص الدم (والتي عبارة عن

(١) ابن عاشور التحرير ٣٥٧/١

(٢) د. متولي الموسوعة العلمية الذهبية ، مصدر سابق ٣٧٥ --- ٣٧٦

تجويف في الشفة العليا) إن الجلد لا يثقب بواسطة هذه الإبرة كما هو متصور. ولكن بواسطة الفك العلوي الذي يشبه السكين والفك السفلي الذي يحتوى على أسنان مائلة نحو الداخل. فالفك السفلي يعمل مقام المنشار أي يتحرك مثل المنشار ، ويحتوي تجويف الشفة السفلي على سائل لزج يساعد بقية اجزاء الفم على التجمع معا كأنها عضوا واحد، والجلد ينشق بمساعدة الفك العلوي الذي يكون بمقام السكين ومن المكان المنشق تدخل الإبرة إلى أن تصل إلى العرق وتقوم بعملية مص الدم . وكما هو معروف عن جسم الإنسان عندما يخرج الدم من مكان و خلال مدة قصيرة وبمساعدة الأنزيمات الموجودة في الجسم يتم تخثر الدم في تلك المنطقة. إذن هذا الأنزيم يسبب مشكلة كبيرة للبعوضة لأن الثقب الذي أحدثته البعوضة في مدة قليلة سينغلق وهذا يعنى أنها لا تستطيع أن تمتص الدم، ولكن مثل هذه المشكلة لا تواجه البعوضة لأنها تقوم بصنع مادة في جسمها وتفرزها في جسم الإنسان في تلك المنطقة وتمنع من تخثر الدم هناك كذلك تقوم هذه المادة بإحداث تهيج في الجلد مما يسبب توارد الدم إليه، وبذلك تكمل عملية امتصاصها للدم. والبعوضة عندما تلدغ الإنسان من مكان معين هذا المكان ينتفخ و يحس الإنسان بحكة، وسبب ذلك هو الأنزيم الذي قامت البعوضة بإفرازه لمنع التخثر بدون شك إن هذه الأعمال كلها تضعنا أمام أسئلة كثيرة منها؛ كيف تعرف البعوضة بوجود هذا الأنزيم الذي يُخثر الدم؟^(١)

شواهد أخرى :

١ - إن البعوضة جعلت هنا مثلا لشدة الضعف والحقارة ولكن هل هذا الأمر صحيح ؟ وأقول : لا شك أن البعوضة مخلوق ضعيف من مخلوقات الله تعالى ولكني لا أظن أن السياق هنا جاء بذكر البعوضة فقط للفت الأنظار إلى مهانة وحقارة البعوضة ولكنه مع ذلك يظهر ويبرز قدرة الله تعالى فالبعوض الذي يروونه حقيرا قد خلقه الله تعالى خلقا بديعا يعجز الخلق جميعا عن أن يأتوا بمثله ويلفت النظر إلى آيات الله تعالى الدقيقة في مخلوق صغير ، ولعل خير ما يوضح ذلك هو سبب نزول الآية وهو ما روي عن قتادة وغيره : لما ذكر الله العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله [تعالى هذه الآية] { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا قُوَّهَا }^(٢)

تعقيب :

كلام ابن عاشور في التعريف بحشرة البعوض فيه بعض المخالفات العلمية وهو مقتضب .

(١) د. متولي الموسوعة العلمية الذهبية ، مصدر سابق ٣٨٠-٣٨١

(٢) ابن كثير تفسير القرآن ، مصدر سابق ٢٠٦/١

المبحث الثاني : النحل

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِن

كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ [النحل] ويعرف ابن عاشور بداية بالنحل ومعنى الوحي في الآية فيقول :

" {أَوْحَى} إيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيراً عجبياً وعملاً متقناً وهندسة في الجبل .
فكان ذلك الإلهام في ذاته دليلاً على عظيم حكمة الله تعالى وقدرته . . .

و {النَّحْلُ} : اسم جنس جمعي، واحده نحلة، وهو ذباب ^(١) له جرم بقدر ضعفي جرم الذباب المتعارف، وأربعة أجنحة، ولون بطنه أسمر إلى الحمرة، وفي خرطومها شوكة دقيقة كالشوكة التي في ثمرة التين البربري "المسمى بالهندي" مخنفة تحت خرطومها يلسع بها ما يخافه من الحيوان، فتسم الموضع سما غير قوي، ولكن الذبابة إذا انفصلت شوكتها تموت. وهو ثلاثة أصناف ذكر وأنثى وخنثى ^(٢) ، فالذكور هي التي تحرس بيوتها ولذلك تكون محومة بالطيران والدوي أمام البيت وهي تلقح الإناث لقاحاً به تلد الإناث إناثاً.

والإناث هي المسماة اليعاسيب، وهي أضخم جرماً من الذكور. ولا تكون التي تلد في البيوت إلا أنثى واحدة، وهي قد تلد بدون لقاح ذكر؛ ولكنها في هذه الحالة لا تلد إلا ذكورا فليس في أفرانها فائدة لإنتاج الوالدات.

وأما الخنثى فهي التي تفرز العسل، وهي العواسل، وهي أصغر جرماً من الذكور وهي معظم سكان بيت النحل . . . " ^(٣)

ثم يبين طبيعة عمل النحل فيتحدث أولاً عن صنعها للبيوت فيقول : " واتخاذ البيوت هو أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل فإنها تبني بيوتها بنظام دقيق، ثم تقسم أجزاءها أقساماً متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع بحيث لا يتخلل بينها فراغ تناسب منه الحشرات، لأن خصائص الأشكال المسدسة إذا ضم بعضها إلى بعض أن تتصل فتصير كقطعة واحدة، وما عداها من الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم

(١) الذباب شيء والنحل شيء آخر .

(٢) لا يوجد خنثى ولعل ابن عاشور يقصد العاملات .

(٣) ابن عاشور التحرير ١٣ / ١٦٥ - ١٦٦

تتصل وحصلت بينها فرج، ثم تغشي على سطوح المسدسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنية متميعة أقرب إلى الجمود، تتكون في كيس دقيق جدا تحت بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها وتمضغه وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدس المسمى بالشهد لتمنع تسرب العسل منها . ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفى في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير بها.

وأشير إلى أنها تتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى. وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع ، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة . . . " (١) ثم بين معنى " الثمرات " ووجه تسمية اقتياتها منه أكلاً فقال : " و {ثم} للترتيب الرتبي، لأن إلهام النحل للأكل من الثمرات يترتب عليه تكون العسل في بطونها، وذلك أعلى رتبة من اتخاذها البيوت لاختصاصها بالعسل دون غيرها من الحشرات التي تبني البيوت، ولأنه أعظم فائدة للإنسان، ولأن منه قوتها الذي به بقاؤها. وسمي امتصاصها أكلاً لأنها تقتاته فليس هو بشرب. و {الثمرات} جمع ثمرة. وأصل الثمرة ما تخرجه الشجرة من غلة. مثل التمر والعنب، والنحل يمتص من الأزهار قبل أن تصير ثمرات، فأطلق {الثمرات} في الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الأول.

وعطفت جملة {فأسلكي} بفاء التفريع للإشارة إلى أن الله أودع في طبع النحل عند الرعي التنقل من زهرة إلى زهرة ومن روضة إلى روضة، وإذا لم تجد زهرة أبعدت الانتجاع ثم إذا شبعت قصدت المبادرة بالطيران عقب الشبع لترجع إلى بيوتها فتقذف من بطونها العسل الذي يفضل عن قوتها، فذلك السلوك مفرع على طبيعة أكلها. " (٢)

ثم بين كيفية صنع العسل منذ أن كان رحيقا في الأزهار فقال : " . . . وبيان ذلك أن للأزهار وللثمار غددا دقيقة (٣) تفرز سائلا سكريا تمتصه النحل وتملاً به ما هو كالحواصل في بطونها وهو يزداد حلاوة في بطون النحل باختلاطه بمواد كيميائية مودعة في بطون النحل، فإذا راحت من مرعاها إلى بيوتها أخرجت من أفواهها ما حصل في بطونها بعد أن أخذ منه جسمها ما يحتاجه لقوته، وذلك يشبه اجترار الحيوان المجتر. فذلك هو العسل.

(١) ابن عاشور التحرير ١٦٦ / ١٣

(٢) المرجع نفسه ١٦٧.١٦٦ / ١٣

(٣) الحيوانات فقط هي التي فيها غدد والنباتات مختلفة عنها تماما .

والعسل حين القذف به في خلايا الشهد يكون مائعا رقيقا، ثم يأخذ في جفاف ما فيه من رطوبة مياه الأزهار بسبب حرارة الشمع المركب منه الشهد وحرارة بيت النحل حتى يصير خائرا، ويكون أبيض في الربيع وأسمر في الصيف.

والسلوك: المرور وسط الشيء من طريق ونحوه . . . وإضافة السبل إلى {ربك} للإشارة إلى أن النحل مسخرة لسلوك تلك السبل لا يعدلها عنها شيء، لأنها لو لم تسلكها لاختل نظام إفراز العسل منها. و {ذُلُلًا} جمع ذلول، أي مذللة مسخرة لذلك السلوك. . . " (١)

ثم بين ما يتعلق بالشفاء بالعسل فقال: " وسمي شرابا لأنه مائع يشرب شربا ولا يمضغ. . . وفي العسل خواص كثيرة المنافع مبينة في علم الطب . وجعل الشفاء مظروفا في العسل على وجه الظرفية المجازية. وهي الملابس للدلالة على تمكن ملابس الشفاء إياه، وإيماء إلى أنه لا يقتضي أن يطرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل . . . وبذلك يبقى تعريف "الناس" على عمومهم، وإنما التخلف في بعض الأحوال العارضة، ولولا العارض لكانت الأمزجة كلها صالحة للاستشفاء بالعسل. وتكثير {شِفَاءً} في سياق الإثبات لا يقتضي العموم فلا يقتضي أنه شفاء من كل داء، كما أن مفاد "في" من الظرفية المجازية لا يقتضي عموم الأحوال. . .

والشفاء ثابت للعسل في أفراد الناس بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء. وعلى هذا الاعتبار محمل ما جاء في الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري: أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: "اسقه عسلا". فذهب فسقاه عسلا. ثم جاء، فقال: يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا؛ قال: "اذهب فاسقه عسلا"، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء، فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله: "صدق الله وكذب بطن أخيك؛ فذهب فسقاه عسلا فبرى" (٢).

إذ المعنى أن الشفاء الذي أخبر الله عنه بوجوده في العسل ثابت، وأن مزاج أخي السائل لم يحصل فيه معارض ذلك، كما دل عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم إياه أن يسقيه العسل، فإن خبره يتضمن أن العسل بالنسبة إليه باق على ما جعل الله فيه من الشفاء. " (٣)

(١) ابن عاشور التحرير ١٣/١٦٧-١٦٨

(٢) أخرجه البخاري ، الجامع الصحيح ، باب دواء المبطون برقم (٥٧١٦) ٧/١٢٨

(٣) ابن عاشور التحرير ١٣/١٦٨ - ١٦٩

أرى أن أقسم كلام الشيخ ابن عاشور إلى قسمين يدور كل قسم منها حول بعض هذه الآيات على النحو الآتي :

- قسم يدور حول قول الله تعالى : { وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } .

- والثاني حول قوله تعالى : { ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ } .

ففي القسم الأول يتحدث الشيخ في تفسيره للآية أولاً عن معنى الوحي ووجه إضافته للنحل ؛ فيبين أنه التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل ، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعضه على بعض لا يختلف فيه أحادها .

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن حشرة النحل فيعرف بها بكلام علمي فيه أنها أقسام منه الذكور ومنه المسمّاه بالملكات (الأنثى في كلام الشيخ) والعاملات وهي الخنثى وهو يبين بعض خواص تلك الأصناف .

وينتقل بعد ذلك إلى أنها تبني بيوتها بنظام دقيق، ثم تقسم أجزاءها أقساماً متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع ويبين مزايا هذا الشكل . أما بالنسبة للشمع فيعرف به وأنه مادة دهنية متميعة أقرب إلى الجمود . . .

أما عن القسم الثاني من الآية فيظهر فيه أن ابن عاشور يذكر أن الثمرات يقصد بها الأزهار فهي غذاء النحل وقوتها ، وابن عاشور يشير بعد ذلك إلى حال العسل فهو يكون حين يقذف مائعاً رقيقاً، ثم يأخذ في جفاف ما فيه من رطوبة مياه الأزهار بسبب حرارة الشمع المركب منه الشهد وحرارة بيت النحل حتى يصير خاثراً، ويكون أبيض في الربيع وأسمر في الصيف .

أما عن فوائد العسل الطبية فلم يبينها ابن عاشور بالتفصيل بل اكتفى بالإشارة إلى أن له فوائد وهو شفاء وأحال إلى كتب الطب للتعرف على ذلك ، ويظهر أن ابن عاشور لا يقول بأن العسل شفاء من كل داء أو لأي شخص بل بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء .

كلام المعاصرين :

بالنسبة لحشرة النحل يعرف بها ابن عاشور بكلام علمي مقبول الى حد ما ففي علوم الأحياء أن النحل منه الذكور ومنه المسمّاه بالملكات وهي في كلام الشيخ الأنثى ومنه العاملات وهي الخنثى في كلام الشيخ والدور في الخلية الواحدة متكامل الملكة هي قائدة الخلية وإذا ماتت اضطربت الخلية ووظيفتها التبييض فهي تضع في كل يوم في فصل الربيع نحو ألف إلى ألفي بيضة وفيها أمر عجيب فهي عند وضعها للبيض تضع البيض الذي يكون منه الملكات في مكان والذي يكون منه الذكور في مكان آخر والذي يكون منه العاملات في مكان ثالث وكأنها تعلم ما في داخل كل بيضة بالهام من الله تعالى أما عمّا أشار الشيخ اليه من أنها تبيض بدون تزواج ويكون عندئذ انتاج الذكور ولكن العلم الحديث اكتشف أن الملكة تستطيع أن تخزن الحيوانات المنوية التي حصلت عليها من التزاوج لعدة سنوات دون ان تموت او تضعف. (١)

والعاملات وظيفتهن العمل والغريب أن العمل مقسم بينها بحسب العمر والاستعداد الجسماني ... فمن العاملات من يقمن على خدمة الملكة ومنهن من يربين الصغار وجلب الغذاء لهن ، وهناك من يحضرن الماء للخلية وأخريات يقمن بتهوية الخلية صيفا وتدفتتها شتاءً وترطيبها في وقت الجفاف وغيرهن يقمن بتنظيف الخلية وجعل جدرانها ملساء ناعمة لامعة عن طريق مواد خاصة وهناك حارسات يقمن بحراسة الخلية من الأجانب فلا يسمحن بدخول نحلة مالم تذكر كلمة السر وإلا قتلت ... وهناك من يقمن بصنع أقراص الشمع ذات الشكل السداسي .. وهناك من يستكشفن مواقع الأزهار ويرجعن ليخبرن غيرهن برقصة خاصة تحدد الموقع ووفرة الأزهار وأغلب العاملات يذهبن لجني الرحيق المادة الأولية للعسل ولكي تنتج الواحدة من الشغالات كيلو غرام مت العسل عليها أن تجمع ٣-٤ كغم من الرحيق ويصل متوسط المسافة التي تقطعها الشغالة من أجل ذلك نحو نصف مليون كيلو متر . (٢)

أما عن اتخاذ البيوت وما فيه من إعجاز فابن عاشور يشير إلى أنه أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل فإنها تبني بيوتها بنظام دقيق، ثم تقسم أجزاءها أقساما متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع بحيث لا يتخلل بينها فراغ تناسب منه الحشرات، لأن خصائص الأشكال المسدسة إذا ضم بعضها إلى بعض أن تتصل فتصير كقطعة واحدة، وما عداها من الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم تتصل وحصلت

(١) د.مصطفى ابراهيم حسن الاعجاز العلمي في قوله تعالى "فاسلكي سبل ربك

دلتلا" Mostafa012@gmail.com

(٢) د. النجار ، الحيوان في القرآن الكريم . ١٢٠-١٢٢

بينها فرج ، وهذا الكلام من ابن عاشور ذكره الرازي في تفسيره^(١)
وذكره الباحثون والمهندسون المعاصرون حيث قالوا : إن " الحجرة المسدسة التي تكاد تبلغ
درجة الكمال المطلق فلا تستطيع أن تزيد عليها كل عبقریات البشر مجتمعة أية تحسينات " (٢)
بل والأمر المعجز الذي أوحى للنحل أن النحلة تصنع حجرات تخزين العسل مائلة ١٣ درجة
وذلك لأن درجة الميل لو كانت اكثر من ذلك فإن العسل سيتجمع أسفل القرص ويكون من
الصعب على النحل أن يحصل عليه ولو كانت درجة الميل أقل من ذلك فإن العسل يمكن أن
ينساب خارج الأقراص (٣)

ويكمل ابن عاشور كلامه عن بيوت النحل بالحديث عن الشمع فيعرف به بأنه مادة دهنية
متميعة أقرب إلى الجمود، تتكون في كيس دقيق جدا تحت بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة
بأرجلها إلى فمها وتمضغه وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدس المسمى بالشهد لتمنع
تسرب العسل منها. والعلم الحديث يؤكد ذلك الكلام فإن النحل تظهر طبقات بيضاء شفافة تحت
معدة كل نحلة منه وتكون بعض العاملات قد نظفت وكنست وهيأت وسدت الشقوق وتبدأ نحلة
انفصلت عن غيرها ثم ذهبت ونزعت بفمها إحدى طبقات الشمع المتدللية من بطنها ودحتها
بأرجلها وأصقتها بالبيت (٤)

الآية حددت أن بيوت النحل تكون في الجبال والشجر والعرائش التي عرف بها ابن عاشور
والتاريخ أثبت أن النحل اتخذ بيوته في الجبال أولا ثم في الأشجار ثم في العرائش (٥)
أما عن القسم الثاني من الآية فيظهر فيه أن ابن عاشور يذكر أن الثمرات يقصد بها الأزهار
فهي غذاء النحل وقوتها وهذا موافق للعلم الحديث إذ النحل تأكل الأزهار لا نفس الثمر وبه قال
ابن القرطبي (٦) بل نجد ابن عاشور نفسه يبين كيف يتغذى النحل على الزهور بكلام علمي
حيث بين فيه ما يتعلق بالمادة السكرية الموجودة في الأزهار وتمت الإشارة سابقاً إلى أن الغدد
لا تكون إلا بالحيوانات .

(١) الرازي مفاتيح الغيب، مصدر سابق ٥٦/٢٠-٥٧

(٢) د. متولي الموسوعة الذهبية، مصدر سابق ٣٥٨

(٣) Mostafa012@gmail.com

(٤) د. متولي الموسوعة الذهبية ، مصدر سابق ٣٨٥

(٥) المرجع نفسه ٣٥٧

(٦) القرطبي ، محمد بن أحمد (٢٠٠٠م) ،الجامع لأحكام القرآن ،تحقيق :سالم البديري ط ١ ٨٩/١٠ دار الكتب

ولعل ما يقصده ابن عاشور من السائل السكري المستخرج من الأزهار هو ما يسمى حديثاً بالرحيق والنحل يجنه بعد طول عناء .

ولاستخراج الرحيق من الزهور قصة ذلك أن للنحلة فكين وشفنتين في الاسفل والاعلى الفك السفلي يستخدم في قرض الزهور لكي تستطيع الدخول إلى الرحيق في وسط الزهرة عندما تنطبق أجزاء الفم هذه على بعضها فإنها تكون خرطوم ماص يولج في الأزهار بعمق ليلعق الرحيق حيث يدخل بطون النحل التي تحوي مركبات كيميائية لها أثر في إنتاج العسل (١)

وابن عاشور يشير بعد ذلك إلى حال العسل فهو يكون حين يقذف مائعا رقيقا، ثم يأخذ في جفاف ما فيه من رطوبة مياه الأزهار بسبب حرارة الشمع المركب منه الشهد وحرارة بيت النحل حتى يصير خائرا، ويكون أبيض في الربيع وأسمر في الصيف. والعلم الحديث يقول أنه يكون كذلك بسبب ما في الرحيق من بخار ماء ولكن تجفيفه يكون عن طريق رفرقة أو خفقان أجنتها حتى يجف (٢) وأن لونه يؤثر فيه في الأغلب نوع الغذاء لا الموسم .

أما عن فوائد العسل الطبية فلم يبينها ابن عاشور بالتفصيل بل اكتفى بالإشارة إلى أن له فوائد وهو شفاء وأحال إلى كتب الطب للتعرف على ذلك .أما عن الكلام الطبي في فوائد العسل فقد اكتشف العلم الحديث أن العسل له فوائد عظيمة وقديما كان يعتقد أن العسل قيمة غذائية والعلم الحديث قال أنه قيمة غذائية ودوائية حيث يبين الدكتور الفاضل زغلول النجار أن :

العسل يعتبر "مضادا حيويا قويا ومطهرا من الطراز الأول وأن دوره في ذلك يفوق أدوار العديد من المضادات الحيوية المصنعة "

وله الأثر في علاج الجروح والحروق والتقرحات وفي تنشيط بناء الأنسجة الحية مما يساعد على سرعة التئام الجروح وثبت أن للعسل دور واضح في تحسين وظائف الكبد والبنكرياس وعلى القلب له أثر في تنشيط وتقوية القلب وضبط نبضاته وضبط ضغطه وتقوية أوعيته الدموية وفي زيادة نسبة الهيموغلوبين في الدم وسرعة تخثره في حالة الجروح ، وللعسل دور إيجابي أيضا في علاج آلام المفاصل الروماتيزمية ، وله القدرة على علاج العديد من أمراض الجهاز التنفسي كالربو وبعض حالات التحسس ، وله الأثر كذلك في علاج أمراض الجهاز العصبي كالتوتر والأرق والرجفة وغيرها ، وله الأثر في علاج بعض أمراض العيون وله أثر في علاج مشاكل الشعر والصداع والأمراض الجلدية وبشكل عام فللعسل دور في تقوية جهاز المناعة وتنشيطه (٣)

(١) Mostafa012@gmail.com (٢) المرجع نفسه

(٣) د. النجار- الحيوان في القرآن مصدر سابق ١١٩-١٢٢

هذا وقد كشف العلم الحديث عن آيات أخرى في النحل في مواضع غير العسل كغرائه الذي يفيد في علاج آلام المفاصل وأمراض الجهاز التنفسي وغيرها ، ولقد اكتشفوا أيضا أن سم النحل يستخدم في علاج كثير من الأمراض البكتيرية والفيروسية والروماتيزم (١)

شواهد أخرى :

في القسم الأول من الآية يتحدث الشيخ في تفسيره للآية أولا عن معنى الوحي ووجه إضافته للنحل ؛ فبيّن أنه التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل ، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعضه على بعض لا يختلف فيه أحادها .

والمفسرون ههنا منهم من حمل الإيحاء على حقيقته فيكون المعنى أن الله تعالى ألهمها وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير ومنهم من رأى أن المراد تسخيرها ومنعوا أن يكون المراد حقيقة الإيحاء لأنه إنما يكون للعقلاء وليس النحل منها (٢)

في مسألة الاستشفاء بالعسل يظهر أن ابن عاشور لا يقول بأن العسل شفاء من كل داء أو لأي شخص بل بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء ، وهذه قضية جديدة بالنقاش لأن بعض الناس يرى أنه شفاء من كل داء وللكشف عن الصحيح أقول :

أولا : إن الله تعالى يقول " فيه شفاء للناس " ولم يقل " فيه الشفاء للناس " وفرق كبير بينهما يقول ابن كثير : وقوله: { فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ } أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه: "الشفاء للناس" لكان دواء لكل داء، ولكن قال { فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ } أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده...ثم تأول حديث الأعرابي الذي ذكره ابن عاشور على النحو الآتي : كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات

(١) د. النجار ، الحيوان في القرآن مصدر سابق ١٢٥

(٢) انظر ، الألويسي، روح المعاني، مصدر سابق ١٨١/٤

الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام وقال مثله ابن حجر في شرحه على البخاري (١) ويقول الرازي : إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال بل لما كان شفاء للبعض من بعض الأدوية صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء (٢)

ثانيا : الأحاديث بقول إحداهما " عليكم بالشفاء بين العسل والقرآن " (٣) وحديث " الشفاء في ثلاث: شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنهى أمتي عن الكي " (٤) ولم يوجد حديث يثبت أنه شفاء من كل داء .

تعقيب :

وبهذا نرى بشكل عام أن ابن عاشور قد أتى بقضايا علمية مهمة وفسر بها الآية وكانت مثار بحث معاصر يتعلق بالنحل . على أن التفاصيل التي تتكشف أوسع بكثير مما قاله ابن عاشور .

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ، مصدر سابق ٤٥٢/٣

(٢) الرازي مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ٥٩/ ٢٠

(٣) ابن ماجه، محمد بن يزيد ، السنن، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث، كتاب الطب حديث رقم : ٣٤٥٢

(٤) البخاري ، الجامع الصحيح ، مصدر سابق ، الطب ٥٦٨٠

المبحث الثالث : النمل

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ حَقَّ إِذَا تَوَّأَ عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ

سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ [النمل]

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية : " . . . وواد النمل يجوز أن يكون مرادا به الجنس لأن للنمل شقوقا ومسالك هي بالنسبة إليها كالأودية للساكنين من الناس، ويجوز أن يراد به مكان مشتهر بالنمل غلب عليه هذا المضاف كما سمي وادي السباع موضع معلوم بين البصرة ومكة. و {النَّمْلُ} : اسم جنس لحشرات صغيرة ذات ستة أرجل تسكن في شقوق من الأرض. وهي أصناف متفاوتة في الحجم، والواحد منه نملة بتاء الوحدة، فكلمة نملة لا تدل إلا على فرد واحد من هذا النوع دون دلالة على تذكير ولا تأنيث فقولته: {نَمْلَةٌ} مفاده: قال واحد من هذا النوع..."^(١)

كلام المعاصرين :

تعريف ابن عاشور بالنمل هو تعريف موجز وهناك بعض القضايا المتعلقة بالآية:
الأولى : هي أن الله تعالى يقول : {قالت نملة} وهنا يشار إلى ما أثبتته العلم الحديث من وجود لغة يتحاور بها النمل كغيره من المخلوقات التي قال الله تعالى فيها : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا

طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، والعلم الحديث يقول : إن لكل حيوان

رائحة يتميز بها " والرائحة تعتبر لغة خفية أو رسالة صامتة تتكون مفرداتها من مواد كيميائية أطلق عليها العلماء اسم (فرمونات) ويقتصر الباحثون على استخدام كلمة (فرمون) على وصف الرسائل الكيميائية المتبادلة بين حيوانين من السلالة نفسها .
وإذا طبقنا هذا على عالم النمل نجد أن النمل يتميز برائحة خاصة تدل على العش الذي ينتمي إليه والوظيفة التي تؤديها كل نملة في هذا العش حيث يتم إنتاج هذه الفرمونات من غدة قرب

الشرح " (١) . ولها لغات أخرى أيضا منها اللغة الحركية بحركة الارجل والبطن والملامسة بقرون الاستشعار وكذلك اللغة الصوتية بذبذبات صوتية من الارجل (٢) ، وابن عاشور لم يبين ذلك واكتفى بالبحث في قضية أن النملة هنا تجوز على الذكر والأنثى من النمل وهذا ما ذكره غيره من المفسرين (٣) . وهناك من الدلالات العلمية الأخرى التي لم يشر إليها ابن عاشور منها ان الآية جمعت النمل والنمل لا يعيش الا في جماعة (٤)

تعقيب :

فلاحظ أن ابن عاشور لم يبين تفصيلات بعض القضايا العلمية المتصلة بالآية التي بينها العلم الحديث .

(١) د. متولي الموسوعة الذهبية ، مصدر سابق ٣٤١

(٢) النجار / الحيوان في القرآن، مصدر سابق ص ٧٠-٧١

(٣) انظر السمين الحلبي ، أحمد بن يوسف ، الدر المصون ٨ / ٥٤٨ دار القلم دمشق

(٤) د . النجار ، الحيوان في القرآن مصدر سابق ص ٦٥٤

المبحث الرابع : العنكبوت

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ العنكبوت] يقول ابن عاشور :

" و {العنكبوت} : صنف من الحشرات ذات بطون وأرجل وهي ثلاثة أصناف، منها صنف يسمى ليث العناكب وهو الذي يفترس الذباب، وكلها تتخذ لأنفسها نسيجاً تنسجه من لعابها يكون خيوطاً مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران، وتتخذ في وسط تلك الخيوط جانباً أغلظ وأكثر اتصالاً خيوطاً ، تحتجب فيه وتفرخ فيه... وجملة { وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ }

معتزلة مبينة وجه الشبه... الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تتفاوت بيوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف. " (١)

كلام المعاصرين :

تعريف ابن عاشور بالعنكبوت مقبول علمياً بشكل عام غير أنني وجدت أن العلم الحديث قد بين أن خيوط العنكبوت تخرج من غدد خاصة إلى خارج الجسم عبر مغازل المؤخرة تجف بمجرد تعرضها للجو وينشأ عن جفافها خيوط متعددة الأنواع والأطوال والشدة تختلف باختلاف الغدد التي أفرزتها (٢) ولعل هذا الأمر لم يكن معلوماً في زمن ابن عاشور .

وفي الآية من القضايا العلمية التي لم يشر إليها الشيخ ، كالتأنيث الذي في {اتخذت} حيث أثبت العلم الحديث فيه أن الأنثى هي التي تقوم بصناعة البيت ثم في وصف بيت العنكبوت بالوهن أمور تم اكتشافها حديثاً فقالوا أن انثى العنكبوت سرعان ما تقتل ذكرها إذا أتمت بناء بيتها ولقحها الذكر وإذا ما فقس بيض العنكبوت قتلت العناكب الصغيرة بعضها البعض ، ومن أهداف نصب هذا البيت أن يوقع ببعض الحشرات لتعلق به وتقتلها العنكبوت وتتغذى عليها وبالتالي ففي البيت من الوهن المعنوي ما فيه، فضلاً عن الوهن المادي من دقة تلك الخيوط . (٣)

تعقيب : كلام ابن عاشور فيه الصحيح وفيه بالمقابل بعض المخالفات العلمية

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٧٣/٢٠ (٢) د.النجار ، الحيوان في القرآن الكريم مصدر سابق ١٤٠

(٣) مؤتمر الإعجاز د عبد الرحمن عباد ، مصدر سابق ٣٩٧/٢-٣٩٨

المبحث الخامس : الجراد والفراش .

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ

ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ [الأعراف]

" وَالْجَرَادُ: الْحَشْرَةُ الطَّائِرَةُ مِنْ فَصِيلَةِ الصُّرْصُرِ وَالْخَنَافِسِ لَهُ أَجْنَحَةٌ سِنَّةٌ ذَاتُ أَلْوَانٍ صُفْرٍ وَحُمْرٍ تَنْتَشِرُ عِنْدَ طَيْرَانِهِ، يَكُونُ جُنُودًا كَثِيرَةً يُسَمَّى الْجُنْدُ مِنْهَا رَجُلًا. وَهُوَ مُهْلِكٌ لِلزَّرْعِ وَالشَّجَرِ، يَأْكُلُ الْوَرَقَ وَالسُّنْبُلَ وَوَرَقَ الشَّجَرِ وَقَشْرَهُ " (١)

يقول الله تعالى : ﴿ حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ [القمر]

ويقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية : " والجراد: اسم جمع واحدة جرادة وهي حشرة ذات أجنحة أربعة مطوية على جنبها وأرجل أربعة، أصفر اللون.

والمنتشر: المنبث على وجه الأرض. والمراد هنا الدبي وهو فراخ الجراد قبل أن تظهر له الأجنحة لأنه يخرج من ثقب في الأرض هي مبيضات أصوله فإذا تم خلقه خرج من الأرض يزحف بعضه فوق بعض قال تعالى: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} [القارعة:٤] وهذا التشبيه تمثيلي لأنه تشبيه هيئة خروج الناس من القبور متراكمين بهيئة خروج الجراد . " (٢)

يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ [القارعة]

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية : " والفراش : فرخ الجراد حين يخرج من بيضه من الأرض يركب بعضه بعضا وهو ما في قوله تعالى: {يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [القمر:٧]. وقد يطلق الفرّاش على ما يطير من الحشرات ويتساقط على النار ليلا وهو إطلاق آخر لا يناسب تفسير لفظ الآية هنا به. " (٣)

كلام المعاصرين :

يبين ابن عاشور أن الفرّاش: فرخ الجراد حين يخرج من بيضه من الأرض يركب بعضه بعضا . وقد يطلق الفرّاش على ما يطير من الحشرات ويتساقط على النار ليلا وهو إطلاق آخر

(١) ابن عاشور ، التحرير ٦٩/ ٩

(٢) المرجع نفسه ١٧٣/٢٧

(٣) المرجع نفسه ٤٣٠ / ٣٠

لا يناسب وروده في القرآن .

ولعلني أخالف ما يراه الإمام ابن عاشور ذلك أن الجراد شيء والفراش شيء آخر والجراد هو تماما ما عرف به ابن عاشور في تفسير آية الأعراف أما أن يرد الفرّاش المذكور في آية سورة القارعة إلى الجراد فهذا لا يسلم خاصة وأنّ العلم الحديث اكتشف في حشرة الفرّاش المعروفة أمورا مهمة تفسر وروده مثلا للناس عند بعثهم ، فالفرّاش الذي ضرب مثلا هو الذي استبعد ابن عاشور أنه المراد وهو الذي يطير من الحشرات ويتساقط على النار ليلا ، وبيانه كالآتي :

تبدأ دورة حياة الفرّاش بالبيض المخصب الذي يفقس بعد خمسة أيام لتخرج منه يرقة على شكل دودة صغيرة تتغذى لتتسلخ عن جلدها بعدما تنمو .. ثم تتشربق اليرقات كحال الميت الذي يلبس كفنا وفي هذه المرحلة يعاد خلق الحشرة بأكملها حيث تذوب اليرقة ذوبانا كاملا ثم يكون بعثها بعد أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع على هيئة الحشرة الكاملة وهي تختلف اختلافا كاملا عن اليرقة التي جاءت منها ، وبعضها تتأخر فصل الشتاء كاملا وتوجد عملية التحول الكيميائي لبداية فصل الربيع فتستعد للخروج كما يستعد الميت ثم تتشربق عنها الشرنقة كما ينشق القبر عن الميت ، وتخرج عذارى الفرّاش بالملايين في كل لحظة كما سيخرج البشر في وقت البعث وتكون عند خروجها ضعيفة زاحفة ببطء في اضطراب وجسمها مبلل فتقف قليلا في الشمس حتى تجف وتستعد للطيران (١) ، ويصف علماء الأحياء خروجها بأنها تُخرج صدرها أولا مندفعة إلى الأمام فيضغط صدرها على صندوقه فيتمزق الدرز الجمجمي وعن طريقه تخرج الحشرة نفسها وقد تظل مرتبطة بشيء مما كانت به لمدة قصيرة تكون الحشرة ساكنة خلالها أولاً بأول حتى يبدأ نشاطها في الطيران والبحث عن الغذاء . (٢)

ومما أذكره قبل الانتقال إلى قضية أخرى أنّ ابن عاشور قد عرف بالجراد وذكر أنّ له أجنحة ستة في الآية ثم عاد وبيّن أنها أربعة في الآية الثانية . ولو بقي على أنها أربعة لأصاب (٣) تعقيب :

كلام ابن عاشور العلمي فيه الصحيح وفيه بعض المخالفات العلميّة .

(١) د. النجار ، الحيوان في القرآن مصدر سابق ٢٠٨-٢٠٩

(٢) د. توفيق ، محمد ، علم الحشرات العام ٢١٢-٢١٣

(٣) انظر : د. زكي ، أحمد ، مع الله في الأرض ٢٠٩

الباب الرابع : تفسير آيات خلق الأنفس

وفيه فصول . . .

الفصل الأول : خلق الإنسان في القرآن .

الفصل الثاني : خصائص بعض أجزاء جسم الإنسان وبعض

ما يطرأ عليه من أحوال .

الفصل الثالث : بعض الحكم العلمية للتشريعات القرآنية .

الفصل الأول : خلق الإنسان في القرآن

المبحث الأول : بيان أطوار خلق أصل الإنسان وهو آدم عليه السلام .

المطلب الأول : التراب .

المطلب الثاني : الطين والطين اللازب .

المطلب الثالث : الحمأ المسنون والصلصال

المطلب الرابع : التسوية و التصوير ونفخ الروح .

المبحث الثاني : خلق الذرية .

المطلب الأول : النطفة وبداية الحمل .

المطلب الثاني : العلقة .

المطلب الثالث : المضغة وتقلباتها .

المطلب الرابع : الخلق الآخر وتيسير السبيل .

المطلب الخامس : الظلمات الثلاث .

المبحث الأول : بيان أطوار خلق أصل الإنسان وهو آدم عليه السلام .

المطلب الأول : التراب :

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ . . . ﴿٥﴾ الآية [الحج] : " والذي خلق من تراب هو أصل النوع. وهو آدم

عليه السلام وحواء، ثم كونت في آدم وزوجه قوة التناسل " (١)

ويُفصل أيضا في طور التراب ووجه خلق الدرية من التراب عند تفسير قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، فيقول :

" . . . وهذا استدلال للناس بأنفسهم لأنهم أشعر بها مما سواها، والناس يعلمون أن النطف أصل الخلقة، وهم إذا تأملوا علموا أن النطفة تتكون من الغذاء، وأن الغذاء يتكون من نبات الأرض، وأن نبات الأرض مشتمل على الأجزاء الترابية التي أنبتته فعلموا أنهم مخلوقون من تراب، فبذلك استقام جعل التكوين من التراب آية للناس أي علامة على عظيم القدرة مع كونه أمرا خفيا. على أنه يمكن أن يكون الاستدلال مبني على ما هو شائع بين البشر أن أصل الإنسان تراب... "

وبهذا التأويل يصح أيضا أن يكون معنى {خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ} خلق أصلكم وهو آدم، وأول

الوجوه أظهرها. فالتراب موات لا حياة فيه وطبعه مناف لطبع الحياة لأن التراب بارد يابس وذلك طبع الموت، والحياة تقتضي حرارة ورطوبة فمن ذلك البارد اليابس ينشأ المخلوق الحي المدرك. وقد أشير إلى الحياة والإدراك بقوله: {إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ} ، وإلى التصرف والحركة بقوله: {تَنْتَشِرُونَ} .

ولما كان تمام البشرية ينشأ عن تطور التراب إلى نبات ثم إلى نطفة ثم إلى أطوار التخلق في أزمنة متتالية عطفت الجملة بحرف المهلة الدال على تراخي الزمن مع تراخي الرتبة الذي هو الأصل في عطف الجمل بحرف {ثُمَّ} . . . " (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٧/١٤٣

(٢) المرجع نفسه ٢١/١٥٠

التحليل :

أرى أنه لا بد أولاً من بيان أن أصل البشر هو آدم عليه السلام وهذا ما أشار إليه ابن عاشور في كلام له غير الذي ذكر أنفا ، فقال : " . . . فأما آدم فهو أبو البشر باتفاق الأمم كلها إلا شذوذاً من أصحاب النزعات الإلحادية الذين ظهروا في أوروبا واخترعوا نظرية تسلسل أنواع الحيوان بعضها من بعض وهي نظرية فاشلة " (١) ، وخلق آدم عليه السلام كان قد مر بأطوار متعددة وأحوال مختلفة فصلها القرآن الكريم وبيانها كما يلي :

ذكر القرآن الكريم أن الإنسان خلق من تراب بوجهين :

الأول : التصريح بأن آدم عليه السلام قد خلق من تراب وذلك في سورة آل عمران في قوله

تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران] .

الثاني : التصريح بأن الإنسان أو الناس خلقوا من تراب ، وذلك في آيات متعددة من مثل قوله

تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ... ﴾

الآية [الحج ٥] ، وغيرها من الآيات ، ولكن كيف فهم الطاهر ابن عاشور هذه الآيات وفسرها ؟ وكيف يستقيم خلق الناس من تراب ومعلوم أنهم مخلوقون من ماء الرجل والمرأة ؟ لقد حمل ابن عاشور الآيات التي ذكرت خلق الإنسان من تراب على محملين :

الأول : أن يراد بقوله تعالى " إنا خلقناكم " " والله خلقكم من تراب " " خلقك من تراب " أن يراد بها جميعاً أن الله تعالى قد خلق أصلكم وهو أبوكم آدم عليه السلام من تراب .

الثاني : أن يراد بها أنه خلقكم أنتم من تراب أيتها الذرية ، وذلك من خلال أن الأجزاء التي تتكون منها النطفة أجزاء أغذية المستخلصة من تراب .

كلام المعاصرين :

لقد أعلن العلم الحديث أن عناصر تكوين الأحياء متوافقه مع عناصر مكونات التربة فالجزء الأعظم من سطح الأرض هو الماء ممثلاً بالمحيطات والبحار والأنهار ويشكل ما نسبته ٧٠.٨% من مساحة سطح الأرض والجزء المتبقي من اليابسة يتكون من ٢٢ عنصر كيميائي منها ١١ عنصر رئيسي يشكل ٩٩.٥% من كتلة اليابسة و١١ عنصر ثانوي تشكل ٠.١% .

والعجيب أن جسم الإنسان يحتوي على ٧٠% ماء ويعني ذلك أنها نفس النسبة الموجودة في

الأرض فيكون الأوكسجين والهيدروجين النسبة العظمى على هيئة ماء وتشكل المواد الجافة ٦٠-٨٠% من الباقي وهي: كلور، كبريت، فسفور، مغنيسيوم، كالسيوم، بوتاسيوم، صوديوم، وسبعة عناصر أخرى بنسبة أقل هي: حديد نحاس يود منغنيز كوبالت تيتانيوم مولبيديوم وستة عناصر بنسب ضئيلة هي: فلور المنيوم بور سيلينيوم كادميوم كروم، وكافة هذه العناصر موجودة في تربة الأرض وليس بالضرورة أن تدخل كافة العناصر في تركيب جسم الإنسان ففي الأرض أكثر من ١٠٠ عنصر لم يعرف منها في جسم الإنسان سوى ٢٢ عنصر. (١) وكل ذلك يؤيد أن الإنسان ابن هذه الأرض.

شواهد أخرى:

وهذا أمر صحيح ذهب إليه غير واحد من المفسرين يقول الرازي: "فيه وجهان: أحدهما: إنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب لقوله "كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ" (آل عمران ٥٩) وقوله "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ" (طه ٥٥) والثاني: أن خلقة الإنسان من المنى ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية والأغذية إما حيوان أو نبات وغذاء الحيوان" (٢).

على أية حال سواء أقلنا إن المراد من الآيات هو أن أصل الإنسان من آدم وآدم خلق من تراب أو جمعنا بينه وبين القول الآخر يظهر لنا أن الإنسان هو ابن هذه الأرض.

ومن المؤيدات لذلك أيضا ما رواه الترمذي وغيره عن الإمام أحمد قال: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عوف، حدثنا قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك". (٣)

تعقيب:

كلام ابن عاشور في هذا الطور من أطوار خلق الإنسان موافق للعلوم الحديثة.

(١) انظر الراوي، عبد الوهاب، (١٤٢٩-٢٠٠٨ م)، معجزة القرآن العلمية في الإنسان مقابلة مع التوراة، الأردن عمان ص ٢٤

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق ٨/٢٣

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٩٥٥). وقال: حسن صحيح. وسنن أبي داود برقم (٤٦٩٣)

المطلب الثاني : الطين والطين اللازب

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ

عِنْدَهُ ۚ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ [الأنعام] " ومعنى {خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ} أنه خلق أصل الناس وهو البشر

الأول من طين، فكان كل البشر راجعا إلى الخلق من الطين، فلذلك قال: {خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ} " (١)

ويقول في تفسير قول الله تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ [المؤمنون] :

" . . . وهذه السلالة هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دما؛ قدم الذكر حين يمر على غدتي التناسل الأنثيين تفرز منه الأنثيان مادة دهنية شحمية تحتفظ بها ، وهي التي تتحول إلى مني حين حركة الجماع ، فتلك السلالة مخرجة من الطين لأنها من الأغذية التي أصلها من الأرض . " (٢)

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴿

[الصافات] " والطين: التراب المخلوط بالماء. واللازب: اللاصق بغيره . . . وقد قيل: إن باء لازب بدل من ميم لازم، والمعنى: أنه طين عتيق صار حمأة .

وضمير {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ} عائد إلى المشركين وهو على حذف مضاف، أي خلقنا أصلهم وهو آدم فإنه الذي خلق من طين لازب، فإذا كان أصلهم قد أنشئ من تراب فكيف ينكرون إمكان إعادة كل آدمي من تراب. " (٣)

التحليل :

لقد جاء ذكر خلق الإنسان من طين في أكثر من آية من كتاب الله تعالى منها ما ذكرت

الطين مطلقا كالآيات السابقة ، ومنها ما قيدت الطين بصفة اللازب وهي قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ [الصافات] ، وتفردت سورة

المؤمنون بذكر السلالة من طين في قوله سبحانه : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ﴿

[المؤمنون] .

(١) ابن عاشور التحرير ١٣/٦ (٢) المرجع نفسه ١٩/١٨

(٣) المرجع نفسه ١٧/٢٣

ومن الملاحظ من خلال كلام الطاهر ابن عاشور في تفسيره لتلك الآيات أنه يفسر آيات الطين بأن المقصود بها هو آدم عليه السلام أي خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من طين ، إلا في آية سورة المؤمنون حيث فسر المقصود بالخلق من سلالة هو الذرية

كلام المعاصرين :

ذكرت قبل قليل ما يتعلق بعنصر التراب ومكونات الإنسان والتراب والتشابه بين عناصرهما أما بالنسبة لعنصر الطين فلا شك أن التراب إذا أضيف إليه الماء أصبح طينا ، بل إن ابن عاشور يبين أنه قد أُدخِلَ على ذرّات التراب ما امتزجت به عناصر الهواء والماء والنار وما يتولد على ذلك التركيب من عناصر كيميائية وقوة تتقوم بمجموعها ماهية الإنسان .

شواهد أخرى :

ابن عاشور يفسر آيات الطين بأن المقصود بها هو آدم عليه السلام إلا في آية سورة المؤمنون حيث فسر المقصود بالخلق من سلالة هو الذرية ، ولعل هذا هو الراجح المفسرون يذكرون كلا الرأيين يقول النسفي - رحمه الله - : " ولقد خلقنا الإنسان أي آدم من سلالة من للابتداء والسلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر وقيل إنما سمي التراب الذي خلق آدم منه سلالة لأنه سل من كل تربة من طين من البيان كقوله من الاوثان ثم جعلناه أي نسله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه لأن آدم عليه السلام لم يصير نطفة وهو كقوله وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وقيل الإنسان بنو آدم والسلالة النطفة والعرب تسمى النطفة سلالة أي ولقد خلقنا الإنسان من سلالة يعنى من نطفة مسلوقة من طين أي من مخلوق من طين وهو آدم عليه السلام . " (١)

وفضلا عن ذلك فإن لفظ "سلالة" هو الشيء المسلول، أي المنتزع من شيء آخر، كما رأيناه في متن كلام ابن عاشور ؛ فالسلالة خلاصة من شيء، ووزن فعالة ؟ يؤذن بالقلّة مثل القلامة والصبابة ، وهذا اللفظ يصح استخدامه بالنسبة لخلق آدم وكذا خلق الذرية فأدم عليه السلام خلق من سلالة (خلاصة) مستلة من الأرض ، والذرية مخلوقة من نطفة وهي خلاصة أغذية وعناصر جاءت عبر دم الإنسان إلى مراكز إفرازها فمن حيث هذه اللفظة يستوي استخدامها في حق آدم عليه السلام وفي حق ذريته .

ولكن الآية صُدّرت بذكر الإنسان وأنه خلق من سلالة من طين ثم أعقبت الحديث بإتباع

الكلام بالضمير العائد على الإنسان نفسه ولا مسوغ لصرفه عنه ؛ فأتبعته بأنه جعل نطفة في قرار مكين ولو كان المراد بالإنسان آدم عليه السلام لما استقام المعنى لأن آدم لم يكن من نطفة طرفة عين ومن هنا أرى أن تنظير النسفي - رحمه الله تعالى - بهذه الآية لقوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ [السجدة] ، هو تنظير غير موفق فهناك قد ذكر { ثم جعل نسله من سلالة من

ماء } فأضاف كلمة " نسله " أي أن النسل بعد ذلك أصبح يخلق من سلالة الماء أما في آية المؤمنون فلم يقمها بل اكتفى بالضمير العائد على نفس الإنسان الذي صدرت به الآية ، ثم إن آية السجدة تذكر أن السلالة من الماء المهين وهذه معجزة وآية أخرى دالة على قدرة الله تعالى وهي استخلاص حيوان منوي واحد من الملايين لتلقيح البويضة - كما سنراه لاحقا - . وهذا الرأي هو الذي رجحه الطاهر بل اقتصر على ذكره في هذه الآية وكذا رجحه الألويسي وزاد : " . . . أو يقال ترك بيان حاله عليه السلام لأنه معلوم واقتصر على بيان حال أولاده وجاء ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس " ١ ه (١) ، ولعله ما أورده الطبري عن ابن عباس : (مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) قال : صفوة الماء . ثم قال مرجحا بعدما أورده : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : ولقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم ، وهي صفة مائه ، وآدم هو الطين ؛ لأنه خُلِقَ منه . " ١ ه (٢) ، وكل ذلك يشير إلى ترجيح هذا المعنى والله تعالى أعلم . ولا شك أن مزيج عناصر التراب والماء تشكل مادة جديدة غير التراب وغير الماء هي الطين ثم إن هذا الطين وصف باللازب وفسره الشيخ باللازج وهو موافق لمعاجم اللغة التي تشير إلى أن من معانيه اللزوج واللزوق واللزوم (٣) ، ولا شك أن التراب لما بل بالماء صار طيناً ولما تخمر صار طينا لازبا يلصق باليد (٤) . ولعل اللزوجة جاءت للطين لأن هذا التراب - كما مر - يحتوي على عناصر متعددة وهذه العناصر لا شك أنها ستتفاعل إذا ما أضيف إليها الماء فضلا عن تأثير الهواء فيها لذا فهذا المزيج والتفاعل بين تلك العناصر بشكل كيميائي كما قال ابن عاشور ، وأدى إلى تغير الطين لشكل لازج وبعد قليل لحماً مسنون ...

تعقيب :

فكلام ابن عاشور في هذا الطور يظهر فيه الاستيعاب والدقة والصحة .

(١) الألويسي ، روح المعاني ، مصدر سابق ١٣/١٨ (٢) الطبري ، مصدر سابق ١٥-١٤/١٩

(٣) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ٧٣٨/١ ، وابن فارس ، مقاييس اللغة ، ١٩٨/٥

(٤) الشنقيطي ، أضواء البيان ، مصدر سابق ٣٦/٢٦

المطلب الثالث : الحمأ المسنون والصلصال

كلام ابن عاشور :

يبين ابن عاشور ما يتعلق بطور الصلصال والحمأ الذي خلق منه آدم عليه السلام ،

المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِئٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر] فيقول :

" المراد بالإنسان - آدم عليه السلام والصلصال: الطين الذي يترك حتى ييبس فإذا ييبس فهو صلصال وهو شبه الفخار؛ إلا أن الفخار هو ما ييبس بالطبخ بالنار. قال تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [سورة الرحمن: ١٤].

والحمأ : الطين إذا اسودّ وكرهت رائحته. وقوله: {حَمِئًا} صفة لـ {صَلْصَالٍ}. و {مَسْنُونٍ} صفة لـ {حَمِئًا} أو لـ {صَلْصَالٍ}. وإذا كان الصلصال من الحمأ فصفة أحدهما صفة للآخر. والمسنون : الذي طالت مدة مكثه . . . والمقصود من ذكر هذه الأشياء التنبيه على عجب صنع الله تعالى إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة. وفيه إشارة إلى أن ماهية الحياة تتقوم من الترابية والرطوبة والتعفن، وهو يعطي حرارة ضعيفة. ولذلك تنشأ في الأجرام المتعفنة حيوانات مثل الدود، ولذلك أيضا تنشأ في الأمزجة المتعفنة الحمى. وفيه إشارة إلى الأطوار التي مرت على مادة خلق الإنسان . " (١)

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن]

يعرف بطور الصلصال كطور من أطوار خلق أصل البشر آدم عليه السلام فيقول :

" والمراد ب الإنسان آدم وهو أصل الجنس وقوله: {من صلصال} تقدم نظيره في سورة الحجر [٢]. والصلصال: الطين اليابس.

والفخار: الطين المطبوخ بالنار ويسمى الخزف. وظاهر كلام المفسرين أن قوله: {كالفخار} صفة لـ {صلصال} . . . والذي يظهر لي أن يكون كالفخار حالا من {الإنسان} ، أي خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابة.

ومعنى أنه صلصال يابس يشبهه ييبس الطين المطبوخ والمشبه غير المشبه به، وقد عبر عنه

بالحمأ المسنون، والطين اللازب، والتراب." (١)

التحليل :

أقول : لقد ورد ذكر الصلصال والحمأ المسنون كطور من أطوار خلق الإنسان في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر] ، وقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن] ويشير الشيخ ابن عاشور إلى أن الحمأ هو الطين إذا اسودّ وكرهت رائحته. وأضاف الألويسي أنه بسبب مجاورة الماء . (٢) ، ولعل هناك أقوالاً أخرى في معنى المسنون استقصاها الرازي – رحمه الله تعالى . (٣) ولعل أشهرها ما ذكره ابن عاشور .

تعقيب :

كلام ابن عاشور في هذا الطور كلام مقبول حيث لا يخرج فيه عن لغة الآية ولا عن أقوال غيره من أقوال المفسرين . وهذا الطور لا يوجد كلاماً علمي يختص به .

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٣٩ / ٢٧ (٢) الألويسي روح المعاني، مصدر سابق ٣٤/١٤

(٣) الرازي مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ١٤٣/١٩

المطلب الرابع : التسوية و التصوير و نفخ الروح

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا

لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ [الأعراف] :

" . . . و الخلق الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وهذا الإطلاق هو المراد منه عند إسناده إلى الله تعالى أو وصف الله به.

والتصوير جعل الشيء صورة، والصورة الشكل الذي يشكل به الجسم كما يشكل الطين بصورة نوع من الأنواع . وعطفت جملة {صَوَّرْنَاكُمْ} بحرف "ثم" الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق، لأن التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانية المتقنة حسنا وشرفا، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير، سواء كان التصوير مقارنا للخلق كما في خلق آدم، أم كان بعد الخلق بمدة، كما في تصوير الأجنة من عظام ولحم وعصب وعروق

ومشاعر، كقوله تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ﴿١٤﴾ [المؤمنون: ١٤].^(١)

ويبين ما يتعلق بالروح وجواز البحث في ماهيتها فيبين في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا

سَوَّيْتَهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ [الحجر: ٢٩] أن الذين حاولوا تقريب شرح

ماهية الروح من الفلاسفة والمتشرّعين لم يفلحوا ، ولكن ربما تتوفر تغيرات في المستقبل تزيد أهل العلم استعدادا لتجلي بعض ماهية الروح، فلذلك فابن عاشور يرى جواز البحث في ماهية الروح ناقلا هذا الرأي عن عدد من العلماء ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى آراء المتكلمين والفلاسفة في بيان ماهية الروح . . . " ^(٢) ولخلو المسألة من القضايا العلمية لم أتوسع في تفصيلها .

ويقول في تفسير قول الله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ﴿٢﴾ [الأعلى] : " الذي خلق فسوى:

وجملة {الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى} اشتملت على وصفين وصف الخلق ووصف تسوية الخلق، وحذف مفعول {خَلَقَ} فيجوز أن يقدر عاما، وهو ما قدره جمهور المفسرين . .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٢٩/٨.

(٢) المرجع نفسه ١٥٨/١٤

ويجوز أن يقدر خاصًا، أي خلق الإنسان . . . وعطف جملة {فَسَوَّى} بالفاء دون الواو للإشارة إلى مضمونها هو المقصود من الصلة وأن ما قبله توطئة له . . .
فالفاء من قوله: {فَسَوَّى} للتفريع في الذكر باعتبار أن الخلق مقدم من اعتبار المعبر على التسوية، وإن كان حصول التسوية مقارنا لحصول الخلق. والتسوية: تسوية ما خلقه فإن حمل على العموم فالتسوية أن جعل كل جنس ونوع من الموجودات معادلا، أي مناسبا للأعمال التي في جبلته فاعوجاج زباني العقرب من تسوية خلقها لتدفع عن نفسها به بسهولة. (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى أن التسوية تعديل ذات الشيء. وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت مناسبة للوظائف المعد لها .
التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانية المتقنة حسنا وشرفا، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير، سواء كان التصوير مقارنا للخلق كما في خلق آدم، أم كان بعد الخلق بمدة، كما في تصوير الأجنة .

كلام المعاصرين :

و بالنسبة للمعاصرين فإنّ التسوية تشير إلى مرحلة جديدة يصير لها الإنسان وتتميز هذه المرحلة كما وصفها الدكتور الفاضل زغلول النجار – حفظه الله - بمايلي :
زيادة طول الجنين ليصل إلى ٩٠ ملم
اكتمال تخلق الوجه والعنق مع نمو شبكية العين الى أربع طبقات مع التصاق الجفنين
اكتمال تخلق الأطراف وبداية ظهور الأظافر في نهايات الأصابع
اكتمال تميز أجسام الفقرات
اكتمال تخلق كل من القلب والطحال والغدتين فوق الكليتين (الكظريتين)
تمايز الجهاز البولي (٢)

(١) ابن عاشور التحرير ٢٤٤/٣٠

(٢) د. النجار ، تفسير الآيات الكونية ، مصدر سابق ٢٢٨

شواهد أخرى :

بالنسبة لمعنى التسوية وأنها أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت مناسبة للوظائف المعد لها هو أحد الرأيين في المسألة يقول الرازي : وأما قوله فإذا سَوَّيْتُهُ ففيه قولان :

الأول : فإذا سويت شكله بالصورة الإنسانية والخلفة البشرية .
والثاني فإذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الأمشاج (١) وعليه تحمل الآيات التي تذكر التسوية في حق آدم عليه السلام ، أما إذا كانت التسوية في حق البشر جميعا وهي في قوله تعالى " الذي خلقك فسواك ... " فالشيخ أشار إلى حملها على جعل الشيء سوياً ، أي قوياً سليماً ، ومن التسوية جعل قواه ومنافعه الذاتية متعادلة غير متفاوتة في آثار قيامها بوظائفها بحيث إذا اختل بعضها تطرق الخلل إلى البقية فنشأ نقص في الإدراك أو الإحساس أو نشأ انحراف المزاج أو ألم فيه، فالتسوية جامعة لهذا المعنى العظيم.

وذلك لأن هناك أكثر من فعل فرق الشيخ بينها بكلام بديع عند تفسير قول الله تعالى: {الذي خلقك فسواك فعدلك} [الانفطار ٧] فالأول الخلق: وهو الإيجاد على مقدار مقصود. والثاني التعديل: وهو التناسب بين أجزاء البدن مثل تناسب اليدين، والرجلين، والعينين وصورة الوجه فلا تفاوت بين متزاوجها، ولا بشاعة في مجموعها. وجعله مستقيم القامة، فلو كانت إحدى اليدين في الجنب والأخرى في الظهر لاختل عملهما، ولو جعل العينين في الخلف لانعدمت الاستفادة من النظر حال المشي، وكذلك موضع الأعضاء الباطنة من الحلق والمعدة والكبد والطحال والكليتين. وموضع الرئتين والقلب وموضع الدماغ والنخاع. وخلق الله جسد الإنسان مقسمة أعضاؤه وجوارحه على جهتين لا تفاوت بين جهة وأخرى منهما وجعل في كل جهة مثل ما في الأخرى من الأوردة والأعصاب والشرابيين. (٢)

أما قوله تعالى { خلق فسوى } فالأمر مختلف فيه بين قائل بالعموم وهو قول الجمهور أو الخصوص إما لآدم عليه السلام أو للبشر ؛ كما قاله الشيخ فإن كان لآدم فمعنى التسوية يعود لأحد قولي أهل العلم من كلام الرازي السابق ، وإن أريد البشر حمل على ما حملت عليه آية {الذي خلقك فسواك فعدلك} وإن كانت عامة فالتسوية تعود لأن جعل كل جنس ونوع من الموجودات معادلاً، أي مناسباً للأعمال التي في جبلته فاعوجاج زباني العقرب من تسوية خلقها لتدفع عن نفسها به بسهولة كما تبين من كلام الشيخ .

(١) الرازي مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ١٤٤/١٩

(٢) انظر ابن عاشور التحرير ١٧٦/٣٠

وكما ذكر الشيخ ذكر غيره من المفسرين يقول الرازي رحمه الله تعالى : المسألة الأولى : قوله " خَلَقَ فَسَوَّى " يحتتمل أن يريد به الناس خاصة ويحتتمل أن يريد الحيوان ويحتتمل أن يريد كل شيء خلقه فمن حملة على الإنسان ذكر للتسوية وجوهاً أحدها أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة على ما قال : {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ} (التين ٤) وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه فقال (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) وثانيها أن كل حيوان فإنه مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط وغير مستعد لسائر الأعمال أما الإنسان فإنه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة فالتسوية إشارة إلى هذا وثالثها أنه هُيِّئَ للتكليف والقيام بأداء العبادات وأما من حملة على جميع الحيوانات قال المراد أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس وقد استقصينا القول في هذا الباب في مواضع كثيرة من هذا الكتاب وأما من حملة على جميع المخلوقات قال المراد من التسوية هو أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات خلق ما أراد على وفق ما أراد موصوفاً بوصف الأحكام والإتقان مبرأً عن الفسخ والاضطراب ^(١) ولعل التسوية تدل على معنى يزيد على قضية الصورة وتعديل الشكل الخارجي ويؤيد قول الطاهر أيضاً قول الرازي " ولا بد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل ذلك المزاج الذي لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة " ^(٢)

أما التصوير فقد أشار الشيخ كما تبين إلى أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم إذ كانت صورة الإنسان مستوفية الحسن متمثلة فيه لا يعثرها من فظاعة بعض أجزائها ونقصان الانتفاع بها ما ينادي محاسن سائرها بخلاف محاسن أحاسن الحيوان من الدواب والطيور والحياتان من مشي على أربع مع انتكاس الرأس غالباً، أو زحف، أو نقر في المشي في البعض. ولا تعثر الإنسان نقائص في صورته إلا من عوارض تعرض في مدة تكوينه من صدمات لبطن الأمهات، أو علل تحل بهن، أو بالأجنة أو من عوارض تعرض له في مدة حياته فتشوه بعض محاسن الصور. فلا يعد ذلك من أصل تصوير الإنسان على أن ذلك مع ندرته لا يعد فظاعة ولكنه نقص نسبي في المحاسن .

(١) الرازي مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ١٢٦/٣١ (٢) المرجع نفسه ١٩٩/٢٦

ولعل كلام الشيخ هنا دقيق أيضا فالكلمة هنا لا تتعدى الصورة وتعديل الشكل الخارجي ومن هنا نرى أن الشيخ ذهب في تفسير سورة التين إلى القول بأن معنى خلق الإنسان في أحسن تقويم يتعدى الشكل الخارجي إلى أمر آخر وهو ما في داخل النفس الإنسانية من الفطرة والإيمان بالخالق جل جلاله وهذا المعنى صحيح لا تتنافر معه الآية ولا سياقها ولكنه غير مأثور بل المأثور هو أحد معنيين الأول تعديل الصورة والثاني لقد خلقنا الإنسان، فبلغنا به استواء شبابه وجلده وقوته، وهو أحسن ما يكون، وأعدل ما يكون وأقومه. (١)

تعقيب :

انطلاقاً من كلام المعاصرين وبعض الشواهد الأخرى فإنّ كلام الشيخ ابن عاشور في المسألة كلام مقبول لا شك في صحته .

(١) الطبري ، جامع البيان ، مصدر سابق ٥٠٧/٢٤

المبحث الثاني : بيان أطوار خلق الذرية .

المطلب الأول : النطفة وبداية الحمل :

كلام ابن عاشور :

يبين ابن عاشور أطوار خلق الإنسان في أكثر الآيات تفصيلاً في هذا الشأن فيعرف

بالطور الأول وهو النطفة في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُتِبَ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعَثِ فَإِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ

مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . . . ﴿٥﴾ الآية [الحج] : فيقول : " والذي خلق من

تراب هو أصل النوع. وهو آدم عليه السلام وحواء، ثم كونت في آدم وزوجه قوة التناسل.

فصار الخلق من النطفة فلذلك عطف ب"ثم". والنطفة: اسم لمني الرجل . . . والنطف: القطر

والصب . . . و "ثم" التي عطف بها {ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ} عاطفة مفردات

فهي للتراخي الحقيقي. و{مِنَ} المكررة أربع مرات هنا ابتدائية وتكريرها توكيد. وكون الإنسان

مخلوقاً من النطفة لأنه قد تقرر في علم الطب أن في رحم المرأة مدة الحيض جزء هو مقر

الأجرام التي أعدت لأن يتكون منها الجنين، وهذا الجزء من الرحم يسمى في الاصطلاح الطبي

"المبيض" بفتح الميم وكسر الموحدة على وزن اسم المكان لأنه مقر بيضات دقيقة هي حبيبات

دقيقة جداً . . . مودعة في كرة دقيقة كالغلاف لها يقال لها الحويصلة بضم الحاء بصيغة تصغير

حوصلة تشتمل على سائل تسبح فيه البيضة، فإذا حاضت المرأة ازدادت كمية ذلك السائل الذي

تسبح فيه البيضة فأوجب ذلك انفجار غلاف الحويصلة، فيأخذ ذلك السائل في الانحدار يحمل

البيضة السابحة فيه إلى قناة دقيقة تسمى بوق فلوبيوس لشبهه بالبوق، وأضيف إلى "فلوبيوس"

اسم مكتشفه . وهو البرزخ بين المبيض والرحم، فإذا نزل فيه ماء الرجل وهو النطفة بعد انتهاء

سيلان دم الحيض لقحت فيه البيضة واختلطت أجزاؤها بأجزاء النطفة المستلمة على جرثومات

ذات حياة وتمكث مع البيضة متحركة مقدار سبعة أيام تكون البيضة في أثنائها تتطور بالتشكل

يشبه تقسيم من أثر ضغط طبيعي، وفي نهاية تلك المدة تصل البيضة إلى الرحم وهناك تأخذ في

التشكل. وبعد أربعين يوماً تصير البيضة علقة . . . " (١)

ويزيد الكلام في التعريف بالنطفة وكيفية تكونها في تفسيره لسورة " المؤمنون " في

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

فيقول : " والخلق: الإنشاء والصنع . . . والمراد بالإنسان يجوز أن يكون النوع الإنساني .
وفسر به ابن عباس ومجاهد، فالتعريف للجنس. وضمير {جَعَلْنَاهُ} عائد إلى الإنسان . والسلالة:
الشيء المسلول . . . فالسلالة خلاصة من شيء، ووزن فعالة؟ يؤذن بالقلّة مثل القلامة
والصبابة. ومن ابتدائية، أي خلقناه منفصلا وآتيا من سلالة، فتكون السلالة على هذا مجموع ماء
الذكر والأنثى المسلول من دمهما.

وهذه السلالة هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دما؛ فدم الذكر حين يمر
على غدتي التناسل الأنثيين تفرز منه الأنثيان مادة دهنية شحمية تحتفظ بها ، وهي التي تتحول
إلى مني حين حركة الجماع ، فتلك السلالة مخرجة من الطين لأنها من الأغذية التي أصلها من
الأرض. ودم المرأة إذا مر على قناة الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بذر الأجنة. ومن
اجتماع تلك المادة الدهنية التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكون
الجنين فلا جرم هو مخلوق من سلالة من طين .

وقوله: { ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ } طور آخر للخلق وهو طور اختلاط السلالتين في الرحم.

سميت سلالة الذكر نطفة لأنها تنطف، أي تقطر في الرحم في قناة معروفة وهو القرار المكين
. . . . و {ثُمَّ} للترتيب الرتبي لأن ذلك الجعل أعظم من خلق السلالة . . . ويجوز أن يراد
بالإنسان في قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ} آدم . وقال بذلك قتادة فتكون السلالة الطينة الخاصة التي
كون الله منها آدم وهي الصلصال الذي ميزه من الطين في مبدأ الخليفة ، فتلك الطينة مسلوطة
سلا خاصا من الطين ليتكون منها حي، وعليه ضمير {جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً} على هذا الوجه عائد إلى
الإنسان باعتبار كونه نسلا لآدم فيكون في الضمير استخدام، ويكون معنى هذه الآية كمعنى قوله

تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة] . (١)

وأخيراً في سورة الطارق وتحت قول الله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ

﴿٧﴾ [الطارق] يبين ما يتعلق بالماء الدافق ويبين علاقته بالصلب والترائب فيحرر أولاً

القول في تحديد معنى الصلب ومعنى الترائب فيقول : " ومعنى {دَافِقٌ} خارج بقوة وسرعة والأشهر أنه يقال على نطفة الرجل. والصلب: العمود العظمي الكائن في وسط الظهر، وهو ذو الفقرات. والترائب: جمع تريبة، ويقال: تريب. ومحرر أقوال اللغويين فيها أنها عظام الصدر التي بين الترقوتين والتديين ووسمه بأنه موضع القلادة من المرأة . والترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة، ولكن أكثر وقوعها في كلامهم في أوصاف النساء لعدم احتياجهم إلى وصفها في الرجال."

ثم يفصل في كيفية خروج الماء من بين الصلب والترائب فيقول : " . . . إن أصل تكون ذلك الماء وتنقله من بين الصلب والترائب، وليس المعنى أنه يمر بين الصلب والترائب إذ لا يتصور ممر بين الصلب والترائب لأن الذي بينهما هو ما يحويه باطن الصدر والضلع من قلب ورتنتين.

فجعل الإنسان مخلوقاً من ماء الرجل لأنه لا يتكون جسم الإنسان في رحم المرأة إلا بعد أن يخالطها ماء الرجل فإذا اختلط ماء الرجل بما يسمى ماء المرأة^(١) وهو شيء رطب كالماء يحتوي على بويضات دقيقة يثبت منها ما يتكون منه الجنين وي طرح ما عداه.

وهذا مخاطبة للناس بما يعرفون يومئذ بكلام مجمل مع التنبيه على أن خلق الإنسان من ماء الرجل وماء المرأة بذكر الترائب لأن الأشهر أنها لا تطلق إلا على ما بين ثديي المرأة. ولا شك أن النسل يتكون من الرجل والمرأة فيتكون من ماء الرجل وهو سائل فيه أجسام صغيرة تسمى في الطب الحيوانات المنوية . . . " ^(٢) وأخذ يتحدث بعد ذلك عن الحيوانات المنوية وتكونها وكذا البويضات بكلام طول قريب مما ذكر في الآية السابقة لكن الجديد هنا هو تفسيره لخروج النطاف من بين الصلب والترائب فبذلك يقول : " . . . وأصل مادة كلا المائين مادة دموية تنفصل عن الدماغ وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنخاع، وهو الصلب ثم ينتهي إلى عرق ما يسمى الحبل المنوي مؤلف من

(١) بالرغم من أن ابن عاشور قال : (ما يسمّى بماء المرأة) بهذه العبارة الموهمة بعدم إقراره بأن للمرأة ماء ، لكن ذلك مستبعد لأنه يعرف بماء المرأة ويشرح عنه إذن يقرّ .

(٢) ابن عاشور التحرير . ٢٣٣/٣٠.

شرايين وأوردة وأعصاب وينتهي إلى الانثيين وهما الغدتان اللتان تفرزان المنى فيتكون هنالك بكيفية دهنية وتبقى منتشرة في الانثيين إلى أن تفرزها الأنثيان مادة دهنية شحمية وذلك عند دغدغة ولذع القضيب المتصل بالانثيين فيندفق في رحم المرأة.

وأما بالنسبة إلى المرأة فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة وهو الترائب لأن فيه الثديين وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحامل للبيضات التي منها النسل. والحيض يسيل من فوهات عروق في الرحم، وهي عروق تفتح عند حلول إبان المحيض وتنقبض عقب الطهر. والرحم يأتيها عصب من الدماغ.

وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن علم به للذين نزل بينهم، وهو إشارة مجملة وقد بينها حديث مسلم عن أم سلمة وعائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن احتلام المرأة، فقال: "تغتسل إذا أبصرت الماء" فقيل له: "أترى المرأة ذلك" فقال "وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه (١) " (٢)

التحليل:

أقول: إن الناظر إلى آيات القرآن الكريم التي ذكرت أو فصلت هذا الطور من أطوار خلق الإنسان ليجد أنها اختلفت فبعضها ذكرت النطفة مطلقاً دون تقييد من مثل قوله تعالى ﴿

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ [النحل ٤] ، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

﴿٢﴾ [الإنسان ٢] وبعضها بينت أن النطفة من المنى من مثل قوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ يَكُ نُطْفَةٍ مِنْ مَيِّ يُعْتَقِ

﴿٣٧﴾ [القيامة ٣٧] وبعضها وصفت الماء بالدافق في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ

بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ [الطارق: ٦ - ٧] ، لنرى الآن كيف فسر الشيخ ابن عاشور هذه الآيات:

(١) مسلم ، المسند الصحيح ، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج الماء ، حديث رقم (٣١٤) ٢٥١/١ .

(٢) ابن عاشور التحرير . ٢٣٥-٢٣٤/٣٠ .

ومن حيث الكلام العلمي يعرف الشيخ بكل من ماء الرجل وماء المرأة اللذين يكون منهما الولد بكلام علمي طويل لا داعي لإعادته
ومن حيث أصل مخرج الماء الذائق فالشيخ هنا يذكر تفسيراً علمياً ، بأن معنى الصلب النخاع وهو في منطقة الظهر والترائب التي هي عظام الصدر وما بين الثديين
كلام المعاصرين:

لقد عرّف ابن عاشور بماء الرّجل وماء المرأة بكلام علمي طويل وهو كلام مقبول موافق لما جاء به العلم الحديث الذي يقول : إن الإنسان مخلوق من كل من ماء الرجل وماء المرأة ماء الرجل الذي يحوي كما هائلا من الحيوانات المنوية فأهم جزء يحويه السائل المنوي من الرجل هو الحيوانات المنوية وأهم ماء المرأة هو البويضة واللذين يخرج من تلقيح الحوين للبويضة بداية الحمل بالجنين بعمليات بديعة خلقها الله تعالى بهذا النظام المعجز . (١)
و يزيد عدد النطاف المنوية في اللقاء الزوجي الواحد على ثلاثمائة مليون ، وكل نطفة لها رأس ولها عنق ولها ذيل وتسبح في سائل يغذيها ويسهل حركتها ويتجه هذا العدد الكبير إلى البيضة كي تلقح بحيوان منوي واحد " ومن أعجب العجب عندما تجتاز الحيبيات (النطاف) جوف الرحم لا تدخل إلا إلى البوق الذي يحوي البويضة ولا تدخل إلى البوق الآخر فكأن الحي المنوي يعلم اتجاهه بقدرة الله عظمت قدرته . فعندما يمسه ذلك الحي المقدر ذكري أو أنثوي البويضة يلتحم معها فيلقحها ويفرز سائل انحلالي ... لتفسيخ الجدار الحامي للبويضة وفور تغلغل ذلك الحي المقرر إلى داخل البويضة يتنبه بقدرته سبحانه كل من الحي والبويضة إلى ضرورة منع حيبيات أخرى من الدخول إلى البويضة فتفرز لذلك أنزيمات لتقسية جدار البويضة كسد مانع أمين لحماية البويضة من الحيبيات الأخرى " (٢)

أما من حيث أصل مخرج الماء الذائق فالشيخ هنا يذكر تفسيراً علمياً ، بأن معنى الصلب النخاع وهو في منطقة الظهر والترائب التي هي عظام الصدر وما بين الثديين ، وهو ما يؤيده غيره من المفسرين (٣) ثم يذهب بعد ذلك للقول بأن الصلب هو صلب الرجل والترائب هناترائب المرأة والجنين مخلوق من المائين ، وهو أحد قولي قدامى المفسرين في الآية فإن فيها قولان :

(١) انظر عز الدين ، توفيق محمد (١٤٠٧-١٩٨٦) ، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث ، ط دار السلام ، مصر ، ص ٣٧٨

(٢) د. الراوي ، عبد الوهاب (٢٠٠٨م) معجزات القرآن العلمية في الإنسان مقابلة مع التوراة والإنجيل ، ط ١

٣٢-٣١ ، دار العلوم، عمان،الأردن (٣) انظر الرازي ، مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ١١٧/٣١

أحدهما : أن الولد مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة الثاني : قال آخرون إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه (١) وكلاهما روي أثرا (٢)

أما من حيث تفصيله لعلاقة الماء بالصلب والترائب المذكور أنفا فالمعاصرون من أهل الاختصاص وجد في أقوالهم ما يمكن أن تفسر به الآية تفسيراً علمياً :
التفسير الأول : وهو أن " تكوُّن الخلايا التناسلية للذكر والأنثى في الأسبوع الثالث من بادئ الحمل من جدار كيس المح ثم تهاجر في رحلة تستغرق حوالي ثلاثة أسابيع لتصل في الأسبوع السادس إلى منطقة على جانبي العمود الفقري المنطقة التي تشغلها الكلى عند البالغين وتبقيان كذلك حتى آخر أشهر الحمل ثم تتحدران إلى أسفل وعند الولادة تكونان في مركزهما المعتاد وأحياناً يولد الجنين وخصيتاه في ظهره ... وكذلك مركز المبيض في أنثى الجنين فإنه في الظهر تحت الكلية مباشرة " (٣)

ولعل هذا القول من البعد بمكان بالرغم من أن صاحبه يجعل التفسير المأثور في الآية مرجوحاً بالرغم من خروج رأيه عن المأثور رأساً ويضعف بل ويقول " وقد فسّر الأقدمون "الصلب والترائب " خطأ على أنهما صلب الرجل وترائب المرأة " (٤) وكيف يكون غير مقبول وهو المنقول عن حبر الأمة ؛ ووسع المفسرين جميعاً .
ثم إن هذا القول -فضلاً عن خروجه عن المأثور - لا يتقبله سياق الآية فإله تعالى يقول " فلينظر الإنسان مم خلق " وبعد سؤال التشويق يأتي الجواب " خلق من ماء دافق " يخرج من بين الصلب والترائب " وهذا البيان يعود على الماء لا على تخلق الإنسان بل قل إن الكلام عائد إما على الإنسان ولا شك أن حمل الإنسان يكون بالرحم وهو بين الصلب والترائب من المرأة أو أنه يعود للماء ، وأصحاب هذا القول جعلوه عائداً لجنس الجنين أو أعضائه التناسلية وهذا بعيد كل البعد عن السياق .

(١) انظر الرازي ، مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ٣١ / ١١٨

(٢) الطبري ، جامع البيان ، مصدر سابق ٣٥٤/٢٤

(٣) د. متولي، الموسوعة الذهبية، مصدر سابق ٢٧٣-٢٧٤

(٤) المرجع نفسه ٢٧٤

ومما أستشهد به أيضا ما ذهب إليه صاحب كتاب دليل الانفس .. حيث قال : " والأقرب إلى ظاهر الآية أن الماء نفسه (ماء الرجل وماء المرأة) هو الذي يخرج من بين الصلب والترائب فهل يصح أن تفسر الآية بأن أصول الجهازين التناسليين ابتداءً بين الصلب والترائب ؟ وأن مصادر تغذيتهما آتية من بين الصلب والترائب ؟

هذا اجتهاد في فهم الآية والملاحظ أن الحويصلة المنوية تقع في أعلى الجاز التناسلي عند الرجل موزية للفرقات العصبية أما المبيض فهو يقع أيضا أعلى من مستوى الرحم فهل موقع الحويصلة المنوية والمبيض يسمح بأن نقول إن المائين يخرجان من بين الصلب والترائب أيضا ؟
لا زلنا في حاجة إلى مزيد من البحث لنتمكن من فهم أدق لهذه الآية الكريمة".^(١)

أما القول الثاني فهو لا يخرج أيضا عن المأثور ولا لغة الآية فضلا عن ثبوته العلمي وهو أن الجهاز التناسلي تعصبه ضفائر عصبية عديدة ناشئة من الصلب وتشتبك في هذه الضفائر الجملتان الودية ونظيرة الودية المسؤولتان عن انقباض الأوعية وتوسعها وعن الانتعاض والاسترخاء وما يتعلق بتمام العمل الجنسي . . . أما الترائب ؛ فالباحث اعتمد على أن الترائب هي عظام أصول الأرجل أو العظام ما بين الرجلين – وهو قول غير خارج عن الأثر^(٢) فإذا كان كذلك بان أن المنى يخرج من بين صلب وترائب الرجل فالحويصلتان المنويتان تقعان بين الصلب والترائب واللتان لهما أكبر الأثر في إفراز قسم من السائل المنوي أضف إلى ذلك عمل الجهاز العصبي الأمر وبعد ذلك يمكن القول " أنه خرج من بين صلب الرجل كمركز عصبي تناسلي أمر وترايبه كمناطق للضفائر العصبية المأمورة بالتنفيذ " ^(٣) وأظن أن هذا الرأي أي جعل الماء خارج من الرجل وحده من بين صلبه وترائبه هو الراجح ، وذلك لوجود كلمة " من بين " فلعلها تشير إلى أن الماء من شخص واحد من بين جزئين منه هما الصلب والترائب .

(١) عز الدين ، دليل الأنفس، مصدر سابق ٣٨١-٣٨٢

(٢) انظر ابن كثير، مصدر سابق ٣٧٥/٨

(٣) د. دياب ، عبد الحميد ، ود. قوقز ، احمد (١٩٨٢م) ، مع الطب في القرآن ط٢ ص ٣٣ مؤسسة علوم القرآن دمشق .

ولعل في آخر هذا الكلام ما يؤيد كلام ابن عاشور من أن منشأها من الدماغ فلعله يشير إلى الجانب العصبي الأمر المذكور ، وخصوصاً أن العلم الحديث يقول : إن النخاع الشوكي والأعصاب الدماغية لها دور فعال في الاداء الصحيح للجهاز التناسلي عند الجنسين وأن أي ضربة على النخاع عند الرقبة تؤدي لفصل الاتصالات العصبية بين الأعضاء التناسلية والدماغ مما يؤثر سلباً في أدائها (١)

أقول : إن الأقوال السابقة تنقسم إلى ما هو مقرر وثابت علمياً ، ولا علاقة له بالآية من قريب ولا بعيد كالقول بخروج خلايا التناسل وتخليقها من بين الصلب والترائب ، وما هو موافق للآية ولغتها وتفسيرها المأثور وسياقها ولكنه كلام عام ، من مثل ان الماء مخلوق من بين صلب الرجل وترائب المرأة أو أنه مخلوق من بين صلب الرجل وترائبه ولكن الثاني أوفق وأقرب .

القضية الأخرى هي أن الماء وصف بأنه دافق وابن عاشور لم يبين ذلك علمياً ، ولكن العلم الحديث بين أنه دافق من الرجل بسبب الحويصلتين المنويتين اللتين تفرزان قسماً من السائل المنوي كما ان لهما دوراً ايجابياً في عملية قذف السائل المنوي للخارج على شكل دفقات بسبب تقلص العضلات الموجودة بهما (٢)

وان اعتبرناه من المرأة فتدفعه يكون بأن البويضة تكون في المبيض داخل جراب ترشح إليه السوائل حتى إذا امتلأ انفجر وتدفق وفيه البويضة فيسارع البوق إلى تلقف جزء من هذا السائل مع البويضة الوحيدة ثم تسير هذه البويضة في سائل القناة حتى تصل إلى المكان الذي تلنقي فيه بنطفة الرجل فطريقة انطلاق ماء المرأة تتم بالتدفق .. (٣)

تعقيب :

كلام ابن عاشور في المسألة بشكل عام منسجم مع العلم الحديث وما قاله المعاصرون وهو غير خارج عن اللغة والأثر .

(١) الجاعودي ، تاج الدين (١٩٩٣م)، الإنسان هذا الكائن العجيب، ط١ ص ٧٤

(٢) د. قوقز ، مع الطب في القرآن، مصدر سابق ص ٣٣ بتصرف

(٣) عز الدين ، دليل الأنفس ، مصدر سابق ص ٣٨٠-٣٨١

النطفة الأمشاج . . .

كلام ابن عاشور :

وفي معنى النطفة الأمشاج المذكورة في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

بَنَاتِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ [الإنسان] يقول ابن عاشور : " . . . و {أمشاج} : مشتق من

المشج وهو الخلط، أي نطفة مخلوطة قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ

الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ [يس] وذلك تفسير معنى الخلط الذي أشير إليه هنا.

وصيغة {أمشاج} ظاهرها صيغة جمع . . . والوجه ما ذهب إليه صاحب "الكشاف" : أن

{أمشاج} مفرد . . . قال ولا يصح أن يكون أمشاج جمع مشج بل هما أي مشج وأمشاج مثالان

في الإفراد اه . (١) فإذا كان {أمشاج} في هذه الآية مفردا كان على صورة الجمع كما في

الكشاف . فوصف {نطفة} به غير محتاج إلى تأويل، وإذا كان جمعا . . . كان وصف النطفة به

باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص، فلذلك يصير كل جزء من النطفة

عضوا فوصفوا النطفة بجمع الاسم للمبالغة أي شديدة الاختلاط . وهذه الأمشاج منها ما هو

أجزاء كيميائية نباتية أو ترابية ومنها ما هو عناصر قوى لحياة " (٢)

كلام المعاصرين :

يشير ابن عاشور إلى أنّ الأمشاج (الأخلط) أي ما تحويه النطفة من أخلط العناصر

التي تتكون منها النطفة .

ولعل حمل الأمشاج على اختلاط ماء الرجل بماء المرأة أولى والعلم الحديث يؤكد ذلك بل

أصبح مسلم به علميا حيث يبين صاحب كتاب دليل الأنفس أنّ " الإنسان يتخلق من نطفة

مخصبة يجتمع فيها الحيوان المنوي والبويضة ويمتزجان بطريقة تتفق تماما مع اللفظ القرآني

"أمشاج" . . . فكل زوج من الصبغيات المستكنة في نواة الخلية والمسؤولة عن برنامج التخلق

والتكاثر تتكون من سلسلتين مزدوجتين من الأحماض الأمينية وفي الحيوان المنوي والبويضة

(١) انظر الزمخشري ، الكشاف ، مصدر سابق ، ٦٦٦/٤

(٢) ابن عاشور ، التحرير ، ٣٤٨/٢٩

تكون السلسلتان منفصلتين فاذا حصل التخصيب امتزجت السلسلتان وأصبح كل صبغي زوجا تاما بعد أن كان أحد طرفيه في نطفة الرجل الآخر في بويضة المرأة ثم يختفي تميز الصبغات نفسها وتصير أزواجا مختلطة غير متميزة داخل النواة وكل هذه المعاني تشير إليها " النطفة الأمشاج " (١)

شواهد أخرى :

يشير ابن عاشور إلى أنّ الأمشاج (الأخلاط) أي ما تحتويه النطفة من أخلاط العناصر التي تتكون منها النطفة ، أغلب المفسرين على أن الأخلاط هي اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة (٢) ، والمسألة فيها أقوال ، يقول الرازي : " واختلفوا في معنى كون النطفة مختلطة ؛ فالأكثر على أنه اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة ..قال ابن عباس هو اختلاط ماء الرجل وهو أبيض غليظ وماء المرأة وهو أصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة . قال مجاهد هي ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء ، وقال عبدالله أمشاجها عروقها وقال الحسن يعني من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة . . . " (٣)

تعقيب :

بالرغم من صحّة ما ذهب إليه ابن عاشور من معنى النطفة الأمشاج وهو أنّها أخلاط العناصر المكونة لها إلا أنّ القول بأنها نطفة الرجل مع نطفة المرأة أقرب والله تعالى أعلم .

(١) عز الدين ، دليل الأنفس ، ٣٧٧-٣٧٨

(٣) ابن قتيبة. عبد الله بن مسلم (١٩٧٨م) ، غريب القرآن ، ط دار الكتب العلمية ١٠٢/١

(٤) الرازي مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ٢٠٩/٣٠

كيفية التخصيب ووقوع الحمل . . .

كلام ابن عاشور :

يشرح ابن عاشور كيفية التخصيب ووقوع الحمل بكلام علمي طويل يبين فيه كيف وأين تتكون البويضة في الرحم ويفصل في أجزاء الجهاز التناسلي للمرأة كالحويصلات وقناة فلوبيوس وأين يقع التخصيب تحديداً وهو في هذه القناة وأن البويضة المخصبة تسير مدة ٧ أيام حتى تصل لجدار الرحم . . . فيبين ويفصل بكلام طويل له قيمته العلمية .

كلام المعاصرين :

والعلم الحديث يوافق ما ذهب إليه ابن عاشور حيث يقول العلم : إن البويضة تتكون أول ما تتكون في داخل المبيضين للمرأة حيث يحوي كل مبيض على حويصلات بداخل كل واحدة منها بويضة لا يزيد وزنها عن جزء من مليار من الغرام وقطرها عن ٢٠٠ ميكرون (١) حيث تخرج من حوصلتها وتخرج من المبيض وحال خروجها تتلقفها الأهداب المحيطة بفوهة قناة الرحم الخارجية والتي أوجدها الله تعالى قريبة جداً من المبيض ، ثم تدفع بها إلى تجويفها لتلتقي هناك بأفضل حيوان منوي فيتم الأخصاب حيث يدخل الحيوان ويخترق البويضة ويندمجان اندماجاً لا فكاك بعده وتحصل النطفة الأمشاج التي لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين ثم أربع فثمان حتى تتشكل كالتوتة ثم تتشبث وتنغرس في الناحية العلوية الخلفية من بطانة جدار الرحم وتنغرس بعد ٦-٥ أيام من تخصيبها وبعد الانغراس يمتد منها ما يشبه جذور النبات لتتشابك مع أوعية الأم الدموية لتتغذى . (٢)

تعقيب :

فلاحظ مما سبق عدم بُعد كلام الطاهر ابن عاشور في المسألة عما جاء في العلوم المعاصرة .

(١) (الميكرون جزء من الألف من الملمتر، نشواتي، الإعجاز في خلق الإنسان ص ٢٢

(٢) نشواتي ، محمد نبيل (١٤٢٨-٢٠٠٧م)، الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان وتفنيد نظرية دارون ، دار

القلم دمشق ، ص ٢٣-٢٥

القرار المكين :

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (١٣) ثُمَّ

جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ المؤمنون] " . . . ضمير {جَعَلْنَاهُ} عائد إلى الإنسان باعتبار أنه

من السلالة، فالمعنى: جعلنا السلالة في قرار مكين، أي وضعناها فيه حفظاً لها، ولذلك غير في الآية التعبير عن فعل الخلق إلى فعل الجعل المتعدي بفي بمعنى الوضع .

والقرار في الأصل: مصدر قرأ إذا ثبت في مكانه. وقد سمي به هنا المكان نفسه. والمكين:

الثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، فمقتضى الظاهر أن يوصف بالمكين الشيء الحال

في المكان الثابت فيه. وقد وقع هنا وصفا لنفس المكان الذي استقرت فيه النطفة، على طريقة

المجاز العقلي للمبالغة ، وحقيقته مكين حاله " (١)

كلام المعاصرين :

يبين ابن عاشور سبب وصف الرحم بالقرار المكين بأنه نظراً لثباته وإحكامه ولكنه لا

يفصل في بيان ذلك ، ويشير سيد قطب - رحمه الله - إلى أن النطفة " ثابتة في الرحم الغائرة

بين عظام الحوض، المحمية بها من التأثير باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر

والبطن من لكومات وكدمات، ورجات وتأثرات! " (٢).

فسرّ وصف الرحم بالقرار المكين يظهر إذا ما نظرنا إلى مكانه في عظام الحوض ومعلوم

أنها من أقوى عظام الإنسان وأغلظها ومن شأن ذلك حماية الجنين مما يعرض للمرأة من

كدمات ثم بائكاء ذلك كله على عظام الفخذين التي هي من أقوى العظام كذلك في الجسم .

تعقيب :

فكلام ابن عاشور صحيح والعلم جاء بتفصيلات أدق .

(١) ابن عاشور التحرير ٢٣/١٨

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٤،٢٤٥٨

خلق الذكر والأنثى وما يتعلق بجنس الجنين :

كلام ابن عاشور :

ويقول ابن عاشور في التفسير العلمي لخلق الذكر والأنثى وما يتعلق بجنس الجنين في

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۗ إِنَّ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۗ ﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٦]

" والمراد بالزوجين: الذكر والأنثى من خصوص الإنسان . . . ولعل وجه ذكر الزوجين والبدل منه {الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} دون أن يقول: وأنه خلقه . . . أمران :

أحدهما : إدماج الامتنان في أثناء ذكر الانفراد بالخلق بنعمة أن خلق لكل إنسان زوجة كما قال تعالى {وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [الروم: ٢١] الآية.

الثاني: الإشارة إلى أن لكلا الزوجين حظا من النطفة التي منها يخلق الإنسان فكان للذكر نطفة وللمرأة نطفة كما ورد في الحديث الصحيح "أنه إذا سبق ماء الرجل أشبه المولود أباه وإن سبق ماء المرأة أشبه المولود أمه" (١) . " (٢)

ثم يبين ما المراد بالنطفة وقد سبق الكلام عنها ثم ينتقل لبيان معنى (تمنى) فيقول : " و {تُمْنَى} تدفق وفسروه بمعنى تفذف أيضا. وقيل أن {تُمْنَى} بمعنى تراق، وجعلوا تسمية الوادي الذي بقرب مكة منى لأنه تراق به دماء البدن من الهدايا. ولم يذكر أهل اللغة في معاني منى أو أمنى أن منها الإراقة. وهذا من مشكلات اللغة. (٣)

(١) لم أجده بهذا اللفظ فقد أخرجه البخاري بلفظ : " أمّا الولدُ فإذا سَبَقَ ماءُ الرَّجُلِ ماءَ المَرأةِ نَزَعَ الولدُ، وإذا سَبَقَ ماءُ المَرأةِ ماءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الولدَ " باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، حديث رقم ٦٩/٥ (٣٩٣٨)

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٢٧/٤٦

(٣) هذا الكلام من ابن عاشور يبين مدى عنايته باللغة وعدم تحميل الآية ما لا تحتمله ألفاظها وكلامه صحيح فقد اقتصر اللغويون في بيان معنى مادة " منى " على معنى التقدير يقول ابن فارس : الميمُ وَالنُّونُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَنَفَاذِ الْقَضَاءِ بِهِ ابن فارس مقاييس اللغة ٥ / ٢٧٦ ، وقال صاحب تاج العروس : سمي المنى منياً لأنه يقدر منه الحيوان . (انظر تاج العروس الزبيدي ٥٥٩/٣٩)

ثم إن {تَمَنَّى} يحتمل أنه مضارع أمني بهمزة التعدية وسقطت في المضارع فوزنه تأفعل، ويحتمل أنه مضارع منى مثل رمى فوزنه: تفعل . وبني فعل {تَمَنَّى} إلى المجهول لأن النطفة تدفعها قوة طبيعية في الجسم خفية فكان فاعل الإيماء مجهولا لعدم ظهوره.
وعن الأخفش {تَمَنَّى} تقدر، يقال: منى الماني، أي قدر المقدر. والمعنى: إذا قدر لها، أي قدر لها أن تكون مخلقة كقوله تعالى: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} [الحج: ٥]. والتقييد ب {إذا تَمَنَّى} لما في اسم الزمان من الإيدان بسرعة الخلق عند دفق النطفة في رحم المرأة فإنه عند التقاء النطفتين يبتدىء تخلق النسل فهذه إشارة خفيفة إلى أن البويضة التي هي نطفة المرأة حاصلة في الرحم فإذا أمنيبت عليها نطفة الذكر أخذت في التخلق إذ لم يعقها عائق. ثم لما في فعل {تَمَنَّى} من الإشارة إلى أن النطفة تقطر وتصب على شيء آخر لأن الصب يقتضي مصبوبا عليه فيشير إلى التخلق إنما يحصل من انصباب النطفة على أخرى، فعند اختلاط المائين يحصل تخلق النسل فهذا سر التقييد بقوله: {إذا تَمَنَّى}. وفي الجمع بين الذكر والأنثى محسن الطباق لما بين الذكر والأنثى من شبه التضاد. (١)

أقول : إن هذه الآية لها دلالات :

الأولى : أنه جل ثناؤه ذكر أن الزوجين الذكر والأنثى مخلوقان من نطفة .
الثانية : هذه النطفة أضيف لها قيد وهو " إذا تمنى " وهذا الفعل مبني للمجهول .

التحليل :

وكلام ابن عاشور في الآية يفهم منه أن النطفة مشتركة بين الرجل والمرأة أي أنها النطفة الأمشاج يخرج منها ذكر أو أنثى و لكل من الزوجين حظ في هذه النطفة، ومن ثم ذكر الحديث بعد ذلك ليدلل على أن للمرأة نطفة ثم أخذ يتحدث عن نطفة المرأة وهي البويضة ، ثم يذكر في نهاية كلامه في وجه التقييد بذكر " إذا تمنى " أن نطفة المرأة موجودة أصلا ويحصل من إيماء الرجل عليها الإخصاب ، ففي نهاية الكلام يوحى إلى أنها نطفة المرأة التي تمنى بماء الرجل ، أما عن معنى " تمنى " فهو تصب وتراق أو تقدر .

كلام المعاصرين :

بالرغم من أن المعاصرين المشتغلين بالتفسير العلمي يذهبون إلى القول بأن النطفة هنا نطفة الرجل^(١) ، بناء على كلام علمي يحدد أن جنس المولود مرده إلى الرجل لكنني لا أرى في الآية أي تقييد بنطفة الرجل بالرغم من وجود الحقيقة العلمية وصحتها وحتى لو كان الرجل هو الذي يحدد جنس المولود بناء على نطفه فإن دور المرأة لا ينسى علميا والكلام العلمي الآتي يوضح هذا .

تقول العلوم الحديثة أن الرجل يخرج في قذفة واحده ما يقارب نصف مليار من الحبيبات ولكن نصفها يحمل صبغة ذكرية y ويحمل النصف الآخر صبغة انثوية x بينما تحمل بويضة المرأة صبغة x دائما فاذا حدث ولقح البويضة حيي x يكون المولود انثى xx أما اذا لقحها حيي y يكون المولود ذكرا xy ^(٢) تموت ٢٠% منها فور قذفها بسبب ضعفها ثم تموت ٢٠% في المهبل بسبب حموضة سوائله ستسلك بعد ذلك نصف النطف المتبقية الاتجاه الخاطئ عبر قناة الرحم (قناة فالوب التي لا تحتوي البويضة في تجويفها) بينما يسبح النصف الاخر الذي لا يزيد عن ٣٠% في الاتجاه الصحيح ليتم لقاء أسرع وأكفأ حيوان منوي . الحيوان الذي يحمل شارة الذكورة سريع الحركة وذو رأس صغير مدبب وذيله طويل ودقيق ويتأثر بشدة في الوسط الحامضي وينشط في الوسط القلوي ، أما الذي يحمل شارة الأنثى فهو بطيء الحركة رأسه كبير نسبيا وذيله قصير وغلظ ويتعرض في الوسط الحامضي ويتشبث في القلوي . يحتاج الحيوان المنوي الذكري ٤ _ ٧ ساعات ليجتاز المسافة من عنق المهبل إلى نهاية بوق الرحم الخارجية اما الأنثوي فهو بطيء حيث يجتاز المسافة نفسها من ٢٤ _ ٤٨ ساعة لقد تبين في السنوات الأخيرة أن وسط المهبل وعنق الرحم ذو تفاعل حامضي خفيف لكنه يصبح قويا إذا أصيبت المرأة بالتهاب حاد في عنق الرحم . وعند الإثارة الجنسية التامة للزوجة تزداد مفرزات عنق الرحم وتصبح قلوية التفاعل خصوصا اذا بلغت المرأة قمة النشوة . فإذا ازدادت نسبة الحموضة بهذا أو ذاك ماتت الحيوانات المذكرة ووصلت المؤنثة للبويضة وبالتالي جاء المولود أنثى^(٣)

(١) د البار ، محمد علي (١٩٨٤م) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ط٥ ص ١٣٨ الدار السعودية للنشر

(٢) عبد الوهاب الراوي ، معجزات القرآن العلمية مصدر سابق ، ٧٥

(٣) د النشواتي ، المعجزة الإلهية، مصدر سابق ٣٢ - ٣٩

على الرغم من صحة هذا الكلام العلمي فإنه لا يمنع من حمل النطفة في الآية على نطفة المرأة - كما ذهب إليه ابن عاشور في آخر كلامه - خصوصاً أن الفعل جاء مبنياً للمجهول وكذلك أنّ العلم الحديث يذكر أن للمرأة دور في تحديد أو على الأقل مساعدة وتوجيه جنس المولود حتى إن بعض الأبحاث المعاصرة قالت أن تقلصات رحم المرأة هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن شفت وسحب السائل المنوي المختلط بماء المرأة عند عنق الرحم لذا فإن سرعة الحيوانات المنوية المذكورة...تصبح قليلة الجدوى في السبق إلى الوصول إلى قناة الرحم إذ وجد أن الحيوانات المنوية المذكورة والمؤنثة بل والميتة تصل في وقت واحد تقريباً إلى قناة الرحم " (١)

وللمرأة دور معلوم في تحديد جنس المولود لا سيما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما أخرجه مسلم عن أم سليم : " إِنْ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أبيضٌ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ أصْفَرٌ، فَمِنْ أَيِّهِمَا عَلَا، أَوْ سَبَقَ، يَكُونُ مِنْهُ الشَّبَهُ " (٢) ، يقول النووي في معنى العلو المذكور : " قَالَ الْعُلَمَاءُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْعُلُوِّ هُنَا السَّبْقُ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ وَالْقُوَّةُ بِحَسَبِ كَثْرَةِ الشَّهْوَةِ " (٣)

شواهد أخرى :

ولكن المفسرين القدامى يشيرون إلى أحد رأيين :

الأول : أنها نطفة الرجل لأنها (تمنى) تصب في الرحم وتراق. (٤)

الثاني : أنها النطفة المشتركة . (٥)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور في الآية دقيق من حيث اللغة عندما بحث في معنى " تمنى " ثم في تحديد المراد بالنطفة وميله إلى أنها نطفة المرأة لكن العلم الحديث جاء ليبرز الكلام ويوضحه حيث لم يأت ابن عاشور ببيان التفصيل العلمي في ذلك بل كلامه جاء على الإجمال .

(١) البار ، خلق الإنسان مصدر سابق ص ١٣٦

(٢) مسلم ، الجامع المسند ، مصدر سابق ، باب وجوب الغسل على المرأة إذا رأت الماء (٣١١) ٢٥٠/١

(٣) النووي ، يحيى بن شرف (١٣٩٢) ، المنهاج شرح صحيح مسلم ، ط٢ ، ٢٢٢/٣ ، دار إحياء التراث العربي

(٤) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ، مصدر سابق ١٦٦/١٧

(٥) الطبري جامع البيان، مصدر سابق ٢٥٨/٢٤

المطلب الثاني : العلقة

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَاذْكُرُوا

خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ

مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا . . . ﴿٥﴾ الآية [الحج] :

" وبعد أربعين يوما تصير البيضة علقة في حجم نملة كبيرة طولها من ١٢ إلى ١٤ ميليمتر. ثم يزداد تشكلها فتصير قطعة صغيرة من لحم هي المسماة "مضغة" طولها ثلاثة سنتيمتر تلوح فيها تشكيلات الوجه والأنف خفية جدا كالخطوط. ثم يزداد التشكل يوما فيوما إلى أن يستكمل الجنين مدته فيندفع للخروج وهو الولادة . " (١)

ويقول في تفسير قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴿ [المؤمنون]

" . . . وحرّف ثم في قوله تعالى: { ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً } للترتيب الرتبي إذ كان خلق النطفة

علقة أعجب من خلق النطفة إذ صير الماء السائل دما جامدا فتغير بالكثافة وتبدل اللون من عوامل أودعها الله في الرحم . ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن العلقة فإنه وضع بديع لهذا الاسم إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن حي له قوة امتصاص القوة من دم الأم بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم . والعلقة: قطعة من دم عاقد " (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٧ / ١٤٤

(٢) المرجع نفسه ١٨ ، ٢٠

ويقول في تفسير قول الله تعالى : ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ

تِلْكَ ﴿٦﴾ [الزمر] : " ويعلم تفصيله علماء الطبّ والعلوم الطبيعية وقد بينه الحديث عن

النبي صلى الله عليه وسلم : "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح" (١) .

وقوله: {خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ} أي طوراً من الخلق بعد طور آخر يخالفه وهذه الأطوار عشرة: الأول :طور النطفة، وهي جسم مخاطي مستدير أبيض خال من الأعضاء يشبه دودة، طوله نحو خمسة مليمتراً .

الثاني :طور العلقة ، وهي تتكون بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من وقت استقرار النطفة في الرحم ، وهي في حجم النملة الكبيرة طولها نحو ثلاثة عشر مليمتراً يلوح فيها الرأس وتخطيطات من صور الأعضاء. " (٢)

كلام المعاصرين :

والعلم الحديث يؤكد حقيقة تسمية هذا الطور بالعلقه حيث أن النطفة الأمشاج تتحول بالانقسام حتى تتشكل كالتوتة ثم تتشبث وتنغرس في الناحية العلوية الخلفية من بطانة جدار الرحم وتنغرس بعد ٥-٦ أيام من تخصيبها وبعد الانغراس يمتد منها ما يشبه جذور النبات لتتشابك مع اوعية الام الدموية لتتغذى ، هذه الجذور تكون كالأصابع وبفحص العلقه حينئذ تبين أنها تحوي نوعين من الخلايا الخارجية التي تنمو لتصبح كالأصابع تمتد في بطانة الرحم لتمتص ما يلزمها من الغذاء والداخلية التي تنقسم الى صفيين أو طبقتين تتكون بعد نموها ونمو خلاياها وتظهر براعم الأطراف فيها التي لا تلبث أن تتحول الى جنين كامل ، وذلك في طور

(١) البخاري ، الجامع الصحيح باب ذكر الملائكة ، حديث رقم (٣٠٣٦) ٤/١١١ ، ومسلم ، الجامع المسند ،

(٢٦٤٣) ٤/٢٠٣٦

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٢٤/٢٤

المضغة (١)

و لعل أشهر شيء في هذا الطور من أطوار خلق الإنسان هو هذا العلق حتى يخلع لها هذا الاسم علة لآيات العلمية فالكلمة بهذا المدلول تشير إلى حقيقة علمية دقيقة ، والشيخ يفهم من كلامه أنه يشير لحقيقة تشبث العلقه بجدار الرحم وامتصاصها للغذاء ، " فلفظ العلقه يستوعب معاني تشير إلى التعلق والتشبث والامتصاص كما يشير إلى الشبه مع الدودة المسماه بالعلقه سواء في شكلها أو في امتصاصها للدم من الجسم الذي تتشبث فيه " (٢) أما عن أن حجم العلقه فهي في منظور العلوم الحديثه لا يصل حجمها إلى رأس الدبوس أو ٠.٧ من المليمتر (٣) .

أما عن العطف بثم فالشيخ يشير بأنه ترتيب رتبي ولكن الحمل على التراخي أولى لأن النطفة تستحيل لعلقه بعد ٦ أيام تقريبا أو أكثر فالأمر فيه تراخ والله تعالى أعلم .

شواهد أخرى :

أقول : إن كلام ابن عاشور اللغوي في معنى العلقه سديد ذلك أن الأصل اللغوي يبينه ابن فارس بقوله " العين واللام والقاف أصلٌ كبير صحيح يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يناط الشئ بالشئ العالى... والعلق: الدم الجامد، وقياسه صحيح، لأنه يعلق بالشئ؛ والقطعة منه علقه " (٤)

تعقيب :

كلام ابن عاشور في هذا الطور كان فيه بعض الأخطاء العلميه .

(١) د. النشواتي ، المعجزة الإلهية ، مصدر سابق ص ٢٣-٢٧

(٢) عز الدين دليل الأنفس ، مصدر سابق ٣٨٣

(٣) د. النشواتي ، المعجزة الإلهية ، مصدر سابق ٢٦

(٤) ابن فارس مقاييس اللغة ، مصدر سابق ٩٨/٤

المطلب الثالث : المضغة (مخلقة وغير مخلقة) ، وتقلباتها .

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ

مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا . . . ﴿٥﴾ الآية [الحج] :

" . . . فقولته تعالى: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ} صفة {مُضْغَةٍ} . وذلك تطور من تطورات

المضغة. إشارة إلى أطوار تتشكل تلك المضغة فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة ، أي غير ظاهر فيها شكل الخلق. ثم تكون مخلقة، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف، ولذلك لم يذكر مثل هذين الوصفين عند ذكر النطفة والعلقة، وإذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة. وإذ قد جعلت المضغة من مبادئ الخلق تعين أن كلا الوصفين لازمان للمضغة. فلا يستقيم تفسير من فسّر " غير المخلقة " بأنها التي لم يكمل خلقها فسقطت .

والتخلق : صيغة تدل على تكرير الفعل، أي خلقا بعد خلق، أي شكلا بعد شكل. وقدم ذكر المخلقة على ذكر غير المخلقة خلاف الترتيب في الوجود لأن المخلقة أدخل في الاستدلال، وذكر بعده غير المخلقة لأنه إكمال للدليل وتنبية على أن تخليقها نشأ عن عدم. فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء وهو المقصود من الكلام. " (١)

ويقول في تفسير قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٦﴾ ﴿ [المؤمنون]

" . . . والمضغة: القطعة الصغيرة من اللحم مقدار اللقمة التي تمضغ. وقد تقدم في أول سورة الحج كيفية تخلق الجنين .

وعطف جعل العلقه مضغة بالفاء لأن الانتقال من العلقه إلى المضغة يشبه تعقيب شيء عن

شيء إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطورهما قريب وإن كان مكث كل طور مدة طويلة. وخلق المضغة عظاما هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنساني من عظم ولحم، وقد دل عليه قوله: {فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا} بقاء التفريع على الوجه الذي قرر في عطف {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ} بالفاء. فمعنى {فَكَسَوْنَا} أن اللحم كان كالكسوة للعظام ولا يقتضي ذلك أن العظام بقيت حيناً غير مكسوة^(١)

ويقول في تفسير قول الله تعالى: ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ

ثَلَاثٍ ۗ﴾ [الزمر ٦]: "... الثالث: طور المضغة وهي قطعة حمراء في حجم النحلة." ^(٢)

التحليل:

نلاحظ أن ابن عاشور يشير إلى أن المضغة قطعة حمراء في حجم النحلة وهي كاللقمة الممضوغة ويشير أيضا إلى أن معنى {مخلقة وغير مخلقة} مستبينة الخلقة تبدو بها تخاطيب الوجه واليدين وغيرها وغير مستبينة الخلقة.

كلام المعاصرين:

لقد كشف العلم الحديث عن الإعجاز بتقيد المضغة بتقسيمها لقسمين مخلقة وغير مخلقة ؛ فبعد تخصيب البويضة بسبعة أيام تقريبا يبدأ طور العلقة ويستمر إلى الأسبوع الثالث حيث تبدأ مرحلة جديدة هي المضغة .

ففي بداية الأسبوع الرابع تستمر الخلايا الداخلية بالنمو والانقسام والتمايز وأول ما يتمايز ويظهر هو براعم الراس والدماغ والقلب ، وبعد ذلك تظهر بدايات العينين والأذنين والرقبة وفي الشهر الثاني تظهر براعم الذراعين والساقين وتبدأ الأجهزة الرئيسية بالتشكل^(٣)، فالمخلقة على هذا الكتلة العليا من المضغة (التي تكون واضحة التخليق) . أما عن حجم المضغة فالظاهر يشير إلى أنها^٣ اسم والظاهر في العلوم المعاصرة أنها أصغر فمنهم من قال أنها حوالي ٥ ملم^(٤) ، أو أنها تبلغ ١ سم^(٥)

(١) ابن عاشور التحرير ٢٠/ ١٨

(٢) المرجع نفسه ٢٤/٢٤

(٣) الراوي معجزات القرآن العلمية ،، مصدر سابق ٣٤

(٤) المرجع نفسه ٣٥

(٥) د. نشواتي ، الإعجاز الإلهي ، مصدر سابق ٢٨

أما عن خلق المضغة عظام و كسوة العظام باللحم فإن ابن عاشور لم يشر إلى أن المضغة تتحول الى عظام ثم تكسى بعد ذلك باللحم بل بين أن اللحم كان كالكسوة للعظام . بينما يقول العلم الحديث :إن الاعتقاد قد ساد بأن طور تكوين العضلات للجنين يسبق تكون الهيكل العظمي وظل هذا سائدا حتى منتصف القرن العشرين حيث تبين أن الجنين في الأسبوع السادس يبداً طوراً جديداً وهو أن المضغة تنمو للخارج وتتحوّل سريعاً من أنسجة غضروفية إلى أنسجة عظمية لتكون العمود الفقري والهيكل العظمي بأكمله بضمنه الأطراف ثم يبدأ طور آخر وهو اكتساء العظام بالأنسجة العضلية^(١) ، وذلك ان الكتل البدنية تتحول الى جزأين : الأول : جزء أمامي يسمى القطعة الهيكلية وهي تكون عظام الفقرات والأطراف العليا السفلى وتشكل الأربع كتل الواقعة في الرأس الجزء المؤخري القاعدي من الجمجمة وتتكون الأضلاع من نتوءات من العمود الفقري في المنطقة الصدرية أما عظام الوجه فتتشكل أيضاً من القوس البلعومي الأول ويتكون العظم اللامي من القوس البلعومي الثاني وقحفلة الجمجمة التي تتكون من الخلايا المتوسطة والتي تتحول مباشرة من غشاء الى عظم دون أن تتحول الى غضاريف الثاني : جزء خلفي ظهري : وهو المقطع العضلي الذي سرعان ما ينقسم الى قسمين آدمي يشكل أدمة الجلد وما تحتها من نسيج عضلي يشكل معظم عضلات الجلد^(٢)

شواهد أخرى :

هناك أكثر من قول في المسألة نقلها الرازي بقوله :
" أحدها: أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم كأنه سبحانه قسم المضغة إلى قسمين أحدهما تامة الصور والحواس والتخاطيط و ثانيهما الناقصة في هذه الأمور فبين أن بعد أن صيره مضغة منها ما خلقه إنساناً تاماً بلا نقص ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة والضحاك فكان الله تعالى يخلق المضع متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم .

وثانيها :المخلقة الولد الذي يخرج حياً وغير المخلقة السقط وهو قول مجاهد .

وثالثها :المخلقة المصورة وغير المخلقة أي غير المصورة وهو الذي يبقى لحماً من غير

(١) الراوي معجزة القرآن ، مصدر سابق ٣٥-٣٦

(٢) البار، مصدر سابق ٣٧١ ، وانظر د. النجار تفسير الآيات الكونية ، مصدر سابق ٢١١/٢-٢١٢

تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبدالله قال (إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً وقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة فإن قال غير مخلقة مجتهداً الأرحام دماً وإن قال مخلقة قال يا رب فما صفتها أذكر أم أنثى ما رزقها ما أجلها أشقى أم سعيد فيقول الله سبحانه انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفتها) (١)

ورابعها: قال القفال التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلوق لتتابع الخلق عليه قالوا فما تم فهو المخلوق وما لم يتم فهو غير المخلوق لأنه لم يتوارد عليه التخليقات " ثم رجح القول الأول. (٢)

والألوسي رجح أنها بمعنى تتابع عليها التخليق (الأطوار) أي القول الرابع من أقوال الرازي والذي نقله عن القفال. (٣)

وإذا تأملنا في الآية نجد بعض الأمور :

أولاً : الآية تذكر أطوار خلق الإنسان الذي كتبت له الحياة وكان من زمرة المخاطبين في الآية وضمائر الخطاب تكررت فيها : " يا أيها الناس إن كنتم ..فإننا خلقناكم ...لنبين لكم ..ثم نخرجكم ..لتبلغوا ... ومنكم .. ومنكم " وهذا يبعد القول بأن غير المخلقة مالم تتم لها الحياة فسقطت قبل تخليقها أي يبعد القول الأول من أقوال الرازي ، والقول الثالث أيضا يؤول إليه ثانياً : الوصف ب(مخلقة) يشمل كل إنسان له بعض الجوارح التي بها اختلاف وتشوه غير طبيعي فبالرغم من ذلك لا ينفي عنه وعن أعضاؤه وصف أنها مخلقة وهذا يبعد القول الأول عند الرازي .

ثالثاً: أن هذا الطور هو الطور الوحيد الذي ذكر فيه التخليق وعدمه ولو كان مثلاً ما تتابعت عليه الأطوار أي ما ذهب إليه الألوسي لم يكن لتخصيصه بالمضغة أي ميزة ولكن الأدهى أن يوصف به آخر الأطوار.

فيؤول القول إلى ترجيح قول الطاهر ابن عاشور بل هو الذي يؤيده العلم الحديث كما تبين .

تعقيب :

إن كلام ابن عاشور بشكل عام في هذا الطور كلام صحيح علمياً بل هو الذي تؤيده العلوم الحديثة .

(١) لم أجد في كتب السنن ألبتة ، غير أنني وجدته عند الطبري في جامع البيان ٥٦٨/١٨

(٢) الرازي مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ٥٤٣/١٠

(٣) الألوسي روح المعاني ، مصدر سابق ٤٠٥-٤٠٦

المطلب الرابع : الخلق الآخر ، و تيسير السبيل

كلام ابن عاشور :

بعد مضي الأطوار السابقة يأتي الكلام على أمرين مهمين يأتيان بعد تلك الأطوار، الأول : ما فيه كمال الخلق وتمام الصورة ويتعلق بقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون] والذي يقول ابن عاشور في تفسيره :

" . . . وفي الحديث الصحيح: " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح " الحديث (١) ، فإذا نفخ فيه الروح فقد تهيأ للحياة والنماء وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة ثم نشأ فيه خلق الحياة ، وهي حالة أخرى طرأت عليه عبر عنها بالإنشاء. " (٢)

وقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَا لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا

تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة] الذي يقول فيه ابن عاشور : " والتسوية : التقويم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين]. والضمير المنصوب في {سَوَّاهُ} عائد إلى {نَسَلُهُ} لأنه

أقرب مذكور ولأنه ظاهر العطف بـ {ثُمَّ} وإن كان آدم قد سوي ونفخ فيه من الروح ، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧٢]. وذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل يؤذن بأن أصله كذلك، فالكلام إيجاز . . . والنفخ: تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع . . . " (٣)

والثاني ما يتعلق بقول الله تعالى : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ [١٩] ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴾ [عبس] : يقول

(١) البخاري ، الجامع الصحيح باب ذكر الملائكة ، حديث رقم (٣٠٣٦) ١١١/٤ ، ومسلم ، الجامع المسند،

٢٠٣٦/٤ (٢٦٤٣)

(٢) ابن عاشور التحرير ١٨ / ١٩ - ٢١

(٣) المرجع نفسه ، ١٥١/٢١

ابن عاشور : " . . . التقدير هنا إيجاد الشيء على مقدار مضبوط منظم . . . أي جعل التقدير من آثار الخلق لأنه خلقه متهيئاً للنماء وما يلابسه من العقل والتصريف وتمكينه من النظر بعقله، والأعمال التي يريد إتيانها وذلك حاصل مع خلقه مدرجا مفرعا. وهذا التفريع وما عطف عليه إدماج للامتنان من خلال الاستدلال . . .

و{السَّبِيل} : الطريق، وهو مستعار لما يفعله الإنسان من أعماله وتصرفاته تشبيها للأعمال بطريق يمشي فيه الماشي تشبيه المحسوس بالمعقول.

ويجوز أن يكون مستعاراً لمسقط المولود من بطن أمه فقد أطلق على ذلك الممر اسم السبيل في قولهم "السبيلان" فيكون هذا من استعمال اللفظ في مجازيه . . .

والتيسير: التسهيل، و {السَّبِيل} منصوب بفعل مضمر على طريق الاشتغال، والضمير عائد إلى {السَّبِيل} . والتقدير: يسر السبيل له، كقوله: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: ١٧] أي لذكر الناس. " (١)

التحليل :

أشار ابن عاشور إلى أن الخلق الآخر هو نفخ الروح وعندها يتهيأ للحياة والنماء أما عن تيسير السبيل ومعناه فقد بين ابن عاشور أنه إما أن يراد به ما يفعله الإنسان من أعمال وتصرفات أو أن يكون مستعاراً لمسقط المولود من بطن أمه .

كلام المعاصرين :

لعل الآيات تشير إلى مرحلة جديدة ينفخ فيها الروح وتكتمل فيها الصورة الانسانية ويتميز هذا الطور كما بينه الاستاذ الدكتور زغلول النجار في تفسير الآيات الكونية بمايلي :

زيادة طول الجنين ليصل إلى ٩٠ ملم

اكتمال تخلق الوجه والعنق مع نمو شبكية العين الى أربع طبقات مع التصاق الجفنين

اكتمال تخلق الأطراف وبداية ظهور الأظافر في نهايات الأصابع

اكتمال تميز أجسام الفقرات

اكتمال تخلق كل من القلب والطحال والغدتين فوق الكليتين (الكلتريتين)

تمايز الجهاز البولي (٢)

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٠٨/٣٠-١٠٩

(٢) د. النجار ، تفسير الآيات الكونية ، مصدر سابق ٢٢٨

أما عن تيسير السبيل بل إن تيسير السبيل فبالرغم من صحة أنّ مما يعدّ تيسيراً هو تحوّل رأس الجنين إلا أنه يشمل أموراً أخرى غيره حيث يتسع عنق الرحم الذي لا يتسع في الوضع المعتاد لدخول أكثر من حجم إبره يتسع بمقدار إصبع فأصبعين . . . حتى إذا ما وصل إلى خمس أصابع فالجنين على وشك الخروج ، ثم تنفرج الزوايا لتجعل ما بين الرحم و عنقه طريقاً واحداً و سبيلاً واحداً ليس فيه اعوجاج كما هو معتاد ، ثم يأتي دور الهرمونات والإفرازات التي ترخي عظام وعضلات الحوض وبالتالي تسهيل خروج الجنين . (١)

شواهد أخرى :

أشار ابن عاشور إلى أن الخلق الآخر هو نفخ الروح وعندها يتهيأ للحياة والنماء . يقول أبو السعود : ثم أنشأناه خلقاً آخر هي صورة البدن أو الروح أو القوى بنفخه فيه أو المجموع . (٢) ويقول ابن كثير : { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ } أي: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار { خَلْقًا آخَرَ } ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب (٣)

أما عن تيسير السبيل ومعناه فقد بين ابن عاشور أنه إما أن يراد به ما يفعله الإنسان من أعمال وتصرفات أو أن يكون مستعاراً لمسقط المولود من بطن أمه . والثاني قد رجحه الطبري بقوله : " وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسره .

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب، لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده. " (٤) والناظر إلى شكل ووضع الجنين قبيل خروجه من بطن أمه وتوجه رأسه للأسفل يعلم أن الله تعالى قد يسره السبيل أضف إلى ذلك الصور الأخرى التي ذكرها العلم الحديث لتيسير السبيل .

تعقيب :

كلام ابن عاشور بشكل عام صحيح إلا أنه يُستدرك عليه بعض الأمور العلميّة .

(١) البار ، محمد علي ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٤٧٠

(٢) أبو السعود إرشاد العقل السليم . ، مصدر سابق ١٢٦/٦

(٣) ابن كثير تفسير القرآن، مصدر سابق ٤٦٦/٥

(٤) الطبري جامع البيان ، مصدر سابق ٢٢٤/٢٤

المطلب الخامس : الظلمات الثلاث :

كلام ابن عاشور :

يقول الله تعالى : ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۗ﴾ (٦)

[الزمر] ويقول ابن عاشور في تفسير الآية الكريمة :

" و الظلمات الثلاث : ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، وهي غشاء من جلد يخلق مع الجنين محيطا به ليقيه وليكون به استقلاله مما ينجر إليه من الأغذية من دورته الدموية الخاصة به دون أمه. وفي ذكر هذه الظلمات تنبيهه على إحاطة علم الله تعالى بالأشياء ونفوذ قدرته إليها في أشد ما تكون فيه من الخفاء. " (١)

كلام المعاصرين :

العلم الحديث ، اكتشف أن الجنين في مرحلة المضغة يحاط بثلاثة أغشية هي :
الأول : السلى أو غشاء الأمنيون ، وهو أول غشاء يخلق بعد أسبوعين من الحمل ليحيط بالجنين وهو في طور المضغة عندما تكون قطرهما مليمترًا واحدًا .

الثاني : المشيمة أو غشاء كوريون: هو ثاني غشاء يخلق حول غشاء أمنيون والذي ينغرس في مخاطية الرحم .

الثالث : الغشاء الساقط : وهو مخاطية الرحم يسقط مع الجنين عند الولادة . (٢) ويُنكر على هذا القول أن تلك الأغشية تكون في مرحلة المضغة .

ومما قيل أيضاً : إنَّ الرقم ٣ يحيط بالجنين من كل اتجاه فالأغشية المشيمية ثلاث والرحم يتكون من ثلاث طبقات عضلية وينغلق جوف الرحم بثلاث فوهات ويتصل الرحم بالخارج بثلاثة ابواب مغلقة وتتألف الرحم من ثلاثة أجزاء الجسم والمضيق والعنق ... حتى سلم الكاتب بعد ذلك لأقوال السابقين في الآية (٣) وهذا قول عام أدخل فيه صاحبه ما لا يمكن اعتباره الظلمات المذكورة في الآية .

ومن أعجب ما قيل : إنَّ المقصود بالظلمات الثلاث هي النطفة الأمشاج والعلقة والمضغة بجامع أنها ظلمات معنوية قبل حلول الروح (٤) . وهذا لا يناسب حرف الظرفية {في} في الآية.

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٢٥/٢٤

(٢) الراوي معجزات القرآن العلمية ، مصدر سابق ٤٠-٤١

(٣) الجاعودي ، مصدر سابق ٢٨٧

(٤) المرجع نفسه

وكل ذلك يجعلنا نُسلم لقول السابقين وبالتالي قول ابن عاشور في الآية أي أنّ المقصود بالظلمات الثلاث ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة .

شواهد أخرى :

ما قاله الشيخ في تفسير الظلمات الثلاث هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين القدامى^(١) ونقله ابن كثير عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم . وهو الراجح .

تعقيب :

قول ابن عاشور في المسألة دقيق وهو أرجح من التفصيلات التي جاء بها العلم الحديث والله تعالى أعلم .

(١) انظر ابن عطية ، المحرر الوجيز ٤٦٦/٥

الفصل الثاني : خصائص بعض أجزاء جسم الإنسان وبعض
ما يطراً عليه من أحوال .

وفيه مبحثان ...

المبحث الأول : خصائص بعض أجزاء الإنسان

المبحث الثاني : بعض ما يطراً عليه من أحوال :

المبحث الأول : خصائص بعض أجزاء الإنسان

يحتوي هذا الفصل على ما يتعلق بكلام علمي لابن عاشور في بعض خصائص الإنسان وأجزائه من مثل الجلد وما يتعلق بمراكز الإحساس ، و تقليب أصحاب الكهف ودلالته العلمية واللون الأخضر وأثره على الإنسان ، وعلاقة القلب بالتعقل ، وسر اختلاف الألسنة والألوان في البشر ، والتعريف بحبل الوريد ، ثم تسوية البنان والمقصود بها . وأخيرا قضية إثبات الحياة في العظام . وسأقف عليها واحدة تلو الأخرى عارضاً لقول ابن عاشور فيها ثم التعليق عليه .

(١) الجلد ومراكز الإحساس ...

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور مبيناً سرّ تبديل جلود الكفار في الآخرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا يَتَّيَنُّنَا سَوْفَ نُصَلِّهِمْ نَارًا كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ [النساء] :

" . . . و {نضجت} بلغت نهاية الشيء، يقال: نضج الشواء إذا بلغ حد الشيء، ويقال: نضج الطبخ إذا بلغ حد الطبخ، والمعنى: كلما احترقت جلودهم، فلم يبق فيها حياة وإحساس، بدلناهم أي عوضناهم جلودا غيرها ، والتبديل يقتضي المغايرة كما تقدم في قوله في سورة البقرة [النساء: ٦١] {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ} . فقوله {غيرها} تأكيد لما دل عليه فعل التبديل. وانتصب {نارا} على أنه مفعول ثان لأنه من باب أعطى.

وقوله {لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} تعليل لقوله {بدلناهم} لأن الجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس بحسب عادة خلق الله تعالى. فلو لم يبدل الجلد بعد احتراقه لما وصل عذاب النار إلى النفس. وتبديل الجلد مع بقاء نفس صاحبه لا ينافي العدل لأن الجلد وسيلة إبلاغ العذاب وليس هو المقصود بالتعذيب، ولأنه ناشيء عن الجلد الأول كما أن إعادة الأجسام في الحشر بعد اضمحلالها لا يوجب أن تكون أناسا غير الذين استحقوا الثواب والعقاب لأنها لما أودعت النفوس التي اكتسبت الخير والشر فقد صارت هي هي ولا سيما إذا كانت إعادتها عن إنبات

أعجاب الأذنان. حسبما ورد به الأثر^(١) ، لأن الناشيء عن الشيء هو منه كالنخلة من النواة." (٢)

ويشير الشيخ لهذه القضية أيضا في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ

بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

[التوبة: ٣٥] " . . . والكي: أن يوضع على الجلد جمر أو شيء مشتعل . والجباه: جمع جبهة وهي أعلى الوجه مما يلي الرأس . والجنوب: جمع جنب وهو جانب الجسد من اليمين واليسار . والظهور: جمع ظهر وهو ما بين العنقفة إلى منتهى فقار العظم . والمعنى: تعميم جهات الأجساد بالكي فإن تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكي، فيحصل مع تعميم الكي إذافة لأصناف من الآلام." (٣)

التحليل:

دلالة الآية الكريمة في سورة النساء واضحة في أن السبب في تبديل الله تعالى لجلود الكافرين المحترقة بغيرها ، هو أن يذوقوا أشد العذاب طيلة وجودهم في النار والشيخ ابن عاشور يبين سر ذلك وهو أن الجلد هو سبيل الإحساس بالعذاب .

كلام المعاصرين:

العلم الحديث يوضح هذا الأمر : حيث يبين لنا التشريح المجهري للجلد أنه عضو غني بالألياف العصبية التي تقوم باستقبال و نقل جميع أنواع الحس من المحيط الخارجي . . . و الجلد عندما يتعرض للحرق يؤدي ذلك للإحساس بألم شديد جداً لأن النار تنبه مستقبلات الألم و التي هي النهايات العصبية الحرة ، كما ينبه إضافة لذلك مستقبلات الحرارة و التي هي جسيمات توجد في الأدمة و تحت الأدمة و تسمى جسيمات رافيني Raffini ، وتكون آلام الحرق على أشدها عندما يبلغ الحرق النسيج تحت الأدمة و يسمى بالحرق من الدرجة الثالثة و إذا امتد الحرق للأنسجة تحت الجلد.

(١) الحديث أخرجه البخاري باب: يوم ينفخ في الصور ، حديث رقم (٤٩٣٥) ١٦٥/٦ ، عن أبي هريرة عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال " . . . يَبْنُونَ كَمَا يَبْنَى الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا

وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الدَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"

(٢) ابن عاشور التحرير ١٥٨/٤-١٥٩ (٣) المرجع السابق ٧٩ / ١٠

يصبح الألم أخف لأن هذه الأنسجة أقل حساسية للألم كما ذكرنا . (١)

شواهد أخرى :

يزيد الشيخ ابن عاشور القول في هذه القضية في سر ذكر الأجزاء المعذبة بالكي بالنار يوم القيامة بأن تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكي ، ويورد نفس المعنى في تفسير آية المؤمنون : " تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ " بأن تخصيص الوجوه لأنها أشد الأعضاء إحساسا بالحرارة . وهذا الكلام أقصد تفاوت إحساس الأعضاء بالحرارة هو أمر ثابت علميا بالرغم من وجود احتمالات أخرى لتخصيص الوجه مثلا كقول الألوسي : تخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء فبيان حالها أجز عن المعاصي المؤدية إلى النار وهو السر في تقديمها على الفاعل (٢)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور يتماشى مع العلوم المعاصرة ولكن بشيء من الإجمال وهو منهج ابن عاشور في التفسير العلمي .

٢ () تقليب أصحاب الكهف ودلالته :

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في سر تقليب أصحاب الكهف المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَحَسَبَهُمْ آيَاتِنَا كَلِمَةً ﴾

وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ... ﴿ ١٨ ﴾ الكهف [١٨] : " والتقليب: تغيير وضع

الشيء من ظاهره إلى باطنه . . . و {ذات اليمين وذات الشمال} أي إلى جهة أيمنهم وشمالهم.

والمعنى: أن الله أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ فجعلهم تتغير أوضاعهم من أيمنهم إلى

شمالهم والعكس. وذلك لحكمة لعل لها أثرا في بقاء أجسامهم بحالة سلامة. والإتيان بالمضارع

للدلالة على التجدد بحسب الزمن المحكي. ولا يلزم أن يكونوا كذلك حين نزول الآية.

{وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ} هذا يدل على أن تقليبهم لليمين وللشمال كرامة لهم بمنحهم حالة

(١) د. فوقز ، مع الطب في القرآن ، مصدر سابق ص ٣٠ ،

(٢) الألوسي ، روح المعاني ، مصدر سابق ٦٧/١٨

الأحياء وعناية بهم، ولذلك لم يذكر التقليل لكلبهم بل استمر في مكانه باسطة ذراعيه شأن جلسة الكلب . والوصيد: مدخل الكهف، شبه بالباب الذي هو الوصيد لأنه يوصد ويغلق. وعدم تقليل الكلب عن يمينه وشماله يدل على أن تقليلهم ليس من أسباب سلامتهم من البلى وإلا لكان كلبهم مثلهم فيه بل هو كرامة لهم. وقد يقال: إنهم لم يفنوا وأما كلبهم ففنى وصار رمة مبسوطة عظام ذراعيه. " (١)

كلام المعاصرين :

يبين الشيخ ابن عاشور أن السر في تقليل أجسام أصحاب الكهف إمّا أنه كرامة لهم وإما هو لحفظ أجسامهم من الفساد ، والقول الأوّل لا أرى صحته خصوصاً أنّ ابن عاشور لم يذكر وجهه عدّه كرامة ، واستدلال ابن عاشور على هذا القول بأنه لو كان تقليلهم لحفظ أجسادهم لقلب كلبهم معهم ، وأقول : إنّ هذا غير مُلزم ، فالكلبُ له شعراً وهو {باسط ذراعيه} بهذه الهيئة التي لا يكون فيها لصيقاً بالأرض ، أقول هذا وأنا أرى أنّ الكلب لم يقلب لأنّ القرآن وصفه ب "باسط" لا بالفعل المضارع " يبسط" الدالّ على تجدد الفعل .

أمّا عن الكلام الثاني وهو أنّ تقليل أصحاب الكهف لحفظ سلامتهم من الفساد فهو صحيحٌ علمياً بالرغم من تردّد ابن عاشور فيه ، حيث يقول الطبيب الدكتور قوقز : " إن من الإصابات الشائعة و الصعبة العلاج التي تعترض الأطباء الممارسين في المشافي هي مشكلة حدوث الخشكرشات أو ما تسمى بقرحة السرير Bed Sore عند المرضى الذين تضطّروا حالتهم للبقاء الطويل في السرير كما في كسور الحوض و العمود الفقري أو الشلول أو حالات السبات الطويل و هذه عبارة عن قرحات تموت في الجلد و الأنسجة التي تحته بسبب نقص التروية الدموية عن بعض مناطق الجلد ، نتيجة انضغاطها بين الجزاء الصلبة من البدن و مكان الاضطجاع و أكثر ما تحصل في المنطقة العجزية و الاليتين و عند لوجي الكتفين و كعبي القدمين ، و لا وقاية من حدوث هذه الخشكرشات سوى تقليل المريض دون تقليل أكثر من (١٢) ساعة ، و قد تكون هذه هي الحكمة من تقليل الله عز و جل لأهل الكهف لوقايتهم من تلك الإصابة و إن كانت قصة أهل الكهف كلها تدخل في نطاق المعجزة !!. " (٢)

(١) ابن عاشور / التحرير ٣٦/١٥

(٢) د قوقز ، مع الطب ، مصدر سابق ص ٥٩

وهذه التقرحات درجات ومراحل فأولها تبدو على هيئة حروق شمسية يتغير فيها لون الجسم بالاحمر او البنفسجي ويبدو الجلد فيها ملتهبا .. والثانية يبدأ الجلد فيها بالتمزق ... والثالثة تهترئ فيها طبقة الجلد بالكامل وتدمر أنسجتها ... والرابعة تخترق فيها طبقة الجلد بالكامل وتصل للعضلات والعظام والاربطة ... وحتى بعد العلاج لا يمكن أن تستعيد تلك الأجزاء حيويتها ونشاطها (١)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور صحيح علميا لكن بشيء من الإجمال .

٣ (اللون الأخضر وأثره على الإنسان :

كلام ابن عاشور:

ويقول في فوائد اللون الأخضر للإنسان في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن

سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢١﴾ [الكهف] : " واللون الأخضر

أعدل الألوان وأنفعها عند البصر، وكان من شعار الملوك. " (٢)

كلام المعاصرين :

هذا الأمر صحيح علميا حيث يقول أحد علماء النفس و هو أردتشم : " إن تأثير اللون في الإنسان بعيد الغور و قد أجريت تجارب متعددة بينت أن اللون يؤثر في إقدامنا و إحجامنا و يشعر بالحرارة أو البرودة ، و بالسرور أو الكآبة ، بل يؤثر في شخصية الرجل و في نظرته إلى الحياة .

و يسبب تأثير اللون في أعماق النفس الإنسانية فقد أصبحت المستشفيات تستدعي الاخصائيين لاقتراح لون الجدران الذي يساعد أكثر في شفاء المرضى و كذلك الملابس ذات الألوان المناسبة و قد بينت التجارب أن اللون الأصفر يبعث النشاط في الجهاز العصبي ، أما اللون الأرجواني فيدعو إلى الاستقرار و اللون الأزرق يشعر الإنسان بالبرودة عكس الأحمر الذي يشعره بالدفء ووصل العلماء إلى أن اللون الذي يبعث السرور و البهجة و حب الحياة هو اللون الأخضر .

(١) د.النجار، تفسير الآيات الكونية مصدر سابق ٦١، ٦٢.

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٦١/١٥

لذلك أصبح اللون المفضل في غرف العمليات الجراحية لثياب الجراحين و الممرضات . ومن الطريف أن نذكر هنا تلك التجربة التي تمت في لندن على جسر (بلاك فرايار) الذي يعرف بجسر الانتحار لأن اغلب حوادث الانتحار تتم من فوقه حيث تم تغيير لونه الأغبر القاتم إلى اللون الأخضر الجميل مما سبب انخفاض حوادث الانتحار بشكل ملحوظ و اللون الأخضر يريح البصر ذلك لأن الساحة البصرية له أصغر من الساحات البصرية لباقي الألوان كما أن طول موجته وسطي فليست بالطويلة كاللون الأحمر و ليست بالقصيرة كالأزرق (١)

تعقيب :

فإشارة الشيخ ابن عاشور لهذا السرّ صحيحة فصلها الطب الحديث .

(٤) القلب والتعقل :

كلام ابن عاشور :

ويقول معرفاً بالقلب تعريفاً علمياً في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾]

الحج: ٤٦] : " . . . القلب هو مفيض الدم وهو مادة الحياة على الأعضاء الرئيسة وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، ولذلك قال: {يَعْقِلُونَ بِهَا} وإنما آلة العقل هي الدماغ ولكن الكلام جرى أوله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية فقال: {يَعْقِلُونَ بِهَا} فأشار إلى أن القلوب هي العقل. " ا ه (٢)

كلام المعاصرين :

يشير الشيخ ابن عاشور إلى أن القلب آلة لضخ الدم وهذا هو المتعارف عليه والمشهور، ولكن العلم الحديث يكتشف أن القلب يتجاوز قضية ضخ الدم فقط إلى وظيفة أخرى حيث اكتشفوا حديثاً أن في القلب هرمونات عاقلة ترسل رسائل عاقلة إلى الجسم كله وأن القلب مركز عقل وتعقل وليس مجرد مضخة للدم ، الشيء الثابت علمياً أن القلب يتصل مع الدماغ من

(١) د. قوقز ، مع الطب مصدر سابق . ٦١-٦٢

(٢) ابن عاشور التحرير ٢٠٨/١٧

خلال شبكة معقدة من الأعصاب، وهناك رسائل مشتركة بين القلب والدماغ على شكل إشارات كهربائية ويؤكد بعض العلماء أن القلب والدماغ يعملان بتناسق وتناغم عجيب ولو حدث أي خلل في هذا التناغم ظهرت الاضطرابات على الفور. . . (١)

تعقيب :

وهذه الأمور التي لم يذكرها ابن عاشور تم اكتشافها حديثاً فكلامه كان مشتملاً فقط على ما كان معروفاً في زمنه -رحمه الله تعالى- .

٥ (سر اختلاف السنة وألوان البشر :

كلام ابن عاشور :

ويقول في بيان التفسير العلمي لآيتي اختلاف الألوان والألسنة بين البشر مع أنهم من أصل واحد ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالِمِينَ ﴾ [الروم] : يبين ابن عاشور أولاً أنّ اختلاف الألسنة والألوان هو من آثار خلق السماوات والأرض فيقول : " . . . هاته الأحوال المختلفة لهذا النوع الواحد نجد أسباب اختلافها من آثار خلق السماوات والأرض، فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، واختلاف مسامحة أشعة الشمس لها؛ فهي من آثار خلق السماوات والأرض. . . " (٢) ثم يبين أن المراد بالألسنة واختلافها أمران يبينهما بقوله : " والألسنة: جمع لسان ، وهو يطلق على اللغة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤] . . .

واختلاف لغات البشر آية عظيمة فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كونه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرف في وضع اللغات، وتبدل كفاءتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة. فلا شك أن اللغة كانت واحدة للبشر حين كانوا في مكان واحد، وما اختلفت اللغات إلا بانتشار قبائل البشر في المواطن المتباعدة، وتطرق التغير إلى لغاتهم تطرقاً تدريجياً؛ على أن

(١) د. متولي الموسوعة العلمية الذهبية مصدر سابق ٣٠٣

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٣٥ / ٢١

توسع اللغات بتوسع الحاجة إلى التعبير عن أشياء لم يكن للتعبير عنها حاجة قد أوجب اختلافها في وضع الأسماء لها فاختلقت اللغات بذلك في جوهرها كما اختلفت فيما كان متفقاً عليه بينها باختلاف لهجات النطق، واختلاف التصرف، فكان لاختلاف الألسنة موجبان. فمحل العبرة هو اختلاف مع اتحاد أصل النوع كقوله تعالى: {سُقِيَ بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُقِضَ لُبٌّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ} [الرعد: ٤] ولما في ذلك الاختلاف من الأسرار المقتضية إياه... " (١)

ينتقل بعد ذلك لبيان السرفي اختلاف الألوان فيقول: "وأما اختلاف ألوان البشر فهو آية أيضاً لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وله لون واحد لا محالة، ولعله البياض المشوب بحمرة (٢)، فلما تعدد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم وذلك الاختلاف معلول لعدة علل أهمها المواطن المختلفة بالحرارة والبرودة، ومنها التوالد من أبوين مختلفي اللون مثل المتولد من أم سوداء وأب أبيض، ومنها العلل والأمراض التي تؤثر تلويها في الجلد، ومنها اختلاف الأغذية ولذلك لم يكن اختلاف ألوان البشر دليلاً على اختلاف النوع بل هو نوع واحد، فللبشر ألوانٌ كثيرة أصلاًها البياض والسواد . . .

وكان أصل اللون البياض لأنه غير محتاج إلى علة ولأن التشريح أثبت أن ألوان لحوم البشر التي تحت الطبقة الجلدية متحدة اللون . ومن البياض والسواد انشقت ألوان قبائل البشر فجاء منها اللون الأصفر واللون الأسمر واللون الأحمر . ومن العلماء من جعل أصول ألوان البشر ثلاثة: الأبيض والأسود والأصفر، وهو لون أهل الصين . ومنهم من زاد الأحمر وهو لون سكان قارة أمريكا الأصليين المدعوين هنود أمريكا. واعلم أن من مجموع اختلاف اللغات واختلاف الألوان تمايزت الأجدام البشرية واتحدت مختلطات أنسابها. وقد قسموا أجدام البشر الآن إلى ثلاثة أجدام أصلية وهي الجذم القوقاسي الأبيض، والجذم المغولي الأصفر، والجذم الحبشي الأسود، وفرعها إلى ثمانية وهي الأبيض والأسود والحبشي والأحمر والأصفر

(١) ابن عاشور، التحرير ٣٦-٣٥/٢١

(٢) لا يرى ابن عاشور أن اسم آدم عليه السلام من الأدمة وهي السمرة فيقول: "ولما يجوز أن يكون اسمُهُ مُشْتَقًّا مِنَ الْأَدَمَةِ، وَهِيَ اللَّوْنُ الْمَخْصُوصُ لِأَنَّ تَسْمِيَةَ ذَلِكَ اللَّوْنِ بِالْأَدَمَةِ خَاصٌّ بِكَلَامِ الْعَرَبِ فَلَعَلَّ الْعَرَبَ وَضَعُوا اسْمَ ذَلِكَ اللَّوْنِ أَخْذاً مِنْ وَصْفِ لَوْنِ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ." ٢٢٩/٣ .

والسامي والهندي والملاوي نسبة إلى بلاد الملايو." (١)

التحليل :

يبين الشيخ ابن عاشور أنّ سبب اختلاف ألوان الناس بالرغم من أنهم منحدرين من أصل واحد وهو آدم ، عليه السلام وله لون واحد لا محالة ؛ معلول لعدة علل أهمها المواطن المختلفة بالحرارة والبرودة، ومنها التوالد من أبوين مختلفي اللون مثل المتولد من أم سوداء وأب أبيض، ومنها العلل والأمراض التي تؤثر تلويها في الجلد، ومنها اختلاف الأغذية ولذلك لم يكن اختلاف ألوان البشر دليلا على اختلاف النوع بل هو نوع واحد، فللبشر ألوان كثيرة أصلها البياض والسواد .

كلام المعاصرين :

العلم الحديث يبين أن في أدمة الجلد خلايا عنكبوتية أي على شكل العنكبوت تمتد على جوانبها زوائد رقيقة يصل عدد هذه الخلايا في كل بوصة مربعة إلى ستين ألف خلية إنه لا اختلاف في عدد الخلايا بين أبيض وأسود . . . ولكن اختلاف التلوين نابع من كثافة المادة الملونة وهذه المادة الملونة اسمها الميلانين .

إن بين إنسان ناصع اللون وإنسان داكن اللون فرقا في هذه المادة الملونة لا يزيد على غرام واحد ، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن هذه الخلايا تتناقص بمعدل عشر إلى عشرين % كل عشر سنوات لذلك يميل جلد الإنسان مع تقدم العمر إلى أن يصبح أكثر نضاعة وأكثر تعيش في خط الاستواء على أن الشعوب التي تعيش في قطب الكرة بياضا ولكن هذا لا يعيننا بل يعيننا ترسب هذه المادة الملونة في الخلايا العنكبوتية التي تحت أدمة الجلد والتي يزيد عددها في البوصة المربعة الواحدة على ستين ألف خلية حيث أن نسبة الشمالي أو الجنوبي ألوانها ناصعة ؟ هنا حكمة الله عز وجل . هذه المادة الملونة تحدد المورثات في نوية الخلية ، ولكن ما العلاقة وما تفسير تلك الألوان الداكنة عند الشعوب التي قيل إن المادة الداكنة من خصائصها أن تمتص الأشعة فوق البنفسجية الضارة ولأن أشعة الشمس في خط الاستواء عمودية شديدة كانت الشعوب في هذه المنطقة ذات ألوان داكنة " (٢).

تعقيب :

فخرج من كل ذلك بأن كلام ابن عاشور في هذه المسألة عام ، وكلام العلم المعاصر أدق.

(١) ابن عاشور ، التحرير ٢١ / ٣٥-٣٨

(٢) د. النابلسي ، موسوعة الإعجاز العلمي مصدر سابق ٣٢٩-٣٣٠

(٦) حبل الوريد والتعريف به :

كلام ابن عاشور :

ويقول معرفاً بالأوردة والشرابين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمُ مَا نُوسِسُ بِهِ ﴾

نَفْسُهُ، وَمَنْ أَوْقَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٦٦﴾ [ق] " . . . والحبل: هنا واحد حبال الجسم. وهي العروق

الغليظة المعروفة في الطب بالشرابين، واحدها: شريان بفتح الشين المهملة وتكسر وبسكون الراء وتعرف بالعروق الضوارب ومنبتها من التجويف الأيسر من تجويفي القلب. وللشرايين عمل كثير في حياة الجسم لأنها التي توصل الدم من القلب إلى أهم الأعضاء الرئيسية مثل الرئة والدماغ والنخاع والكليتين والمعدة والأمعاء. وللشرايين أسماء باعتبار مصابها من الأعضاء الرئيسية.

والوريد: واحد من الشرايين (١) وهو ثاني شرياني يخرجان من التجويف الأيسر من القلب. واسمه في علم الطب أورطي ويتشعب إلى ثلاث شعب ، ثالثها تنقسم إلى قسمين قسم أكبر وقسم أصغر. وهذا الأصغر يخرج منه شريانان يسميان السباتي ويصعدان يمينا ويسارا مع الودجين ، وكل هذه الأقسام يسمى الوريد. وفي الجسد وريدان وهما عرقان يكتنفان صفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس وإليه. وقد تختلف أسماء أجزائه باختلاف مواقعها من الجسد فهو في العنق يسمى الوريد، وفي القلب يسمى الوتين، وفي الظهر يسمى الأبهر، وفي الذراع والفخذ يسمونه الأكل والنسا، وفي الخنصر يدعى الأسلم. " (٢)

كلام المعاصرين :

إن المتأمل في تفسير الطاهر ابن عاشور "التحرير والتنوير" يرى فيه الموسوعية فالشيخ في هذه الآيات يتكلم وكأنه طبيب حاذق عالم بأجزاء جسم الإنسان فكلامه في شرح تفاصيل الأوردة وأسمائها ومواضعها في جسم الإنسان صحيح موافق لما هو سائد بين الأطباء والأدق من ذلك والذي يبين سعة اطلاع الشيخ هو ذكره لتأسيس الشرايين أو ارتخائها وكل هذا الكلام

(١) لا يجوز إطلاق اسم شريان على وريد .

(٢) ابن عاشور ، التحرير ، ٢٦/٢٤٩-٢٥٠ .

يذكره باختصار حتى لا ينأى بالقرآن عن مقاصده . وقد نبه في المقدمة العاشرة عن منهجه في الآيات العلمية أنه يذكر خلاصات العلوم في المسائل المعروضة دون التفصيل .

تعقيب :

كلام ابن عاشور كلام مقبول طبيًا، غير أنه أخطأ في تسمية بعض الأوردة شرايين .

(٧) تسوية البنان :

كلام ابن عاشور :

ويقول فيما يتعلق بتسوية البنان المذكورة في قوله تعالى : ﴿ بَلَى قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُوءَ بَأْنِهِ ﴾

[القيامة: ٤] : " والتسوية: تقويم الشيء وإتقان الخلق . . . وأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقومة متقنة، فالتسوية كناية عن الخلق لأنها تستلزمه فإنه ما سوي إلا وقد أعيد خلقه قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [الأعلى:٢]. والبنان أصابع اليدين والرجلين أو أطراف تلك الأصابع . . . وإذا كانت هي أصغر الأعضاء الواقعة في نهاية الجسد كانت تسويتها كناية عن تسوية جميع الجسد لظهور أن تسوية أطراف الجسد تقتضي تسوية ما قبلها كما تقول: قلعت الريح أوتاد الخيمة كناية عن قلعه الخيمة كلها فإنه قد يكنى بأطراف الشيء عن جميعه. ومنه قولهم: لك هذا الشيء بأسره، أي مع الحبل الذي يشد به، كناية عن جمع الشيء. وكذلك قولهم: هو لك برمته، أي بحبله الذي يشد به. " (١)

التحليل :

يتبين لنا من كلام الشيخ ابن عاشور في هذا الموضوع أنه يحمل معنى التسوية على الخلق والإتقان ، ووافق في هذا التفسير غير واحد من المفسرين (٢) وعلى هذا فالآية متعلقة بالأخرة لا بالدنيا . وبين الطاهر سر ذكر البنان وتسويتها هنا دون غيرها وذلك لدقتها فهي نهايات الأطراف التي سأل المشركون عن إمكان إعادتها كما كانت

كلام المعاصرين :

ولكن العلم يبين أمرا آخر في سر ذكر إعادة البنان هنا دون غيره ذلك أنهم توصلوا الى سرّ البصمة وذلك في القرن التاسع عشر وهو أن البصمة تتكون من خطوط بارزة في بشرة الجلد

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣٠/٣٩٧-٣٩٨

(٢) انظر ابن عطية ، عبد الحق بن غالب (١٤٢٢) المحرر الوجيز ، ط ١ ٤٠٢/٥ دار الكتب العلمية

تتمادى وتتفرع وتتلقى لتأخذ في النهاية شكلا مميزا وقد ثبت أنها لا تتوافق حتى بين التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة^(١) ولقد أجرى المجرمون تجارب على بصماتهم وطعموها بجلد آخر ولكن بعد اشهر ظهرت نفس البصمات وهذه البصمات تخلق والجنين في الشهر السادس من عمره.

شواهد أخرى :

من الممكن أيضا أن يحمل معنى التسوية على المماثلة أي أن الله تعالى كما خلق بنان الناس مختلفة متباينة فهو قادر على جعلها متشابهة غير مختلفة أي متساوية واللغة تسمح بذلك^(٢) إلا أن المعنى الأول أوفق للسياق .

تعقيب :

كلام ابن عاشور صحيح ولكنه لم يشر إلى المعنى المذكور آنفاً بالرغم من أنه كان معروفاً في عصره ؟ أقول : ربما كان ذلك لأنه لا يرى ترجيحه ، والله تعالى أعلم .

٨) وجود حياة بالعظام :

كلام ابن عاشور :

ويقول في إثبات الحياة بالعظام في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي

الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس] "... وفي

تعليق الإحياء بالعظام دلالة على أن عظام الحي تحلها الحياة كلحمه ودمه، وليست بمنزلة القصب والخشب وهو قول مالك وأبي حنيفة ولذلك تنجس عظام الحيوان الذي مات دون ذكاة، وعن الشافعي أن العظم لا تحله الحياة فلا ينجس بالموت قال ابن العربي: وقد اضطرب أرباب المذاهب فيه. والصحيح ما ذكرناه، يعني أن بعضهم نسب إلى الشافعي موافقة قول مالك وهو قول أحمد فيصير اتفاقا وعلماء الطب يثبتون الحياة في العظام والإحساس. وقال ابن زهر

(١) د. فوقز ، مع الطب في القرآن مصدر سابق ص ٢٣

(٢) ابن فارس مقاييس اللغة مصدر سابق / ٨٥/٣

الحكيم الأندلسي في كتاب التيسير: إن جالينوس اضطرب كلامه في العظام هل لها إحساس،
والذي ظهر لي أن لها إحساساً بطيئاً." (١)

كلام المعاصرين :

وكلام ابن عاشور دقيق في أنّ العظام فيها حياة ، والحياة في العظام معروفة باحتواء العظام
على مصل يحتوي على مكونات متعددة على رأسها كريات الدم البيضاء وكذا الحمراء وأصل
استمدادها من العظام (٢)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور بشكل عام دقيق لكنه لم يفصّل .

(١) ابن عاشور ، التحرير ٢٢/٢٧٩

(٢) انظر، الصوفي ، ماهر ، آيات الله في الروح والنفس والجسد ، ط.دار الرضوان ص١٦٠-١٦١

المبحث الثاني : بعض ما يطراً على الإنسان من أحوال :

يشتمل هذا المبحث على بعض الأحوال التي طرأت وتطرأ على الناس من أعراض وأسقام من مثل الموت الذي حل ببني إسرائيل ، وآية النوم ، ومرض المس ، و سرّ صرف زكريا عليه السلام عن الكلام ، والتعريف بمرض الكمه والبرص ، ثم أثر إضعاف الحزن لبصر يعقوب عليه السلام ، وما يصيب الإنسان من هرم وشيب .

(١) الموت الذي حلّ ببني إسرائيل :

كلام ابن عاشور :

يفسر ابن عاشور الموت الذي حلّ ببني إسرائيل والمذكور في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة] تفسيراً علمياً فيقول :

" فإن قلت إن الموت يقتضي انحلال التركيب المزاجي فكيف يكون البعث بعده في غير يوم إعادة الخلق قلت: الموت هو وقوف حركة القلب وتعطيل وظائف الدورة الدموية فإذا حصل عن فساد فيها لم تعقبه حياة إلا في يوم إعادة الخلق وهو المعنى بقوله تعالى: { لَا يَدُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى } [الدخان: ٥٦] وإذا حصل عن حادث قاهر مانع ووظائف القلب من عملها كان للجسد حكم الموت في تلك الحالة لكنه يقبل الرجوع إن عادت إليه أسباب الحياة بزوال الموانع العارضة، وقد صار الأطباء اليوم يعتبرون بعض الأحوال التي تعطل عمل القلب اعتبار الموت ويعالجون القلب بأعمال جراحية تعيد إليه حركته. والموت بالصاعقة إذا كان عن اختناق أو قوة ضغط الصوت على القلب قد تعقبه الحياة بوصول هواء صاف جديد وقد يطول زمن هذا الموت في العادة ساعات قليلة ولكن هذا الحادث كان خارقاً للعادة فيمكن أن يكون موتهم قد طال يوماً وليلة كما روى في بعض الأخبار ويمكن دون ذلك. " (١)

ويقول ما يشابه ذلك في موت الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت أيضا المذكور في قوله

تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة] :

" القول فيه إما مجاز في التكوين والموت حقيقة أي جعل فيهم حالة الموت، وهي وقوف القلب وذهاب الإدراك والإحساس، استعيرت حالة تلقي المكون لأثر الإرادة بتلقي المأمور للأمر، فأطلق على الحالة المشبهة المركب الدال على الحالة المشبه بها على طريقة التمثيل، ثم أحياهم بزوال ذلك العارض فعلموا أنهم أصيبوا بما لو دام لكان موتا مستمرا .

وقد يكون هذا من الأدواء النادرة المشبهة داء السكت وإما أن يكون القول مجازا عن الإنذار بالموت، والموت حقيقة، أي أراهم الله مهالك شموا منها رائحة الموت، ثم فرج الله عنهم فأحياهم. وإما أن يكون كلاما حقيقيا بوحى الله، لبعض الأنبياء، والموت موت مجازي، وهو أمر للتحقير شتما لهم، ورماهم بالذل والصغار، ثم أحياهم، وثبت فيهم روح الشجاعة. " (١)

التحليل :

يظهر أن الطاهر ابن عاشور يحتفل أن لا يراد بالموت الذي حل ببني إسرائيل الموت الحقيقي بل ما هو معروف اليوم بالسكتة القلبية . أي أنّ المعنى مجازي .

كلام المعاصرين :

هذا لا يمكن أن يوافق عليه علمياً ذلك أن الدماغ يتغذى على الجلوكوز وانقطاع الدم عنه لمدة ٥-٣ دقائق تؤدي لتخريب دائم غير قابل للرجوع في أنسجته (٢) حتى لو أعيد النبض للقلب بالإنعاش أو الضرب أو غيره يحكم على الإنسان بالموت الدماغي .

شواهد أخرى :

الآية واضحة أن موتا حل بهم لا غير ذلك ، ولا صارف للحقيقة إلى المجاز.

(٢) آية النوم :

كلام ابن عاشور :

ويبين الشيخ ابن عاشور كيفية حصول النوم للإنسان من وجهة نظر علمية في تفسير قول

الله سبحانه : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ [الروم] : " وحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان إذ جعل

الله له في نظام أعصاب دماغه قانونا يسترد به قوة مجموعته العصبية بعد أن يعترضه فشل الإعياء من أعمال عقله وجسده فيعترضه شبه موت يخدر إدراكه ولا يعطل حركات أعضائه

(١) ابن عاشور ، التحرير ، ٤٧٥/٢

(٢) د. قوقز مع الطب في القرآن مصدر سابق ، ص ٤١

الرئيسية ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقدارا كافيا لاسترجاع قوته فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: { لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ } في سورة البقرة [٢٥٥]. والنام مصدر ميمي للنوم أو هو اسم مصدر. " (١) ويضيف في موضع آخر أنّ النوم : فتور يعترى أعصاب الدماغ من تعب أعمال الأعصاب من صاعد الأبخرة البدنية الناشئة عن الهضم والعمل العصبي، فيشتد عند مغيب الشمس ومجيء الظلمة فيطلب الدماغ والجهاز العصبي الذي يدبره الدماغ استراحة طبيعية فيغيب الحس شيئا فشيئا وتثقل حركة الأعضاء، ثم يغيب الحس إلى أن تسترجع الأعصاب نشاطها فتكون اليقظة . " (٢)

كلام المعاصرين :

بالنسبة لكلام المعاصرين في النوم فيجمله الشيخ الشعراوي بقوله : وحين حاول العلماء الباحثون أن يفسروا ظاهرة النوم، وضعوا عشرات النظريات، وآخر التجارب التي أجريت أنهم أحضروا إنسانا وعلقوه كالرافعة من وسطه، وكأنه عصا مرفوعة من وسطها بتوازن، وجعلوا كل نصف من النصفين متساويا في الوزن، وحين جاء النوم لهذا الإنسان محل التجربة وجدوا أن جهة من النصفين مالت، وكان ثقلا ما جاءها من النصف الآخر فزادت كتلتها، وهذا آخر ما درسوه في النوم، هذه التجربة أثبتت أن النوم عجيبة من العجائب التي تستحق أن يقول الحق تبارك وتعالى عنها: { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... } (٣)

تعقيب :

فكلام الشيخ ابن عاشور ربما وقع في جانب النظريات التي لم تثبت .

٣ (المس :

كلام ابن عاشور :

ويبين حقيقة المس المذكور في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَتَّوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ

الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴿٢٧٥﴾ [البقرة] فيقول :

" . . . والصرع إنما يكون من علل تعترى الجسم مثل فيضان المرة عند الأطباء المتقدمين وتشنج المجموع العصبي عند المتأخرين، إلا أنه يجوز عندنا أن تكون هاته العلل كلها تنشأ في الأصل من توجهات شيطانية، فإن عوالم المجردات - كالأرواح - لم تنكشف أسرارها لنا

(١) ابن عاشور ، التحرير ٣٦/٢١

(٢) المرجع نفسه ٩٤-٤٩٣/٢ (٣) الشعراوي ، محمد متولي ، تفسير القرآن ٤٥٩٥/٨

حتى الآن ولعل لها ارتباطات شعاعية هي مصادر الكون والفساد. " (١)

كلام المعاصرين :

يبين ابن عاشور أن الصرع إنما يكون من علل تعتري الجسم مثل فيضان المرة عند الأطباء المتقدمين وتشنج المجموع العصبي . والصرع في العلم الحديث هو حالة عصبية تحدث من وقت لآخر اختلال وقتي في النشاط الكهربائي الطبيعي للمخ وبالنسبة لأسبابه فمن كل ٧ من ١٠ من مرضى الصرع لم يتم معرفة سبب المرض . أما النسبة الباقية فإن السبب يكون واحد من العوامل التي تؤثر على عمل المخ كنقص الأكسجين للمولود أثناء الولادة وكذلك وجود أورام بالمخ والأمراض الوراثية والتسمم بالرصاص والالتهابات السحائية والمخية . (٢)

تعقيب :

كلام ابن عاشور في الفصل بين الصرع والمس دقيق وكذلك إشارته إلى بعض أسبابه الطبية إلا أن الطبّ وضّح أسبابه بشكل أوسع وأدقّ .

(٧) الشيب :

كلام ابن عاشور :

ويعرف بالشيب وأسبابه بتعريف علمي في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي

وَأَسْتَعَلُّ الرَّأْسَ سَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ [مريم] : " والشيب: بياض الشعر.

ويعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادة التي تعطي اللون الأصلي للشعر، ونقصانها بسبب كبر السن غالباً، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر، وقد يبيض الشعر من مرض.. " (٣)

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور في سبب وقوع الشيب عند الكبر صحيح وإشارته إلى أنه ربما وقع بلا كبر في السن فهذا الأمر صحيح علمياً . ولكن هناك ما هو أدق من كلام ابن عاشور حيث إن الشيب منشؤه عصبي انفعالي والقرآن الكريم ذكر ذلك فالله تعالى يقول : ﴿ فَكَيْفَ تَنْفَعُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ

يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ المزمّل [١٧] ويعزى بعد ذلك سبب الشيب في الكبر إلى أنّ الإنسان

(١) ابن عاشور ، التحرير ٥٥٠/٢

(٢) أسمهان أمين عبد الرحمن ، مرض الصرع ، على شبكة الإنترنت www.dr.nabeel.com

تاريخ الإضافة ٢٠١٠/٢/٢٢م

(٣) ابن عاشور ، التحرير ١٠/١٦

يصاب بالإرهاق العصبي بدرجات متفاوتة فيلازم الكبر الشيب وهذا لا يعني إغفال الأسباب الطبية أو الوراثية. حيث قالوا أنّ سبب الشيب أمران :
الأول : هبوط مستوى هرمون التلوين عند المسنين .
الثاني : ارتفاع نسبة الأدرينالين في الدم نتيجة التوتر العصبي .^(١)

تعقيب :

كلام ابن عاشور بشكل عام صحيح علمياً ، والعلم الحديث بين المسألة بشكل أدق .

(١) العبيدي ، المنظار الهندسي للقرآن الكريم ٨٠٨

الفصل الثالث : بعض الحكم العلمية للتشريعات القرآنية .

المبحث الأول : بعض الحكم العلمية للأطعمة والأشربة المحرمة .

المطلب الأول : تحريم الميتة وأصنافها

المطلب الثاني : تحريم الدم ولحم الخنزير والخمر .

المطلب الثالث : النهي عن الإسراف في الطعام والشراب .

المبحث الثاني : الحكم العلمية لبعض السلوكيات المأمور بها أو المنهي عنها

المطلب الأول : إتيان النساء في المحيض .

المطلب الثاني : الأمر بالرضاعة الطبيعية .

المطلب الثالث : الوضوء والغسل

المطلب الرابع : تحريم اللواط

المبحث الأول : بعض الحكم العلمية للأطعمة والأشربة المحرمة .

المطلب الأول : تحريم الميتة وأصنافها :

أولا : الميتة .

كلام ابن عاشور :

لقد بين ابن عاشور علميا علة تحريم الميتة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ

الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿١٣١﴾ [البقرة] فقال : " والميتة بالتخفيف هي في أصل اللغة الذات التي أصابها الموت

فمخففها ومشدها سواء كالميت والميت، ثم خص المخفف مع التأنيث بالدابة التي تقصد ذكاتها

إذا ماتت بدون ذكاة ، فقيل: إن هذا من نقل الشرع وقيل: هو حقيقة عرفية قبل الشرع وهو

الظاهر بدليل إطلاقها في القرآن على هذا المعنى.

واعلم أن حكمة تحريم الميتة فيما أرى هي أن الحيوان لا يموت غالبا إلا وقد أصيب بعلة

والعلل مختلفة وهي تترك في لحم الحيوان أجزاء منها فإذا أكلها الإنسان قد يخالط جزءا من

دمه جراثيم الأمراض، مع أن الدم الذي في الحيوان إذا وقفت دورته غلبت فيه الأجزاء الضارة

على الأجزاء النافعة، ولذلك شرعت الذكاة لأن المذكى مات من غير علة غالبا ولأن إراقة الدم

الذي فيه تجعل لحمه نقياً مما يخشى منه أضرار.

ومن أجل هذا قال مالك في الجنين: أن ذكاته ذكاة أمه ؛ لأنه لاتصاله بأجزاء أمه صار

استفراغ دم أمه استفراغا لدمه ولذلك يموت بموتها فسلم من عاهة الميتة وهو مدلول الحديث

الصحيح: "ذكاة الجنين ذكاة أمه" وبه أخذ الشافعي، وقال أبو حنيفة لا يؤكل الجنين إذا خرج

ميتا فاعتبر أنه ميتة لم يذك، " (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى حكمة تحريم الميتة بأنّ من أهم أسباب تحريم الميتة أنها ماتت بغير ذكاة شرعية وبالتالي بقي دمها ، و قد توقفت حركته باختلال أحد الأعضاء الرئيسة أو كلها ثم يذكر بعد ذلك سر الذكاة الشرعية وهو أن إراقة الدم الذي فيه تجعل لحمه نقياً مما يخشى منه أضرار .

كلام المعاصرين :

وقد قال العلم الحديث تماماً بما قاله الشيخ فإن جسم الميتة يحتبس فيه الدم بكل رواسبه وسمومه وقد يتخلل الدم جميع الأنسجة اللحمية وتعمل السموم عملها فيبدأ جسم الميتة يكتسب اللون الداكن وتمتلئ الأوردة السطحية بالدماء وتتوقف الدورة الدموية دون أن يتسرب شئ ولو ضئيل من الدم إلى خارج الجسم وبذلك تصبح الميتة كلها بؤرة فساد للأمراض ومجمعا خبيثا للميكروبات ويبدأ التعفن عمله في جسم الميتة فيعم أثره لحمها من ناحية اللون والطعم والرائحة ... كما أن الميتة يفقد لحمها كل فائدة غذائية نتيجة أنزيمات التحلل التي تبدأ عملها في الخلايا فبذلك تجمع أنه لا فائدة من وراء تناولها ، أنه لا يمكن اتقاء السموم ولا عدوى الأمراض القابضة في دمانها (١)

ثم ان الميتة تتعرض لتغيرات عديدة فبعد ساعة من موتها تتشكل الزرقة الرمية بسبب احتقانات الدم ثم تيبس وتصلب العضلات وهو ما يعبر عنه بالتيبس الرمي بسبب تكون احماض خاصة ... وبعد ذلك تغزو الجراثيم الجثة وأهم عامل لذلك كله احتباس الدم (٢)

القضية الأخرى التي يذكرها الشيخ أن الميتة ماتت على الأغلب بعلة فرُبما ماتت بعلة معدية، ولا يُدري ما هي فرُبما بأكلها تنتقل العدوى والعلم الحديث يؤكد ذلك فالميتة قد تموت بمرض أو هرم والمرض ربما كان التهابي فيكون أكثر فتكا مثل السل او الجمرة الخبيثة او غيرها ... والهرمة إضافة للأضرار السابقة فلحمها أكثر صلابة وأسوأ هضمًا. (٣)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور في القضية صحيح لكنه إجمالي - كما هو العادة في منهج ابن عاشور في الجانب العلمي - والعلم كشف عن تفاصيل دقيقة لم يذكرها ابن عاشور .

(١) انظر مارديني، عبد الرحيم (٢٠٠٢م) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ط١، ٣٠٧-٣٠٨ دار المحبة دمشق .

(٢) د. قوقز، مع الطب، مصدر سابق ١٣٣-١٣٤ (٣) المرجع نفسه ١٣٥

ثانيا : أصناف الميتة .

كلام ابن عاشور :

أما عن أصناف الميتة وهي ما ذكر في قول الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ

تَسَنَّفِسُوا بِالْأَرْزَاقِ ذَلِكُمْ فَسُقُ ... ﴿٢﴾ [المائدة] فقد بين ابن عاشور علل تحريمها العلمية فقال:

" . . . {وَالْمُنْخَنِقَةُ} هي التي عرض لها ما يخنقها. والخنق: سد مجاري النفس بالضغط على

الحلق، أو بسده، وقد كانوا يربطون الدابة عند خشية فرما تخبطت فانخنقت ولم يشعروا بها، ولم

يكونوا يخنقونها عند إرادة قتلها. ولذلك قيل هنا: المنخنقة، ولم يقل المنخوقة بخلاف قوله :

{وَالْمَوْقُوذَةُ}، فهذا مراد ابن عباس بقوله: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة وغيرها فإذا ماتت

أكلوها.

وحكمة تحريم المنخنقة أن الموت بانحباس النفس يفسد الدم باحتباس الحوامض الفحمية الكائنة

فيه فتصير أجزاء اللحم المشتمل على الدم مضرة لآكله . . .

{وَالْمَوْقُوذَةُ}: المضروبة بحجر أو عصا ضربا تموت به دون إهراق الدم، وهو اسم مفعول

من وقد إذا ضرب ضربا مثخنا. وتأنيث هذا الوصف لتأويله بأنه وصف بهيمة. وحكمة تحريمها

تمائل حكمة تحريم المنخنقة.

{وَالْمُتَرَدِّيَةُ}: هي التي سقطت من جبل أو سقطت في بئر ترديا تموت به، والحكمة واحدة.

والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة. والنطح ضرب الحيوان ذي القرنين بقرنيه حيوانا آخر. والمراد

التي نطحها بهيمة أخرى فماتت. وتأنيث النطيحة مثل تأنيث المنخنقة ، وظهرت علامة التأنيث

في هذه الأوصاف وهي من باب فعيل بمعنى مفعول لأنها لم تجر على موصوف مذكور

فصارت بمنزلة الأسماء.

{وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ}: أي بهيمة أكلها السبع، والسبع كل حيوان يفترس الحيوان كالأسد والنمر

والضبع والذئب والثعلب، فحرم على الناس أكل ما قتله السبع، لأن أكيلة السبع تموت بغير سفح

الدم غالبا بل بالضرب على المقاتل. " (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور في حكمة تحريم المنخقة إلى أن انقطاع النفس يفسد الدم باحتباس الحوامض الفحمية الكائنة فيه فتصير أجزاء اللحم المشتمل على الدم مضرّة لأكله وقاس عليها الموقوذة والمتردية والتّطيحة .

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور صحيح حيث لا يخفى أن الحيوان الذي يموت بالخنق فإن هذا يعني عدم وصول الاكسجين للجسم وبالتالي زيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون السام كما تتراكم جميع الإفرازات السامة التي تخرج عادة مع النفس في عملية الزفير والتي لو لم تخرج لامتصها الجسم وسببت تسمما في كل الأنسجة ، وأكل لحوم المنخقة يعني انتقال هذه السموم للجسم (١) ومن ناحية أخرى فإن الحيوان عندما يبدأ موته بالخنق فإن مقاومة جدر الأمعاء الغليظة ضد الجراثيم تضعف فتغزو الجراثيم الجسم وتجد الدماء الموجودة لتتغذى عليها ولا زال الحيوان حيا فتدخل إلى جميع أجزاء جسم الحيوان فيكون مصدرا للخطر الكبير (٢) فكان كلام ابن عاشور سديد موافق للعلوم الحديثة .

أمّا عن "الموقوذة والمتردية والتّطيحة" فيشير ابن عاشور إلى أن حكمة تحريم هذه الأصناف يشابه حكمة تحريم المنخقة فهذه الأصناف تموت دون ذكاه ، وهو كلام صحيح لكن العلم الحديث يضيف أن الرضوض تسبب انتشار الدم تحت الجلد وفي الأنسجة مما يزيد احتمال وصول الجراثيم وتكاثرها هذا إضافة لضرر انحباس الدم ولكن اذا أمكن الوصول الى هذه الحيوانات قبل موتها وتم ذبحها فتحل وهذا هو المراد بقوله تعالى " الا ما ذكيتم " (٣) فكلام ابن عاشور صحيح علميا لكن عليه استدراقات .

وقبل أن أنهى أريد الحديث عن قضية مهمة وهي تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه أو ما أهل به لغير الله وفي هذا الموضوع لم يذكر ابن عاشور حكمة علمية ولعل ذلك لم يظهر الا حديثا حيث قام فريق طبي يتكون من ثلاثين أستاذاً باختصاصات مختلفة في مجال الطب المخبري والفيروسات وغيرها بأبحاث مخبرية على الذبائح التي ذكر اسم الله تعالى عليها ومقارنتها مع الذبائح التي تذبح بنفس الطريقة ولكن بدون ذكر اسم الله عليها وكانت النتائج كالتالي :

(١) أبو شام، كريمة يوسف (٢٠٠٨م) ، الإعجاز التشريعي والعلمي في آيات الطعام والشراب في سورة المائدة والأنعام ط١ ص٧٤ دار عمار عمان

(٢) د. متولي، الموسوعة الذهبية مصدر سابق ٥٤١

(٣) د. قوقز مع الطب في القرآن مصدر سابق ١٣٥

نسيج اللحم الذي ذبح بدون تسمية مليء بالجراثيم ومحتقن بالدماء بينما الآخر الذي ذكر اسم الله عليه كان خاليا تماما من الجراثيم ولا يحتوي نسيجه على الدماء فعند التكبير تعتصر اكبر كمية من الدماء من الذبيحة .

تم نقع عينات اللحم في الديتول لمدة ساعة ثم زرعت في محلول آخر وبعد ٢٤ ساعة من حضنها بدرجة حرارة ٣٧ أخذت الى مستنبتات صلبة من الغراء وتركت لمدة ٤٨ ساعة وبعد ذلك بدا لون اللحم المكبر عليه وردي احمر اما الآخر فاحمر قاتم يميل الى الزرقة وبالنسبة للمحلول المستنبت الذي وضع فيه اللحم المكبر عليه بدا رائقا اما الآخر فمعكور وهذا دليل على تجرثمه .

وبعد ٤٨ ساعة تبين نمو غزير من المكورات العنقودية والجراثيم السلبية مثل العصيات الكولونية على اللحوم غير المكبر عليها .

إنّ بقاء الدم في جسم الذبيحة يؤدي إلى نمو الجراثيم الغزير واذا تناولها الإنسان دخلت الغشاء المخاطي للمعدة ثم الأعضاء ومنها القلب الذي تسبب نخرا في عضلته والتهابا في شغافه وتحدث انتانات دموية تصل نسبة الوفيات فيها إلى ٢٠% .

طريقة الذبح الحلال تقطع الدم والهواء عن الدماغ فورا فيصاب الحيوان بإغماء كامل ويفقد الحس تماما اما الاختلاجات التي تحصل فهي افعال انعكاسية تخلص الذبيحة من الدماء وهي تخفض ضغط الدم الى ان تنتهي تصفية الدم كاملا وهي طريقة إنسانية بعكس غيرها أما الطرق الاخرى فتؤدي الى شلل اعضاء الحركة وارتفاع ضغط الدم فيعاني الحيوان من ٥-١٠ دقائق من الالام حتى يتوقف القلب وعند سلخها تظهر الأوردة منتفخة لاحتقان الدم فيها فتبقى عرضة للتفسخ لذا يسارعون لوضعا في الثلجات بدرجة حرارة ٤ مئوية بينما الأخرى فتعرض عند الجزارة طوال النهار وتبقى سليمة " (١)

وابن عاشور وإن لم يذكر كل ذلك إلا أنه أشار إلى أن بقاء الدم في الذبيحة يعد من أسباب فساد لحمها. (٢) ثم إنّ هذه الأبحاث معاصرة لم تكن معلومة في زمن ابن عاشور – رحمه الله تعالى -

(١) www.islamway.com/?iw-s=article&iw-a=view&article_id=321

تاريخ الاضافة ٢٠٠٣/٢/٢٨ على شبكة الإنترنت

(٢) ابن عاشور ، التحرير ٢٣/٥

وبالنسبة للذكاة الشرعية يقول العلم الحديث : إن التجارب التي أجريت على مقارنة الذبح الإسلامي بالطرق الأخرى للذبح كالصعق الكهربائي وغيرها قدمت أن طريقة الذبح الإسلامي تتضمن أفضل نرف للدم من الذبيحة وهذا من أهم متطلبات الذبح حيث يضمن فترة صلاحية أطول مع طعم افضل ... وأن صور اللحم المذبوح بها يبدو لحما طازجا أما ما ذبح بطرق أخرى كان أزرق اللون كأنه مخنوق بسبب اشباع دماؤها بثاني اكسيد الكربون (١)

تعقيب :

ابن عاشور أشار إلى أهم شيء يتعلق بحكمة تحريم أصناف الميتة إلا أن العلم الحديث أضاف تفصيلات أخرى ، بعضها لم يكن معلوما زمن ابن عاشور - رحمه الله تعالى - .

(١) انظر أبو شام ، الإعجاز العلمي في سورة المائدة والأنعام ، مصدر سابق ٧٥

المطلب الثاني : تحريم الدم ولحم الخنزير والخمر .

(١) الدّم :

كلام ابن عاشور : يقول ابن عاشور في علة تحريم الدم الوارد في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ

عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ

اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ [البقرة] " . . . وحكمة تحريم الدم أن شربه يورث ضراوة في الإنسان

فتغلظ طباعه ويصير كالحیوان المفترس ... والدم معروف مدلوله في اللغة وهو إفراز من المفرزات الناشئة عن الغذاء وبه الحياة وأصل خلقته في الجسد آت من انقلاب دم الحيض في رحم الحامل إلى جسد الجنين بواسطة المصران المتصل بين الرحم وجسد الجنين وهو الذي يقطع حين الولادة ، وتجده في جسد الحيوان بعد بروزه من أمه يكون من الأغذية بواسطة هضم الكبد للغذاء المنحدر إليها من المعدة بعد هضمه في المعدة ويخرج من الكبد مع عرق فيها فيصعد إلى القلب الذي يدفعه إلى الشرايين وهي العروق الغليظة وإلى العروق الرقيقة بقوة حركة القلب بالفتح والإغلاق حركة ماكينية^(١) هوائية، ثم يدور الدم في العروق متنقلا من بعضها إلى بعض بواسطة حركة القلب وتنفس الرئة وبذلك الدوران يسلم من التعفن فلذلك إذا تعطلت دورته حصة طويلة مات الحيوان. " (٢)

التحليل :

يعرف الشيخ ابن عاشور تعريفاً علمياً بالدم وأصل منشئه في جسم الإنسان وهو يشير لمرحلتين من تكوّنه : الأولى في الجنين ويتكون دمه من انقلاب الدم في رحم الأم إلى الجنين بواسطة المصران (الحبل السري) ، والثانية بعد خروجه بإنتاج الكبد له . أما عن حكمة تحريمه فلم يذكر فيه ابن عاشور شيء علمي سوى إشارته أن تناول الدم يورث ضراوة .

كلام المعاصرين :

بالنسبة لمنشأ الدّم فإنّ العلم الحديث بيّن أنه بالنسبة للجنين فإنّ الدم يتكوّن بمراحل ، الأولى

هي ما أشار إليها ابن عاشور

(١) هذه الكلمة ليست بالعربية إذ لم تذكرها معاجم اللغة ومادة مكن أصلها من المكن أو المكن وهو " بيض الضبّة والجراة وتحوهما " انظر ابن منظور ، لسان العرب ٤١٢/١٣ والكلمة أصلها بالإنجليزية mechanic وتعني الرجل الماهر في تصليح الآلات والمادة تدل على الحركة ، انظر القاموس المعاصر ص ٦٤٩ .

(٢) ابن عاشور ، التحرير ١١٧/٢

أي أنّ الدم يصل للجنين من الكيس المحي المحيط بالجنين وهي من عمر ٦ أيام إلى نهاية الشهر الثاني ، والثانية هي المرحلة الكبدية والكبد حينئذ هو المصنّع للدم وتساهم الطحال بنسبة بسيطة ، وهي من عمر شهرين إلى وضع الجنين ، والثالثة مرحلة إنتاج نخاع العظم للدم وتبدأ بالشهر الخامس وتستمر لما بعد الولادة .

أما عند الأشخاص العاديين فالمكوّن الرئيسي للدم هو نخاع العظم حيث يكون الصفائح الدموية والكريات البيض والحمرة بالإضافة إلى الجهاز اللمفاوي ويتمثل بالعقد اللمفاوية والكبد واللوزتين والطحال . . . (١) فكلام ابن عاشور في تكوّن الدم قد جاء العلم الحديث بما هو أدق منه وبالنسبة لحكمة تحريم الدم العلمية فإنّ ابن عاشور لم يبينها واكتفى بأن تناول الدم يورث ضراوة وحدة في طبع الإنسان ، بينما أكدت العلوم الحديثة أن أضراراً تصيب الإنسان عند تناوله للدم بل موت محقق وهو يعود إلى أنّ تركيب الدم واحتوائه على سموم والثاني عسر هضمه والثالث : طبيعته وصلاحيته لحمل الجراثيم .

فالمدم في تركيبه النهائي يتكون من عنصرين بلازما الدم والثاني خلايا حية تسبح في البلازما ونسبتها ٤٠-٦٠% منها والدم فقير من الناحية الغذائية حيث ان ٩٠% منه ماء ١٠% مواد صلبة و٨% منها مواد بروتينية و٢% أملاح وغيرها وهذا القدر من البروتينات يأتي مختلط مع سموم غاية في الضرر على رأسها ثاني أكسيد الكربون ثم إن الدم عسر الهضم بحيث لو شربه انسان اما تقيأ أو بقي وخرج مع البراز بلون اسود غير مهضوم (٢) وباحتوائه على جراثيم فهو يحدث تهيجا في المعدة والأمعاء مما يسبب أخطارا على الجهاز الهضمي (٣) وربما حصل امتصاص لنتائج الدم الاستقبالية التي تؤدي لارتفاع كبير في نسبة البولية الدموية وهذا يؤدي لاعتلال دماغي يظهر على شكل سبات الدم يحمل فضلات الجسم الناتجة من عمليات الهدم ليطرحها إما عن طريق الكلية أو التعرق كحمض البول وغاز الكربون الذي يطرحة عن طريق الرئتين وينقل بعض السموم إلى الكبد لتعديلها (٤)

(١) د. محمد ادلي، تكون الدم في جسم الإنسان ، على شبكة الانترنت > www.ittihadhalap.com

(٢) ابو شامه الاعجاز التشريعي ٨٢ ، وانظر د. قوقز ، مع الطب ص ١٣٦

(٣) مارديني موسوعة الاعجاز العلمي ٣١٠ (٤) د قوقز مع الطب ١٣٥

إن الدم هو أصلح الأوساط لنمو الجراثيم كما أنه يحمل مخلفات الجسم التي تنتج من الفعل الهدمي في الأنسجة المختلفة ولو جئت بجرام من الدم وغرام من اللحم وحسبت عدد الجراثيم المتولدة في غرام الدم وغرام اللحم بعد خمس ساعات أو ست ساعات ستجد أن الدم قد أصبح مستودعا للجراثيم بينما اللحم لا ويعود ذلك لأن اللحم صلب لا تستطيع الجراثيم اختراقه أما الدم فهو سائل يساعد على تغلغل الجراثيم وتغذيتها عليه^(١) ومن أضراره الأخرى والتي قررها الأطباء حدوث فشل كلوي عند الإنسان^(٢)

تعقيب :

فيظهر من كل هذا أن ابن عاشور لم يذكر الحكم العلمية التي قررها الطب الحديث لتحريم الدم بينما أصاب في التعريف بأصل الدم وسيره في الجسم .

(٢) لحم الخنزير :

كلام ابن عاشور :

أما عن لحم الخنزير وعلة تحريمه فيقول ابن عاشور فيه عند تفسيره للآية السابقة " . . . وحكمة تحريم لحم الخنزير أنه يتناول القاذورات بإفراط فتنشأ في لحمه دودة مما يقتاتها لا تهضمها معدته فإذا أصيب بها أكله قتلته. " ^(٣)

(١) مارديني الموسوعة العلمية ، مصدر سابق ٥٣٥

(٢) المرجع نفسه ٣٠٩

(٣) ابن عاشور التحرير ١١٩/٢

كلام المعاصرين :

لم يعرف ابن عاشور بالخنزير بتعريفٍ واسع بينما بيّن أهل الاختصاص فعرّفوا الخنزير أنه حيوان لاحم عشبي كرية المنظر ضخم الجثة مكتنز اللحم قصير الأرجل تجتمع فيه الصفات السّبعية والبهيمية وهو أكل كل شيء نهم كانس يكنس الحقل والزريبة يأكل القمامة والفضلات والنجاسات بشراهة وهو مفترس يأكل الجرد والفئران وهو سيء الطباع ، جلال ، شديد الجماع ، شبق ، لا يختص بأنثى ومن صفاته : الكسل ، وحب النوم ، حامل ، لا قدرة لديه على قتال ولا حتى دفاع عن نفسه . (١)

ويكشف العلم الحديث عن الأمراض التي يسببها أكل الخنزير ، فمن حيث الأمراض الطفيلية فهناك ستة وستين مرضاً طفيلياً ينتقل منها للإنسان ثلاثين مرضاً منها الزحار الزقي (مرض معدي ينتشر بين من يربي أو يسلخ أو يتعامل مع الخنازير ويموت المريض فيه بعدة ايام ان لم يعالج وان عولج يتحول الى مغص واسهال مزمن) (٢)

وهناك أمراض أخرى صورتها تسلط الديدان ، شريطية لحم الخنزير أو الشريطية المسلحة طوله ٢-٣م تصيب الانسان من تناوله للحم الخنزير غير المطهو جيدا الذي يحوي الطور المعدي للدودة ، وتتحول بعد ذلك إلى الطور اليافع في جسم الانسان والشعرية الحلزونية وهي دودة صغيرة أيضا تسبب أضرارا خطيرة كتركز يرقات الدودة في عضلات الانسان حيث يسبب ألما شديدة وصعوبة تنفس وقد تسبب الموت بشلل عضلات التنفس وعضلات القلب ولا علاج لهذه الحالة حتى الآن (٣) والخنزير مليء بالديدان ففوق ما ذكر هناك دودة معدية قرحية في أمعائه وأخرى في رثته . (٤)

ومن حيث الجراثيم فان الخنزير ينقل للإنسان اكثر من ١٥ مرضا جرثوميا أهمها الحمى المالطية (الذي يسبب التهاب سحايا والتهاب عضلة القلب وتورم الطحال ..) وبكتيريا الجمرة الخبيثة (التي تكون بشكل لوحة محمرة مؤلمة جدا مع التهاب الأوعية اللمفاوية وقد تسبب التجرثم في الدم والوفاة) (٥)

(١) أبو شام ، الإعجاز التشريعي ،مصدر سابق ص ٩٠

(٢) المرجع نفسه ص ٩٧-٩٨ ، وانظر د. قوقز ، مع الطب في القرآن ،مصدر سابق ١٣٧

(٣) د. قوقز مع الطب في القرآن ،مصدر سابق ١٣٨-١٣٩

(٤) مارديني ، موسوعة الاعجاز العلمي ، مصدر سابق ٣٠٥

(٥) أبو شام ، الاعجاز التشريعي ،مصدر سابق ١٠١

وكذلك أمراض فيروسية على راسها انفلونزا الخنازير حيث ينتشر هذا المرض على شكل وباء يصيب الملايين ومن أعراضه الإسهال الشديد وآلام بالمعدة وحمى مصحوبة لارتفاع درجات الحرارة (١)

ومن الأمراض الخطيرة أيضا مرض التهاب الدماغ والقلب حيث ينتقل من الفئران الى الخنازير الى الانسان وهو خطير جدا حيث يسبب التهابات في القلب والدماغ (٢)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور صحيح علميا لكنه جاء موجزا ، والعلم الحديث كشف عن تفاصيل علمية دقيقة قائمة على تجارب وتحاليل بأجهزة متطورة في ذلك الأمر .
٣) الخمر :

كلام ابن عاشور :

ويقول ابن عاشور في حكمة تحريم الخمر في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ

وَالْمَيْسِرِ ۗ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩]

" . . . والإثم الذي في الخمر نشأ عما يترتب على شربها تارة من الإفراط فيه والعريضة من تشاجر يجر إلى البغضاء والصد عن سبيل الله وعن الصلاة، وفيها ذهاب العقل والتعرض للسخرية، وفيها ذهاب المال في شربها، وفي الإنفاق على الندامى حتى كانوا ربما رهنوا ثيابهم عند الخمارين ومن آثامها ما قرره الأطباء المتأخرون أنها تورث المدمنين عليها أضرارا في الكبد والرتتين والقلب وضعفا في النسل ، وقد انفرد الإسلام عن جميع الشرائع بتحريمها، ولأجل ما فيها من المضار في المروءة حرّمها بعض العرب على أنفسهم في الجاهلية . . . وأما المنافع فمنها منافع بدنية وهي ما تكسبه من قوة بدن الضعيف في بعض الأحوال وما فيها من منافع التجارة فقد كانت تجارة الطائف واليمن من الخمر، وفيها منافع من اللذة والطرب... وذهب بعض علمائنا إلى أن المنافع مالية فقط فراراً من الاعتراف بمنافع بدنية للخمر وهو جحود للموجود (٣) ومن العجيب أن بعضهم زعم أن في الخمر منافع بدنية ولكنها بالتحريم زالت" (٤)

(١) د . متولي ، الموسوعة الذهبية العلمية ، مصدر سابق ٥٣٧

(٢) أبو شام الإعجاز التشريعي ، مصدر سابق ١٠٠

(٣) وأين هي المنافع البدنية التي يذكرها الشيخ مقابل ما سيرد بعد قليل من الأضرار المهلكة ، هذا كلام مردود

من الشيخ - رحمه الله تعالى - (٤) ابن عاشور / التحرير ٣٢٧/٢

التحليل :

لقد أوجز الشيخ في الإشارة الى مواطن الضرر في الخمر فأشار انه يضر الكبد والرئتين والقلب وضعفا في النسل وهذا كلام مجمل بالرغم من صحته ومما ذكره ابن عاشور أنّ في الخمر منافع بدنيّة وهو يدافع عن هذا القول بالرغم من بعده .

كلام المعاصرين :

ما أجمله ابن عاشور جاء تفصيله في العلم الحديث الذي يقول : إن للخمر ضرر على عضلة القلب و أعصابه وهذا التأثير سلبي ومميت في بعض الأحيان ولها تأثير سلبي على الجهاز العصبي فيضعف المخ والتفكير والوعي والإحساس ولها تأثير سلبي على قشرة المخ فيغيب وعي الإنسان عندما يسكر ، فالخمر تقتل العواطف الإنسانية السامية كالعطف والحنان والأبوة والرأفة، والخمر تؤثر على الجهاز الهضمي ، والخمر تسبب أعراض الحساسية ، وتؤدي الخمرة لنقص الزنك وبالتالي مشاكل الجلد ، ويسبب تعاطي الخمر نقص اكيد في الفيتامينات ، ويسبب تعاطي الخمر تكثر حوادث الموت المفاجئ والجلطات والسكتات القلبية أو الجلطات الدماغية (١)

في الخمر مادة يقال لها الكحول الإتيلي تمتص مباشرة بسرعة فائقة خاصة إذا أعطي على معدة فارغة ويسبب مفاسد رئيسية مقسمة لنوعين :

الأول: التسمم الغولي الحاد وأكثر الأعضاء تأثرا به الدماغ وهذا يؤدي لعدم استقرار نفسي وجنسي وربما غيبوبة وربما الموت بتثبط النفس وتوقف القلب .

الثاني التسمم الغولي المزمن : حيث يصيب المتعاطي للخمر نوبات تعاطي زائد (تسمم) وكذلك إدمان غولي وبشكل عام فالغولية تؤدي لأضرار في أجهزة الجسم . . . فالجهاز العصبي يصاب باعتلال العصب الغولي العديد (يصاب فيه الكحولي بضعف عضلي وهزال وآلام في الأطراف) واعتلال العصب الواحد (حيث يحصل فيه اضراب حسي وحركي على مسير العصب مع شلل مؤقت فيه وحسب العصب المصاب) والتهاب العصب البصري مما يؤدي لضعف البصر وغيرها من الأمراضوالجهاز الهضمي حيث يتم تخريش مخاطية الفم والبلعوم وتشقق اللسان وربما سرطانه والتهاب المريء بل قل التهابات وسرطانات وتقرحات متوقعة في كل من أجزاء الجهاز الهضمي ومن أهم الأخطار أيضا التي يمكن أن يصاب بها الشخص مرض تشمع الكبد ففي فرنسا يموت ٢٢٥٠٠ شخص من تشمع الكبد الغولي وفي ألمانيا ١٦٠٠٠ .

أما عن الغولية وأمراض القلب فإنه يسبب اعتلال عضلة القلب وتشوهات في قلب الجنين إن تعاطت الأم الكحول ومما يصيب المدمن أيضا فقر الدم
أما عن الغول والوظيفة الجنسية فهو يزيد الرغبة الجنسية ولكن ينقص القدرة على أداء العمل الجنسي وأهم ما في الأمر أيضا أنه يؤدي إلى تشوه النطاف وبالتالي تشوه الأجنة^(١)

تعقيب :

فيظهر من كلّ ذلك أنّ كلام ابن عاشور كان كلاماً مُجملاً وكلام المعاصرين يظهر فيه التوسّع وذكر التفاصيل وأنا لا أنكر على ابن عاشور هذا الإجمال لأنّ كتابه في التفسير لا في العلوم .

(١) د. قوقز مع الطب، مصدر سابق ١٤٠-١٤٨ بتصرف

المطلب الثالث : النهي عن الإسراف في الطعام والشراب .

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور عن أضرار الإسراف في الطعام والشراب في تفسير قوله تعالى : ﴿

يَنْبَغِ آدَمَ حُدُوءَ زَيْنَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَشَرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ [الأعراف] "

والإسراف . . . وهو تجاوز الحد المتعارف في الشيء أي: ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم لأن ذلك يعود بأضرار على البدن وتنشأ منه أمراض معضلة.

وقد قيل إن هذه الآية جمعت أصول حفظ الصحة من جانب الغذاء . " اهـ (١)

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور صحيح علمياً حيث إنّ أخطار الشره والإسراف متعددة فعلى جهاز الهضم:

التخمة وعسر الهضم وتوسع المعدة ، وعلى القلب يشعر أصحاب أمراض القلب بعبءٍ ثقيلٍ عند الشره ثم إن أخذ كمية طعام كبيرة تجعل الإنسان عرضة للجراثيم ، وكذلك توسع المعدة الحاد ... وتمزقها اذا تعرضت لرض خارجي . أما اذا كان الإسراف بنوع من الأطعمة :

فالسمنة ونخر الأسنان والحصيات الكلوية وتصلب الشرايين والنقرس. (٢)

التعقيب :

كان كلام ابن عاشور صحيح لكنه لا يعدو الإشارة أو الكلام المُجمل بينما فصل العلم

الحديث ذلك الإجمال .

(١) ابن عاشور / التحرير ١٠٤/٧

(٢) د. قوقز ، مع الطب، مصدر سابق ١٢٩-١٣٢

المبحث الثاني : الحكم العلمية لبعض السلوكيات المأمور بها أو المنهي عنها.

المطلب الأول : إتيان النساء في المحيض .

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في التعريف بالحيض و حكمة تحريم إتيان النساء في المحيض عند

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى

يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة] " ...

والمحيض وهو اسم للدم الذي يسيل من رحم المرأة في أوقات منتظمة . . . والمراد من السؤال عن المحيض السؤال عن قربان النساء في المحيض بدلالته الاقتضاء، وقد علم السائلون ما سألوا عنه والجواب أدل شئ عليه.

والأذى: الضر الذي ليس بفاحش؛ كما دل عليه الاستثناء في قوله تعالى: {لَنْ يَضُرُّوَكُمْ

إِنَّمَا أَذَى} [آل عمران: ١١١]، ابتداء جوابهم عما يصنع الرجل بامرأته الحائض فبين لهم أن الحيض أذى ليكون ما يأتي من النهي عن قربان المرأة معللاً فتتلقاه النفوس على بصيرة وتتهيباً به الأمة للتشريع في أمثاله، وعبر عنه بأذى إشارة إلى إبطال ما كان من التغليظ في شأنه وشأن المرأة الحائض في شريعة التوراة، وقد أثبت أنه أذى منكر ولم يبين جهته فتعين أن الأذى في مخالطة الرجل للحائض وهو أذى للرجل وللمرأة وللولد، فأما أذى الرجل فأوله القذارة وأيضاً فإن هذا الدم السائل من عضو التناسل للمرأة وهو يشتمل على بويضات دقيقة منها تخلق الأجنة بعد انتهاء الحيض وبعد أن تختلط تلك البويضات بماء الرجل فإذا انغمس في الدم عضو التناسل في الرجل يتسرب إلى قضيبيه شئ من ذلك الدم بما فيه وربما احتبس منه جزء في قناة الذكر فاستحال إلى عفونة تحدث أمراضاً معضلة فتحدث بثوراً وقروحاً لأنه دم قد فسد ويرد أي فيه أجزاء حية تفسد في القضيب فساداً مثل موت الحي فتؤول إلى تعفن. وأما أذى المرأة فلأن عضو التناسل منها حينئذ بصدد التهيؤ إلى إيجاد القوة التناسلية فإذا أزعج كان إزعاجاً في وقت اشتغاله فدخل عليه بذلك مرض وضعف، وأما الولد فإن النطفة إذا اختلطت بدم الحيض أخذت البويضات في الخلق قبل إبان صلاحيتها للتخلق النافع الذي وقته بعد الجفاف . . . والأطباء يقولون إن الجنين المتكون في وقت الحيض يجئ مجذوماً أو يصاب بالجذام من بعد " (١)

كلام المعاصرين :

كلام ابن عاشور السابق فيه الصحيح وفيه الخطأ ويتبين ذلك من خلال عرضه على كلام العلم حيث يقول الدكتور محمد اسماعيل : " إن دورة الحيض رغم كونها حالة طبيعية إلا أنها تسبب للمرأة ألماً في بدنها وانحرافاً في مزاجها يصرفها عن الرغبة في الاتصال الجنسي، وتعاني منه حدة في طبعها، وقد تشعر بمغص شديد تصحبه أحياناً أعراض اضطرابات نفسية، كما أن الجهاز التناسلي للمرأة أيام الحيض يكون معرضاً لكثير من العلل لأن المهبل في أوقات الحيض يكون ميداناً مفتوحاً لغزو أسراب مختلفة من الجراثيم، وإن الوطء في هذه الفترة يؤدي إلى التهابات بالمبيض قد يسبب العقم أحياناً، كما أنها قد تصيب الرجل بالعدوى فتحدث عنده التهابات في أعضائه التناسلية، ولا شك أن الجماع في المحيض ينذر الرجل بخطر داهم هو في غنى عنه لو خالف هو بنفسه وأطاع أمر ربه، وهذا هو ما وجهه القرآن للناس لاتباعه والتزامه حرصاً على صحتهم وسلامتهم، وما كان أحد يعلم ذلك ولكن كان علمه عند خالق كل شيء وأنزله في قرآنه لحماية عباده من أضرار وأمراض محققة، لأن ربنا رؤوف رحيم بعباده." (١)

ثم إن الغشاء المبطن للرحم يقذف أثناء الحيض و يفحص دم الحيض تحت المجهر نجد بالإضافة إلى كرات الدم الحمراء و البيضاء قطعاً من الغشاء المبطن للرحم وليس من البويضات كما يقول ابن عاشور وبالتالي عدم احتمالية الحمل . ويكون الرحم متقرحاً نتيجة لذلك .فهو معرض للعدوى البكتيرية . و من المعلوم طبيياً أن الدم هو خير بيئة لتكاثر الميكروبات و نموها ... و تقل مقاومة الرحم للميكروبات الغازية نتيجة لذلك و يصبح دخول الميكروبات الموجودة على سطح القضيبي يشكل خطراً داهماً على الرحم .. و مما يزيد الطين بلة أن مقاومة المهبل لغزو البكتيريا تكون في أدنى مستواها أثناء الحيض .. إذ يقل إفراز المهبل الحامض الذي يقتل الميكروبات و يصبح الإفراز أقل حموضة إن لم يكن قلوي التفاعل (٢) - وكذلك تصاب بعض النساء بصداع نصفي (الشقيقة) قرب بداية الحيض و آلام مبرحة . (٣)

تعقيب :

فيظهر من كل ذلك أنّ كلام ابن عاشور العلمي كلام إجمالي فيه بعض المخالفات العلمية كقوله: بخروج بويضات مع الطمث ، وقوله : باحتمال وقوع حمل وقت الحيض وهذا باطل كما تبين .

(١) د. محمد اسماعيل ، القرآن وإعجازه العلمي ص ١١٥-١١٦

(٢) د . محمد على البار ، خلق الانسان بين الطب والقرآن ١٠١-١٠٢

(٣) مارديني ، موسوعة الإعجاز ، مصدر سابق ٣٢٧

المطلب الثاني : الأمر بالرضاعة الطبيعية .

كلام ابن عاشور :

ويقول أيضا في حكمة الإرضاع الطبيعي وتحديده بالسنتين في قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ

يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ . . . ﴾ [البقرة]

" . . . وقد جعل الله الرضاع حولين، رعيًا لكونهما أقصى مدة يحتاج فيها الطفل للرضاع إذا عرض له ما اقتضى زيادة إرضاعه، فأما الحولين فليس في نمائه ما يصلح له الرضاع بعد، ولما كان خلاف الأبوين في مدة الرضاع لا ينشأ إلا عن اختلاف النظر في حاجة مزاج الطفل إلى زيادة الرضاع، جعل الله القول لمن دعا إلى الزيادة، احتياطا لحفظ الطفل. وقد كانت الأم في عصور قلة التجربة، وانعدام الأطباء، لا يهتدون إلى ما يقوم للطفل مقام الرضاع؛ لأنهم كانوا إذا افطموه أعطوه الطعام، فكانت أمزجة بعض الأطفال بحاجة إلى تطويل الرضاع، لعدم القدرة على هضم الطعام وهذه عوارض تختلف. وفي عصرنا أصبح الأطباء يعترضون لبعض الصبيان بالإرضاع الصناعي، وهم مع ذلك مجمعون على أنه لا يصلح للصبي من لبن أمه، ما لم تكن بها عاهة أو كان اللبن غير مستوف الأجزاء التي بها تغذية أجزاء بدن الطفل، ولأن الإرضاع الصناعي يحتاج إلى فرط حذر في سلامة اللبن من العفونة: في قوامه، وإنائه. وبلاد العرب شديدة الحرارة في غالب السنة؛ ولم يكونوا يحسنون حفظ أطعمتهم من التعفن بالمكث، فربما كان فطام الأبناء في العام أو ما يقرب منه يجر مضار للرضعاء، وللأمزجة في ذلك تأثير أيضا . وعن ابن عباس أن التقدير بالحولين للولد الذي يمكث في بطن أمه ستة أشهر، فإن مكث سبعة أشهر، فرضاعة ثلاثة وعشرون شهرا، وهكذا بزيادة كل شهر في البطن ينقص شهر من مدة الرضاعة. حتى يكون لمدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الاحقاف: ١٥]، وفي هذا القول منزع إلى تحكيم أحوال الأمزجة؛ لأنه، بمقدار ما تنقص مدة مكثه في البطن، تنقص مدة نضج مزاجه. والجمهور على خلاف هذا وأن الحولين غاية لإرضاع كل مولود. وأخذوا من الآية أن الرضاع المعتبر هو ما كان في الحولين، وأن ما بعدهما لا حاجة إليه، فلذلك لا يجاب إليه طالبه . " (١)

التحليل :

يشير ابن عاشور إلى أن الأطباء ينصحون بإرضاع الطفل طبيعياً إلا في حالات خاصة ويشير إلى أهمية الإرضاع الطبيعي لكنه لم يبين حكماً علمية واضحة في ذلك بالتفصيل الذي جاء به العلم الحديث .

كلام المعاصرين :

يعقد مؤلفا كتاب " مع الطب في القرآن الكريم " مقارنة بين الإرضاع الطبيعي والصناعي على النحو الآتي :

- ١- تركيب الحليب : يتطور تركيب حليب الأم من يوم لآخر بما يلئم حاجة الرضيع الغذائية، و تحمل جسمه ، وبما يلئم غريزته وأجهزته التي تتطور يوماً بعد يومين وذلك عكس الحليب الصناعي الثابت التركيب : فمثلاً يفرز الثديان في الأيام الأولى اللبن Colostrm الذي يحوي أضعاف ما يحوي اللبن العادي من البروتين والعناصر المعدنية، لكنه فقير بالدهن والسكر، كما يحوي أضداداً لرفع مناعة الوليد، وله فعل ملموس ، هو الغذاء المثالي للوليد . كما يخف إدراج اللبن من ثدي الأم ، أو يخف تركيزه بين فترة و أخرى بشكل غريزي و ذلك لإراحة الجهاز الهضمي عند الوليد ، ثم يعود بعدها بما يلئم حاجة الطفل
- ٢- الهضم : لبن الأم أسهل هضماً لاحتوائه على خمائر هاضمة تساعد خمائر المعدة عند الطفل على الهضم ، و تستطيع المعدة إفراغ محتواها منه بعد ساعة و نصف، و تبقى حموضة المعدة طبيعية ومناسبة للقضاء على الجراثيم التي تصلها بينما يتأخر هضم خثرات الجبن في حليب البقر ، لثلاثة أو أربع ساعات، كما تعدل الأملاح الكثيرة الموجودة في حليب البقر حموضة المعدة، و تنقصها مما يسمح للجراثيم و خاصة القولونية بالتكاثر مما يؤدي للإسهال و الإقياء .
- ٣- الطهارة : حليب الأم معقم، بينما يندر أن يخلو الحليب في الرضاع الصناعي من التلوث الجرثومي، وذلك يحدث إما عند عملية الحلب أو بتلوث زجاجة الإرضاع .
- ٤- درجة حرارة لبن الأم ثابتة و ملائمة لحرارة الطفل، و لا يتوافر ذلك دائماً في الإرضاع الصناعي .
- ٥- الإرضاع الطبيعي أقل كلفة، بل لا يكلف أي شيء من الناحية الاقتصادية .
- ٦- يحوي لبن الأم أجساماً ضدية نوعية، تساعد الطفل على مقاومة الأمراض، وتوجد بنسبة أقل بكثير في حليب البقر، كما أنها غير نوعية، و لهذا فمن الثابت أن الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم أقل عرضة للإنتان ممن يعتمدون على الإرضاع الصناعي.

٧- الإرضاع الطبيعي يدعم الزمرة الجرثومية الطبيعية في الأمعاء ذات الدور الفعال في امتصاص الفيتامينات وغيرها من العناصر الغذائية، بينما يسبب الإرضاع الصناعي اضطراب هذه الزمرة.

٨- يسبب لبن البقر مضاعفات عدم تحمل و تحسس، لا تشاهد في الإرضاع الطبيعي كالإسهال و النزف المعوي و التغوط الأسود و مظاهر التحسس الشائع ، كما إن المغص والإكزما البنيوية أقل تواجداً في الإرضاع الطبيعي .

٩- يعرض الإرضاع الصناعي الطفل للإصابة بأمراض مختلفة، كالتهابات الطرق التنفسية... وكذلك التهاب الأذن الوسطى، لأن الطفل في الإرضاع الصناعي يتناول وجبته وهو مضطجع على ظهره ، فعند قيام الطفل بأول عملية بلع بعد الرضاعة يفتح نفير أوستاش و يدخل الحليب و اللعاب إلى الأذن الوسطى مؤدياً لالتهابها. و تزيد حالات التهاب اللثة و الأنسجة الداعمة للسن بنسبة ثلاثة أضعاف ، عن الذين يرضعون من الثدي . أما تشنج الحنجرة ، فلا يشاهد عند الأطفال الذين يعتمدون على رضاعة الثدي .

هذه الفروق و غيرها، تفسر لنا نسبة الوفيات عند الأطفال الذين يعتمدون الإرضاع الصناعي عن نسبة وفيات إخوانهم الذين يرضعون من الثدي بمقدار أربعة أضعاف رغم كل التحسينات التي أدخلت على طريقة إعداد الحليب في الطرق الصناعية ، وعلى طريقة إعطائه للرضيع (١) - ثم ان الأبحاث المعاصرة قالت ان المدارك العقلية عند الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم هي أعلى من غيرهم وكلما زادت مدة تلك الرضاعة كلما زادت وقويت تلك المدارك . (٢) أما عن الأم فقد ثبت علمياً أن الرضاعة الطبيعية تعود على الأم بقلة احتمال الإصابة بسرطان الثدي ، كما ثبت أيضاً أن الرحم سرعان ما يعود إلى وضعه الطبيعي بعد الولادة بسبب الرضاعة الطبيعية ذلك أن امتصاص الثدي يؤدي إلى إفراز هرمون من الغدة النخامية يؤدي لانقباض الرحم ، وكذلك يعد الإرضاع الطبيعي من أهم الوسائل لمنع الحمل (٣) . وأضف لذلك كله الجانب العاطفي بين الطفل وأمه .

(١) د. قوقز ، مع الطب ، مرجع سابق ٩٩-١٠١

(٢) د. متولي الموسوعة الذهبية، مرجع سابق ص ٥٠٨

(٣) مارديني موسوعة الإعجاز العلمي ، مرجع سابق ٢٨٥

المطلب الثالث : الوضوء والغسل

كلام ابن عاشور :

يقول ابن عاشور في بيان بعض الفوائد الصحية للوضوء والغسل في تفسير قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا...﴾ الآية [المائدة] :

" . . . والحكمة في مشروعية الغسل النظافة، ونيط ذلك بأداء الصلاة ليكون المصلي في حالة كمال الجسد، كما كان حينئذ في حال كمال الباطن بالمناجاة والخضوع. ومن أبداع الحكم الشرعية أنها لم تنط وجوب التنظيف بحال الوسخ لأن مقدار الحال من الوسخ الذي يستدعي الاغتسال والتنظيف مما تختلف فيه مدارك البشر في عوائدهم وأحوالهم ، فنيط وجوب الغسل بحالة لا تنفك عن القوة البشرية في مدة متعارف أعمار البشر، وهي حالة دفع فواضل القوة البشرية، وحيث كان بين تلك الحالة وبين شدة القوة تناسب تام، إذ بمقدار القوة تندفع فضلاتها، وكان أيضا بين شدة القوة وبين ظهور الفضلات على ظاهر البدن المعبر عنها بالوسخ تناسب تام، كان نوط الاغتسال بالجنابة إناطة بوصف ظاهر منضبط فجعل هو العلة أو السبب، وكان مع ذلك محصلا للمناسبة المقتضية للتشريع، وهي إزالة الأوساخ عند بلوغها مقدار يناسب أن يزال مع جعل ذلك مرتبطا بأعظم عبادة وهي الصلاة، فصارت الطهارة عبادة كذلك، وكذلك القول في مشروعية الوضوء، على أن في الاغتسال من الجنابة حكمة أخرى، وهي تجديد نشاط المجموع العصبي الذي يعتريه فتور باستفراغ القوة المأخوذة من زبد الدم، حسبما تفتن لذلك الأطباء فقضيت بهذا الانضباط حكم عظيمة . " (١)

كلام المعاصرين :

و"يقرّر العلم الحديث أن هذه الآية الكريمة تظهر لنا علاقتها بالطب ولاسيما الطب الوقائي للإنسان من الأمراض الجلدية التي يتعرض لها الإنسان إذا لم ينظف أعضاء جسمه وبخاصة المعرضة للعوامل الجوية وما فيها من أتربة وجراثيم وغازات ضارة، ولا شك أن

(١) ابن عاشور التحرير ١٣٧/٤

الوجه والأيدى والأرجل هي أكثر أجزاء الجسم تعرضا للتلوث والتأثر بهذه الميكروبات وهي تعد بملايين الملايين في كل سنتيمتر مكعب من الهواء، وأن الوضوء خمس مرات في اليوم لا يترك مطلقا أي ذرة على الجسم يخشى منه الضرر وهكذا نرى آيات الله سبقت الحكمة القائلة بأن الوقاية خير من العلاج " (١)

أما عن الغسل من الجنابة فتبين الدراسات الحديثة أن العلاقة الجنسية وقذف المنى يؤدي الى فتور واسترخاء سببه وهن شديد في الأعصاب ، فعند حصول الزوجين للقذف واللذة وحصول توسع في الأوعية الدموية المحيطة يؤدي بصاحبه لفقدان قسط كبير من النشاط العقلي والاعتسال ينبه الشبكات العصبية الحسية لإيقاظ الجهاز العصبي فينشط الدورة الدموية ويعيد للجسم نشاطه وحيويته ، ثم إن التوجيهات الصحية تدعو إلى الاعتسال عقب كل مجهود عصبي كبير (٢) . ومن فوائد الغسل بعد الجماع تخفيف الاحتقان الدموي في الجلد والأعضاء التناسلية مما يدفع الدم إلى أعضاء الجسم الهامة خاصة القلب والدماغ . (٣)

تعقيب :

فكلام ابن عاشور صحيح علميًا لكنّ العلم فصلّ في ذلك وذلك شأن ابن عاشور على الأعمّ الأغلب ، حيث يذكر القضية العلميّة دون تفصيل أو تطويل لأنه ضمن تفسير للقرآن الكريم .

(١) محمد إسماعيل ، معجزة القرآن العلمية ، مصدر سابق ص ١١٤

(٢) د. متولي ، الموسوعة الذهبية ، مصدر سابق ٩٠٤

(٣) دقوقز ، مع الطب في القرآن ، مصدر سابق ١٢٢

المطلب الرابع : تحريم اللواط

كلام ابن عاشور :

ويقول عن أضرار اللواط عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ

النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف] " . . . ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة

وإسرافاً أنه يشتمل على مفسد كثيرة: منها استعمال الشهوة الحيوانية المغرورة في غير ما غرزت عليه، لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النوع، ولأنه يغير خصوصية الرجولة بالنسبة إلى المفعول به إذ يجعله آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معاً، ولأنه مفض إلى قطع النسل أو تقليله، ولأن ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له. " (١)

كلام المعاصرين :

يبين ابن عاشور أنّ اللواط سبب للضرر والأمراض لكنه لم يفصل ، على أن العلم الحديث يقول : " إن في جريمة اللواط من الأخطار الصحية لفاعلها مثل ما يصيب الزناة من أمراض جنسية خبيثة يصعب البرء منها مثل الزهري والسيلان والقرحة والجرب كما أنه يفقد الإنسان السيطرة على عملية التبرز فيحدث منه عن غير إرادة" (٢) ، ومرد ذلك "ارتخاء عضلات المستقيم أو تمزيقها . (٣) أضف الى ذلك مرض نقص المناعة المكتسب الايدز (٤) أضف لذلك الجانب النفسي للوطي الذي يشعره دائماً ببعده عن معاني الرجولة .

تعقيب :

يتبين من هذا أنّ ابن عاشور اكتفى بالإشارة إلى وجود أمراض تقع بسبب هذا الشذوذ على أنّ العلم بين هذه الأمراض وفصل .

(١) ابن عاشور / التحرير ١٨٠/٨

(٢) محمد اسماعيل معجزة القرآن ، مصدر سابق ١٢١

(٣) د قوقز ، مع الطب ، مصدر سابق ١٧٧

(٤) د. القضاء ، عبد الحميد ، (٢٠٠٧م) قوم لوط في ثوب ط ١ ص ٦٦ طبعة جمعية العفاف الأردن .

تفسير بعض الآيات الكونية التي لم يفسرها ابن عاشور بتفسير علمي

اكتشف العلم الحديث بعض الحقائق العلمية التي فسرت بها بعض الآيات التي لم يفسرها ابن عاشور بتفسير علمي ومنها :

قول الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات ٤٧]

فقد فسّر ابن عاشور التوسعة هنا بالمجاز فاستُعيرَ معناها للوفرة في أشياء مثل الأفراد مثل عُمومها في وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ [الأعراف: ١٥٦] ، وَوَفَّرَهُ الْمَالِ مِثْلَ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ [الطلاق: ٧] (١)

والعلم الحديث اكتشف أنّ الكون يتسع ويتمدد والمجرات تتباعد نتيجة هذا التوسع ، ويدلُّ هذا التباعد بين المجرات على أنها جميعها كانت في حيز واحد ثم اعترأها انفجار عظيم حيث كانت المادة فيه منضغطة في حيز صغير ذي كثافة عالية وقد تأكد العلماء بعد ذلك من هذا الأمر من خلال أمور أهمها اكتشاف إشعاع الخلفية السماوية " (٢)

ومن الآيات أيضا قول الله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

حُجٌّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران] فقد فسر ابن

عاشور الآيات البينات بأنها ما يسره الله لسكان الحرم وزائريه من طرق الخير، وما دفع عنهم من الأضرار . . . وكذلك تأمين وحشه مع افتتان العرب بحب الصيد. ومنها ما شاع بين العرب من قصم كل من رآه بسوء . . . ومنها ما شاع بين العرب وتوارثوا خبره أبا عن جد من نزول الحجر الأسود من السماء . . . ومنها تيسير الرزق لساكنيه مع فحولة أرضيه، وملوحة مائه. (٣)

(١) ابن عاشور ، التحرير ١٦/٢٧

(٢) بحث أ د عبد الرحمن عباد من " الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، المؤتمر العلمي الثالث للإعجاز في القرآن الكريم ، فلسطين ، غزة ، مطابع الجراح ط١-٢٠٠١-١٤٢٢ ص ٤٠٩

(٣) ابن عاشور ، التحرير ١٧/٤

وبيّن الدكتور الفاضل زغول النجار أنّ فيه من الآيات آياتٍ علميّة منها : توسطه من اليابسة التي تتوزع حوله توزعا منظما وأنّ قد اكتُشِف في عام ١٩٧٥م ، ومنها انعدام الانحراف المغناطيسي عند خط مكة المكرمة (٩٠٨١٧) شرقا ، ووجود أركان الكعبة المشرفة في الاتجاهات الأصلية الأربعة تماما ، وكذلك تفجّر عين زمزم وسط صخور ناريّة ومتحولة مصمتة ، والتحقّق من الطبيعة النيزكيّة للحجر الأسود . (١)

ومن الآيات كذلك قول الله تعالى : ﴿ وَكَوَفَّحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ (١٤) لِقَالُوا

إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ [الحجر]

حيث يشير ابن عاشور إلى أنّ المقصود بالآية هم الكفار الذين لو فتح الله عليهم بابًا من السماء حين سألوا آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، أي يطلب من الرسول فأتصلوا بعالم القدس والنفوس الملكيّة ورأوا ذلك رأي العين لاعتدروا بأنّها تخيلات وأنهم سحرُوا فرأوا ما ليس بشيءٍ شينًا. (٢)

وبيّن الدكتور زغول النجار أنّ الآية فيها ثلاث لمحات إجازيّة :

الأولى : أنّ هذا الكون بناء محكم تملؤه المادة والطاقة ولا يمكن اختراقه إلا عن طريق أبواب تفتح وهو ما أكدته الآية .

الثانية : أنّ العروج سير الجسم في خط منحن وقد ثبت أنّ حركة الأجسام في الكون لا يمكن أن تكون في خطوط مستقيمة نظراً لانتشار المادة والطاقة في الكون .

الثالثة : أنّ طبقة النور وحزام النهار في نصف الأرض المواجه للشمس لا يتعدى سمكه ٢٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر وإذا ارتفع الإنسان فوق ذلك فإنه يرى الشمس قرصاً أزرق في صفحة سوداء حالكة السواد . . . (٣)

(١) انظر أ.د. النجار تفسير الآيات الكونيّة ١ / ١٤٩-١٥٠

(٢) انظر ابن عاشور التحرير ٢٦/١٤

(٣) انظر أ.د. النجار تفسير الآيات الكونيّة ١ / ٤٣٧-٤٤٢

الخاتمة . . .

- بعد هذا التطواف في حديقة القرآن الغناء ، من خلال تفسير العالم الكبير ابن عاشور مسلطاً الأضواء على تفسير الآيات الكونية أخرج بنتائج مفادها :
- (١) إن تفسير الآيات الكونية بمنهج علمي مضبوط بضوابط أصيلة هو ضرورة ملحة في العصر الحالي .
- (٢) أشارت الدراسة إلى عدد من الدراسات السابقة المتعلقة بهذه الدراسة وبأن هذه الدراسة جاءت لتفارقها بمفارقات متعددة على رأسها اهتمام هذه الدراسة فقط بالآيات الكونية التي تمثل الجانب العلمي عند ابن عاشور ودراسته بعد استقراء الكتاب كاملاً .
- (٣) بينت الدراسة أن ابن عاشور قد أصاب المنهج السوي في تفسيره للآيات الكونية وذلك لمايلي:

أولاً : أنه كان ممن عني بإبراز الجانب العلمي في تفسير الآيات الكونية من غير إسهاب ممل ولا تلخيص مخل، ذلك أنه يذكر الحقيقة العلمية التي تصلح لأن تفسر بها الآية ، ثم يحيل إلى كتب الاختصاص ولم يجعل كتابه كتاب علوم أو ما شابه .

ثانياً : أن تفسيره العلمي للآيات الكونية لم يخرج فيه عن دلالات مفردات القرآن اللغوية وقد بينت الدراسة ووقفت على ذلك بالتفصيل ببيان قيمة كلام ابن عاشور وأين هو من معاجم اللغة .

ثالثاً : أن ابن عاشور لم يعارض بتفسيره العلمي تفسيراً منقولاً ولو في آية واحدة .

رابعاً : تبين بالمقارنة بين تفسير ابن عاشور والدراسات العلمية المعاصرة صحة كلام ابن عاشور العلمي في الأغلب إلا في القليل حيث يضيف العلم الحديث أحيانا بعض الكلام أو يستدرك استدراقات ، فلا تعدو المفارقة إلا أن تكون إجمالاً هنا وتفصيلاً هناك ، ولعلني أعتذر بهذا عن ابن عاشور بأنه كان يتكلم ضمن إطار تفسير القرآن الكريم فابن عاشور لم يكن مطلوباً منه التوسع فهو يذكر القضية بإيجاز غير مخل ومن ثمّ يحيل إلى كتب الاختصاص ، وكذلك فإنّ بعض الاكتشافات جاءت بعد عصر ابن عاشور لذا لم يذكرها .

٤) بينت الدراسة نظرة ابن عاشور الشمولية أحيانا بحيث تتسع الآية لتشمل أكثر من تفسير أحيانا كما كان في تفسير المراد بفتق الرتق .

٥) بينت الدراسة عدم إغفال صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان بعرض ما سماه ابن عاشور " حظ السابقين من الآية " حيث يذكر التفسير العلمي للآية ثم يذكر كيف فهم السابقون الآية .

٦) بينت الدراسة أن ابن عاشور كان عالماً موسوعياً قد برز في جميع الجوانب العلمية حيث برز في علم الفلك وعلوم الأرض والطب وعالم الطير والحيوان . . .

وأذكر هنا بعض التوصيات التي خرجت بها بعد دراستي هذه وهي :

- ١- دراسة أثر المفردة القرآنية في توجيه التفسير العلمي .
 - ٢- دراسة موقف ابن عاشور من الفرق الإسلامية .
 - ٣- دراسة الإسرائيليات في تفسير ابن عاشور .
 - ٤- المنهج التربوي في تفسير التحرير والتنوير .
 - ٥- النوادر والملح في تفسير التحرير والتنوير .
 - ٦- فقه اللغة في تفسير ابن عاشور .
 - ٧- ما تفرد به ابن عاشور من المناسبات بين الآيات والسور .
 - ٨- دراسة تتبعات وتعقيبات ابن عاشور على الزمخشري .
 - ٩- التفسير العلمي هو الطريق إلى دخول عقول الناس مسلمين وغير مسلمين ممن لا يحاوروا إلا بلغة العلم الحديث ، فهو يُبرزُ إعجاز القرآن وصلاحه لكل زمان خاصة إذا سار ضمن المنهج السوي ؛ فمن هذا الباب أدعو لدراسات أعمق وأشمل وأدق في جانب التفسير العلمي وأن تكون ممّن هم أهل لذلك .
- ثم إنني في نهاية هذا العمل أدعو الله تعالى بالقبول ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما واغفر لنا ولمشايعنا ، وتقبل منا ومنهم . . .

والحمد لله رب العالمين

فهرس الأحاديث الشريفة . . .

١٧١	" إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة "
٢٧٦	" إذا سبق ماء الرجل أشبه المولود أباه . . . "
٢٨٦	" إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكا . . . "
٢٨٧	" اسقه عسلا". فذهب فسقاه عسلا . . . "
٢٨٧-٢٨١	" إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة . . . "
٨٩	" أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية . . . "
٢٧٩	" إِنَّ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَبْيَضٌ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ . . . "
٧٨	" إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش . . . "
٢٦٧	" تغتسل إذا أبصرت الماء . . . "
٣٠	" حَظَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَثَرِ سَمَاءِ . "
٨٩	" خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام . . . "
٢٤٣	" عليكم بالشفاء بين العسل والقرآن "
٢٤٣	" الشفاء في ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم . . . "
١٧٢	" فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ كَمَا بَيْنَ . . . "
٣٩	" كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ . . . "
٢٣	" ما من الأنبياء نبي إلا أوتي أو أعطي من الآيات . . . "
١٢١	"من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه من . . . "

Summary

Ababneh, Ahmed Ibrahim :

The objective of this study is to highlight the exegesis of cosmic verses in tahreer wa al tanweer by ibn ashour . In the tenth introduction, Ibn Ashour shed light on the scientific approach in the Holy Quran and considered it as miraculous aspect proving this with evidences that justified his own approach.

I noticed that he introduced many scientific matters in so many “ verses”
– Ayah

And this deserved to be discussed. Sheikh Ibn AShour is besides being temporary and witnessed the new scientific discoveries, he is one of those specialized in Shari science which has the science of explanation as the major part of it and this affects the production of an acceptable scientific explanation.

The importance of the study lies in that it is an applied study and not a theoretical one. Ibn Ashour’s explanation has been completely investigated and his scientific explanation has been analyzed through critical study in the sense of science and linguistics taking into consideration the evidence of any of the Quran statements and its effect on the scientific explanation far from excess or negligence in the scientific explanation of the Quran. This study appears in a time when there is a pressing necessity to point out the miraculous side of the Quran in a way that all the world can understand and accepted by Arabs and Muslims whose language is poor. In a time where too many scientific explanations have come out with misleading explanations and which are sometimes faulty.

This research introduces the definition of scientific explanation – on the terms of language and semantics, single or compound and the chosen opinions of specialists in addition to introducing Ibn Ashour and his explanation.

The first chapter is set out for talking about the description of skies and their contents. The chapter included subdivisions in which the first talked about the meaning of skies, its creation and duration and the second discussed the its description, whereas the third is about the sun and the moon and what they included. The fourth talked about the planets and stars.

The second chapter talked about the Earth, its creation and what it included.

The first subdivision talked about the Earth, its description and its different stages.

The second talked about mountains, their creation, colours and how they go as fast as clouds and how they will be in the other life. The third one was about seas, water and also handled many other matters including how they are made obedient to people , their waves and barriers and their state in the other life. The fourth was about the atmosphere and what related to water.

The third chapter was about scientific miracles related to animals. birds, insects and plants. The first subdivision talked about matters related to edible and non edible animals. The second talked about birds and the secret of holding them the sky and also talked about what is special about some birds and what they have been gifted by God. The third talked about insects like bees, ants and butterflies...etc. The fourth talked about scientific matters related to plants and the factors that affect them and some species of plants and their advantages and characteristics.

The fourth chapter was about the creation of mankind and included many subdivisions: The first was about the creation of mankind – the origin and the branch and the developing phases of each of them. The second was about the characteristics of the parts of human body and includes more various matters.

The third talked about Quran scientific wise sayings regarding food and drinks and also general behavior.

The conclusion included important outcomes followed by recommendations deduced by the researcher which could be the subject of a coming research and future studies.

قائمة المصادر والمراجع . . .

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) الألوسي ، شهاب الدين محمود ابن عبد الله ، (١٤١٥) ، ط ١ ، دار الكتب العلمية بيروت.
- (٣) د. البار ، محمد علي (١٩٨٤م) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ط ٥ ، الدار السعودية للنشر.
- (٤) بازرة ، علي سليمان (٢٠٠٨م) ، سنريهم آياتنا في الأفاق ط ١ . جائزة دبي لحفظ القرآن الكريم .
- (٥) البخاري ، محمد بن إسماعيل (١٤٢٢) ، الجامع الصحيح ، (تحقيق : محمد بن زهير الناصر ط ١، دار طوق النجاة .
- (٦) د. بري ، حواس ، ٢٠٠٢م ، المقاييس البلاغية في التحرير والتنوير ، ط ١، المؤسسة العربية ، بيروت .
- (٧) د. بطاينة ، بركات عطوان ، (٢٠٠٣م) ، مقدمة في علم الفلك ط ١ ، دار المسيرة عمان.
- (٨) البغوي ، الحسين بن محمود ، (١٩٩٧م) معالم التنزيل ، تحقيق : محمد د النمر ، ط ٤ . دار طيبة .
- (٩) البقاعي، إبراهيم بن عمر ، (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ط دار الكتب العلمية بيروت .
- (١٠) بوكاي ، موريس ، (١٩٨٧م) ، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، ترجمة الشيخ حسن خالد ، ط ٢ ، المكتب الاسلامي بيروت .
- (١١) البيضاوي ، عبد الله بن عمر ، ١٩٩٨م ، أنوار التنزيل ، ط ١ ، دار إحياء التراث ، بيروت .
- (١٢) الترمذي ، محمد بن عيسى (١٩٧٥م) ، سنن الترمذي (تحقيق : محمد شاکر ومحمد فؤاد عبد الباقي) ، ط ٢ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر.
- (١٣) الجاعودي ، تاج الدين (١٩٩٣م) ، الإنسان هذا الكائن العجيب، ط ١
- (١٤) ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي (١٤٢٢) ، زاد المسير ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط ١ ، دار الكتاب العربي بيروت
- (١٥) الحاكم ، محمد بن عبد الله ، (١٩٩٠) المستدرک علی الصحیحین ، تحقيق : مصطفى عبد القادر ، ط ١ دار الكتب العلمية بيروت

- ١٦) د. أبو حجر ، أحمد عمر ، (١٩٩١م) ، التفسير العلمي للقرآن في الميزان ، ط ١ ، دار قنتيبة بيروت .
- ١٧) حسب النبي ، د. منصور محمد ، الكون والإعجاز العلمي للقرآن ، القاهرة ، دار الفكر العربي ط٢- ١٩٩١ .
- ١٨) حسن ، ابراهيم ، (١٩٨٠ م) ، ظواهر جغرافية في القرآن الكريم ، ط١ ، جمعية عمال المطابع ، الأردن
- ١٩) أبو حيان ، محمد بن يوسف ، (١٤٢٠) ، البحر المحيط ، تحقيق لطفي محمد ، ط دار الفكر لبنان
- ٢٠) الخولي ، أمين (١٩٨٢) ، التفسير نشأته وتدرجه تطوره ، ط دار الكتاب اللبناني .
- ٢١) د. دياب ، عبد الحميد ، ود. قوقز ، احمد (١٩٨٢م) ، مع الطب في القرآن ط٢ مؤسسة علوم القرآن دمشق .
- ٢٢) د. الذهبي ، محمد حسين ، التفسير والمفسرون ط دار الأرقم بيروت لبنان
- ٢٣) الراغب ، الحسين بن محمد ، (٥١٤١٢) ، المفردات ، ط١ ، ط دار القلم دمشق
- ٢٤) الراغب ، الحسين بن محمد ، (١٩٨٤م) ، مقدمة جامع التفسير ، تحقيق د. احمد فرحات ط ١ ، ، دار الدعوة الكويت
- ٢٥) الرازي ، محمد بن عمر ، (٢٠٠٠م) مفاتيح الغيب ، ط١ - دار الكتب العلمية بيروت .
- ٢٦) الراوي ، عبد الوهاب (٢٠٠٨م) معجزات القرآن العلمية في الإنسان مقابلة مع التوراة والإنجيل ، ط١ ، دار العلوم، عمان، الأردن
- ٢٧) رجا ، غالب محمد (٢٠٠٣م) ، الماء في القرآن الكريم ، ط١ ، دار الزمان، المدينة النورة
- ٢٨) رضا محمد رشيد ، ١٩٩٠م ، تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،
- ٢٩) رفيق ، محمد ، ١٩٧٩م ، أمراض العيون ، ط٣ ، ص١٥ ، دار المعرفة بيروت لبنان
- ٣٠) د. الرومي ، فهد ، (٢٠٠٢م) ، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ، ط٤ ، دار الرشيد الرياض
- ٣١) الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، (١٩٩٦م) ، مناهل العرفان ، تحقيق محمد الزرقا ، ط١ دار الفكر
- ٣٢) الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله ، (١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م) تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ط١ ، دار إحياء الكتب العربية ، سوريا
- ٣٣) الزركلي ، خير الدين بن محمود ، ٢٠٠٢م ، الأعلام ، ط٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت

- ٣٤) الزمخشري ، محمود بن عمر (١٤٠٧) ، الكشاف ، ط٣ دار الكتاب العربي بيروت .
- ٣٥) الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو ، (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨) أساس البلاغة تحقيق: محمد باسل عيون السود ، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان
- ٣٦) د. السعدي ، داود ، (١٩٩٧م) ، أسرار الكون في القرآن ط١ دار الحرف العربي.
- ٣٧) أبو السعود ، محمد بن محمد ، إرشاد العقل السليم ط١ دار إحياء التراث العربي لبنان
- ٣٨) السمين الحلبي ، أحمد بن يوسف ، الدر المصون ، ط١ دار القلم دمشق
- ٣٩) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، (٢٠٠٣م) ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق : د. محمود قيسية ، ط١ مؤسسة النداء الإمارات .
- ٤٠) الشاطبي ، ابراهيم بن موسى ، الموافقات في أصول الفقه ، تحقيق ابراهيم اللخمي ، ط١ دار المعرفة بيروت
- ٤١) أبو شام ، كريمة يوسف (٢٠٠٨م) ، الإعجاز التشريعي والعلمي في آيات الطعام والشراب في سورة المائدة والأنعام ط١ دار عمار عمان
- ٤٢) الشامي ، خالد بن أحمد ، ٢٠٠٥ م ، بيان موقف شيخ الإسلام محمد الطاهر ابن عاشور التونسي من الشيعة من خلال تفسيره التحرير والتنوير ط١
- ٤٣) الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد (١٩٩٥م) ، أضواء البيان ، ط١ دار الفكر بيروت لبنان
- ٤٤) الشوكاني ، محمد بن علي (١٤١٤ هـ) ، فتح القدير ، ط١ دار الكلم الطيب وابن كثير- دمشق ، بيروت
- ٤٥) الصوفي ، ماهر ، آيات الله في الروح والنفس والجسد ، ط١ دار الرضوان .
- ٤٦) د . الطائي ، محمد باسل ، علم الفلك و التقاويم ، لبنان ، دار النفائس ط١-٢٠٠٣ م- ١٤٢٤ هـ ،
- ٤٧) د. الطائي . محمد باسل . مدخل إلى علم الفلك ، لبنان ، دار النفائس ط١-٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ ،
- ٤٨) الطبري ، محمد بن جرير (٢٠٠٠) ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق محمود شاعر ، ط١ دار الرسالة
- ٤٩) ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد ، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ، التحرير والتنوير ط١ مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان
- ٥٠) أ.د عباس ، فضل ، ٢٠٠٤ م إعجاز القرآن الكريم ، ط٥. دار الفرقان الأردن

- ٥١) أ د عبد الرحمن ، عباد، (٢٠٠١-١٤٢٢) " بحث ضمن كتاب : الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، المؤتمر العلمي الثالث للإعجاز في القرآن الكريم ، ط١ مطابع الجراح فلسطين ، غزة .
- ٥٢) د. العبيدي ، خالد (٢٠٠٥م) ، سلسلة :ومضات إعجازية في القرآن والسنة ، الأرض ، ط١ دار الكتب العلمية بيروت
- ٥٣) د. عرابي ، رجا عبد ، (٢٠٠٦م) ، دراسة الإعجاز في سورة الطارق ، ط١ دار القبس سوريا
- ٥٤) عز الدين ، توفيق محمد (١٤٠٧-١٩٨٦) ، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث ، ط دار السلام ، مصر
- ٥٥) ابن عطية ، عبد الحق بن غالب (١٤٢٢هـ) المحرر الوجيز ، ط١ دار الكتب العلمية
- ٥٦) د. العبيدي ، خالد فائق (٢٠٠١م) ، المنظار الهندسي في القرآن الكريم ، ط١ دار المسيرة الأردن
- ٥٧) د. الغالي ، بلقاسم (١٩٩٦) ، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور ، ط١ دار ابن حزم ، بيروت .
- ٥٨) غصن ، محمد ، (٢٠٠٦م) ، أسرار السماوات والأرض في القرآن ط١ دار العلم للملايين ، لبنان .
- ٥٩) الغمراوي ،محمد أحمد (١٩٧٣م) ، الإسلام في عصر العلم ، دار السعادة القاهرة
- ٦٠) ابن فارس ، أحمد ، (٢٠٠٠م) ، مقاييس اللغة ، ط١ ، اتحاد الكتاب العرب
- ٦١) د. فواز نصر- آيات في علوم الفضاء ، مؤسسة غبور للطباعة دمشق ١٩٩٩
- ٦٢) القاسمي ، محمد جمال الدين بن محمد ، ١٤١٨ ، محاسن التأويل ، ط١ دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٦٣) ابن قتيبة. عبد الله بن مسلم (١٩٧٨م) ، غريب القرآن ، ط دار الكتب العلمية
- ٦٤) القصاب ، ساطي ، حمادي(١٩٨٦) تاريخ تونس المعاصر ، ط١ الشركة التونسية
- ٦٥) د. القضاء ، عبد الحميد ،(٢٠٠٧م) قوم لوط في ثوب جديد ط١ جمعية العفاف الأردن.
- ٦٦) القرطبي ، محمد بن أحمد (٢٠٠٠م) ،الجامع لأحكام القرآن ،تحقيق :سالم البديري ط١ دار الكتب العلمية
- ٦٧) قطب ، سيد ١٤١٢ ، في ظلال القرآن ، ط١٧ ، دار الشروق ، بيروت /القاهرة

- ٦٨) ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (١٩٩٩) ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي سلامه ، ط٢ دار طيبة للتوزيع والنشر
- ٦٩) لجنة من علماء الأزهر ، (١٩٩٥م) ، المنتخب من تفسير القرآن الكريم ، ط١٨ ، مؤسسة الأهرام ، مصر
- ٧٠) ابن ماجه ، محمد بن يزيد ، السنن ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء التراث
- ٧١) مارديني ، عبد الرحيم (٢٠٠٢م) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، ط١ دار المحبة دمشق .
- ٧٢) المباركفوري ، عبد الرحمن ، تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذي ، ط دار الكتب العلمية بيروت .
- ٧٣) د.متولي ، احمد مصطفى الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية – دار ابن الجوزي ط١ القاهرة ٢٠٠٥
- ٧٤) ا.د. مجيد محمود جراد (٢٠٠٨ – ١٤٢٨) ، المدخل إلى علم الفلك ، ط دار دجلة الأردن والعراق
- ٧٥) مسلم ، أبو الحسن القشيري ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ دار إحياء التراث العربي ، بيروت
- ٧٦) د. المليجي ، عبد الستار (٢٠٠٥) علم النبات في القرآن الكريم ط الهيئة المصرية للطباعة مصر
- ٧٧) ابن منظور . محمد بن مكرم ، (١٤١٤) ، لسان العرب ، ط١ دار صادر ، بيروت ، لبنان .
- ٧٨) أ.د. النجار ، زغلول ، (٢٠٠٧م) ، تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ، ط١ ، مكتبة الشروق الدولية .
- ٧٩) أ.د. النجار ، زغلول ، (٢٠٠٥م) السماء في القرآن ، ط٣ دار المعرفة ، بيروت .
- ٨٠) أ.د. النجار زغلول ، (٢٠٠٥) الأرض في القرآن ، ط١ دار المعرفة ، بيروت .
- ٨١) أ.د. النجار ، زغلول (٢٠٠٦م) ، الحيوان في القرآن ، ط١ دار المعرفة ، بيروت .
- ٨٢) أ.د. النجار ، زغلول (٢٠٠٧م) ، من آيات الإعجاز العلمي للقرآن (المفهوم العلمي للجبال في القرآن) ط٢ ، مكتبة الشروق .
- ٨٣) نخبة من العلماء الأمريكيين ، الله يتجلى في عصر العلم ، ترجمة د. الدمرداش سرحان ، دار التربية للطباعة والنشر بغداد العراق

- ٨٤) النسفي، عبد الله بن أحمد (١٩٩٨م)، مدارك التأويل، تحقيق: يوسف بديوي، ط١ دار
الكلم الطيب بيروت .
- ٨٥) نشواتي، محمد نبيل (١٤٢٨-٢٠٠٧م)، الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان وتفنيد نظرية
دارون، دار القلم دمشق،
- ٨٦) النووي، يحيى بن شرف (١٣٩٢)، المنهاج شرح صحيح مسلم، ط٢ دار إحياء التراث
العربي
- ٨٧) د. هميمي، زكريا، (٢٠٠١م) الإعجاز العلمي في القرآن، ط١ مكتبة مدبولي .
- ٨٨) وزارة الأوقاف الكويتية، (١٤٠٤-١٤٢٧م)، الموسوعة الفقهية الكويتية . دار السلاسل،
الكويت، دار الصفوة، مصر

This document was created with Win2PDF available at <http://www.daneprairie.com>.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.